ذكريات
II

يوسف الحكيم

بيروت ولبنان في عهد آل عثمان



دار النهار للنشر





بيروت ولبنان
في
عهد آل عثمان

ذكريات
II

يوسفُ الحكيم

بيروت ولبنان في عهد آل عثمان

الطبعة الرابعة



دار النهار للنشر

الطبعة الأولى ١٩٦٤
الطبعة الثانية ١٩٨٠

كلمة المؤلف

ان اهم ذكرياتي عن جبل لبنان يتصل بمشاهداتي ومعلوماتي وما اطلعت عليه اثناء وجودي كبير امناء حاكمه (رئيس القلم التركي) اوهانس باشا قيومجيان منذ بدء سنة ١٩١٣ فكنت بسبب مهام وظيفتي – واهمها تأمين الاتصال برقياً ومراسلة بالمرجع الاعلى مقام الصدارة العظمى في العاصمة ومخابرة الولايات المجاورة عند الاقتضاء – اكثر رجال الحكومة اللبنانية اطلاعاً على ظواهر الامور وبواطنها واشدهم اتصالاً بالحاكم بفضل ما اولانيه من كامل الثقة ومزيد الاعتماد .

كنت اقضي اكثر اوقات الفراغ اسوة ببعض الرفاق في مدينة بيروت حيث يقيم حاكم لبنان تبعاً للعرف الذي الفه معظم حكامه السابقين فتوفرت لي اسباب الاتصال بأركان حكومة الولاية وقضاتها وأكثر هؤلاء من خيرة زملائي في مسلكي القضائي السابق .

وكانت بيروت بصرف النظر عن فارق اوجه الارتبـــاط بالعاصمة هي من الوجهة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، بالاضافة الى الجوار ، الجزء الهام من لبنان يسكنها الكثيرون من ابنائه ويقصدها الالوف يومياً لمصالحهم الخاصة المتنوعة كما كان الجبل ولا يزال مصيفها الاوحد المفضل .

لذلك جمعت في هذا الجزء بين مفصل ذكرياتي عن جبل لبنان وموجزها عن بيروت ولا سيما في ما له ارتباط بينهما من حوادث واخبار وقسمت فصوله الى ثلاثة اقسام تضمن اولها نبذة عن موجز تاريخ لبنان منذ استيلاء آل عثمان على سورية (١٥١٦ م) مع تفصيل عن نظامه الخاص وحكامه وحياة شعبه في ميداني السياسة والاجتماع حتى اعلان الحرب الكبرى (١٩١٤) .

ويشمل القسم الثاني : ما انتاب لبنان اثناء الحرب حتى تاريخ القضاء على استقلاله (١٩١٥) .

والثالث : ١ً : حوادث الارهاب في عهد جمال باشا قائد الجيش المطلق الصلاحية في كامل المنطقة السورية الممتدة من حدود الاناضول شمالاً حتى حدود مصر جنوباً مع شبه الجزيرة العربية .

٢ً : ادارة المتصرفين الذين عينتهم الدولة العثمانية على مقتضى نظام الولايات حتى جلاء جيوشها وحكامها واحتلال الجيوش الحليفة البريطانية والفرنسية في تشرين الاول سنة ١٩١٨ .

ولا ارى حاجةً لتكرار ما قلته في مطلع الجزء الاول من « ذكريات الحكيم » من اني اتوخى بيان الحقيقة مجردة عن كل اعتبار سياسي او غيره وعلى الله الاتكال .

القسم الأول

لبنان المستقلّ إداريًّا
حتى بدء الحرب العالميّة الأولى ١٩١٤م

نبذة تاريخية

فتح السلطان سليم العثماني سورية سنة ١٥١٦ قاضياً على حكم المماليك وثبت في مقاطعة (اقطاعية) الشوف ، الامير فخر الدين المعني الاول .

وفي عهد السلطان سليمان ابن السلطان سليم (١٥٢٠) انقسمت سورية الى ثلاث ولايات : دمشق وطرابلس وحلب ؛ عدا جبل لبنان الذي كان يضم بيروت وصيدا في كثير من الازمان . ففي سنة ١٥٩٠ احسن الامير فخر الدين الثاني المعني ادارة شؤون مقاطعته وجمع ، بعد موافقة ولاة الامر العثمانيين ، بين جبل لبنان ومتصرفيتي بيروت وصيدا وحالف باقي امراء لبنان وضم اليه اقطاعياتهم ثم وسع حدود لبنان من جهاته الثلاث وجعل عاصمته دير القمر صيفاً ، وصيدا شتاءً ، وبنى في بيروت افخم القصور .

ولما توفي الامير احمد آخر الامراء المعنيين في مركزه دير القمر سنة ١٦٩٧ ولم يبق من سلالة المعنيين وريث من الذكور ، انتقل الحكم في لبنان الى الامراء الشهابيين بفضل صلة المصاهرة بين الاسرتين .

وفي منتصف الجيل الثامن عشر ضم الامير ملحم الشهابي الى امارته بلاد البقاع التي كانت ملحقة بولاية الشام في عهد واليها اسعد بك العظم الذي كان من اعظم ولاة ذلك الجيل احاطةً بمقتضيات ادارة البلاد من حزم وبطش في الطغاة وعطفاً على الاقليات والضعفاء ثم جعل الامير الشهابي مدينة بيروت مرفأ لبنانياً وعاصمةً شتوية .

ولما احتل حاكم بلاد صفد وعكا ، الشيخ ضاهر العمر ، مرفأ صيدا سنة ١٧٧٠ وتسلط على نابلس ويافا وبرزت مطامعه في التوسع ، استرضاه الامير منصور الشهابي بالمال وصرفه عن مدينة بيروت .

وفي سنة ١٧٧٥ عين احمد باشا الجزار والياً على صيدا ، فنقل مركزه الى عكا وضم

بيروت الى ولايته التي دامت ثلاثين سنة . وفي سنة ١٧٨٩ اقدم هذا الجزار على قتل الامير يوسف الشهابي في عكا وأحل محله في حكم لبنان الامير بشير الثاني الشهابي الملقب بالكبير فكان ابرز الامراء الشهابيين خيراً وشراً : كان عادلاً مستبداً في الشعب شديداً على الاقطاعيين منتقماً من اعدائه متمايلاً في سياسته بين الاتراك والمصريين والفرنسيين والبريطانيين . ولما احتل ابراهيم باشا المصري عكا سنة ١٨٣٠ بمساعدة الامير بشير ظلت بيروت وصيدا وصور متصرفيات تابعة لحكم الامير بشير وفي كل منها ممثل لابراهيم باشا .

وبعد ان غادر ابراهيم باشا سورية سنة ١٨٤٠ بفضل معاونة الدول الاوربية للدولة العثمانية في سياستها آنئذ ، اضطر حليفه الامير بشير الى التنازل عن الحكم واستسلم لمندوب الدولة في صيدا فخلفه الامير بشير الشهابي الثالث ولم يطل العهد بهذا حتى حدث في الشوف اضطرابات دامية امتدت الى ساحل بيروت . وقيل ان لوالي صيدا عبدالله باشا دخلاً في اضرام نارها بغية الغاء الامارة في لبنان وتحويلها الى ولاية عثمانية صرف كسائر الولايات ، فاقيل بشير الثالث من منصبه وانتهى عهد الحكم الاقطاعي العائلي وعين عمر باشا النمسوي الاصل التركي التابعية حاكماً على جبل لبنان ، ولكن حكمه لم يطل اكثر من ثلاثة اشهر بسبب احتجاج الزعماء من دروز ومسيحيين على تعيين غريب عن لبنان حاكماً عليه وتأييد الدول الاوربية وفي طليعتها فرنسا احتجاجهم مما حمل الدولة العثمانية على حل الخلاف بتقسيم جبل لبنان الى معاملتين ، شمالية يقوم على رأس ادارتها قائم مقام مسيحي وجنوبية يرئسها درزي على ان يكون والي صيدا مرجعاً لكليهما .

لم يسلم ذلك العهد من الفتن والدسائس بسائق اختلاف الزعماء والاقطاعيين وتدخل الوالي في كل شاردة وواردة وتنافس فرنسا وبريطانيا العظمى لاحراز النفوذ الاوفر . ثم عقب ذلك في فترات متقطعة اضطرابات دامية كان اشدها هولاً ما وقع سنة ١٨٦٠ في دير القمر والشوف والمتن ، ولم تسلم من مثلها دمشق فامتدت منها الى البقاع وزحلة وغيرهما وهكذا تغلبت السياسة الغاشمة سياسة التفريق بين ابناء الوطن الواحد على الوطنية الصحيحة وما تقتضيه من تعايش سلمي في ظل استقلال اداري ، الى ان تدخلت الدول الاوربية العظمى وفي مقدمتها فرنسا نصيرة جبل لبنان التاريخية التي ارسلت قطعاً من اسطولها الحربي الى ساحل بيروت ولبنان واضطرت الدولة العثمانية الى الاعتراف باستقلال جبل لبنان دون بيروت استقلالاً ادارياً بموجب نظام موقت وقعه سنة ١٨٦١ المشير فؤاد باشا موفد السلطان عبد المجيد ومندوبو فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا ثم اقر نهائياً مع بعض التعديل سنة ١٨٦٤ واشتركت ايطاليا في توقيعه .

الفصل الأول

جبل لبنان المستقل

حدوده وتقسيماته الادارية

اقتصر جبل لبنان بمقتضى نظامه الخاص، المشار اليه في نهاية البحث السابق ، على سبعة اقضية هي الكوره والبترون وكسروان والمتن والشوف وجزين وزحلة ومديريتين مرتبطتين مباشرةً بالحكم اسوةً بالاقضية وهما دير القمر والهرمل وكان كل من هذه الاقضية، عدا زحلة ، يشمل عدة مديريات فكانت حدود جبل لبنان طرابلس شمالاً وصيدا جنوباً والبقاع وبعلبك شرقاً ومدينة بيروت والبحر الابيض المتوسط غرباً .

التعليق : يتضح من هذه الحدود ان السياسة الغالبة ارادت خنق امتياز جبل لبنان وهو في المهد فحرمت اللبنانيين من السهول الخصبة التي تضمن لهم معيشتهم وقصرت جبلهم على الصخور العاتية حتى ان المعلقة التي لا يفصلها عن بلدة زحله سوى مجرى ماء بعرض لا يزيد عن ذراع كانت مركزاً لقضاء البقاع الواسع السهول الملحق بولاية سورية ولكن نشاط اللبنانيين تغلب على تلك الصعاب فجعلوا من جبلهم جنات تجري من تحتها الانهار .

صورة انتقاء الحاكم

يكون حاكم جبل لبنان مسيحياً عثمانياً برتبة وزير مرتبطاً مباشرةً بالصدر الاعظم ويعين بارادة سنية بناءً على انهاء الصدر الاعظم بعد موافقة الدول الاوربية العظمى الست الموقعة على نظام جبل لبنان ، لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد . ولا يجوز عزل الحاكم او نقله او مؤآخذته لامر من الامور الا باجماع رأي مجموعة الدول المشار اليها .

التعليق : لقد استمر العرف على ان لا يكون الحاكم من المنتمين الى المذهب الماروني الذي تعتنقه اكثرية اهل جبل لبنان ولا ارثوذكسياً فكان من الارمن او الروم الكاثوليك او اللاتين بينما كانت فكرة الاستقلال الاقليمي توحي في الغالب ان يكون الحاكم الاداري على مذهب اكثرية الايالة المستقلة كما كانت الحال في مصر وبلغاريا وجزيرة ساموس وكما طبقت على اقضية جبل لبنان ومديرياته فما هو سبب الابتعاد عن ان يكون حاكم لبنان مارونياً ؟

لقد قيل وهو الصواب بالنسبة الى ذلك العهد : ان الدولة العثمانية استندت في ذلك الى ان الحوادث الاليمة التي كان اشدها ما وقع بين العنصرين الكبيرين في الجبل الموارنة والدروز تستدعي ان يكون الحاكم غريباً عنهما وعن لبنان ايضاً فاكتفي بأن يكون مسيحياً لان اكثرية الجبل مسيحية وعلى مذهب لا ينتمي اليه احد من سكانه اي مذهب اقلية لا تشكل خطراً على غيرها من الطوائف وقد وافق هذا الاجتهاد رغبة بريطانيا العظمى التي اقامت نفسها حاميةً لحقوق الدروز بمقابلة حماية فرنسا حقوق الموارنة . وقد تأيد صواب هذه الفكرة بالموقف الحيادي بين الطوائف الذي وقفه جميع حكام جبل لبنان .

صلاحيات الحاكم

يستقل الحاكم في ادارة شؤون جبل لبنان وحفظ الامن والنظام وجمع السلاح من الاهلين اذا قضت الضرورة بذلك وجباية الضرائب ونصب القضاة وسائر الموظفين وعزلهم وتنفيذ الاحكام الا ما تعلق منها بعقوبة الاعدام فيتوقف على صدور الارادة السنية بشأنه بعد اقترانه بتصديق محكمة التمييز في العاصمة .

التعليق : من الامور الملحوظة انه لم يصدر في جبل لبنان حكم على احد بعقوبة الاعدام بخلاف ما كانت عليه الحال في غيره من الولايات وذلك بفضل الامن الذي كان مستتباً فيه وتجنب حكامه كل ما يوجب تدخل العاصمة في شؤونه الداخلية فخدموا بهذه الوسيلة لبنان وأراحوا الدولة العثمانية والدول الاوربية من عناء تصادم المصالح والنفوذ في هذا الشأن .

ان الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها حكام جبل لبنان بموجب هذا النظام قد نجحت كل النجاح بفضل المزايا العالية التي عرفوا بها وما اجماع ممثلي سبع دول عظمى متباينة السياسه والغايات على شخصية الحاكم سوى برهان قاطع على توفر تلك المزايا فيه وفي مقدمتها

العدل والحزم اللذان رافقا معظم حكام لبنان . وقد صح في ذلك ما قاله الفيلسوف جمال الدين الافغاني في العصر الغابر :

« لا يصلح لحكم الشرق الأ عادل مستبد » .

ان نهضة الشرق الاخيرة واقباله على العلم والعمل المثمر وشعور افراده كباراً وصغاراً بحقهم في حكم انفسهم بأنفسهم اسوةً بالغربيين لما جعل اكثريته تميل الى الاخذ بالنظم الديموقراطية الاشتراكية . اما درجة نجاح هذه النظم فرهونة برقي الشعب ويقظته وحسن اختيار ممثليه ومراقبتهم سير حكومته مراقبة نزيهة لا يشوبها الطمع والغرض الشخصي والنزعة الحزبية او الطائفية فهل وصلت بلادنا بعد الحربين العالميتين الى ما كانت ترجوه من الديموقراطية او الاشتراكية ؟ ام لا تزال بحاجة الى حاكم عادل نزيه حازم ومساعدين على مثاله لضمان حسن سير الامور في مختلف نواحي الدولة ؟

وبدهي ان الحكم الديموقراطي الاشتراكي اذا اقترن بالعدل والحزم ، كان افضل انواع الحكم لضمانه ، فوق المزايا المشار اليها ، حرية ابداء الرأي وهي اثمن ما في حياة الانسان .

مجلس الادارة

يساعد الحاكم في فرض الضرائب والاشراف على انفاقها مجلس ادارة ينتخب اعضاءه شيوخ الصلح في القرى والقصبات على اساس الاكثرية الطائفية في كل قضاء ثم اضيف الى شيوخ الصلح مندوبون عن المكلفين من الشعب باعتبار مندوب عن كل مئة مكلف اما في زحله فيختار كل خمسين مكلفاً مندوبهم .

التعليق : لم يؤخذ بعين الاعتبار عدد هذه الاكثرية فكان لقضاء الكوره ولا يتجاوز عدد اكثريته الارثوذكسية عشرة آلاف نسمة نائب واحد بينما كان نائب واحد ايضاً لقضاء البترون الذي تزيد اكثريته المارونية عن ثلاثين الفاً .

وعلى هذا الوجه كان نواب الاقليات في المجلس الاداري اكثر عدداً من نواب الاكثرية المارونية التي تؤلف اكثر من نصف سكان جبل لبنان فلم يكن لهذه الاكثرية سوى اربعة نواب عن البترون وكسروان والمتن وجزين بينما كان للدروز ثلاثة نواب وللارثوذكس نائبان ولكل من السنيين والجعفريين والروم الكاثوليك نائب واحد وفي بدء عام ١٩١٣ اضيف الى المجلس نائب ماروني عن دير القمر وجميع سكانها موارنة بينهم عدد قليل من الروم الكاثوليك .

لقد نسب تزويد الاقليات باكثرية النواب في المجلس الاداري ، الى مهارة المندوب التركي فؤاد باشا والمندوب البريطاني مستر لدفرون فقد ادرك هذان السياسيان ميل اكثرية السكان المارونية الى فرنسا وتفضيلها على سواها من الدول فلم يريا من الحكمة ان تتمتع باكثرية من النواب قد تساعد مع الزمن على فصل لبنان نهائياً عن جسم الدولة العثمانية .

ومما يستدعي تهنئة لبنان بمجلس ادارته في جميع ادوار استقلاله ادارياً انه ظل دوماً بعيداً عن النزعات الطائفية تسوده الروح الوطنية اللبنانية .

رؤساء الادارة

يجري تعيين رؤساء المصالح الادارية وجميع الموظفين في المركز والملحقات وعزلهم حين الاقتضاء من الحاكم على ان يكون قائم المقام في القضاء والمدير في الناحية على مذهب اكثرية سكانهما اما شيخ الصلح في القصبة او القرية فينتخبه المكلفون باداء ضريبة من اهلها .

وعلى هذا الاساس كان قائم مقام الكوره ارثوذكسياً وقوام المقام في اقضية البترون وكسروان والمتن وجزين ومدير دير القمر من الموارنة وقائم المقام في الشوف درزياً وفي زحله من الروم الكاثوليك ومدير الهرمل جعفرياً وعلى هذه القاعدة يعين سائر المديرين في النواحي المرتبطة بمراكز الاقضية .

اما في مركز الحكومة الرئيسية فكان من مقتضي العرف المستمر دون اي نص في النظام ان يختار الحاكم وكيلاً عنه في رئاسة المجلس الاداري من الموارنة ويختار لمديرية القلم التركي ارثوذكسياً ولمديريتي القلم العربي والقلم الاجنبي مارونيين ولمديرية الاوراق من الروم الكاثوليك ولرئاسة الدائرة الصحية والسجون مارونيين ويعهد بباقي الوظائف الى اكفاء من الطوائف اللبنانية الست .

ولما كان القلم التركي هو المولج بالمخابرات بين حاكم لبنان ومرجعه الاعلى الوحيد مقام الصدارة العظمى وسائر المقامات الحكومية من عسكرية وادارية في العاصمة والولايات المجاورة ، اعتبر مدير هذا القلم كبير امناء الحاكم كما هي حال المكتوبي في الولاية والوزارات وحال مدير التحريرات (الرسائل) في الألوية الملحقة بالولاية او المرتبطة مباشرة بمقام وزارة الداخلية . وقد اطلق على هؤلاء بعد زوال الحكم العثماني اسم الامين العام او الوكيل .

كان توزيع الوظائف على اساس الطائفية في جبل لبنان حائلاً دون وقوع النزاع بينها في هذا المضمار فكان التسابق على الوظيفة ينحصر في ابناء الطائفة الواحدة دون سواهم .

يحتم علي الواجب حين انشر ذكرياتي ان انوه بفضل توزيع الوظائف بين اللبنانيين على اساس الطائفية اي الدين والمذهب في ذلك العصر حين لم يغفل ممثلو الدول الموقعين على نظام جبل لبنان عن واقع الحال فلو ترك الامر للمواطنين انفسهم لسطت الاكثرية على مناصب الدولة الهامة وتركت الاقليات تشكو هضم حقوقها واهمال كفاءة ابنائها كما كان يجري في الولايات المجاورة وفي بيروت نفسها .

الجند اللبناني

الجند في لبنان من ابنائه دون سواهم لم يتجاوز عدده الالف في وقت ما الآ بعد سنة ١٩١٢ اذ بلغ الفاً ومئتين .

ان مهمة الجند اللبناني هي في الدرجة الاولى المحافظة على الامن بالاضافة الى مهام الضابطة الموكول امرها في الولايات الى دائرتي الدرك والشرطة .

يرئس الجند اللبناني ميرالاي (عميد ، كولونيل) يعاونه اربعة برتبة بكباشي (مقدم، قومندان) واثنان برتبة قول اغاسي (رائد ، ميجر) وضباط عديدون برتبة يوزباشي (قائد مئة ، نقيب ، أو رئيس ، كابتن) فما دون . يتم تعيين رئيس الجند والمقدمين باقتراح حاكم لبنان وموافقة ناظر (وزير) الحربية وصدور الارادة السنية. اما باقي الضباط والافراد فيعينهم الحاكم صاحب السلطة العليا في لبنان .

التعليق : (ا) – اثبتت الوقوعات في عهود حكام لبنان ان اقتراح كل منهم بشأن تعيين قائد الجند اللبناني الاعلى والمقدمين كان دوماً قرين القبول لدى المرجع الاعلى في العاصمة .

(ب) – استمر العرف على ان يكون قائد الجند الاعلى ماروني المذهب والمقدمون اثنان من الموارنة وواحد درزي وواحد ارثوذكسي والضباط من جميع الطوائف اللبنانية الست وهكذا الافراد .

رمز الجيش العثماني

كان للدولة العثمانية مفرزة من الجيش لا يزيد عدد افرادها عن الخمسين يرئسها ضابط

برتبة يوزباشي (رئيس ، نقيب) موضوعة تحت مطلق امر الحاكم دون ان يكون لها اية وظيفة خلاف ذلك .

كانت هذه المفرزة تقيم في ثكنتها العسكرية في بيت الدين المقر الصيفي لحكومة جبل لبنان وكانت تظهر في طليعة الجند اللبناني عند كل استعراض يجري في الاعياد الرسمية كعيد مولد جلالة السلطان وعيد جلوسه على العرش . ومما يتردد على ألسنة جميع اللبنانيين ان رجال هذه المفرزة من كبيرهم الى صغيرهم كانوا دوماً على جانب عظيم من التهذيب وحسن التدريب لم يبد منهم اية بادرة توجب التذمر او الشكوى في مختلف عهود الحكام رغم تبدلها بغيرها من طرازها مراراً عديدة .

القضاء العدلي

كان القضاء العدلي في لبنان يتألف من محكمة بدائية في مركز كل قضاء ومديرية تابعة للحاكم مباشرة ومحكمة استئنافية بدائرتيها الحقوقية والجزائية في مركز المتصرفية الرئيسي وكان يقوم في بادئ الامر حاكم فرد على رأس المحكمة البدائية يعاونه نائب عنه وتتألف كل دائرة من الدوائر الاستئنافية من رئيس وستة اعضاء من مجموع الطوائف اللبنانية. ثم اخذ لبنان بمبدأ تشكيل المحاكم في الولايات العثمانية وتطبيقه قانون اصول المحاكمات بالاضافة الى سائر القوانين وفي طليعتها الاحكام العدلية . وروعي في هذا التشكيل ان يكون رئيس محكمة البداية وممثلو النيابة العامة على مذهب الاكثرية في القضاء اما العضوان فعلى مذهب من يأتي في الدرجة التالية من الاقليات . ولما كان عدد الدعاوى المقامة لدى المحاكم في جبل لبنان قليلاً لم ير موجب للاخذ مجدداً بقاعدة الحاكم الفرد التي سارت عليها المحاكم العثمانية في العهد الدستوري .

كانت الدعاوى التجارية تنظر فيها محاكم بيروت حتى تاريخ صدور بروتوكول سنة ١٩١٢ الذي خول محاكم لبنان النظر في هذه الدعاوى بداية واستئنافاً اذا كانت قائمة بين لبنانيين دون سواهم

كان رئيس دائرة الحقوق الاستئنافية مارونياً ورئيس الدائرة الجزائية التي تفصل في الجنايات وما استؤنف اليها من الجنح درزياً مع المحافظة في كل منها على الاعضاء من الطوائف اللبنانية الست الاكثر عدداً من سواها . لذلك لم يكن بين القضاة ولا بين

موظفي الحكومة لاتيني المذهب ولا ارمني ولا انجيلي نظراً لضآلة عدد المنتمين الى هذه المذاهب في جبل لبنان .

كان المدعي العام لدى محكمة الاستئناف مارونياً يعاونه نائب ارثوذكسي وعدد من الكتبة من مختلف الطوائف اللبنانية .

حرصاً على استقلال القضاء بدأ القضاة اللبنانيون في مطلع عام ١٩١٣ يتمتعون بنفس الحصانة التي يتمتع بها امثالهم في الولايات فلا يستطيع الحاكم عزل احد منهم او اتخاذ اي اجراء تأديبي بحقهم الاّ بعد تحقيق يشترك فيه المجلس الاداري .

ان الاحكام الاستئنافية التي يطلب ذوو المصالح تمييزها ترفع الى محكمة التمييز في العاصمة .

ومع ان القضاة في جبل لبنان لم يكونوا من خريجي معاهد الحقوق فقد نبغ منهم اعلام حقوقيون وفقهاء وشراح ومؤلفون ، كالاساتذة سليم باز المدعي العام وجرجس صفا رئيس دائرة الحقوق وعباس حميه رئيس محكمة قضاء الشوف ومخايل عيد البستاني رئيس محكمة المتن وراجي ابي حيدر رئيس محكمة الكوره وغيرهم ممن فاقوا كثيرين من حاملي الشهادات العليا .

ميزانية الحكومة

كانت الضريبة (الاموال الاميرية حسب تعبير ذلك العهد) المفروضة على جبل لبنان في بدء استقلاله الاداري سبعة آلاف كيس اي خمسة وثلاثين الف ليرة عثمانية ذهباً وهي مجموع ضريبتي الاعناق والارزاق ، تصرف على ادارة حكومته ورواتب موظفيها وفتح الطرق وانشاء الجسور الى غير ذلك من النفقات الضرورية فان لم يكف المبلغ المذكور قامت الدولة العثمانية بسد العجز بما تدفعه من خزانتها ولذلك كانت تبعث الى لبنان بموظف مالي كبير يحمل لقب محاسب (محاسبجي) يعاونه موظفون لبنانيون يعينهم حاكم لبنان كسائر موظفي حكومته .

ظلت الدولة العثمانية تقوم بسد عجز موازنة حكومة جبل لبنان سنوياً حتى سنة ١٨٧٩ فقد اقترح حاكم ذلك العهد رستم باشا ، الاستغناء عن هذا المدد لامكان تداركه بواسطة فرض ضرائب اضافية محلية معينة معبر عنها بـ « المهملات» تصرف في سبيل كل اصلاح تستدعيه مقتضيات الادارة والامور النافعة تبعاً لتطور الزمن فنجح في اقتراحه وارضى

بذلك دولته بما وفره عن خزانتها كما ارضى اللبنانيين بتأييده استقلال جبلهم من الناحية المالية ايضاً لان من ينفق من ماله على آخر، يحق له مراقبة اعماله مراقبة قد تؤدي مع الزمن الى التدخل في جميع شؤونه ولذلك قيل « لا استقلال سياسي بدون استقلال مالي».

اعفاء جبل لبنان من الضرائب

اعفي جبل لبنان من عدة ضرائب كانت سارية في العاصمة وجميع الولايات العثمانية ومن تلك الضرائب ما سمي بالرسوم الستة المفروضة على الطوابع المالية والملح والكحول وصيد السمك وصناعة الحرير وزراعة التبغ والتنباك وهي الرسوم المخصصة لوفاء الديون التي للدول الاوربية على الدولة العثمانية فكان اللبنانيون يزرعون بملء الحرية التبغ ويصنعون منه السكاير للتدخين ويزاحمون بها بطريق التهريب دوائر الحصر التي شكلتها شركة مختلطة بموجب معاهدة بينها وبين الدولة العثمانية ثم تعهدت هذه الشركة لحكومة جبل لبنان باعطائها عشر ثمن مبيعاتها في الجبل وان لا تعارض في زراعة التبغ اللبناني وصناعته داخل الجبل بمقابلة تعهد حكومته بالسهر على منع التهريب بينه وبين جواره ولا سيما مدينة بيروت .

وكان للبنانيين في جبلهم مصانع للحرير بفضل تربيتهم دود الشرانق وغذاؤه اوراق اشجار التوت المغروسة في معظم انحاء الجبل كما اكثروا من كروم العنب واستخرجوا منها اجود انواع النبيذ والعرق والكحول واكثروا من صيد الاسماك وانشأوا في ساحل البحر ممالح يستثمرونها مما خفف عنهم الضائقة المالية . وبالرغم من شدة المراقبة التي كان يقوم بها مراقبو الولاية على الحدود منعاً لتهريب المواد الممنوع نقلها وحيازتها ظل اللبنانيون مغبوطين من جيرانهم حتى ذهب مثلاً القول المأثور : « سعيد من له مرقد عنزة في جبل لبنان » . ومما لا شك فيه ان تلك الغبطة قد نشأت اولاً عن الامن السائد في جميع انحاء الجبل وعن ضآلة الضرائب وعن الحرية والطمأنينة التي يتمتع بها كل لبناني وكل مقيم في لبنان .

الملاحة في جبل لبنان

بقي جبل لبنان محروماً من رسو السفن التجارية والشراعية في موانئه وشواطئه حتى عام ١٩١٢ توالت خلال تلك المدة شكوى ابنائه المقيمين والمغتربين من معاملة بحارة بيروت وآزرتهم فرنسا في شكواهم فاضطرت الدولة العثمانية للموافقة على رسو البواخر في ميناء

جونيه. ولكن الصدر الاعظم كامل باشا المعروف بميله لتقوية الصلات السياسية بين دولته ودولة بريطانيا العظمى اضاف الى طلب فرنسا ميناء لبنانياً ثانياً هو ميناء النبي يونس في ساحل قضاء الشوف . فكانت هذه الاضافة عاملاً في التزام التناظر بين الدولتين الكبيرتين .

ان تزويد جبل لبنان بهذين الميناءين سنة ١٩١٢ كان فاتحة عهد اوهانس باشا قيومجيان آخر حكام لبنان المعينين على مقتضى نظامه الاستقلالي الخاص . والمعروف ان حجة الدولة العثمانية في منع رسو السفائن عن سواحل جبل لبنان فيما سبق هي خشيتها امداده بالاسلحة وسائر المواد الممنوعة التي تأتي من الخارج لذلك خصصت باخرة مسلحة لخفر جميع السواحل السورية اللبنانية من اسكندرونه حتى غزه وكان مرساها ميناء بيروت في اكثر الاحيان .

الحكام الذين تعاقبوا على جبل لبنان في عهد استقلاله الاداري

١ ــ اولهم داود باشا الارمني عين سنة ١٨٦١ وبعد مرور ثلاث سنوات على عمله جددت حاكميته لمدة خمس سنين ولكنه استقال سنة ١٨٦٨ بايحاء من الوزير الكبير فؤاد باشا. وقد قيل ان الدافع لهذا الايحاء هو ما اتصل بعلم الدولة العثمانية من رغبة داود باشا في استقلال لبنان استقلالاً تاماً وضم بيروت وطرابلس وصيدا اليه .

٢ ــ فرانكو باشا من آل كوسا ظل حاكماً من سنة١٨٦٨ الى حين وفاته سنة١٨٧٢ ودفن في المدفن الخاص الذي اعدته الحكومة في الحازمية على طريق بيروت ــ بعبدا .

٣ ــ رستم باشا عين سنة ١٨٧٣ لمدة خمس سنوات ثم جدد تعيينه وفي نهاية السنين العشر غادر لبنان الى العاصمة مذكوراً بحزمه ومحافظته على هيبة الحكم وعين سفيراً للدولة في لندن .

احدث رستم باشا اثناء حاكميته ضريبة « المهملات » لسد عجز ميزانية الحكومة فخفف عن عاتق خزينة الدولة هذا العجز واستند في اقناع مجلس الادارة بقبوله الى ان الاستقلال المالي هو اساس الاستقلال الاداري والسياسي .

٤ ــ واصا باشا من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٨٩٢ وهو تاريخ موته بالسكتة القلبية. لقد سادت الرشوة في عهده بسبب تدخل صهره كوبليان افندي في شؤون الحكومةواحرز

بالاشتراك معه ، بعض رؤساء المصالح وكبار الموظفين ثروة عظيمة من المال الحرام مما جعل الشعب يشير الى كل منهم قائلاً :

« دخل الوظيفة فقيراً وخرج منها ثرياً كبيراً » .

ومما يتردد على ألسنة اللبنانيين انه حين دفن واصا باشا في الحازمية بموكب حافل باعيان بيروت ولبنان ورجال حكومتيهما وعلى رأسهم ضيا بك وكيل والي بيروت ، تبارى الخطباء في تأبينه وتعداد حسناته وقد جاء في خطاب آخرهم ابراهيم بك الاسود مستشار محكمة الاستئناف هذه العبارة : « ومن لم يبك الدمع دماً فهو وغد لئيم » .

حينئذٍ انبرى الشاعر المعروف تامر الملاط والقى على سمع الجماهير البيتين التاليين :

قالوا قضى واصا وواروه الثرى فأجبتهم وأنا الخبير بذاته
رنوا الفلوس على بلاط ضريحه وأنا الضمين لكم برد حياته

فدهش الجمهور لهذه المفاجئة وأمر وكيل الوالي بالقبض على الشاعر وزجه في السجن لمحاكمته . غير ان الشاعر الملهم قد غاب عن انظار اعدائه بفضل عطف الجم الغفير عليه لمعرفتهم ما اصابه من آلام حين سجن ظلماً في عهد هذا المتصرف على اثر وشاية ظهر بطلانها بعد قليل من الزمن .

ولما وقف وكيل الوالي على جلية الامر وكان متصفاً بالنزاهة امر بصرف النظر عن ملاحقة الشاعر واسدال الستار على القضية .

٥ ــ نعوم باشا من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٢ وقد عرف بحب العمران لفتحه الطرقات المعبدة في معظم انحاء لبنان واقامة الجسور وبناء دور للحكومة في مراكز الاقضية خصص بعض اقسامها لسكن قوام المقام مع عائلاتهم . وبعد مغادرته لبنان عين سفيراً للدولة في باريس .

٦ ــ مظفر باشا من سنة ١٩٠٢ حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٠٧ . لقد اتم المشاريع العمرانية التي بدأها سلفه وفي عهده انتشرت الماسونية في جبل لبنان وساءت الصلات بين الحاكم والمقــام البطريركي الماروني زمناً طويلاً قيل فيه : « نبت العشب في طريق بكركي » اشارةً الى تحاشي الموظفين وطلاب الوظيفة غضب الحاكم والناس على دين ملوكهم .

٧ ــ يوسف فرانكو باشا من سنة١٩٠٧ حتى سنة ١٩١٢ برزت في عهده المعارضة من قبل طلاب المناصب الحكومية تعضدهم بعض الاحزاب ، ــ والحزبية عريقة الجذور

في لبنان كما هو معروف— وتأخذ بناصرهم القنصلية الفرنسية العامة في بيروت اعتقاداً منها ان الحاكم ورجاله ولا سيما كبير امنائه ناصيف بك الرئيس مدير القلم التركي ممالئون لسياسة القنصلية العامة البريطانية .

وفي هذا العهد اعلن الدستور العثماني (١٩٠٨) فرأت المعارضة سنوح الفرصة للتغلب على الحاكم ورجاله ولو ادى الامر الى القضاء على استقلال لبنان الاداري ولكن جهودهم وتظاهراتهم تحت ستار مناصرة الدستور ذهبت سدى بفضل تعقل الحاكم ورجاله وحسن تدبيرهم .

٨ — واخيراً الحاكم اوهانس باشا قيومجيان الذي جاء لبنان في مطلع سنة ١٩١٣ واستقال اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٥) كما يرد في هذا الجزء تفصيل الحوادث التي مرت بعهده بكل دقة .

مما يتنادر به اللبنانيون استناداً الى التقارير التي تناولت بالمناوبة حياة نصف حكامهم ان نوبة آخرهم كان مقدراً لها الموت وهو على رأس وظيفته ولكن الله سبحانه وتعالى وقاه فغادر لبنان مستقيلاً قبل ان يتم مدة حكمه وهي خمس سنوات.

سبب تسمية حاكم لبنان بالمتصرف

بعد تجهيز حاكم جبل لبنان بالصلاحيات الواسعة السابقة الذكر وارتباطه مباشرةً بالصدر الاعظم بدون وساطة ناظر الداخلية يتساءل المرء عن سبب تسميته متصرفاً والمتصرفون تابعون لوالي الولاية كما يوجد متصرفيات هامة كالقدس مرتبطةً مباشرةً بنظارة الداخلية اسوةً بالولايات.

لعل السبب في هذه التسمية يعود الى صغر مساحة جبل لبنان بالنسبة الى سائر الولايات ووجود بيروت حين وضع نظامه الخاص لواءً يديره متصرف فلم يكن من مصلحة الدولة بقاؤه دون جاره اللبناني مرتبةً . اضف الى ذلك ما يقوله بعض الساسة من ان مراقبة اعمال متصرف جبل لبنان من الناحية السياسية بطريقة سرية ، كانت من جملة المهام الملقاة على عاتق كل من والي سورية ومتصرف بيروت التي اصبحت فيما بعد مركز ولاية . على ان القنصليات الاجنبية العامة في بيروت تسمي في مكالماتها ومكاتباتها ، متصرف جبل لبنان ، حاكماً كما يسميه اللبنانيون دولة الباشا او دولة افنديـنا (سيدنا) لما في هذه التسمية من زيادة الاحترام والترفيع عن سائر المتصرفين .

اما ارتباطه مباشرةً بالصدارة العظمى فناشىء عن استقلاله الاداري المضمون بتوقيع الدول الاوربية العظمى فحكمه من هذا القبيل حكم الولايات الممتازة في السلطنة العثمانية .

وبديهي ان كلاً من والي بيروت ووالي سورية ومتصرف جبل لبنان يمثل ضمن حدود ولايته ، سلطان الدولة العثمانية رغم ارتفاع منزلة متصرف لبنان باحرازه دوماً مرتبة الوزارة وارتباطه المباشر بالصدارة العظمى وبكونه لا يعزل ولا ينقل من منصبه الا باجماع الدول الموقعة على نظام جبل لبنان .

التعديل في نظام جبل لبنان

في ٢٣ كانون الأول سنة ١٩١٢ ، تم الاتفاق في العاصمة اسطنبول بين وزير الخارجية ، نورادونكيان افندي ، ممثل الباب العالي (الصدارة العظمى) ، وبين سفراء الدول الاوربية الست الموقعة على نظام جبل لبنان ، على تعيين اوهانس باشا قيومجيان ، مستشار وزارة الخارجية ، متصرفاً للبنان ، خلفاً ليوسف باشا الذي انقضت مدة متصرفيته وهي خمس سنوات ، كما اتفقوا على بروتوكول يتضمن اضافة المواد الآتية على النظام المذكور :

المادة ١ — يجري انتخاب اعضاء مجلس الادارة في القضاء الذي ينتمي اليه العضو من قبل شيوخ الصلح في القرى ، يضاف اليهم مندوب عن كل مئة مكلف في القرية التي تضم هذا العدد او اكثر منه من المكلفين ، قياساً على الاصول الجارية في زحله التي يظل الانتخاب فيها كما في السابق ، اي من قبل مندوبين بنسبة واحد عن كل خمسين مكلفاً .

يبقى كالسابق ، بدون اي تعديل ، اعضاء مجلس الادارة ، فينتخب كل منهم في دائرته وبنسبة الطوائف التي يمثلونها . الا ان اهالي مديرية دير القمر الذين كانوا محرومين من عضو يمثلهم ، سيدعون الى انتخاب عضو من ابناء مذهبهم يمثلهم في المجلس المذكور ، كما ان العضو الدرزي الذي كان ينتخب حتى الآن في جزين سيجري انتخابه في قضاء الشوف .

المادة ٢ — اذا اسند الى أحد اعضاء مجلس الادارة تقصير او خطأ او سوء استعمال في وظيفته ، فلا يجوز للمتصرف كف يده عن العمل الا بعد تحقيق تعرض نتيجته على المجلس المذكور وبعد انضمام رأيه وتصويبه .

المادة ٣ ــ ان الميزانية الحاوية تخمين الواردات والصرفيات يضعها المتصرف بمعاونة مجلس الادارة .

يجري تنظيم هذه الميزانية ونشرها واعلانها قبل ثلاثة اشهر من بداية السنة المالية المتعلقة بها .

المادة ٤ ــ يقوم المتصرف الجديد باجراء تحرير الاملاك(كاداسترو) وتحرير النفوس والتدقيق في مختلف الرسوم التي تجبى الآن ويربطها بقاعدة مطردة ويباشر التدقيق في شؤون الخراج والاراضي الاميرية وما تفرع منها ، ثم يعرض اقتراحه بشأنها ، قبل ستة اشهر من انتهاء مدة وظيفته ، على الباب العالي ليقوم بالتعديلات المقتضية بعد الاتفاق مع الدول ، عملاً بالمادة ١٥ من النظام الداخلي المؤرخ في ايلول سنة ١٨٦٤ ، وتصفى بهذه المناسبة حسابات السنين السابقة بصورة قطعية .

المادة ٥ ــ تعتبر المحاكم اللبنانية ذات صلاحية للنظر بدايةً واستئنافاً في جميع الدعاوي التجارية التي يكون جميع ذوي العلاقة بها من اللبنانيين .

المادة ٦ ــ ان هيآت الشرطة المذكورة في المادة الرابعة عشرة من نظام ١٨٦٤ سيبلغ عددهم الفاً ومئتين ويعهد بأمر تعليمهم الى احد الضباط المستخدمين في تنسيق الدرك العثماني وتتحمل الدولة النفقات المترتبة على ذلك ، بقدر ما تتحمله ميزانيتها العامة .

تصديقاً لما سبق ذكره وقع مرخصو الفريقين هذا البروتوكول بامضاءاتهم واختامهم .

دار السعادة في ٢٣ كانون الاول سنة ١٩١٢

غابريل نورادونكيان — م. بومبار

باللاويتشيني — كيرس

جرار لاوتر — والكنهايم

غاميلي . غاروني

الفصل الثاني

ولاية بيروت

تقسيماتها الادارية

حين نال جبل لبنان استقلاله الاداري سنة ١٨٦١ ، الحقت متصرفية بيروت بولاية سورية اسوةً بطرابلس . وفي سنة١٨٨٨ جعلت مركز ولاية والحق بها عدا اقضيتهاالثلاثة – صيدا وصور ومرجعيون – متصرفيات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس ، واستمرت على هذه الحالة حتى نهاية الحرب العالمية الاولى عام١٩١٨ فكان من جرائها احتلال الجيوش الحليفة الفرنسية والبريطانية ، لبنان وسورية في بدء شهر تشرين الاول وفك ارتباط لواءي عكا ونابلس عن ولاية بيروت لارتباطهما بحكومة فلسطين التي تديرها بريطانيا العظمى واصبحت اللاذقية مركز مقاطعة بلاد العلويين وألحق بها علاوةً على اقضيتها قضاءا الحصن (تلكلخ) وصافيتا ومديريتا طرطوس وجزيرة ارواد بعد ان كان جميع ذلك مع قضاء عكار ومديريات المينا والمنية والضنية من اعمال متصرفية طرابلس . اما الاقضية الاربعة البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا فكانت تـابعةً دمشق مركز ولاية سورية ولم تضم الى لبنان الا بعد الاحتلال السالف الذكر واعلان لبنان الكبير كما سيرد بحثه .

القائمون على ادارتها

كان والي بيروت كغيره من الولاة العثمانيين تابعاً وزارة الداخلية في العاصمة وكان دوماً تركي الجنس كما كان المتصرف ومديرو الامن العام وسائر المصالح من الاتراك في اكثر الاحيان وقد وجد بينهم اكفاء من العرب والالبان والروم والارمن ولا سيما بعد اعلان

الدستور عام ١٩٠٨ . اما موظفو الدرجة الثانية فما دون فكانوا من ابناء الولاية كما وجد غيرهم من ابناء سائر الولايات.

لم يقبل المسيحيون في بيروت وملحقاتها على وظائف الحكومة الا نادراً فانصرفوا الى التجارة والمهن الحرة مكتفين بالمناصب الانتخابية كعضوية المجالس الادارية والبلدية والقضائية اذ كان نصف اعضائها من المسلمين والنصف الآخر من غير المسلمين . على ان اعضاء المحاكم اصبحوا بعد الدستور معينين تعييناً اسوةً برؤساء المحاكم والمدعين العامين ومعاونيهم بفضل وفرة الخريجين من معهد الحقوق في العاصمة .

كان مديرو المصالح عبارة عن « الدفتردار» (رئيس المالية) و«المكتوبجي » (كبير امناء الوالي ويقابله في هذا العصر « المدير» او « الامين العام ») ومدير الامن العام وقائد الدرك ومديرو المعارف والامور الصحية والنافعة (الاشغال العامة والمواصلات) والزراعة والبرق والبريد والطابو (السجل العقاري والتمليك) وكلهم يعين من العاصمة على ان تعيين الامين العام ومدير الشرطة والامن العام وقائد الدرك يجري بموافقة الوالي .

ادارة شؤون الولاية بوجهٍ عام

الادارة والمالية — كانت القاعدة المتبعة في الولايات هي المركزية اي الرجوع في كل اصلاح او عمل هام الى امر او قرار من وزارة الداخلية . كما كانت موازنة الولاية من واردات ونفقات جزءاً من موازنة الدولة العامة . لذلك كانت المشروعات الاصلاحية في مركز الولاية وملحقاتها تتوقف الى حد كبير على موافقة الحكومة الرئيسية في العاصمة ، مما جعل تقدم الولاية في طرق الاصلاح الاداري والعمراني بطيئاً جداً . على ان هذه الحال قد تبدلت منذ اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، فتوسعت صلاحيات الوالي واصبح لديه مجلس عام تتمثل فيه المتصرفيات والاقضية بواسطة نواب منتخبين يضعون موازنة خاصة بالولاية فرقت مواردها عن الموازنة العامة ، مما ساعد على بدء النهضة في سبيل الاصلاح والعمران .

بلدية بيروت — لم تستطع هذه البلدية القيام بمهامها على وجه يتفق ورقي المجتمع البيروتي ولعل السبب الاهم في ذلك ، قلة واردات البلدية في ذلك العهد . ولما تولى رئاستها الوجيه الكبير فخري بك تنازل لها عن مرتبه وصرف في سبيل نهضتها جهوداً لا تزال تذكر بأجمل الثناء .

ولما انقسمت البلدية زمناً الى دائرتين شرقية وغربية، تولى رئاسة الدائرة الشرقية الوجيه بطرس داغر، فحذا بكل جهده حذو فخر البلدية فخري بك.

لقد تقدمت البلدية تقدماً بارزاً بعد اعلان الدستور ولا سيما في عهد رئيسها منح بك رمضان وخلفه مختار بك بيهم وقد اشير اليهما في بعض الابحاث الآتية.

الحالة الصحية — كانت الحالة الصحية في مدينة بيروت حسنة على وجه الاجمال يعود معظم الفضل في ذلك الى المستشفى الفرنسي والمستشفى الاميركي وغيرهما من المستشفيات الخاصة بالاضافة الى المستشفى العسكري والى عناية محدودة كانت تبذلها الادارة الصحية وبلدية بيروت.

اما في الارياف فكانت الحالة الصحية بعيدة عن مقتضيات العصر وعما كانت عليه في جبل لبنان. فبينما كان في كل قرية لبنانية طبيب او اكثر من ابنائها كان كل قضاء من اقضية بيروت الثلاثة ومعظم الولايات، الذي يضم مئات القرى والمزارع وعشرات آلاف السكان لا ينعم الا بطبيبين او ثلاثة اطباء، واحياناً بطبيب واحد فقط وصيدلية واحدة في مركز القضاء.

طرق المواصلات — لم ينكر احد اهمية ولاية بيروت منذ اقدم العهود علمياً واجتماعياً واقتصادياً وكونها المرفأ الوحيد في ساحل سورية الذي يمون معظم الولايات العربيةوبعض ولايات الاناضول بالبضائع الاجنبية. وبالرغم من كل ذلك كانت طرق المواصلات البرية مهملة بين هذه الولايات، بل في ولاية بيروت نفسها، بخلاف الحالة التي كان عليها جبل لبنان حيث يجد مرتادوه، للاصطياف وغيره، كل سرور وهناء في حلهم وترحالهم بين قراه العامرة بسكانها وقوة جهودهم.

كان الخط الحديدي الضيق الممتد من بيروت الى رياق فدمشق منذ عام ١٨٩٥ والخط العريض الممتد من رياق الى حلب (١٩٠٣ — ١٩٠٦) والخط العريض الآخر من طرابلس الى حمص (١٩١١)، كانت هذه الخطوط في مقدمة طرق المواصلات البرية ولم يكن عدا ذلك في البلاد من وسائل النقل سوى مركبات (عربات) تجرها الخيل او البغال على طرق معبدة داخل المدن وخارجها. بيد ان مدينة بيروت كانت مجهزة بخطوط «ترامواي» كهربائي مما ساعد كثيراً في تنقل الاهلين داخل المدينة بالاضافة الى المركبات الخاصة والعامة الكثيرة العدد.

العدل والقضاء — ان قيمة ادارة الحكومة صعوداً وهبوطاً مرتبطة كل الارتباط بمزايا الولاة والحكام ومقدار حزمهم في العمل وبعدهم عن الهوى وكان جميع اعضاء المحاكم البدائية والاستئنافية في مركز الولاية وملحقاتها يعينهم لمدة سنتين رؤساء الادارة (وزير الداخلية والوالي والمتصرف) في المرجع الذي يعلو مقر وظائفهم بعد انتقائهم من قبل جمعية تفريق مؤلفة من مديري الدوائر الادارية ورؤساء الاديان . فكانت اهم ميزات القاضي آنئذ ، الوجاهة قبل العلم ، الى ان اعلن الدستور (١٩٠٨) فقضى على تلك الاصول القديمة جاعلاً اعضاء المحاكم ، اسوةً بالرؤساء ونواب الادعاء العام ، حائزين على الكفاءات الحقوقية قبل كل اعتبار آخر ، مما حفظ للقضاء هيبته وكرامته وصانه من كل تدخل اداري .

ومما اجمعت الكلمة عليه ان المحاكم والدوائر القضائية كانت على علاتها قبل عهد الدستور وبعده ، افضل دوائر الحكومة معرفةً بالواجب وتمسكاً بأحكام القوانين وسعياً لانصاف ارباب المصالح وقد برزت هذه الميزات بعد اعلان الدستور وحسن اختيار القضاة والمفتشين فأصبح القضاء العثماني المدني (غير العسكري — المعروف بالحربي — الذي تفرضه الادارة العرفية زمن الحرب والازمات السياسية والثورية) لا يقل عن ارقى قضاء في العالم المتمدن ضماناً للعدل والنزاهة .

الامن العام

كان الامن العام على وجه الاجمال متوفراً في المدن والقصبات . اما الامكنة البعيدة عن العمران فكان امنها مهدداً بحوادث السلب والنهب والقتلى احياناً ، يعود الفضل او الذنب في مختلف الحالين الى مقدرة الوالي والمتصرفين ومعاونيهم من كبار رجال الامن العام ، ومقدار اخلاصهم للواجب الملقى على عاتقهم ، كما سبق ذكره في البحث السابق.

ولا ينكر ما كان لسياسة الحكومة بازاء النزعات القومية المحلية من تأثير على ذلك . فاذا عدنا بالذاكرة الى ما كان يجري في مدينة بيروت ، قبل اعلان الدستور ، من عدوان متقابل بين المواطنين ، فلا نجد فيه ما يبرر الحكومة من مسؤولية اضطراب حبل الامن في مركز الولاية ، فاذا قتل مسلم اخاه المسيحي ، وجد لنفسه ملجأ في نفس بيروت ، لا تصل اليه ايدي قوى الامن . فيقوم في اليوم التالي من يثأر للقتيل من ابناء طائفته ويقتل آخر قد يكون بريئاً ثم يفر الى جبل لبنان حيث يتمتع بأمان واطمئنان .

ومما لا ريب فيه ان عقلاء الطائفتين الكبيرتين لم يكونوا راضين عن هذه الاعمال البربرية ولكنهم لم يقوموا بعمل موحد لقطع دابرها . ولعل السبب في ذلك، على ما شاع وملأ الاسماع ، ان الحكومة كانت راضية عن هذا التقاتل والتباغض ، لكي لا يطلب مسلمو بيروت الانضمام الى جبل لبنان المحيط بها من جهاتها الثلاث ، فظل الحال على هذا المنوال حتى اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ .

إدارة المرفأ والجمارك

لم تستطع ادارة المرفأ انقاذ المسافرين من تحكم البحارة اصحاب الزوارق العاملة بين البواخر ورصيف الجمرك . فلا يقبض هؤلاء اجرتهم من المسافرين الآ قبل وصولهم الى البر ، ليتمكنوا من اخذها اضعافاً مضاعفة عما عينته الحكومة .

وبعد وصول المسافرين الى البر يتسلمهم مأمورو الجمرك من حراس ومحافظين ومفتشين ، فيضطرون لارضائهم بمبلغ من المال تخلصاً من فتح صناديقهم واثارة التحري بين ثيابهم . وعبثاً تعالت شكوى اللبنانيين والسوريين العائدين من اميركا والبلدان الاجنبية من هذه المعاملة التي دامت حتى اعلان الدستور .

يحكى ان احد الوجهاء المصريين الأثرياء قدم لقضاء فصل الصيف في ربوع جبل لبنان وبعد ان سلم من ايدي البحارة بما بذله لهم من اجور ظن نفسه حين وطأت قدماه رصيف بناء الجمرك انه انتقل الى خيرة المستقبلين من موظفي الحكومة فأخذ هؤلاء يتناوبون في فتح صناديقه وبعثرة محتوياتها ومن بينها البسته المزركشة الدالة على كونه من اصحاب الرتب العالية ، آملين من وراء ذلك ان يصرفهم عنها ببعض البذل من المال او الهدايا . ولكنه بعد طويل الانتظار وصبره على هذه المعاملة صبر الكرام مترفعاً عن عرض الرشوة ، اعيدت الاغراض الى محافظها بدون انتظام . وللحال اوعز الى الحمالة ان يعيدوها الى الزورق شاكراً لموظفي الجمرك حسن صنيعهم وعاد توآ الى الباخرة صارفاً النظر عن الاصطياف في جبل لبنان . وبعد وصوله الى القاهرة لجأ الى صحفها واخذ يسلق الحكومة العثمانية بنقد جارح على اعمالها وسوء ادارتها ولكنه هيهات ما انتظره من اصلاح .

كانت شكوى المسافرين وذويهم من تلك المعاملات القاسية في مقدمة الاسباب التي اضطرت الدولة العثمانية ، نزولاً عند طلب الدول الاوربية العظمى ، الى السماح للبواخر الاجنبية بالرسو في مرفأي جونيه والنبي يونس كما ذكر في محله .

النهضة العلمية

مما لا ريب فيه ان سورية ولبنان كانتا في طليعة البلاد التي تألفت منها المملكة العثمانية ، علماً وحضارة . يعود الفضل في ذلك الى تاريخها المجيد وفطرة ابنائهما على حب العلم والفن في متنوع فروعها . وقد زادهم نشاطاً في خوض بحر التطور العالمي وفرة المدارس الوطنية والمعاهد الاجنبية المنتشرة بصورة خاصة في مدينة بيروت ، المعروفة قبل التاريخ الميلادي وبعده بمدينة العلم والتشريع ومهد الحضارة . وفي مقدمة هذه المدارس مدرسة الحكمة التي لا تزال تحمل اسم مؤسسها المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة الموارنة ، اسسها سنة ١٨٧٥ وصرف عليها مزيد عنايته واهتمامه وزودها بخيرة الاساتذة الوطنيين واستدعى من فرنسا معلمين لتدريس اللغات الاجنبية ، فخرج منها نخبة ممتازة من رجال بيروت ولبنان على اختلاف مذاهبهم .

وفي اواخر القرن التاسع عشر ومنتصف عهد السلطان عبد الحميد اسست الحكومة مدرسة الصناعة في بيروت والمعاهد السلطانية والاعدادية في مراكز الولاية والالوية كما اسست حكومة الاتحاديين سنة ١٩١٣ معهد الحقوق في بيروت ثم نقلته اثناء الحرب الى دمشق . كان في بيروت وملحقاتها مدارس للبنات اهلية واجنبية ، وبرزت مدرسة زهرة الاحسان الارثوذكسية بحلة قشيبة ، بفضل غيرة السيدة املي سرسق ذات اليد البيضاء في كل عمل خيري .

ولا بد من الاشارة ههنا الى الدور الهام الذي مثلته الكلية الاميركية وكلية الآباء اليسوعيين — وقد تحولت كل منهما الى جامعة — ومعاهد الاخوة المسيحيين والاخوة المريميين ، بالاضافة الى المدارس الوطنية وفي مقدمتها مدرسة المقاصد الخيرية الاسلامية حتى فاقت نسبة المتعلمين في هذه البلاد ، امثالها في جميع المدن العثمانية .

ولقد ساعد انتشار اللغتين الفرنسية اولاً والانكليزية ثانياً على اقتباس السوريين واللبنانيين وسائل نهوض الامم الاوربية والاميركية والوقوف على كل جديد في عصر الحضارة .

الجامعة الاميركية

لم تكن الجامعة الاميركية على عظمتها الحاضرة حين بدأت عملها سنة ١٨٦٦ ، بل

كانت مدرسة تبشيرية لم يتجاوز عدد تلامذتها الخمسين . وكانوا ينضوون تحت سقف بيت متواضع ، ثم اخذت تتسع تدريجياً ولم يمر عليها سوى القليل من الزمن حتى اصبحت كلية وتجلت عظمتها بفضل مساعي القائمين على ادارتها ، وجهود اساتذتها من اميركيين ولبنانيين وسوريين ، والاعانات الوفيرة التي كانت وما تزال تردها من المحسنين الاميركيين الاثرياء محبي العلم . فأقبل عليها الطلاب من مختلف البلدان والمذاهب والاديان ، مما جعلها تناظر كلية الآباء اليسوعيين وتفوقها في عدد الطلاب وتعدد المباني على رحبها ورعاية قواعد حفظ الصحة في ترتيبها حتى غدت جامعة للعلوم والفنون من اعظم الجامعات في الشرق . وقد اشتهر من رؤسائها وعلمائها الدكتور بلس والدكتور فنديك ومستر ضودج بكبير عنايتهم وتضحيتهم في سبيل نجاحها وتقدمها ، بينما امتاز الاخير بتطوعه في رئاسته ادارتها بدون مرتب بل اكتفى باستيفاء دولار واحد في السنة مرتباً رمزياً . كما اشتهر من اساتذتها السوريين واللبنانيين السادة الاعلام جبر دوميط وبولس الخولي والمعلم عبدالله البستاني وأنيس الخوري وأسد رستم . وبرز في العهد الاخير الاستاذ قسطنطين زريق الذي عهد اليه زمناً غير يسير برئاسة الجامعة وقد فاق معظم من سبقه نشاطاً مقترناً بحسن الادارة .

الجامعة اليسوعية

قامت هذه الجامعة سنة ١٨٧٥ بفضل جهود مؤسسيها الرهبان العلماء الاجلاء ونشاطهم الذي لا يعتريه ملل مع مساعدة مالية من فرنسا تقل وتزداد حسب سياسة الحزب الذي يتولى الحكم فيها .

كانت في بدء تأسيسها كلية ثم تحولت الى جامعة وتقدمت تقدماً بارزاً في جميع العلوم والفنون ولا سيما في معهديها الطبي والحقوقي ، فأقبل عليها الطلاب من لبنان وسورية وغيرهما ، فكان خريجوها حائزين اوفى قسط من الثقافة العالية والتمسك بأهداب الدين ووصلت قبيل الحرب العالمية الاولى التي نشبت عام ١٩١٤ الى اسمى درجة الرقي بين معاهد الشرق قاطبة ، فكانت والجامعة الاميركية نظيرين يتسابقان في اشرف الميادين اصاب البلاد من تناظرهما منافع جمة .

اذا كان خريجو الجامعة اليسوعة يذكرون بعاطفتي الاعجاب وعرفان الجميل اساتذتها الفرنسيين واللبنانيين ولا سيما رئيسها وأحد مؤسسيها الاب كاتن السويسري الحائز كمال

الثقافة وعالي الاخلاق فان العالم الشرقي والعربي منه خاصةً يفاخر بأحد اساتذتها العلامة الاب شيخو صاحب التآليف القيمة العديدة .

لقد اخبرني الاب كاتن حين قمت بزيارته ذات يوم ان الكلية (قبل ان تصبح جامعة) : حرمت من كل مساعدة حكومية حين كان زمام الامر بيد وزراء لادينيين يسمون انفسهم احراراً ، بينما تحظى كلية الاميركان بأموال طائلة تضمن لها الاتساع . ولما مست بي الحاجة الى طلب المعونة ، ذهبت الى باريس حيث فوجئت بنبأ اسناد رئاسة الوزارة الى مسيو بلوم ، الرجل اليهودي . فترددت في بدء الامر في مراجعته ، ثم اتكلت على الله وقابلته ، فوعدني بأكبر مساعدة من صندوق الحكومة لما في نشاط كلية بيروت من عمل مجيد هو نشر الثقافة الفرنسية في الشرق . وقد بر بوعده مما دل على ان الرجل العاقل الحكيم المخلص للمهام الملقاة على عاتقه لا يصدر عنه سوى الخير مهما كان دينه وعقيدته .

الفترة السياسية

كانت الفكرة السياسية في بيروت وغيرها من المدن السورية منحصرة ضمن اطار القومية العثمانية الشاملة مختلف العناصر التي تتألف منها الدولة . اما فكرة القومية العربية والاستقلال السوري فبدأت تجول في الرؤوس بعد ان استقلت الولايات في القارةالاوربية كرومانيا وصربيا واليونان، دون ان يجرؤ احد على اظهار رغبته في تحقيقها. وقد نمت نمواً محسوساً حين تمتع جبل لبنان بنظامه الخاص واستقل ادارياً ولم يجد فيه للحكم التركي من اثر سوى الارتباط السياسي تحت اشراف الدول العظمى. مما جعل كل عربي في سورية وغيرها من الاقطار العربية يصبو الى الظفر بمثل هذا الاستقلال الاداري الذي يكون نواة الاستقلال السياسي عاجلاً او آجلاً .

ولما كانت حرية الصحافة وابداء الرأي في العهد الحميدي مقيدةً بقيود المراقبة والاضطهاد والسجن الاداري والنفي والتعذيب ، لم يجد المولعون بالاستقلال من لبنانيين وسوريين مجالاً لنشر افكارهم في وطنهم فلجأ بعضهم الى فرنسا والى العالم الجديد(اميركا) والبعض الآخر الى القطر المصري الشقيق وأسسوا فيالقاهرة والاسكندريةامهاتالصحف وأخذوا يبثون فيها آراءهم الحرة ودعوتهم الوطنية، دون ان تنالهم يد السلطان العثماني ورجاله،

وذلك بفضل استقلال مصر استقلالاً فعلياً ، لا يشوبه سوى اداء جزية معينة يدفعها سنوياً للدولة العثمانية التي لم يكن لها من اثر للسلطة عليه سوى الاسم .

المجتمع البيروتي

بالرغم مما كانت تثيره الطبقة الدنيا في مدينة العلم والحضارة بيروت من اعتداءات واخلال بالامن العام — كما اشير الى ذلك في الابحاث السابقة — ظل المجتمع البيروتي في طليعة المجتمعات في جميع مراكز الولايات العثمانية وفي العاصمة نفسها .

ومن مقتضى حياة المجتمع قبل اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، اشتراك الرؤساء والوجهاء وأهل العلم والادب في الحفلات التي تقيمها الحكومة في الاعياد الرسمية ، وفي الحفلات الثقافية والخيرية من حكومية وأهلية ، كما كانوا يقومون ضمن ايام الجمعة بزيارة والي الولاية وكبار العلماء والرؤساء زيارة مودة ومجاملة ، مما يسمى « تشريفات » . ويتبادل كبار القوم الزيارات في منازلهم المعدة لقبول الزائرين يومي الاحد والجمعة وهما من ايام الاستراحة ، بعد أو قبل اداء فرض الصلاة . وغني عن البيان ان تبادل الزيارات الودية بين كبار القوم والحكام لما زاد في التفاهم وتأييد صلات المودة والاخلاص بين ابناء الوطن ، يشاركهم في معظمها قناصل الدول الاجنبية ، دون ان يتأخروا عن ابداء اعجابهم بهذا العرف الاجتماعي الشرقي .

اما الاثرياء من آل سرسق وبسترس وثابت وتويني وكرم وفرعون وطراد وهاني وغيرهم ، فكانت تغلب عليهم العادات الغربية ، لكثرة اسفارهم الى اوربا ، دون ان يهملوا العرف الشرقي المألوف بين جميع المواطنين .

ولما اعلن الدستور العثماني وانقضى عهد الحكم المطلق الذي كان يطلق ايدي السلاطين ومعتمديهم في الحكم ، ازدان المجتمع البيروتي بعودة ابنائه العلماء والادباء والشعراء والصحفيين الاحرار من القطر المصري واوربا ، مشاركين اخوانهم في استثمار نعمة الدستور بملء الحرية — حرية ابداء الرأي ، مضمونةً من كل قيد سوى قيد الانظمة والقوانين التي تضعها الامة بواسطة ممثليها ، اسوةً بسائر البلاد الراقية — ومن مقتضى هذه الحرية تأليف الاحزاب السياسية . فظهر اولاً حزب الاتحاد والترقي ، ثم عقبه حزب الائتلاف وغيره. ولكن هذه الاحزاب او الحزبية لم تؤثّر على التكتلات العائلية والشخصية بين ذوي الاغراض المشتركة او المؤتلفة ، تأميناً لنفوذهم في الدوائر الحكومية والمجالس المحلية. فكان

آل بيهم وسلام وداعوق وطباره وقاضي وغيرهم يؤلفون صفاً قوياً لضمان الوصول الى اهدافهم ، يقابلهم فريق آخر من آل الصلح ورمضان ونحاس وانسي ومجذوب وغيرهم ممن يعملون تحت رئاسة المفتي مصطفى افندي نجا ، العالم الفاضل ، صاحب المنزلة الاولى رسمياً بين رؤساء الاديان والمذاهب .

كان محور الحركة والعمل المستمر في الفريق الاول سليم افندي سلام المعروف بابي علي . فقد وهبه الله من الذكاء والدهاء ما ضمن له ولاخوانه النجاح في جميع ما ارادوه ، كما يرد فيما بعد . وقد تمكن ابو علي من كسب عطف الزعيم الطرابلسي عبد الحميد افندي كرامه ، الملقب بالكرامي ، الى جبهته الحزبية ، مقابل انضمام آل المقدم الى انسبائهم آل الصلح ، من الفريق البيروتي الآخر . وقد دامت هذه الحزبية المنقسمة في المدينة الواحدة والجامعة بين المدينتين — بيروت وطرابلس — الى ما بعد الحرب العالمية ، وانتقلت من الآباء الى الابناء ، بينما ظل العلامة الشيخ محمد افندي الجسر واخوانه في طرابلس والداماد احمد نامي بك وصحبه في بيروت بعيدين عن الحزبية .

وسيجد القارئ الكريم في هذا الجزء وفي الاجزاء المتتابعة من الذكريات ما يؤيد صحة ايجاز المؤلف الحالة الراهنة في مجتمع البلدين العزيزين .

اعلان الدستور وأثره في بيروت

لم يكن احرار الترك اقل من غيرهم نقمةً على العهد الحميدي الاستبدادي ورغبةً في الخلاص منه قبل ان تتفكك اجزاء المملكة العثمانية الواسعة الارجاء عن بعضها. فقام فريق من مغتربيهم بتأسيس جمعية الاتحاد والترقي بصورة سرية ، وجعلوا مركزها في مكدونيا التي كانت مطمع انظار طلاب الاستقلال من مختلف العناصر العثمانية ، وموضع اهتمام دول اوربا ، وفي مقدمتها النمسا وايطاليا ، مما اضطر السلطان عبد الحميد الى البدء بالاصلاح الاداري في الولايات المكدونية باشراف حسين حلمي باشا الصدر الاعظم السابق . وقد قيل ان بين اولئك المفكرين الاتحاديين ضباطاً في الجيش ظلت اسماؤهم مكتومة حتى قام كل من القائد التركي انور والرئيس الاول (قول اغاسي) نيازي على رأس جنودهما في تموز عام ١٩٠٨ باعلان العصيان على الاستبداد والدعوة الى اعلان الحكم الدستوري . وشاركهما فوراً اركان الاتحاد والترقي ، فنشروا الدعوة في كل مكدونيا وامتدت نحو العاصمة ، فاضطر السلطان عبد الحميد الى الرضوخ لارادة الجيش والامة ،

معلناً الحرية والدستور في الثامن من الشهر المذكور والدعوة الى انتخابات حرة يجتمع على اثرها نواب الامة.ولكن انصاره عدلوا عن اجراء انقلاب مقابل في العاصمة والاناضول والولايات العربية بواسطة جمعية الارتجاعيين – وقد اطلقوا عليها اسم « الجمعية المحمدية » وهيأوا لها فرعاً في كل بلد . وحين باشروا تنفيذ مؤآمرتهم ، انقض عليهم الجيش وقضى على ثورتهم بعد معارك دامية في العاصمة نفسها وفي بعض الولايات ، وخلع عبد الحميد عن العرش ، واجلس عليه اخوه ولي العهد السلطان رشاد . فانطلقت الافكار من عقالها وعم الفرح والسرور البلاد وكثرت الصحف الحرة ولا سيما في العاصمة وبيروت ، متمتعةً بحصانة جديدة برقي اصحابها ومحرريها والقائمين عليها ، كما جاء بأكثر تفصيل في الجزء الاول من الذكريات . اذكر من تلك الصحف البيروتية : « لسان الحال » و«الحقيقة» و« الاتحاد » و« الاخوال » و«النصير » و«البرق» و« الحارس » و«الاصلاح» و«الاقبال» فكانت جميعها ، بفضل اصحابها ومحرريها الادباء ، اصدق معبر عن شعور الشعب وابتهاجه بالعهد الجديد الذي يوحي الخير والسعادة للامة العثمانية عامةً وللاقطار العربية خاصةً .

قامت بيروت اثر اعلان الدستور بتظاهرات رائعة تعالت فيها الهتافات للحرية والاخاء والمساواة ، واقامت حفلات شائقة توالت فيها خطب الفصحاء البلغاء وازدانت بما افاضته قرائح الشعراء من اشادة بفضل الدستور.

ومما يجدر ذكره ان انصار العهد البائد لزموا بيوتهم اثناء تلك الحفلات والتظاهرات ، فمن ظهر منهم اسرع بمشاركة مواطنيه افراحهم . على ان الشرفاء من ذلك العهد الذين لم تصدر عنهم اساءة الى مواطنيهم ، ظلوا متمتعين بحرمتهم وكرامتهم في بيروت كما في غيرها من المدن ، باستثناء عدد قليل منهم كان عرضةً لانتقام بعض الاشرار الذين لا يخلو من امثالهم مكان .

الانتخابات النيابية

كان ابرز عمل دستوري قامت به الوزارة الاتحادية بعد اعلان الدستور هو اجراء الانتخابات النيابية لتمثيل الامة في مجلسها النيابي المسمى « مجلس مبعوثان » ، فتمت الانتخابات في كل مكان بحرية واطمئنان ، وقابل الشعب في ولاية بيروت نتائجها بالسرور والهتاف مشيدين بسلامتها من كل شائبة .

كان الفائزون بالنيابة عن بيروت واقضيتها الثلاثة، الوجيه الكبير رضى بك الصلح والعلامة اللبناني سليمان افندي البستاني والزعيم العاملي كامل بك الاسعد .

لا يستغرب انتخاب العلامة اللبناني نائباً عن بيروت فهو عثماني يحق له ما لغيره من العثمانيين من ترشيح نفسه في اي مكان اراده دون ان يؤثر ذلك في لبنانيته .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان فئة المعارضة لحكومة جبل لبنان قامت بدعوة اللبنانيين لانتخاب مبعوثين يمثلونهم في المجلس النيابي ولكنها فشلت امام الاكثرية اللبنانية المحافظة على الوضع الراهن الذي يتمتع به جبل لبنان بفضل نظامه الخاص .

حزب الاتحاد والترقي وحزب الائتلاف

كان طبيعياً ان تتألف في العهد الدستوري الاحزاب السياسية . فكان اولها وأقواها حزب الاتحاد والترقي ، وله يعود الفضل في التغلب على سياسة عبد الحميد الاستبدادية واحلال الدستور محلها . ولما اسندت الى اركانه الوزارة ، عهدت الى رجاله من مختلف العناصر بمعظم المناصب الهامة في العاصمة والولايات ، وبرزت آثار اتحادهم في جلسات المجلس النيابي وسائر الاعمال الوزارية والادارية . حينئذ تحركت الغيرة والكرامة في نفوس خصومهم من النواب العرب والترك والروم والارمن والاكراد والالبان فقاموا في اواخر مدة نيابتهم سنة ١٩١٢ بتأسيس حزب سياسي معارض اسموه حزب الائتلاف انتسب اليه عدد غير قليل من الطبقة المتعلمة الراقية ، وأسسوا اسوةً بالاتحاديين ، في العاصمة والولايات ، مكاتب لحزبهم وأندية خاصة للاجتماع والدعاية ، واخذت بناصرهم بعض الصحف وفي مقدمتها جريدة « الحضارة » التي تصدر في العاصمة ، لصاحب امتيازها الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، نائب حمص ، وجريدة «الاصلاح» في بيروت ، لصاحبها الشيخ احمد طباره . وكان رضى بك الصلح ، مبعوث بيروت ، من اركان هذا الحزب اما زميلاه البستاني والعاملي فظلا مخلصين لحزب الاتحاد والترقي .

ان المنتدى الادبي الذي اسس في العاصمة بهمة طلاب المدارس العالية، وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل، كان في واقع الحال مجتمع ابناء العروبة من نواب وموظفين وطلاب المعاهد العالية، واخذوا جميعاً يقومون بالدعاية لرفع شأن العرب والمطالبة بحقوقهم في مختلف المصالح الحكومية ، ويؤيدون حزب الائتلاف لجمعه معظم النواب العرب . على ان حزب الاتحاد والترقي قد سبق وضم اليه نخبةً ممتازة من العرب والروم والارمن وغيرهم من

سائر العناصر الى اكثريته التركية. فكان الحزبان يتناظران في الولايـــات العربية ولاسيما في بيروت وسورية وقد تجلى في تناظرهما ودعايتهما الرقي الاجتماعي والادب الرفيـــع والسياسة الرشيدة وحرية الكلام والنشر دون ان يكون فيهما ما يشين السمع والذوق السليم.

حفلة حزب الائتلاف في بيروت

استعد حزب الائتلاف في بيروت ، عام ١٩١٢ ، لاقامة حفلة شائقة للدعاية بمناسبة قدوم شكري بك العسلي،الدمشقي المعروف ، ولطفي فكري ، الخطيب التركي الذائع الصيت ، وكلاهما من كبار مؤسسي الحزب . وقد دعي اليها عدد كبير من الوجهاء والادباء ، كهولاً وشباناً ، وفي مقدمتهم اركان حزب الاتحاد والترقي والموالين من الاخوان اللبنانيين . وكان بين هؤلاء رجل معروف بلطفه وظرفه ومحافظته على صداقته ومسايرته للفريقين مسايرته لجميع الناس . وقد نقل الي الشاب الناهض رياض بك الصلح العامل منذ حداثته وبكل قواه لتحقيق فكرة استقلال العرب، تفصيل الحفلة على الوجه التالي:

في الوقت المعين اكتمل عقد المدعوين واخذ كل مكانه بدلالة اللجنة الموكول اليها امر راحة المجتمعين وانشراحهم . وكانت مقاعد الجانب الواحد من البهو الكبير ، على رحبه ، مخصصة لرجال حزب الاتحاد والترقي ، يقابلها مقاعد حزب الائتلاف . وقبل اعلان افتتاح الحفلة ، ظهر الرجل اللطيف الظريف واقفاً في مدخل البهو يحدق بكلتا عينيه مستعيناً بالنظارات ، في الحضور ، والكل شاخص اليـــه ، شغوف بمعرفة الجهة التي يختارها لجلوسه . وما لبث بعد قليل من التأمل ان تقدم وجلس في صدر البهو بين الفريقين . فأسرع رياض بك وجلس عن يمينه وجلس عن يساره احد المداعبين من الاتحاديين .

ولما اخذ الخطيب لطفي فكري يسحر الالباب بعذب بيانه ، همس رياض في اذن جاره سائلاً عن رأيه في الخطاب ، فأجابه على الفور : « انه الدر كل الدر » . وسأله جاره اليساري الاتحادي، وقد علق باذنه لفظ الدر ،فأجابه همساً : « يصلح للكر والفر » . وما انتهى الخطيب من القاء كلمته حتى تهافت شبان الفريقين حول حمد بك يداعبونه بأسئلتهم وهو يجيبهم معتقداً انه احسن التخلص مع كل منهم .

وهكذا اثبت البيروتيون واللبنانيون معاً حرصهم عـــلى ايراد النكتة في كل مناسبة بالاضافة لما حباهم الله من مواهب عالية .

فتور الشعور بالواجب نحو الدولة

بعد الانقلاب العثماني اغتنمت الدول الاوربية المجاورة فرصة انشغال حكومة الاتحاديين بتأمين الاستقرار في البلاد . فأعلنت بلغاريا استقلالها التام الناجز — وكانت حتى ذاك التاريخ امارة مستقلة تابعة من الناحية السياسية فقط للدولة العثمانية — وأعلنت اليونان ضم جزيرة « كريت » اليها ، والنمسا الحاق ولايتي « بوسنه » و «هرسك » نهائياً بها . ثم جاء دور ايطاليا ، فأعلنت الحرب على الدولة العثمانية واحتلت فوراً ساحل ليبيا (طرابلس الغرب وبنغازي) في اواخر ايلول عام ١٩١١ ، فلم يجد رجال الدولة آنئذ في نفوس السوريين واللبنانيين التأثر الذي كانوا ينتظرونه منهم ، بالرغم من ظهور البوارج الحربية الايطالية في عرض البحر السوري وضرب احداها مرفأ بيروت ، حيث اوقعت ضرراً في بناء المصرف العثماني .

ولما مرت احدى البوارج امام ميناء طرابلس ، لم يظهر على الاهلين كبير اهتمام ، رغم ذعر المتصرف ورجال حكومته ودعوتهم آغوات الدنادشة الى طرابلس والاتفاق معهم على نقل دفاتر الحكومة الى بلدة تل كلخ اذا حاولت البارجة انزال عسكرها الى البر .

وما كادت هذه الحرب تنتهي بخسارة ليبيا لمصلحة ايطاليا حتى قامت دول البلقان ، اليونان وصربيا وبلغاريا والجبل الأسود ، تعلن الحرب على الدولة العثمانية في خريف عام ١٩١٢ ، وقد انتهت في وقت قريب بخسارة مكدونيا وضمها الى الدول الظافرة ، مع مراعاة النسبة العرقية في كل منها . ولم يبق في حوزة الدولة العثمانية من ذلك القسم الاوربي سوى الجزء الشرقي من ولاية « ادرنه » بما فيه مركز الولاية ، حتى بحر ايجه وحدود ولاية اسطنبول .

ان هذه النتيجة التي آلمت العنصر التركي ومحبيه ،لم تغظ العاملين سراً في سبيل وحدة العرب واستقلالهم ، وظاهراً في سبيل توسيع صلاحيات الولايات بدلاً من المركزية الضيقة التي تتطلب الاستئذان من العاصمة في كل اصلاح اداري او مالي او عمراني ، بل زادت في نشاطهم ، موحيةً اليهم امكان الوصول الى استقلال اداري ، بمعونة فرنسا بشأن سورية ولبنان ، ومعونة بريطانيا العظمى بشأن العراق وباقي شبه الجزيرة العربية . وقد الف هؤلاء العاملون فيما بينهم حزباً دعوه « حزب الاصلاح » ، غير مرتبط بأحد الحزبين الاتحادي والائتلافي. وكان في مقدمة اركانه ابو علي سلام ومختار بيهم والصحفي اللامع الشيخ احمد طباره وعدد غير قليل من الشبان المثقفين .

كامل باشا في بيروت

في عام ١٩١٣ مر ببيروت كامل باشا الصدر الاعظم السابق وأحد عظيمَي الدولة العثمانية آنئذٍ (كامل باشا وسعيد باشا) بطريقه الى اوربا ، وكان غير راض عن سياسة الاتحاديين . فدعي الى حفلة اقيمت لتكريمه في منزل الوجيه الكبير يوسف سرسق ، حضرها والي بيروت بكر سامي بك ومتصرف جبل لبنان اوهانس باشا وأهم رجال حزب الاصلاح. واخذ الخطباء وفي مقدمتهم الشيخ احمد طباره يرحبون بالمحتفى به معلنين طلبهم اصلاح الادارة الحكومية على قاعدة « اللامركزية » الواسعة واعطاء العرب حقهم في ادارة شؤونهم . فكانت هذه المجاهرة من قبل اخوان الوفد الموجود في باريس مطالباً بالاستقلال الاداري لسورية ، اول حركة من السوريين اهتمت لها العاصمة واسترعت انتباهها لكل ما يبدو من العرب من أقوال وأفعال. وكان من آثار هذا الاهتمام ان قضى على المعارضة وتظاهراتها كما هو وارد في بحث آتٍ .

ومما يجدر ذكره كدليل على اعتقاد بعض ساسة الترك ان السوريين رجال اقوال هو ما صدر عن المحتفى به اثناء الحفلة . فقد كان يتحدث تارةً الى واليبيروت الجالس عن يمينه وطوراً الى حاكم لبنان الجالس عن يساره ، ولما وصل احد الخطباء الى تعداد مناقبه العالية، التزم حاكم لبنان السكوت التام،لافتاً نظر كامل باشا الى الخطيب وبراعة اسلوبه فأجابه : « ان الخطابة وقرض الشعر هما من عرف أهل هذه البلاد فلنثابر على حديثنا » . ولكن في انقضاء ثلاث سنوات على قول كامل باشا ظهر خطأه في قيام ابناء يعرب بثورتهم العربية في سبيل استقلال بلادهم ، وفي طليعتهم ابناء سورية ولبنان .

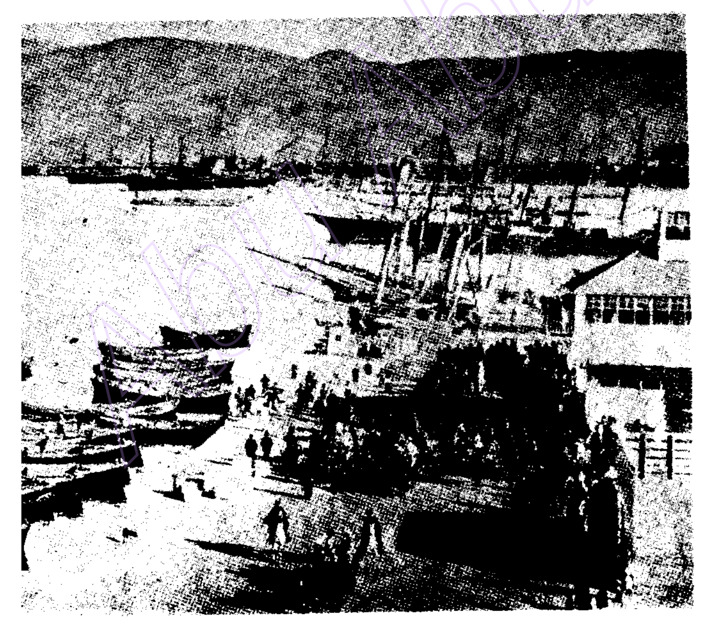
من آثار النهضة العربية

لقد كان من اثر نهضة العرب ان قام اركانها في بيروت وسورية في وجه الحزب الاتحادي الحاكم مطالبين اولاً بحق العرب في المناصب الحكومية العالية وادارة الولايات على قاعدة « اللامركزية » واصلاح شؤون البلاد العربية وكلها داخل في حوزة الدولة العثمانية . وتألف لهذه الغاية عدة جمعيات توسعت في اهدافها يوماً فيوماً ، فاستهدف بعضها جمع شمل العرب ، واقتصر البعض الآخر على مصير سورية . فمن قائل بوجوب العمل لاجل استقلالها اسوةً بلبنان ، الى قائل باستقلالها الكامل ولو استند في بدايته الى معونة فرنسا او بريطانيا العظمى صديقة العرب (آنئذٍ) . وبدأت الاتصالات بين

فرقة موسيقى الجند اللبناني عام ١٨٩٨

سراية بعبدا مقر الحكومة الشتوي

البرج عام ١٨٨٥



استقبال رسمي في مرفأ بيروت
حوالى عام ١٩٠٠

مندوبي هذه الجمعيات وزملائهم في البلاد العربية ولا سيما في دمشق والقاهرة حيث يكثر العاملون في الحقل السياسي والصحفي من لبنانيين وسوريين .

وقام من جهة ثانية بعض المفكرين اللبنانيين بتوقيع عريضة رفعوها الى وزارة الخارجية الفرنسية بواسطة قنصلها العام في بيروت يلتمسون معونتها لتوسيع حدود جبل لبنان بان يشمل بيروت وأقضية صيدا وصور ومرجعيون والبقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا ، فيعرف بلبنان الكبير . وقد ظهر فيما بعد بين موقعي هذه العريضة اسماء السادة الاخوين فريد وفيليب الخازن الشيخين اللبنانيين ، وميشال تويني ويوسف الهاني الوجيهين البيروتيين ، ونخله باشا مطران من وجهاء بعلبك ، كما هو مفصل في ابحاث عهد الارهاب.

الفصل الثالث

جبل لبنان في مطلع عام ١٩١٣

طبيعته وأبناؤه

مما يقتضي الانصاف الجهر به في هذا البحث هو ان جبل لبنان الممتاز بنظامه الخاص ممتاز ايضاً بجمال طبيعته وكثرة هضابه وأوديته وتنوع مناظره الخلابة وعليل هوائه وعذب مياهه حتى جمع كل ما يستهوي الانسان في كل فصل من فصول السنة الاربعة. ان هذا الجبل المتحدرة شعابه من قمم الثلوج فوق الارز وصنين حتى ساحل البحر الممتد من طرابلس الى صيدا، قد امتاز ايضاً بسكان جمعوا بين الاقدام والاتزان والشجاعة والايناس والقوة واللطف والذكاء والدأب على العمل؛ عقلوا وتوكلوا على الله وجعلوا من اودية جبلهم الاشم جنات ومن صخوره الجرداء غابات ومن قراه مدناً عامرة ومن اكواخه وكهوفه دوراً وقصوراً شامخة؛ جبلوا على الكرم وتسابقوا في قرى الضيف فكان بينهم اكثر من حاتم، تعشقوا الفروسية ونبغوا في العلم على اختلاف فروعه وقلما تجد قرية من قراهم خلواً من معلم ومحامٍ وطبيب وصيدلي من اهلها. وجادت قرائحهم بالحكم وخيال الشعر وتفننوا بالزجل واحبوا النكتة فلا يدعون الفرصة تفوتهم لايرادها في اوانها. برعوا في التأليف في شتى العلوم وأجادوا في نثر قواعد اللغة العربية وكتب الادب وانشاء الصحف في بيروت ومصر والمهجر فكان منهم خيرة رجال الثقافة والنهضة الوطنية.

احبوا وطنهم ولما هجره قسم كبير من ابنائه طلباً للارتزاق والاثراء ذكروه بالخير ومدوه بأسباب الرقي والعمران وانماء الثروة وكانوا صلة التعارف بين الوطن والمهجر.

تاريخ الهجرة من لبنان وسورية الى العالم الجديد

بدأت الهجرة من لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى الغرب اولاً ثم

الى العالم الجديد وقد وجد فيه المغترب ما يضمن رزقه وحياته الحرة فأخذ يتبعه تدريجياً عدد من ذوي قرباه وجيرانه . وحذا حذوهم السوريون حتى بلغت الهجرة حدها الاعظم في اواخر القرن المذكور وأوائل القرن العشرين .

كان ضيق ذات اليد السبب الرئيسي للهجرة ، لان ضيق حدود جبل لبنان بموجب نظامه الدولي الموضوع سنة ١٨٦١ وحرمانه من الارض الصالحة للاستثمار لا يتفقان مع نشاط اللبنانيين وجهودهم الجبارة التي جعلت من صخور التلال والاودية جنة غناء . ولم يروا فيما وراء حدود جبلهم البرية ما كانوا يتمنونه من امن وحرية يقابل ذلك ما احرزوه في المهجر من تأمين معاش وتوفير مال واطمئنان على الحياة والتمتع بالحرية . وتبعهم السوريون فكانوا جميعاً اخوة في غربتهم وأحرزوا مع الايام مقاماً مرموقاً وتفوقوا في بعض المدن والاقطار على غيرهم من المهاجرين والسكان ولم ينسوا اوطانهم الاصلية ولا اهلهم فبعثوا اليهم بقسم مما جنوه لتوفير المعيشة وبناء الدور والقصور والمدارس في نفس القرية التي غادروها مما جعل معظم قرى لبنان وبعض قرى سورية تفوق بأبنيتها وحضارتها الكثير من المدن في سائر انحاء المملكة العثمانية .

لقد شملت الهجرة عدداً غير قليل من الادباء والشعراء الذين لم يجدوا في محيطهم متسعاً للحرية التي ينشدونها بعد ان احرزوا القسط الاوفر من علومهم في المدارس الوطنية والاجنبية في لبنان وبيروت . فذهب بعضهم الى مصر واوربا ، والبعض الآخر الى الاميركتين حيث نشروا بنات افكارهم نثراً وشعراً على اخوانهم في العروبة في صحف عربية كانت خير وسيلة للاحتفاظ بلغة الضاد بين ابنائها المغتربين ولزيادة العلاقات بينهم وبين ذويهم في لبنان وسورية .

الحزبية في جبل لبنان على وجه عام

قامت الحزبية في كل مكان من العالم بسبب تنافس ابناء القبيلة او القرية في احراز المنافع المادية والمعنوية ، ومن هذه الاخيرة التفوق في الوجاهة والظهور والانتصار لفكرة معينة . وقد عظمت الحزبية اخيراً في مختلف البلدان الديموقراطية التي يدير شؤونها حكومات دستورية خاضعة لاشراف الشعب بواسطة ممثليه ، وتألفت الاحزاب على نظام خاص يأمل كل منها الوصول الى احراز الاكثرية في الانتخابات النيابية توصلاً الى تسلم الحكم وادارة اموره الداخلية والخارجية وعرفت بالاحزاب السياسية .

ولما اصبح جبل لبنان مستقلاً عن السلطنة العثمانية استقلالاً ادارياً بموجب نظامه الخاص (١٨٦١) انحصرت المسؤولية الادارية في حاكمه المتصرف وهو يختار من اللبنانيين جميع الموظفين لمختلف المصالح الادارية والقضائية ، ولديه مجلس ادارة محدود الصلاحية ينتخب الشعب اعضاءه ، دون ان يكون لحكومة المتصرف اي اتجاه سياسي خارجي ، وذلك بفضل بقاء جبل لبنان حائزاً الصفة العثمانية واشراف الدول الاوروبية العظمى الست على ضمان استقلاله الاداري . لذلك ظلت الحزبية في جبل لبنان من ذلك التاريخ داخلية بحتة غير مرتبطة بنظام وغير خاضعة لاشراف او تدخل من قبل الحكومة ولا مستهدفة اي سياسة خارجية سوى الافادة من كل ذي نفوذ عثمانياً كان او اجنبياً ، لمجرد ضمان المنطقة المحلية المنوه عنها .

اقبل وجهاء اللبنانيين وذوو السعة والعلم والمعرفة منهم على كسب ثقة الحاكم صاحب الكلمة العليا بما تيسر لكل منهم من وسائل الظهور ، توصلاً للاشتراك في ادارة شؤون الجبل ، وتنافسوا في احراز المناصب الادارية والقضائية ووظائف الدواوين اعتقاداً منهم بان القائمين بهذه المهام هم في الحقيقة مديرو سياسة لبنان الداخلية ومديرو شؤونه العامة ، حتى اعتبر في وقت ما شيوخ الصلح ومختارو القرى وموظفو البلديات من رجال السياسة . فكان هذا الاقبال على وظائف الحكومة من قديم الزمن سبباً لتنازع الزعماء وذوي النشاط حول الاشتراك في الحكم ، وانقسموا احزاباً تغلبت لحسن الحظ على الطائفية الدينية او المذهبية . فلم يبق من اثر للتزاحم والتناظر بين طائفة واخرى بل انحصر ذلك في الاحزاب المتعددة ضمن كل طائفة على حدة . ودامت الحال على هذا المنوال حتى وقوع الحرب العالمية الاولى .

الحزبية في الشوف

ان الحزبية في لبنان قامت اولاً في قضاء الشوف بين الدروز الذين يؤلفون اكثرية سكانه . وهي قديمة العهد تعود الى زمن انتقال الحزبية القيسية اليمانية اليه . ولما غلبت اليمانية على امرها ورحلت شرقاً الى جبل الدروز في لواء حوران ، خلا الجو في قضاء الشوف للقيسيين . ولما بدا الخلاف بين زعمائهم ، وهم من آل جنبلاط وعماد وبو نكد وعبد الملك وتلحوق ، حول حاكمية الشوف ، نزلوا عند رأي احدهم التلحوقي ، واتفقوا على اسنادها الى امير ارسلاني ظل دوماً على الحياد . وتعاقب على الحاكمية عدة امراء

ارسلانيين الى ان دب الخلاف ثانيةً بين زعماء القيسيين، وكان اقواهم الحزب الجنبلاطي يقابله الحزب اليزبكي المؤلف من آل عماد وعبد الملك، مع تمسك الباقين بالحياد.

في مطلع عام ١٩١٣، وهو بدء عهد اوهانس باشا قيومجيان، آخر متصرفي جبل لبنان المعينين على مقتضى استقلاله الاداري، كان نسيب بك جنبلاط، كبير آل جنبلاط وزعيم الحزب الجنبلاطي، قائم مقام على قضاء الشوف، وقد امتاز بحسن الخلق مع الثروة والسخاء الموروثين من ابيه وجدوده، مما جعل بيته موصوفاً ببيت مال الدروز.

وكان فؤاد بك عبد الملك عضو المجلس الاداري، ومصطفى بك العماد رئيس محكمة الاستئناف الجزائية معتبرين في طليعة زعماء الحزب اليزبكي، يشتركان في ادارة شؤونه بصورة خاصة دون ان يكون لهما علاقة بوظيفتيهما الرسمية.

ان قبول رجل ثري وسري كنسيب بك جنبلاط وظيفة قائم مقام لا يستغربه القارىء الكريم بعد ما اوضحنا له اهمية الوظيفة في نظر اللبنانيين واعتبارهم رئاسة الادارة في القضاء شبيهة بكل رئاسة ادارية في الولايات والالوية نفوذاً وجاهة.

اما الامراء الارسلانيون فلم يكونوا في الاصل داخلين في الحزب كما سبق ذكره ولكنهم ساروا فيما بعد على خطة المحيط الذي عاشوا فيه. وحين انقسموا على بعضهم لاسباب عائلية، حالف فريق منهم، وعلى رأسه الامير توفيق مجيد ارسلان، الحزب اليزبكي، وعطف الفريق الآخر ورئيسه الامير مصطفى ارسلان على الحزب الجنبلاطي.

والحقيقة التي لا ريب فيها هي ان الامير مصطفى ارسلان كان صاحب المكانة الاولى، محافظاً على مهابته ووقاره بعد ان قام في شبابه بدوره الهام، ورأى تقدم ابنائه في مناصب الدولة العالية، فكان ابنه الامير محمد نائباً عن اللاذقية في المجلس النيابي في العاصمة اسطنبول، وبعد موته شهيداً اثناء هجوم الجيش الحميدي على المجلس (١٩٠٩) خلفه في النيابة شقيقه الامير امين الذي سبق ان تولى منصب المتصرف في عدة الوية.

كان الامير عادل ارسلان الشاب الرفيع التهذيب الرفيق المفضل عند عمه الامير مصطفى المشار اليه، بينما كان الامير شكيب ارسلان الاديب والسياسي يعمل لمصلحة الدولة العثمانية مع اركانها الاتحاديين.

كان شيخا العقل حماده وطليع من خيرة العقال صلاحاً وتقوى حائزين احترام جميع الناس رغم اختلافهما في النزعة الحزبية، فأولهما جنبلاطي والآخر يزبكي. وكان آل حماده

ولا يزالون يفاخرون بسبق حكمهم المتن والشوف قبل حكم الشهابيين . اما الشيخ الورع الفاضل سعيد حمدان قاضي المذهب الدرزي ، فكان بحكم وظيفته لجميع ابناء ملته رغم صلة القرابة بينه وبين آل جنبلاط .

كان بين المعروفين برقيهم ومكانتهم العائلية – كآل تلحوق وعبد الصمد وتقي الدين وزين الدين وعلم الدين – من يميل بعض الميل الى احد الحزبين القويين دون افراط وتعصب . اما القاضي الكبير عباس حميه رئيس محكمة الشوف وآله ، والاستاذ الاديب عارف نكد رئيس ديوان دائرة الحقوق الاستئنافية وجميع آل نكد ، فكانوا دوماً الى جانب الامير مصطفى ارسلان .

الحزبية بين الموارنة وأثرها في قضاء الشوف

كانت الحزبية بارزة بين فريقي الموارنة في قضاء الشوف وبلدة دير القمر المديرية المستقلة الكائنة في وسطه : فريق آل الخوري والمعوشي بزعامة حبيب باشا السعد من آل الخوري، وفريق آل عمون وشمعون ورشيد نخله ومعظم آل البستاني . ولكل فريق انصار داخل الشوف ودير القمر وخارجها : فالشيخ كنعان الضاهر ، من زعماء ناحية الزاوية في شمالي لبنان ، خال حبيب السعد ، ونجيب بك الضاهر واخوته في بشراي ومعظم آل عواد في حصرون وبعض آل خازن في كسروان ممن يتصلون بصلة المصاهرة بآل السعد هم من انصار الفريق الاول . بينما يناصر الفريق الثاني جميع اهالي دير القمر وقسم من اهالي قضاء الشوف ، وفي مقدمتهم رشيد بك نخله صاحب «الفريديس» (الذي عرف بأمير الشعر الزجلي) وآل البستاني اهل العلم والفضل المشهورين وسليمان بك كنعان عضو المجلس الاداري عن قضاء جزين وانطون بك الخوري كبير وجهاء تنورين وعزيز بك الضاهر واخوانه في بشراي وغيرهم .

لما خاب امل حبيب باشا السعد واخوانه في احراز ما يبتغونه من مناصب حكومية في عهد المتصرفين مظفر باشا ويوسف فرانكو باشا ، الفوا جبهة معارضة انتظم في صفوفها كل من اقصي عن الوظيفة بسبب ما او لم يفز بما يرجوه من الحكومة من سائر الطوائف.

ولا ينكر وجود عدد كبير من الاهلين ولاسيما المتعلمين والمغتربين محافظ على حياده بين الفريقين ، متمنياً الخير للبنان والتوفيق لحكومته ، ذاكراً كلاً من رجالها بعمله.

لما حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وعقبه اعلان الدستور كان يوسف فرانكو

باشا لا يزال متصرفاً في جبل لبنان ، لم تنقض مدة حاكميته . فتألفت في بيروت كما في سائر الولايات العثمانية الاحزاب السياسية وكان اولها وأهمها حزب الاتحاد والترقي القائم في واقع الحال على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني واجلاس اخيه السلطان رشاد على العرش العثماني . حينئذ انتمى حبيب باشا السعد مع بعض اخوانه اللبنانيين الى جمعية الاتحاد والترقي فانتخبته رئيساً لفرعها في بيروت آملة من وراء ذلك ان يتمكن من جر ابناء وطنه اللبناني الى حضن امهم اسوةً بأهل بيروت ، فبذل نشاطاً بارزاً في اقواله وأفعاله حتى انه طالب بأن ينتخب لبنان نواباً (مبعوثين) عنه الى العاصمة اسوةً بالولايات ولكنه فشل في مسعاه بناءً على اصرار معظم اللبنانيين على الاحتفاظ باستقلالهم الاداري المضمون بنظامه الخاص واشراف دول اوربا العظمى الست على تطبيقه دون اي تدخل في ادارته .

لما يئس السعد واخوانه اركان المعارضة من النجاح في مسعاهم ومن كسب ثقة حاكم لبنان اخذوا يكثرون من زياراتهم الى ذوي المقامات العالية في بيروت ولا سيما رجال الولاية والقنصلية الفرنسية العامة ، مؤيدين اخلاصهم لدولتهم العثمانية اولاً ثم لفرنسا.

ولما كان المعروف عن متصرف جبل لبنان يوسف فرانكو باشا وكبير امناء سره نصيف بك الريس وقائم مقام الشوف نسيب بك جنبلاط والامير توفيق مجيد ارسلان واخوته ومصطفى بك العماد رئيس دائرة الاستئناف الجزائية وفؤاد عبد الملك نائب الشوف في مجلس الادارة ، حسن صلاتهم بالقنصلية البريطانية العامة في بيروت وعلى رأسها مستر كمبرباش يتبع خطواتهم معظم كبار موظفي ذلك العهد ، وكان التناظر بين هذه القنصلية والقنصلية الفرنسية بالغاً اشده فيما يتعلق بسياسة لبنان وشعبه وادارة حكومته . لذلك كله وجدت المعارضة في القنصلية الفرنسية ملاذاً يأخذ بناصرها ويشد ازرها واقترنت جهود حبيب باشا السعد في هذا السبيل بجهود الامير مصطفى ارسلان صاحب المكانة البارزة لدى اولياء الامر في الدولة العثمانية والناقم على خطة ابناء عمه الامير توفيق مجيد واخوته . فسافر وفد من المعارضة الى العاصمة قبيل انتهاء مدة حكم يوسف فرانكو باشا ، وكان من نتيجة مساعيه ان المرشح لمتصرفية جبل لبنان اوهانس باشا قيومجيان مستشار وزارة الخارجية العثمانية قطع على نفسه عهداً لسفير فرنسا بانه فور وصوله الى لبنان يعين حبيب السعد نائباً عنه في مجلس الادارة ويقيل نصيف الريس من مديرية القلم التركي وقد انجز حر ما وعد فعظم حزب حبيب السعد وأمل انصاره ان يفوزوا بأكثر

مناصب الحكومة ووظائفها حسبما الفته كل معارضة حين قدوم الحاكم الجديد ، وغصت قنصلية فرنسا العامة في بيروت بجماهير طلاب الوظائف بينما قبع خصومهم في مراكزهم حائرين في معرفة مصيرهم .

لم يكن رجال الاقليات في قضاء الشوف اقل اهتماماً بسياسة الحكومة اللبنانية من اخوانهم الموارنة والدروز ، ولكنهم كانوا اقل نشاطاً في الحزبية ورغبةً في الانتظام في صف المعارضة .

اجماع الكلمة في دير القمر

دير القمر المركز القديم لحكومة جبل لبنان تكاد تكون البلدة الوحيدة التي سلمت من الانقسام الحزبي بفضل رقي ابنائها وتعقل رجالاتها من آل عمون وشمعون وافتيموس وهنود وخير ومشاقة وكلهم يعتبر بلدته هذه العاصمة الحقيقية التي جاهدت افضل جهاد في سبيل لبنان قبل عام ١٨٦٠ . وقد بني على بعد اربعة اميال منها قصر الامير بشير الشهابي في بيت الدين المقر الصيفي لدوائر الحكومة المركزية في مختلف العهود حتى عهد اوهانس باشا قيومجيان (١٩١٣) . لهذه الاعتبارات وغيرها من الحوادث التاريخية ظل الديريون يقاومون نفوذ كل شوفي تحدثه نفسه بالانتقاص من قيمة بلدتهم واهميتها ومن حقهم في ادارة اهم شؤون الجبل . وكان في مقدمة المدافعين في كل مناسبة عن وجهة نظرهم ، الاخوة الثلاثة سليم واسكندر وداود عمون ونمر بو شمعون رئيس ديوان المالية في الحكومة المركزية وكلهم خصم قوي عنيد لحبيب السعد وسياسته .

كانت دير القمر محرومةً من نائب يمثلها في مجلس الادارة وربما كان السبب في ذلك قلة عدد سكانها بالنسبة لاصغر قضاء في جبل لبنان. ولكن مساعي اهلها المتواصلة قد اقترنت باتفاق الدول السبع على قبول اقتراح احداهن ، فرنسا ، بأن تنتخب دير القمر — باعتبارها مديرية مستقلة مرتبطة مباشرةً بحاكم الجبل — نائباً عنها اسوةً بسائر الاقضية .

وبديهي ان تقوم بريطانيا العظمى بدورها ، بصفتها حامية حقوق الدروز ، باقتراح علاوة نائب درزي عن قضاء جزين ، حيث تكثر املاك الدروز وأراضيهم ، على ان ينتخب في قضاء الشوف الجامع لاكثرية درزية ، فقبل اقتراحها ايضاً . وقد رافق هذا التعديل في نظام جبل لبنان تعيين متصرفه الجديد اوهانس باشا قيومجيان في نهاية عام ١٩١٢ .

ومن حسن حظ دير القمر اجماعها على انابة داود بك عمون المحامي المعروف المقيم في مصر ، وهو من اعلام لبنان ، قوي الحجة ، عالي الثقافة ، يتقن الفرنسية اتقانه لغته العربية .

ومما يجدر ذكره في صدد اخلاص الاخوين داود واسكندر عمون لبلدهما ، المفارقة في ميولها السياسية . فأولها يفضل فرنسا على غيرها من الدول الاوربية ، بينما يفاخر الثاني اسكندر بك بعروبته موالياً لسياسة بريطانيا العظمى باعتبارها صديقة العرب المفضلة آنذاك على سواها من الدول . وظل الاخوان على هذه المفارقة حتى الحرب الكبرى وبعدها كما هو مفصل في الجزء المتعلق بسورية في فجر الاستقلال .

اهدن وزغرتا والزاوية

اهدن وزغرتا مقران لشعب واحد في شمالي لبنان ، اهدن مصيفه وزغرتا مشتاه . كان زعيمه البارز اسعد بك كرم (ابن شقيق البطل اللبناني يوسف بك كرم المحفوظ جثمانه في كنيسة اهدن) قائم مقام قضاء البترون الشامل القسم الاكبر من لبنان الشمالي. ولما وقع الخلاف على المنصب والزعامة بينه وبين اخيه بطرس بك ، اسند حاكم ذلك العهد الى بطرس بك رئاسة دائرة الحقوق الاستئنافية في مركز المتصرفية فأزال بذلك ، الخلاف والنزاع بين الاخوين وأنصار كل منهما .

وبعد وفاتهما دون قيام من يخلفهما في الزعامة من اسرتهما ، برز نفوذ آل فرنجيه وعين زعيمهم قبلان بك مديراً للناحية ، وكان في واقع الحال زعيماً حميد الخصال ومن ابرز مزاياه كرم الخلق وكرم اليد . وكانت شقيقته السيدة سلطانه قرينة الوجيه قيصر طربيه تدير دفة الزعامة والسياسة المحلية بما اوتيت من ذكاء ودهاء فكان لديها عصبة من ابناء زغرتا والزاوية تعتمدهم كل ما دعت الحاجة الاقطاعية بل كلما قضت الضرورة للذود عن حقوق ابناء هاتين الناحيتين وصد تسلل المعتدين القادمين من القرى المجاورة الخارجة عن الحدود اللبنانية .

لم يسلم قبلان بك ، شأن كل زعيم ، من مناوئين من آل كرم ودويهي ومعوض وبولس ، فأجمعت كلمتهم على الالتفاف حول الوجيه ميشيل معوض المتصف بالتعقل والرزانة وحسن التفكير والتدبير لمقاومة نفوذ آل فرنجيه ، فظل الزعيمان قبلان بك وميشيل بك بطلا الميدان يختصمان حيناً ويتفقان اذا ألمت ملمة من الخارج .

اما ناحية الزاوية المحيطة بزغرتا فكان زعيمها بلا منازع ، الشيخ كنعان الضاهر ، بينما تميز آل طربيه بين وجهاء الناحيتين بالابتعاد عن الحزبية ، منصرفين الى الشؤون الاقتصادية الهامة من زراعية وتجارية .

بشراي وحصرون وبزعون

في بشراي مركز الناحية المعروفة باسمها، حزبان يتنازعان منصب مديريتها، يتزعم احدهما نجيب بك حنا الضاهر ويتزعم الآخر ابن عمه عزيز بك . ولما كان الاول ابن خالة حبيب السعد ومن انصاره ، كان الثاني من انصار نصيف الريس . ولكن الحزبية لم تكن شديدة الوقع في بشراي، لانحصارها بين ابناء عم في التزاحم على النفوذ المحلي وعلى منصب المديرية فحسب ، بينما ظلت العائلات البارزة، كآل عريضة وكيروز والخوري ورحمة وجعجع على الحياد التام بين فريقي ابناء عم .

ان زعيم حصرون الحقيقي هو المطران بولس عواد ، ومقره في قرنة شهوان في قضاء المتن ، ولكنه يصطاف غالباً في بلده حصرون ، وأهلها يكنون لسيادته كل اجلال واحترام ولا يزاحم احد منهم اخاه الشيخ يوسف عواد في منصب مديرية الناحية .

اما بزعون الواقعة بين حصرون وبشراي فهي على صغر مساحتها بالنسبة الى جارتيها لم تسلم من الانقسام الى حزبين : اولهما حزب يوسف بك شعيا الملقب بحاتم لبنان، والثاني حزب الشيخ قزحيا شيخ الصلح ، دون ان يتجاوز هذا الانقسام حد التناظر في الوجاهة والنفوذ حول انتخاب شيخ الصلح والمختار ومقابلة كبار الزائرين من الحكام وغيرهم .

البترون وقنات ودوما وتنورين

قضاء البترون يشمل المنطقة الشمالية من جبل لبنان باستثناء قضاء الكوره . وبلدة البترون الساحلية الجميلة هي المركز الشتوي لحكومة القضاء ، اما المركز الصيفي فكان سابقاً في قرية كفرصغاب ، لتوسطها بين اهدن وبشراي الكثيرتي التناظر ، بينما سلمت كفرصغاب من كل تناظر لانحصار وجاهتها في آل اسطفان المحافظين على الحياد بين سائر الاحزاب في البلدان والقرى المحيطة بهم .

حوى هذا القضاء الواسع سبع مديريات هي اهدن وبشراي وحصرون — وقد سبق ذكر كل منها — وقنات ودوما وتنورين ومركز البترون .

لم تخل البترون من الحزبية ولكنها حزبية غير خطرة نظراً لدماثة خلق اهلها وتعقلهم. وكان مديرها ابراهيم بك عقل معروفاً بالابن الروحي المختار لدى غبطة البطريرك الحويك، فكان وحاشيته يحلون في منزل المدير الموما اليه على الرحب والسعة حين انتقالهم في كل سنة من المقر الشتوي في بكركي الى المقر الصيفي في الديمان وحين عودتهم .

ظل ابراهيم بك زمناً طويلاً مديراً لناحية البترون وقد اتصف بحسن الادارة وكرم الخلق وقرى الضيوف الى ان نفي اثناء الحرب الى الاناضول كما هو مفصل في محله من الابحاث .

كان سعدالله بك الحويك شقيق غبطة البطريرك نائباً عن قضاء البترون في معظم الادوار . اما شقيقه الثاني ليون بك فكان بعيداً عن الوظائف الحكومية ، متضرفاً الى الاعمال الحرة اعتماداً على ما حباه الله من مزايا العلم والذكاء وحسن التدبير والدهاء . وكان من وجهاء البترون البارزين اسكندر بك المنير والسادة جرجي ويوسف سلهب ونقولا فارس وفارس بولس والاستاذ ارسانيوس على اتصال برجال الحكم شأن كل الوجهاء في كل بلد صغير .

كان مشايخ ابي صعب في قنات وآل بشير في دوما على الحياد بين الاحزاب خلافاً لما كان عليه جيرانهم وجهاء تنورين من آل طربيه والخوري ويونس الذين كانوا يتنازعون النفوذ والوجاهة فيما بينهم .

قضاء الكوره

لم ينفرد زعيم او وجيه في بلدة او قرية في هذا القضاء دون ان يكون له مناظر ، غير ان الاحزاب القائمة على تعددها تنتهي في الغالب الى اثنين يتنازعان الوصول الى منصب قائم المقام في القضاء او النيابة في مجلس الادارة .

كان المع شخصيات الكوره فيما سبق ، الشيخ جرجس العازار من وجهاء اميون مركز القضاء الصيفي ، ثم خلفه في النيابة الاستاذ جرجي تامر من حامات ، وقد توفرت فيه مزايا العلم والخلق الحسن ووفقه الله بزوجة عاقلة حكيمة من افضل سيدات البيوت فكانت عوناً له في نضاله الحزبي ابان الانتخابات وقد انجبا خليفة صالحة اضحت بفضل جهادها واستقامة سيرها ذات موقع بارز بين رجال الاقتصاد .

كان الدكتور محفوض طالب قائم مقام القضاء محباً للخير والسلام محافظاً على حياده

بين مختلف الاحزاب والنزعات. ولما كانت الثقافة منتشرة في قضاء الكوره والثروة موزعة بين سكانه بصورة متقاربة ، لم يكن للزعامة كبير اثر. فأميون وكسبا وبطرام وبشمزين وحامات لم تكن دون افضل قرى لبنان وقصباته رقياً ، فتسابق على الوجاهة في اميون آل عازار وطالب وشماس ويزبك ، وأجمعت كسبا على اختيار نقولا بك غصن زعيماً لها ثم نائباً عن قضاء الكوره في مجلس الادارة ، بينما انقسمت كفرعقا فريقين يتزعم احدهما خليل مطر مدير مال القضاء ، ويتزعم الثـاني المحامي اللامع نجيب بولس ، ويتراوح النفوذ الشعبي في بشمزين بين آل مفرج وآل حايك ، بينما تفاخر بطرام بوجاهة آل مالك دون سواهم وعلى رأسهم الدكتور حبيب مالك الطبيب الانساني المعروف ، وقد عاد ابن عمه الثري الهمام عزيز مالك من اوستراليا الى وطنه الاصلي فكان الاثنان يعملان معاً لخير بلدتهما والكوره جمعاء. والدكتور حبيب هو والد الدكتور شارل مالك وزير الخارجية في عهد رئاسة كميل شمعون بعد الحرب العالمية الثانية .

كان التزاحم على النفوذ في حامات كبيراً جداً بين فريقين من اهلها ، احدهما فريق آل تامر والخوري والثاني فريق مشايخ زخريا ، دون ان يكون بين جميع من سبق ذكرهم كبير تفوق في النفوذ والثروة والثقافة ؛ بل كانت الحيـاة الديموقراطية هي السائدة في القضاء باستثناء مديريته المعروفة بالشمالية وكان نصيبها من الثقافة ضئيلاً ، فظلت زعامتها منحصرة في زعمائها الامراء الايوبيين وقد نبغ منهم بعد الحرب العالمية الاولى الامير حسن وأحرز شهادة الحقوق وتقلد مناصب القضاء في سورية .

في قضاء كسروان

كان التناظر قائماً بين مشايخ آل الخازن وبين ممثلي الجبهـة الشعبية وفي طليعتهم حبيب بك البيطار وجورج بك زوين والدكتور الحقوقي بولس نجيم والمحامي الاستاذ نعوم باخوس ، وفي كل من هذين الفريقين رجال تمرنوا على الزعامة ونبغوا في متنوع مرافق الحياة .

كان السبب الرئيسي لقيام الجبهة الشعبية هو تمسك آل الخازن بمقتضيات المشيخة القديمة (الارستوقراطية) رغم تفوق الكثيرين من شبانهم ومن افراد الشعب على السواء في العلم والأدب .

. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان تلك المقتضيات قـد ازعجت المقام البطريركي

الماروني زمناً مما أدى أخيراً الى مناصرته الجبهة الشعبية وممثليها .

ولما كانت بلاد جبيل تؤلف قسماً هاماً في قضاء كسروان اضطر زعماؤها ، وجلهم مقيم في عمشيت ، من آل لحود وكرم ووهبه وكلاب وزخيا ، لتأليف جبهة مستقلة تأميناً لمصلحة ناحيتهم وتوصلاً للنيابة عنها ، وقد برزوا فيما عهد اليهم من وظائف ادارية وقضائية.

ان بلدة عمشيت التي عرفت في سالف الزمن بوجاهة ابنائها وكبير ثروتهم كانت تقرض الامراء الشهابيين ما يلزمهم من المال ، وقد حافظت على حسن سمعتها من ناحية الوفاء وحسن المعاملة ومكارم الاخلاق ولكنها فقدت كل اهمية عمرانية وأصابها ما أصاب جارتها التاريخية جبيل ذات الآثار التاريخية العظيمة بسبب بعدهما عن مركز الادارة الحكومية وعن بيروت مركز الحركة التجارية .

لقد سعى الوجيه اسعد بك لحود لدى الحكومات المتعاقبة لفتح وتوسيع الطريق بين جبيل وبعلبك املاً بأن تكون ممراً للسياح فتنتعش بزيارتهم اقتصاديات جبيل وجوارها ، وقد تم قسم ضئيل من هذه الطريق دون ان يكتب لها النجاح بالاكمال الا مؤخراً .

قضاء المتن

كان هذا القضاء ولا يزال في مقدمة اقضية لبنان رقياً وثروةً على وجه الاجمال ، انتشرت المدارس الخاصة في معظم قراه وأقبل اهلوه على معاهد العلم في بيروت ونبغ منهم عدد كبير في شتى ميادين الحياة ، لم تخل قرية من قراه من مدرس وطبيب وصيدلي ونشأ من بعضها ، كالشوير وبكفيا ، قضاة ومحامون وأساتذة في الفلسفة واللاهوت ولم يبق فيها امي واحد .

ان توفر الامن والراحة في هذا القضاء جعل من قراه الجبلية الجميلة كبيت مري وبرمانا وبعبدات وبكفيا وضهور الشوير وفالوغا وحمانا مصايف تقصدها الطبقة الراقية من اللبنانيين والسوريين والمصريين والعراقيين وغيرهم .

لم يبق في هذا القضاء من اثر للاقطاعية مع بقاء امراء ابي اللمع محافظين على وجاهتهم ، ومثلهم وجهاء الدروز كالمقدمين آل مزهر وصبره وشقير وابي عزالدين ، وقد ظلوا جميعاً على الحياد بازاء الاختلافات الحزبية العارمة بين اخوانهم في قضاء الشوف.

زحلة

كان تنازع النفوذ في زحلة منذ عهد يوسف فرانكو باشا منحصراً بين الوجيهين

الكبيرين يوسف بك البريدي عضو مجلس الادارة في مركز المتصرفية ، وابراهيم بك ابي خاطر قائم المقام ، فانقسمت زحلة من جراء ذلك الى قسمين يظهر تقاطعهما ابان الانتخابات النيابية ويزول بانتهائها بفضل تعقل الاهلين واحرازهم القسط الأوفر من الرقي والثقافة .

ولما تنبهت الشبيبة الراقية وتزعمت نهضة الشعب للوقوف في وجه الاقطاعية ، اتحد حزبا البريدي وابي خاطر مع بعضهما ، مستعينين بالوجيه الكبير الياس بك بحمدوني واكثر العائلات التي تفاخر بعراقة منزلتها الاجتماعية ، امثال مسلم والحاج شاهين ومعلوف واسكاف وفرح وعبيد وقادري وهاشم ، فألفوا جبهةً متحدة عرفت « بجبهة الذوات » ، ويسميها خصومهم « جبهة الاقطاعيين » ، يقابلها الجبهة الشعبية التي نشأت بهمة اركانها العالم الخطيب شبل دموس ، وصاحب جريدة زحلة الفتاة الاستاذ الراعي ، ورئيس تحريرها الاديب المفتتن بحب لبنان شكري البخاش ، والأخوين الهامين اسعد ونجيب نكد ، والعصامي الحر يوسف لوند صاحب المصرف المعروف باسمه . ومن حظ الشعب وجبهته ان انحاز اليها عبدالله بك ابو خاطر شقيق قائم المقام وغيره من ذوي الافكار الحرة ومحبي المساواة بين الشعب ، وكانت الغلبة حتى بدء عهد اوهانس باشا قيومجيان للفريق الأول دون ان يستطيع بنفوذه تثبيط همم الجبهة الشعبية عن عزمها ونشاطها .

جزين

في جزين حزبان رئيسيان يتزعم احدهما سليمان بك كنعان عضو مجلس الادارة ، ويتزعم الثاني آل عازوري ، وكلا الحزبين كغيرهما من الاحزاب اللبنانية لا يختلفان في المبدأ الوطني بل في احراز التفوق في النفوذ المحلي . ومما يجدر ذكره في هذا البحث ان الفريق الاول مقاوم لحبيب باشا السعد بينما يعد الفريق الثاني من اكبر انصاره . لذلك لم يتوان حبيب باشا ، فور تسلمه نيابة رئيس مجلس الادارة ، من اقناع الحاكم بضرورة تعيين نسيبه وكبير اخوانه المعارضين سليم بك المعوشي ، قائم مقام على جزين بدلاً من انطون بك الخوري الصديق الحميم لآل عمون . ولكن الحاكم لم يهمل شأن هذا الاداري النزيه فعينه مستشاراً لمحكمة الاستئناف .

الجعفريون

يشغل الجعفريون — او المتاولة كما كانوا يسمون — كامل ناحية الهرمل الواسعة

الاطراف، وقسماً من اعالي جبال كسروان، وبعض قرى الساحل،وكان زعيمهم الاكبر سعيد بك حماده مديراً للناحية، ثم استقال طلباً للراحة بعد تقدمه في السن فعين بدلاً منه ابنه سعدالله بك.

كانت زعامة آل حماده مؤيدة من جميع الشيعة في بعلبك وجبل عامل وغيرهما، كما كان نفوذ كبيرهم السعيد مقترناً بحسن الادارة وكافياً لتقرير الامن في الناحية ومغنياً الحكومة المركزية عن مده بالدرك والجنود. ولما حل ابنه سعدالله بك محله اقتفى اثر والده، ولكنه لم يسلم من مناوئين من ابناء عمومته وغيرهم لم ينالوا منــه مأرباً. غير ان كبير السادة الحسينيين المقيمين في اعالي كسروان، السيد احمد الحسيني عضو محكمة الاستئناف، يشكو دوماً اقطاعية آل حماده وينعتها بالظالمة، خــلافاً لآل الحاج في الساحل الذين ظلوا على الحياد، فكانت آثار الحزبية في هذه الطائفة ايضاً تظهر في الانتخابات النيابية وحين تعيين كل موظف من الجعفريين.

السنيون

السنيون في جبل لبنان طائفة قليلة العدد تتألف منهــا ناحية شحيم من اعمال قضاء الشوف وناحية الشمالية في الكوره، وقد سبق الحديث عن الاخيرة. اما الاولى شحيم فقد امتازت بنبوغ افرادها في العلم والادب وأهمهم آل الخطيب وآل الحجار، فكان من هؤلاء حسين بك الحجار عضواً في مجلس ادارة لبنــان، ومن آل الخطيب القاضي الشرعي – او «قاضي المذهب السني» حسب تعبير ذلك العهد – وعضوان في دائرتي محكمة الاستئناف السيدان احمد وعبد الجليل. كما نبغ منهم بعد الحرب الكبرى رجال اجلاء كالشاعر الملهم الشيخ فؤاد الخطيب وأخيه بهيج بك، فكان اولهما من المقربين الى جلالة الحسين ملك الحجاز وانجاله الامراء، فأنعم عليه بلقب باشا. وبعد ان اعتزل في منزله اللبناني افتقده الملك عبدالعزيز آل سعود فشمله بعطفه وقدر اخلاصه للهاشميين فاستماله اليه على اعتبار ان من كان من طبيعته الاخلاص يظل مخلصاً، وعينه سفيراً عن المملكة السعودية العربية في كابول عاصمة الافغــان، حيث انتقل اخيراً الى جوار ربه مذكوراً بحميد خصاله ومبكياً عليه من جميع العرب. اما بهيج بك فقد تدرج في الوظائف الادارية السورية وكان لولب الحركة الادارية في عهد حكومة الشيخ تاج الدين الحسني في عهد الانتداب، ثم عين فيه رئيساً للحكومة الموقتة باسم رئيس مجلس المديرين كما يأتي تفصيله في محله.

ومما تجب الاشارة اليه في هذا البحث، سلامة السنيين في لبنان من الاحزاب فكانت صلاتهم بالحاكم على احسن ما يرام في مختلف الادوار ، شأن معظم الاقليات في اكثر الامصار .

المقام البطريركي الماروني

كان بطريرك الاكثرية المارونية في واقع الحال ، اللبنـــاني الاول بالنسبة لجميع اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، يلقى منه المسلم ، مثلاً ، نفس العطف الذي يلقاه الماروني ، فهو المرجع الشعبي الاكبر الذي يتكلم باسم لبنان ويدافع عن حقوقه وامتيازه ، يعود الفضل في ذلك كله الى الحكمة والصلاح اللذين تحلى بهما صاحب الغبطة البطريرك الياس الحويك والعلم والاخلاص المتوفرين في حـــاشيته ، والى شعور معظم الاكثرية المارونية في جبل لبنان بواجب التساهل مع الاقليات اللبنانية تساهلاً لا يبقى معه مجال لشعور الآخرين بوجود ادنى فرق بين لبناني ولبنـــاني آخر بسبب الطائفية . لذلك كان اكثر السادة المطارنـــة الذين لم يسلموا من الحزبية – كان المطران عبدالله الخوري المقيم في المركز البطريركي والمطران بولس عواد المقيم في قرنة شهوان مركز مطرانيته من مؤيدي حزب السعد والمعوشي ، بينما كان المطران بولس نجم والمطران يوسف صقر من مؤيدي فريق عمون وشمعون ورشيد نخله – يقصرون نشاطهم الحزبي على شؤون ابنائهم الروحيين دون سواهم . وهكذا كان الماروني المعارض لسياسة الحكومة القائمة او المؤيد لها على السواء يرى مرجعاً دينياً يلجأ اليه حين الحاجة ويبثه شكواه . اما البطريرك فكان للجميع ، للمعارضين والمؤيدين ، للموارنة كما لغيرهم من اللبنانيين، ووجد بين امناء سره الكهنة الراقين حياديون وحزبيون ، ولكنهم كانوا بازاء غبطته كالتلاميذ الابرار امام معلمهم وسيدهم له المجد .

فلا عجب بعد كل ذلك ان يحسن حكام جبل لبنان الصلات مع المقام البطريركي لضمان الاستقرار في البلاد واكتساب ثقة الشعب، لم يشذ عن هذه الخطة سوى المتصرف الاسبق مظفر باشا ، فقد زاد في سوء التفاهم بينه وبين المقام المشار اليه فئة من ذوي المطامع في الوظائف تمكنت من توسيع الخرق حتى امتنع معظم موظفي الحكومة من زيارة المقام البطريركي خشية انتقام الحاكم . وقال انصار تلك الفئة المغرضة في هذا الصدد : « نبت الحشيش في طريق بكركي » .

الارثوذكس

يأتي ارثوذكس جبل لبنان في المرتبة الثانية عدداً كالدروز ، ويتبعون في احوالهم الشخصية الروحية اربع مطرانيات تبعاً للمناطق والبلدان والقرى الـــتي يقطنونها . فبلدة سوق الغرب هي المقر الصيفي لمطران بيروت ، وقضاء الكوره تابع لمطرانية طرابلس ، وزحله لها مطرانها وصلاحيته الروحية تشمل بعلبك والمعلقة والبقاع ، اما مطرانية جبيل والبترون ومركزها حدث الساحل فتشمل باقي ارثوذكس جبل لبنان المقيمين على الغالب في عاليه وبحمدون والشويفات وعبيه (الشوف) والحدث وبرمانا والشوير والمحيدثه(المتن) وفي قضاء كسروان وبلاد جبيل والبترون وناحية القويطع التابعة اداريا لقضاء الكوره .

ان هذه المطرانيات قليلة التدخل في الشؤون الحكومية . امـــا ابناؤها الروحيون فلا يختلفون عن باقي مواطنيهم اللبنانيين من النواحي الحزبية ، غير انها لا تظهر الا حين الانتخابات النيابية وتعارض المصالح الشخصية دون ان يقوم بينهم زعيم متفوق بارز نظراً لتقارب الناحية الثقافية والاجتماعية بين معظمهم .

ومما يلاحظ ان اكثر المنتمين الى المحافل الماسونية في لبنان هم من الارثوذكسيين والمسلمين ، فلا يخشى احدهم انتقاداً ما بسبب هذا الانتماء ، بخلاف اخوانهم من ابناء المذاهب الكاثوليكية الذين يخفون في الغالب ماسونيتهم عن مراجعهم الروحية .

الروم الكاثوليك

الروم الكاثوليك في جبل لبنان اقلية ولكنهم اكثرية في بلدة زحلة التي تبرز فيها الحزبية على اشدها كما اشير الى ذلك فيما سبق من الابحاث . اما المقيمون منهم في اقضية كسروان والمتن والشوف وجزين ودير القمر فلم يقتفوا آثار الحزبية بل انصرفوا الى الجد والعمل في النواحي العلمية والاقتصادية ، وجميعهم تابعون من الناحية الروحية والاحوال الشخصية الى مطرانياتهم في بيروت وصيدا وزحلة وطرابلس ، ولهم مؤسسات علمية بارزة يديرها رهبان اجلاء في زحلة وحريصا ودير المخلص ، ومدرسة علمانية في بعبدات(المتن).

كان اكبر موظف من ابناء هذه الطائفة في مركز حكومة جبل لبنان مدير اوراقها نخله بك الخوري ، وقد عرف بأمانته واخلاصه وواسع خبرته في شؤون الجبل وأبنائه فكان بحكم وظيفته من المقربين الى الحاكم .

اما الاقليات الصغرى – وهي طوائف اللاتين والارمن والانجيليين – فتعمل كل منها بنشاط في دائرة اختصاصها الروحي والعلمي ويتمتع افرادها بملء الحرية في جميع اعمالهم الشخصية والمدرسية والاقتصادية دون ان يكون منهم موظف في دوائر الحكومة باعتبار التوظيف قائماً في الدرجة الاولى على النسبة العددية بين الطوائف الست منذ صدور النظام الخاص بجبل لبنان .

الفصل الرابع

بداية عهد اوهانس باشا قيومجيان

فاتحة عهد الحاكم الجديد

كانت المعارضة في عهد حاكم جبل لبنان السابق يوسف فرانكو باشا بالغة اشدها، وكان معظم اركانها من الطامعين في المناصب الحكومية العالية في الادارة والقضاء، شأن كل معارضة قامت في لبنان منذ اقدم عصوره. وكان بين الشكايات التي اثاروها على الحاكم المشار اليه ان ادارته تتمشى مع السياسة البريطانية بفضل الصلات القائمة بين نصيف بك الريس مدير القلم التركي والسيد اسبر شقير الترجمان الاول لقنصل بريطانيا العام، بل شيخ تراجمة القنصليات الاجنبية وداهيتهم بلا مراء.

ولما كانت المناظرة بين فرنسا وبريطانيا العظمى قديمة العهد وغير قابلة الستر والاخفاء ولا سيما في بيروت ولبنان، اتصلت سفارة فرنسا في الآستانة، قبيل انقضاء مدة حاكمية يوسف باشا، بمستشار وزارة الخارجية العثمانية اوهانس باشا قيومجيان المرشح لمقام متصرفية جبل لبنان وحصلت منه على وعد بأن يقيل نصيف بك الريس من مديرية القلم التركي ويسند نيابة رئيس مجلس الادارة (الشاغرة بموت الامير قبلان ابي اللمع) الى حبيب باشا السعد زعيم المعارضة.

وبعد اخذ موافقة الدول الاوربية العظمى الست، في ٢٣ كانون الاول سنة ١٩١٢، صدرت الادارة السنية بتعيين اوهانس باشا متصرفاً على جبل لبنان بموجب فرمان سلطاني، حسب القاعدة المتبعة في تعيين الولاة والمتصرفين المستقلين. فجاء بيروت في مطلع عام ١٩١٣ واستلم مهام وظيفته وتلي الفرمان في بعبدا باحتفال حضره مندوبو البطاركة وكبار رجال الدين والاعيان الوافدين من جميع انحاء لبنان. وكان اول عمل قام به الحاكم الجديد

انه عين حبيب باشا السعد نائباً عنه في رئاسة مجلس الادارة واقال نصيف بك الريس من منصبه وأخذ يبحث عمن يخلفه ، وقد عرضت عليه اسماء عديدة من مراجع مختلفة .

كيف عرفني الحاكم

كان قنصل فرنسا العام مسيوكوجيه يلتزم اسناد مديرية القلم التركي الى احد المعروفين بميلهم الى فرنسا ، بينما يشهد قنصل بريطانيا العام مستر كمبر باش بافضلية آخر معروف بميله للسياسة البريطانية او بعيد عن الاتصال بقنصلية فرنسا على الاقل ، ويرشح قنصل روسيا مسيو بتشكوف ثالثاً ، والبطريركية المارونية رابعاً ، والبطريركية الاورثوذكسية خامساً ، وآل سرسق وبسترس المتمثلة فيهم الحياة الارستوقراطية في بيروت سادساً ، ممن يرون فيهم الكفاءة لذلك المنصب .

ولما ضاق الحاكم ذرعاً بهذه المداخلات وفطن الى وجوب اختصاص كبير امناء سره به دون سواه لجأ الى جاره والي بيروت يبثه شكواه من تضارب الآراء المعروضة عليه ، وسأله عن كفء لتلك الوظيفة الهامة في نظره ونظر الدولة . وكان عبد الغني سني بك مكتوبجي الولاية حاضراً معهما فذكر اسمي وتفضل بالثناء عليّ مع التحفظ بأني قد اتمسك بمسلكي العدلي بعد سابق الفوز الذي احرزته على متصرف طرابلس ، فعول حاكم لبنان على دعوتي اليه ، وزاده شوقاً الى معرفتي والتحدث اليّ ما سمعه من غبطة بطريرك الموارنة ، نقلاً عن ابنائه الروحيين الاوفياء المقيمين في طرابلس وفي طليعتهم مطرانهم المفضال السيد انطون عريضة المعروف بالصلاح والتقوى والصراحة في ابداء الرأي .

ان هذه المعلومات قد اتحفني بها الحاكم اوهانس باشا حين تشرفت بمقابلته في بيروت كما يرد في البحث التالي .

تعييني في لبنان

قبل ان ادعى لمقابلة حاكم لبنان او يكون لي سابق علم بما يدور في محيطه حول منصب مديرية القلم التركي تلقيت من حضرة القاضي ملحم بك حمدان مستشار محكمة الاستئناف في بعبدا البرقية الآتية :

« طمنوني عن صحتكم الغالية » .

لم اكن اعرف مرسل البرقية الا قبل خمسة اشهر حين مر بطرابلس مع زميله الياس

بك الباشا والاستاذ الكبير سليم افندي باز المدعي العـام الاستئنافي في جبل لبنان ، للتحقيق في حوادث جنائية وقعت في زغرتا ، فنزلوا في الفندق الذي كنت فيه وقضيت معهم بضع ساعات من الوقت مكنتني من التمتع بلطيف حـديثهم وواسع علمهم . فلما تلقيت البرقية السالفة الذكر وأنا بصحة جيدة وصحف بيروت تتحدث عن اقالة نصيف بك الريس من وظيفته ، استنتجت احتمال تعييني خلفاً له ورغبة ملحم بك ازاء هذا الاحتمال في ان يكون السابق بزف هذه البشرى الي ، دون ان يؤدي استنتاجي الى اشغال ذهني بنتيجته ، لان الوظيفة القضائية في نظري هي اروع ما يقوم به الموظف العام في ذلك العهد الذي كان من ابرز مظاهره طغيان الادارة والسياسة على مرافق الدولة في معظم الظروف .

في الثامن من شباط سنة ١٩١٣ تلقيت برقية من عبدالله بك الخوري مدير الامور الاجنبية والتشريفات في جبل لبنان تتضمن « ان صاحب الدولة حاكم لبنان يود مقابلتي في بيروت في فندق بسول » وكان هذا الفندق آنئذٍ في مقدمة فنادق المدينة . فلبيت الدعوة في اليوم التالي ، وبعد حديث استغرق نحو عشرين دقيقة عرض علي صاحب الدولة منصب مديرية القلم التركي (يقابلها آنئذ في مراكز الولايات وظيفة مكتوبجي الولاية) فشكرت دولته على الشرف الذي اولانيه بمقابلته معتذراً عن قبول المنصب الخطير الذي تفضل به لا لسبب سوى ما انتظره من نجـاح في مركزي القضائي . فقال لي : « امامك متسع من النجاح في السلك الاداري ايضاً مع كبير الفرق بين الوظيفتين راتباً ومرتبة » ، وقد اثر علي بحديثه الطلي الصريح فقبلت الوظيفة الجديدة واستأذنت دولته بالعودة الى طرابلس لوداع اهلها الكرام ، وقد تم لي ذلك على الوجه المذكور في نهاية الجزء الاول من الذكريات .

اثر هذا التعيين في الصحف

اذا كان لتعييني في لبنان من اثر مستحب في المحافل اللبنانية والبيروتية فمعظم الفضل فيه لطرابلس ولما لقيته من اهلها الكرام من عطف واعتبار ، جزاء ما وفقني الله اليه من اعمال لا تتجاوز حد الواجب الذي فرضته علي الامانة على مقتضيات الوظيفة .

لقد جادت علي صحف بيروت الغراء بكلمات طيبة ولا عجب في ذلك وهي الـتي اخذت بناصري حين كنت مبعداً الى بيروت اثنـاء التحقيق في الخلاف بيني وبين متصرف طرابلس .

اما صحيفة « لو جورنال دوكير » التي تصدر بالافرنسية في القاهرة فقد علقت في عددها الصادر في ٤ نيسان سنة ١٩١٣ على تعييني بكلمة طيبة ارى من واجب اعترافي بجميل صاحبها ان انشرها بنصها الحرفي :

Dans tous les changements du personnel, qui deviennent ridicules dans leur fréquence et dans leur persistance (alors, tous les anciens fonctionnaires étaient décisivement des vauriens !), dans ces changements, dis-je, je tiens tout particulièrement à signaler l'entrée en fonction de Youssef bey Hakim, en remplacement de Nassif bey Rayesse au bureau turc.

Hakim bey est un homme d'une capacité et d'une droiture tout à fait remarquables. Je l'ai connu procureur général à Tripoli où il s'est distingué, pendant de longues années, par une honnêteté et une impartialité absolument irréprochables.

Je le félicite pour le poste qu'il vient d'occuper, mais je félicite encore beaucoup plus le gouvernement libanais, pour son heureux choix.

Cette nomination lui en fera pardonner bien d'autres.

عرفت فيما بعد ان صاحب هذه الكلمة هو الكاتب الكبير الاديب اللامع حبيب بك فرعون فقد كان يتردد على طرابلس واقضيتها لمصالح خاصة زراعية وصناعية دون ان يكون لي معه آنئذٍ شرف الصداقة والتعارف .

وداع البطريرك الاورثوذكسي حين سفره الى روسيا

صادف تعييني في لبنان، تاريخ سفر غبطة السيد غريغوريوس حداد الاورثوذكسي بطريرك انطاكية وسائر المشرق، الى روسيا بدعوة من القيصر نيقولا الثاني لترؤس الاحتفال الديني بمرور ثلاث مئة سنة على حكم آل رومانوف . وقد خف لوداع غبطته على ظهر الباخرة الفرنسية كبار بيروت وطرابلس وجبل لبنان، لما يكنونه لغبطته من المحبة والاجلال. وكان في مقدمتهم والي بيروت وكبير امناء سره وأركان الولاية ، وبعث حاكم جبل لبنان من قبله وفداً مؤلفاً مني ومن عبدالله بك الخورى مدير الامور الاجنبية وسعيد بك حماده كبير المرافقين الى الباخرة للقيام بواجب الوداع فقمنا به متمنين لصاحب الغبطة سفراً سعيداً وعوداً حميداً ، فحملنا شكره لدولة الحاكم وحار ادعيته بتوفيقه ، وهنأني بوظيفتي الجديدة وزودني بنصائحه الثمينة ، ومما قاله لي : « كن يا بني شمعة اورثوذكسية تضيء

على جميع الناس بالسواء » ، فأجبته شاكراً عطفه الابوي ، مؤكداً اني سأبقى باذن الله تعالى مخلصاًللدولتي ، اميناً لرئيسي ، غيوراً على مصلحة البلد الذي اخدمه ، محباً لجميع ابنائه لا فضل لأحدهم على آخر الا بتقوى الله .

كبار رجال الحكومة

يترتب علي قبل بيان خطتي في الوظيفة ان اذكر رفاقي في خدمة الحكومة والاشارة الى البارز من صفاتهم :

١ ــ مدير المالية (او المحاسب حسب تعبير ذلك العهد) حليم بك ، وهو تركي بعثت به وزارة المالية بمقتضى سابق العرف لضمان تنظيم الموازنة بين الواردات والنفقات. لم يتدخل هذا المدير في شؤون الادارة المحلية ، بل كان يعتمد في هذا الشأن على رئيس ديوان المالية نمر افندي بو شمعون، الرجل النزيه القدير الموالي حزبياً لآل عمون الاخصام السياسيين لحبيب باشا السعد وحزبه .

٢ ــ كبير امناء الحاكم (او رئيس القلم التركي) وهو المؤلف صاحب الذكرياتوكان كبير مساعديه في القلم المذكور ابراهيم بك الحكيم الشيخ الجليل الذي سبقت له الخدمة كقائم مقام ومدير رسائل في الولايات ، ويليه في المرتبة الكاتب الاديب الرفيع التهذيب الأمير نبيه شهاب وغيره .

٣ ــ رئيس القلم العربي خليل بك الخوري من قدامى الموظفين ، معروف بحسن الخلق وعفة اليد ، رغم كونه لا يملك سوى راتب الوظيفة، يليه في الديوان الشاعر الاديب الشهير شبلي بك الملاط.

٤ ــ رئيس القلم الاجنبي الدكتور بولس نجيم ، اتم دراسته الحقوقية في فرنسا واستلم وظيفته في بدء عهد الحاكم اوهانس باشا. ولما كانت مهام وظيفته قليلة لا تتفق ونشاطه، اضيف اليها شؤون مديرية السجون فأحسن القيام بها وبوظيفته الاصلية معاً ، يعاونه كميل بك شدياق ويوسف بك معتوق وكلهم بعيد عن الاحزاب .

٥ ــ مدير الامور الاجنبية عبدالله بك الخوري ، وهو حسن الخلق طيب القلب وكانت مهمته مقتصرة على القيام بمقتضيات التشريفات حين تبادل الزيارات بين الحاكم وقناصل الدول الاجنبية في بيروت، وحين يزور الحاكم مراكز الاقضية وسائر الأنحاء الهامة في جبل لبنان ، فكان الأجدر به ان يسمى « مدير المراسم » .

٦ – مدير الاوراق نخله بك الخوري ، قضى حياته الطويلة في الوظيفة بكل غيرة وأمانة واخلاص ، لا ينتمي الى حزب من الاحزاب ، وكان يعاونه كبير كتبة الديوان الاديب نسيب افندي الخوري وقد جمعت بينهما الوظيفة والمزايا .

٧ – رئيس دائرة الحقوق الاستئنافية جرجس بك صفا ، عالم حقوقي كبير بعيد عن الحزبية تجمعه مع نمر افندي شمعون صلة القرابة ومع آل عمون صلة المودة والجوار .

٨ – رئيس محكمة الجنايات ، وهي الدائرة الاستئنافية للأحكام الجزائية التي تصدر من المحاكم الابتدائية في الأقضية ، مصطفى بك العماد من كبار الزعماء في قضاء الشوف وقد امتاز بالحياد التام في شؤون وظيفته رغم كونه من قادة الحزب اليزبكي المنافس للحزب الجنبلاطي .

٩ – المدعي العام لدى محكمة الاستئناف ، الاستاذ سليم باز العالم الحقوقي الكبير ، شارح عدة قوانين جزائية وحقوقية وتجارية مما سجل له واسع الشهرة في سورية ولبنان ومعظم الولايات ، وكان معاونه في الوظيفة الاستاذ نجيب مشرق الاديب المعروف .

١٠ – مستشارو محكمة الاستئناف في دائرتيها الحقوقية والجزائية :
احمد افندي الخطيب ، الشيخ طنوس جعجع ، ملحم بك حمدان ، ابراهيم بك الاسود ، السيد احمد الحسيني ، ابراهيم بك مسلم ، عبد الجليل افندي الخطيب ، محمد بك عز الدين ، الياس بك بركات ، الياس بك الباشا .

ثم اضيف اليهم انطون بك الخوري قائم مقام جزين السابق ، وجميعهم من خيرة القضاة . ومما يلاحظ في اختيارهم ان ملاك محكمة الاستئناف قد حوى تمثيل الطوائف اللبنانية الست ، السنية والمارونية والدرزية والاورثوذكسية والكاثوليكية والجعفرية ، دون ان يكون فيه احد المنتمين الى الاقليات اللاتينية والارمنية والانجيلية .

يرئس ديوان دائرة الحقوق يوسف بك الملاط ، وديوان دائرة الجنايات عارف بك نكد ، وقد ارتقيا مرتبة المستشارين فكانا من ابرز القضاة علماً ونزاهة .

١١ – المصلحة الصحية يقوم عليها الاطباء : نجيب بك الخوري وفارس افندي الملاط وداود افندي مشاقه ، وكلهم معروف بالخبرة والنزاهة والغيرة على المهام الموكول امرها اليهم .

١٢ – الدائرة الفنية : كان رئيس هذه الدائرة المهندس الكبير امين بك عبد النور وقد تم تحت اشرافه فتح معظم طرق المركبات في مختلف انحاء الجبل وكثير من الجسور والابنية الحكومية ، وعين معاوناً له في بدء عهد الحاكم اوهانس باشا ، المهندس البير نقاش القادم حديثاً من فرنسا ، وقد امتاز بمقدرته الفنية واخلاقه العالية .

١٣ – كبار قادة الجند اللبناني :

آ) قائد الجند اللبناني ورتبته ميرالاي (عميد ، كولونيل) ، ملحم بك الخوري ، وقد عُرف بحازم موقفه من الحزب المعارض للحكومة السابقة وقد اصيب بصمم جزئي مما افقده هيبة ورهبة الإشراف على مرؤوسيه .

ب) البيكباشي (مقدّم) سعيد بك البستاني ، رئيس امناء لوازم الجند .
» » فؤاد بك شقير ، وهو اكثر القادة وقوفاً على الانظمة العسكرية .
» » جرجس بك فرحات .
» » حليم بك شقير .

ج) القول اغاسي (رائد ، ميجر) الامير فايز شهاب .
» » » سعيد بك حماده كبير مرافقي الحاكم .

د) اليوزباشي (نقيب ، كابتن) الشيخ خليل الخازن .
» » نجيب بك المعلوف .
» » حنا بك الضاهر ، من مرافقي الحاكم .
» » الشيخ انطون الخازن ، » » »

وقد اتصف جميع هؤلاء القادة بالحزم واليقظة وحسن السمعة ورفيع التهذيب وسيرد ذكر كل منهم على حدة تبعاً لموضوع الابحاث .

اعضاء مجلس الادارة او نواب جبل لبنان

لما كانت كثرة مهام متصرف جبل لبنان ، الادارية والسياسية ، تحول دون ترؤسه كامل جلسات المجلس الاداري ، استمر العرف على ان يعين نائباً عنه في رئاسته ، وقد كانت شاغرة بوفاة الامير قبلان ابي اللمع . فاختار الحاكم الجديد اوهانس باشا قيومجيان لهذا المنصب ، حبيب باشا السعد كما سبقت الاشارة اليه ، ولرئاسة ديوان المجلس المذكور الاديب البارز محمود بك تقي الدين .

اما اعضاء المجلس – او نواب جبل لبنان ، كما كان يطلق عليهم احياناً – فكانوا بعد اكتمال عددهم على الوجه الآتي :

حسين بك الحجار النائب السني عن قضاء الشوف .
سعد الله بك الحويك نائب قضاء البترون .
الاستاذ جرجس تامر » » الكوره ثم خلفه بالانتخاب نقولا بك غصن.
الاستاذ نعوم باخوس » » كسروان .
محمد افندي محسن » » »
خليل بك عقل » » المتن .
الياس افندي الشويري » » »
الشيخ محمد صبرا » » »
فؤاد بك عبد الملك » » الشوف.
سليمان بك كنعان » » جزين .
محمود بك جنبلاط » » »
يوسف بك البريدي » » زحله .
داود بك عمون » » دير القمر.

رؤساء الادارة في الاقضية

يطلق على رئيس الادارة في القضاء اسم قائم مقام (او قائمقام بكلمة واحدة حسب الاصطلاح العثماني) والمقصود منها قائم مقام متبوعه الاداري الوالي او المتصرف . وحين مباشرتي الوظيفة (مديرية القلم التركي) كان رؤساء الادارة في الاقضية وفي المديريتين المرتبطتين مباشرةً بالحاكم على الوجه الآتي :

قائم مقام الشوف : نسيب بك جنبلاط ، الزعيم الدرزي الكبير .
» » المتن : الامير فائق شهاب ، حفيد الامير بشير الكبير .
» » كسروان : الشيخ كنعان الضاهر ، من زعماء شمالي لبنان ومن اركان المعارضة في العهد السابق .
» » البترون : سليم بك نصيف .
» » الكوره : الدكتور محفوض طالب .

قائم مقام جزين : سليم بك المعوشي ، من اركان المعارضة في العهد السابق .
» » زحله : ابراهيم بك ابو خاطر .
مدير ناحية الهرمل : سعيد بك حماده اكبر زعيم جعفري في هذه البلاد .
» » دير القمر : شاكر بك افرام البستاني .
وكلهم كفؤ لمنصبه ، وقد تميز منهم الامير فائق شهاب وابراهيم بك ابو خاطر بواسع العلم والأدب .

ان نقل الأمير فائق شهاب من رئاسة القلم الاجنبي الى قائمقامية المتن وتعيين الشيخ كنعان الضاهر في كسروان ، وسليم بك المعوشي في جزين ، قد تم فور تسلم الحاكم الجديد مقاليد الحكم وبناءً على نصيحة قدمها لدولتـــه وكيله في رئاسة مجلس الادارة حبيب باشا السعد .

انتخاب نائب قضاء الكوره

بعد قدوم الحاكم اوهانس باشا الى لبنان ، جرت انتخابات نوابـــه اعضاء مجلس الادارة ، وانتهت بسلام في جميع الاقضية وفي دير القمر الآ قضاء الكوره ، فقد تأخر عن سواه مدة شهر تقريباً بسبب انقسام الشعب الممثل بمشايخ الصلح بين مرشحين بارزين لكل منهما مكانته وكفاءته : الاستاذ الحقوقي جرجس تامر الذي انتهت مدة نيابته ، والثاني نقولا بك غصن الوجيه المعروف ، وقد فاز بالنيابـــة لدى استئناف الانتخاب وباشر عمله وانتهى الامر .

بعد قليل من الزمن نمي الى الحاكم ان القنصلية الروسية قد تدخلت في انتخاب نائب الكوره بواسطة ترجمانها السيد عزيز فيعاني الذي كان يدعو الى دار القنصلية قائم المقام الدكتور محفوض طالب ، طالباً منه التأثير على مشايخ الصلح لقبول وجهة نظر القنصلية التي ترجّح الغصن على منافسه تامر ، بحجة حسن صلات هذا مع ترجمان قنصليـــة انكلترا . ولم يكن قائم المقام الا كمعظم زملائه في الاقبال على زيارة القنصليات وسؤال خاطر اركانها ، فغضب الحاكم على تدخل الترجمان القنصلي في الانتخاب ، ونسب تأثيره الى ضعف قائم المقام ، فأمر بعزله من الوظيفة وعين بدلاً منه ابراهيم بك الاسود مستشار محكمة الاستئناف ، وعين خلفاً له في المستشارية الاستاذ جرجي تامر النائب السابق .
قوبلت اجراءات الحاكم هذه بالثناء العام على حزمه وعزمه على انقاذ موظفي الحكومة

من الالتجاء الى تراجمة القنصليات ، ولم ينقم على الحاكم من اجل ذلك سوى السيد الفيعاني والدكتور محفوض طالب وذويه . اما قنصل روسيا مسيو بتشكوف فلم يتدخل في الأمر مطلقاً لوقوعه ضمن اختصاص الحاكم دون ان يكون فيـــه ادنى مساس بحقوق الطائفة الارثوذكسية ، وجميع من تناولهم تدبير الحاكم هم من ابنائها البررة الاكفاء . لذلك كان الحاكم يمحض هذا القنصل مزيد اعتباره وتقديره لمزاياه العالية . وجدير بي في هذا الصدد ان انوه بمزايـــا الاثنين تامر وغصن ، كل في دائرة اختصاصه ، فالأول استاذ حقوقي والثاني وجيه شعبي ، وقد تساويا في كرم الخلق والغيرة على مصلحة لبنان عامة وقضاء الكوره خاصة .

الفصل الخامس

خطتي في الوظيفة

الحياد بين مختلف الاحزاب

في مقدمة الامور التي وضعتها نصب عيني منذ مباشرتي الوظيفة ، الحياد التام بين مختلف الاحزاب والنزعات والطوائف كما كنت عليه في سابق مسلكي القضائي . وقد شجعني في البقاء على هذه الخطة رضى الحاكم عنها ، فقد كان اوهانس باشا قيومجيان لجميع اللبنانيين ، لا فرق عنده بين حزب وآخر ، ولا بين طائفة وأخرى ، وقيمة الفرد عنده بقدر ما يحسنه الى وطنه ، وما يقوم به من واجبات ملقاة على عاتقه بحكم الوظيفة او المهمة التي دعي اليها .

وكان في بدء قدومه وتسلمه الحكم قد اقال ، نزولاً عند رأي حبيب باشا السعد ، انطون بك الخوري ، قائم مقام قضاء جزين ، من وظيفته وعين لها سليم بك المعوشي ، من اركان الحزب المعارض للحكم السابق . ولما وقف اوهانس باشا على مزايا انطون الخوري وسلامته من كل شائبة سوى علة « الميل للحزب العموني في وجه معارضته حزب حبيب السعد السابقة » ، اسف على تسرعه وأعاد الى الخوري كرامته ، فعينه مستشاراً لدى محكمة الاستئناف في مركز الحكومة . كما محض خلفه في جزين سليم بك المعوشي كامل ثقته بكفاءته .

لم يرق تراجع الحاكم الى الصواب في امر انطون بك الخوري ، لحبيب باشا السعد ، وهو العازم على تنفيذ خطة حزبه المرسومة قبل وصوله الى منصبه (وكالة الحاكم في مجلس الادارة) ، تلك الخطة القائمة على تصفية الحكومة الحاضرة من رجال العهد السابق واحلال اركان المعارضة السابقة محلهم . فجاءني ذات يوم وأخذ يلقي علي باسلوبه السياسي اللطيف، النصائح على الوجه الآتي :

قال: ان معظم رجال الحكومة المتربعين على كراسيهم هم رجال العهد السابق الذين كانوا ملتفين حول سلفك نصيف بك الريس ولا يزالون يحنّون اليه ويترددون عليه ، وقد قيل « لكل زمان دولة ورجال » ، فمن الحكمة والمصلحة لجبل لبنان وعهد حاكمه الجديد ان يحل الاكفاء انقياء السمعة من اخواننا محل اخصامنا انصار العهد السابق ، والا زال نفوذنا وسادت الفوضى في الحكومة والبلاد ، فما هو رأيك ايها الأخ العزيز ؟

قلت : لا خلاف في افضلية احلال الاكفاء محل الضعفاء علماً وخلقاً وخبرةً من الموظفين ، دون الالتفات الى الحزبية ، لأن الحاكم الجديد حيادي . ألم تر يا سعادة الباشا كيف أعاد الى انطون بك الخوري كرامته بعد اقالته من جزين ، فعينه مستشاراً لدى المحكمة الاستئنافية ؟

قال : ان خلفه سليم بك المعوشي أفضل منه خبرة بمجال قضاء جزين وأكثر اخلاصاً للعهد الحاضر ، كما يوجد آخرون أكفأ من نمر شمعون رئيس ديوان المالية ، ومن مصطفى العماد رئيس الدائرة الجزائية ، وكلاهما صديق حميم لسلفك ناصيف الريس الناقم طبعاً على هذا العهد بعد اقالته من وظيفته . اذكر من هؤلاء الاكفاء البارزين نجيب بك فرعون ، المالي القدير ، وعباس أفندي حمية رئيس محكمة الشوف ، الحقوقي الشهير ، فأؤمل منك أن تساعدني في أقل تقدير بذكر مزايا هذين الفذين أمام الحاكم في كل مناسبة ، وهي متوفرة لديك بسائق الوظيفة وغيرتك على انتظام الأصلح في سلك العهد الجديد .

قلت : لا شك في كفاءة هاتين الشخصيتين ، كل منهما في اختصاصه ، وقد سمعت الثناء عليهما من أكثر من واحد ، ولكن هل يجوز اخراج كفؤين لم يرد عليهما أدنى شكوى ، لمجرد احلال كفؤين آخرين محلهما ؟ وأين تبقى الحصانة الواجب توفرها للموظفين والقضاة منهم خاصةً ؟

قال : اكثرية الناس يشكون من الحالة وينتظرون الفرج من العهد الجديد .

قلت : الحاكم عادل وحازم ونحن نتبع خطواته وأنا غريب وحديث العهد ، فليس من الحكمة أن أرجح أمام دولة الحاكم شخصاً على آخر ولا سيما اذا لم يسبق ذلك سؤال من صاحب الدولة .

ثم نهض حبيب باشا مودعاً ، دون أن نتفق أو نختلف على شيء .

من مزايا نمر شمعون

كانت تردني في بدء وظيفتي رسائل بعضها صريح التوقيع وبعضها مغفل ، يحمل مرسلوها على الموظفين القائمين على العمل حملة شعواء توصلاً لاقصائهم عن وظائفهم ، أملاً بأن يحلوا هم محلهم. وكان من أهم أسباب الحملة عليهم انهم من رجال العهد السابق — «ولكل زمان دولة ورجال » — فلم أعبأ بكل ما كان يردني من هذا القبيل ، بل كنت القيه في سلة الأوراق المهملة .

وفي ذات يوم أتاني رئيس ديوان المالية نمر افندي شمعون وأنا في مكتبي أفض ظروف المراسلات الموضوعة أمامي ، وكان مقابلاً لي بعيداً عني نحو ثلاثة أمتار حين فتحت ظرفاً موسوماً بكلمة « مكتوم » وبعد ان قرأت المظروف مزقته وألقيته في السلة ، فقال زائري على الفور: «هذا كتاب من ن. ف. يتضمن الطعن بي » . فأجبته : « أنت في مكان لا يمكنك من رؤية توقيع الكتاب أو تمييز خطه ، دع عنك مآله » . قال : « هي العادة في لبنان تدفع بكل طامع في وظيفة ما الى الطعن بالقائم عليها ولا سيما عند تبدل العهد ، فمرسل هذا الكتاب طامع في وظيفتي باعتباره من ذوي الاختصاص بالأمور المالية ، ومن أكبر أنصار حبيب السعد ، خصمي في سياسة جبل لبنان الداخلية ، ولعله يأمل أن ينال مثل الحظوة التي نالها سليم المعوشي زميله في الحزبية السعدية».

فقلت له : « ان صاحب الدولة أوهانس باشا حاكم عادل وجازم لا تؤثر عليه الدعايات الحزبية ، بعد ان خبر حالة لبنان في المدة القصيرة الماضية » . وعلى الأثر ودعني قائلاً : « ليفعل الله ما يشاء » .

وقد تأكد لدي في وقت قريب أن السيد نمر شمعون يتمتع بخبرة في شؤون وظيفته ، ونزاهة في جميع مقتضياتها ، لا شائبة فيهما واليه يعود الفضل في ادارة مالية حكومة لبنان ، بالاضافة الى ما شاهدته بنفسي من حدة ذكائه ووقفت عليه من عالي مزاياه وفي مقدمتها الصدق والصراحة .

نمي الي بعدئذ ان السيد نمر نقل الى أصدقائه ، من موظفين وغيرهم ، ما شاهده مني ، فكانت أقواله كافية لاطمئنانهم عن حيادي . ومع ذلك فقد ظل هو واخوانه يتوقعون انتقام خصمهم السياسي ، الى ان وثقوا بعد زمن من حياد الحاكم أوهانس باشا بازاء جميع الاحزاب وتقديره كفاءة الرجال وترفعه عن الحاق الأذى بأحد .

الصلات بالأجنبي

لم تكن لي مع قناصل الدول الاجنبية أدنى صلة سوى المجاملات المتقابلة في مناسبات رسمية متقطعة ، مما زاد في ثقة الحاكم أوهانس باشا بي ، خلافاً لما كان عليه سائر مديري المصالح والنواب من متواصل التردد على القنصليات الفرنسية والبريطانية والروسية ، حيث يجدون في شخصية كل واحد من قناصلها ومعاونيه وتراجمته ملاذاً يلجأون اليه بفضل تدخل هذه القنصليات الثلاث بصورة خاصة ، دون سواها ، في شؤون الجبل بحجة مراقبة الاحتفاظ بنظامه الخاص وحقوق كل طائفة من طوائفه . ولم تكن هذه الحجة سوى ستار لبسط نفوذ الدولة التي يمثلها القنصل العام . وكانت المسابقة في هذا السبيل بارزةً بين قناصل فرنسا وبريطانيا العظمى .

عاتبني على انفراد تراجمة القنصليات السالفة الذكر فيليب زلزل واسبر شقير وعزيز فيعاني على تحفظي في زيارة القنصليات ، فأجبتهم بأن وجودي أمين سر الحاكم يفرض عليّ هذا التحفظ ، على اني لم ألمهم على عتابهم لاعتقادي ان كلاً منهم يعمل بوحي مصلحته المرتبطة بمصلحة الدولة التي يخدمها . لذلك حرصت الدولة العثمانية وكل دولة مستقلة رشيدة على أن لا تعين في وظائفها أحداً ممن خدموا المصالح الاجنبية .

الابهة

كنت مبتعداً عن مظاهر الابهة التي تعودها أرباب المناصب الحكومية فلم أقبل أن يرافقني دركي أو عريف — وهو المعبر عنه في جبل لبنان بالمنصّب — وقد حقد علي مديرو الدوائر لحرمانهم ، أثر ذلك ، من المنصّبين . أما القائمقامون ومديرو النواحي فقد ظلوا بحكم وظائفهم مرفقين بمنصّب ، كما يرافق الشرطي المتصرف أو قائم المقام في الولايات ، فكان الأمير حارس الشهابي مدير ناحية الساحل — ومركزها بلدة الحدث — اذا قدم الى بيروت لزيارة أحد القناصل وغيرهم من الشخصيات استصحب في مركبته ، الى جانب الحوذي ، دركياً حسن القوام والهندام ، بألبسته الخاصة المعلمة (المزركشة) التي تستلفت أنظار المارة والباعة في مخازن بيروت وشوارعها . وقد ظل هذا الامير ، زعيم عشاق المظاهر على اختلاف ذهنيتهم ومؤهلاتهم ، في خدمة الحكومة حائزاً رضاها وثقة الشعب حتى اختير نائباً عن جبل لبنان في المجلس المنعقد في العاصمة اثناء الحرب العامة ، كما يأتي مفصلاً في محله .

استغلال وضيع

لفت نظري عند دخول مديري المصالح الادارية ورؤساء المحاكم العدلية مكتب الحاكم يومياً ، ليعرضوا عليه ما لديهم من أوراق تستدعي توقيعه عليها قبل موعد الانصراف من العمل ، ان كلاً منهم يحاول أن يكون آخر من يبقى عند الحاكم ، رجاء أن تساعده الخلوة القصيرة على استجلاب عطفه أو أن يوهم سائر الموظفين انه نال الحظوة الكبرى عند ولي الأمر ، فلم تطق نفسي السير على هـــذا المنوال فكنت ، في بدء الأمر ، أسرعهم الى الظفر بتوقيع الحاكم على المخابرات التي هيأتها والخروج من لدنه ، الى ان أصبحت بعد زمن قريب ، بأمر من دولة الحـــاكم ، مرجعاً للتدقيق في أوراق المديرين والرؤساء قبل عرضها عليه .

أذكر في هذه المناسبة ان قائم مقام أهم الأقضية لبى ذات يوم دعوة الحاكم، فأنبه داخل مكتبه بحدة على اضطراب الامن في القضاء وهدده باقصائـــه عن الوظيفة اذا لم يحل دون حوادث الشغب . ولما خرج قائم المقام من لدن الحاكم أحمر الوجه ، مضطرب الهيئة ، سأله الواقفون خارجاً من أصدقائه ورجاله عن سبب حدة الحـــاكم ، فأجابهم بابتسامة مصطنعة : « الله يحفظ أفندينا ، انه عاتبني بشدة على قلة زياراتي لدولته رغم قرب المسافة بين بعبدا ومركز القضاء » .

اتمام الواجب اولى من حب الظهور

كان الحاكم أوهانس باشا ، اسوةً بمعظم حكام جبل لبنـــان السابقين ، مقيماً في بيروت ، يأتي كل يوم بمركبته الخاصة الى سراي الحكومة في بعبدا ثم يعود مساءً الى منزله ، يتقدم مركبته بين موقع فرن الشباك وبعبدا ذهاباً واياباً اثنان من الجنود الخيالة ويتبعها الضابط المرافق ، كما تقوم في ساحة السراي مفرزة من الجند بتقديم السلاح وتعزف فرقة الموسيقى العسكرية ، بادارة مدربها الرئيس (كابتن) « افوليو » الايطالي ، الاختصاصي القديم في خدمة لبنان ، النشيد اللبناني على مشهد من الموظفين والاهلين في استقبال الحاكم وحين مغادرته السراي .

وذات يوم غادر الحاكم مكتبه على عادته وجلس في مركبته ، حينئذٍ خطر له أن يستصحبني الى بيروت ، ولما جاء سعيد بك حمـــاده كبير المرافقين مسرعاً يبلغني أمر

صاحب الدولة ، أجبته بسلامة النية بأن لدي من الأعمال ما يضطرني الى التأخر مدة ساعة لانجازها ثم أتوجه تواً الى منزل دولته .

وقد بلغني ان جمهرة المشاهدين من الموظفين والاهلين استخفوا بي واتخذوا تأخري عن تلبية الأمر دليلاً على قلة خبرتي السياسية ، وانشرح بعض الزملاء لجهلي معرفة اغتنام الفرص وحب الظهور في أقل تقدير ، بينما انزعج أصدقائي آسفين لعدم اهتمامي بالأساليب التي ترفع شأن الرجل في محيطه ولا سيما بين عشاق المظاهر ، حتى ان عمي ، الشيخ الجليل ابراهيم بك الحكيم ، لم يستطع اخفاء كدره من خطتي فدخل عليّ فوراً وابتدرني قائلاً : « الحق انك ولد لا تعرف السياسة ،أنسيت ان الذي أراد أن يستصحبك في مركبته الى بيروت هو السلطان عبد الحميد بواسع نفوذه وصلاحياته في جبل لبنان ؟ فكيف ترد هذا الشرف العظيم على مرأى جمهور الشعب والموظفين ؟ ان حبيب باشا السعد ونسيب بك جنبلاط يضحيان بالشيء الكثير في سبيل مثل هذه النعمة التي تأتيك عفواً».

فأجبته : « مهلاً يا عماه ، انك مأخوذ بعادات وتظاهرات باطلة ، أما أنا فلا يهمني الا قيامي بالواجب المترتب علي وكسب رضى الحاكم عن أعمالي وسلوكي ، ومنه التواضع ، وسترى اني على حق » .

ولما خلوت بنفسي وتمعنت بكلام سيدي العم ، ترجح عندي اني غريب عن السياسة وعن المحيط الذي أعيش فيه ، وحمدت الله على أن صفتي القضائية التي لازمتني حتى قدومي الى لبنان لم تبعدني عن الحياة السياسية تماماً بل جعلتني أشعر بأن وفائي الوظيفة حقها بعيداً عن المظاهر لما يزيد في ثقة الحاكم بي .

أجل ، لقد تحقق شعوري وأصبحت بعد قليل من الزمن الامين العام والخاص لدولة الحاكم ، حائزاً كامل ثقته في ادارة شؤون حكومة لبنان .

الفصل السادس

نشاط الحاكم

زيارته اقضية الشوف والمتن وكسروان

زار الحاكم خلال ربيع عام ١٩١٣ مراكز الاقضية الثلاثة ، الشوف والمتن وكسروان وبعض قراها ، مصطحباً عائلته الكريمة وحاشيته المؤلفة من نائبه في رئاسة مجلس الادارة حبيب باشا ، ومدير الامور الاجنبية عبدالله بك الخوري ، بصفته موجلاً مهام التشريفات وتنقلات الحاكم في انحاء الجبل ، وسعيد بك حماده كبير المرافقين ، والمرافق الرئيس في الجند الشيخ انطون الخازن ، وصاحب هذه الذكريات . وكان في مقدمة المستقبلين في كل مركز قضاء قائم المقام وأركان حكومته ونواب القضاء ، بينما تعلو أصوات الجماهير بهتافات الترحيب والدعاء بحياة لبنان وحياة حاكمه النبيل .

ليس غريباً أن يتبارى الاهلون والموظفون في استقبال الحاكم بالتظاهرات الرائعة والقاء الخطب والقصائد ، ولبنان من أخصب بقاع العالم شعراً ونثراً وخطابةً وكتابة ، وبديهي ان توجه الى دولة الحاكم آيات المديح والاطراء وان تشمل رجاله ، وفي مقدمتهم نائبه في المجلس ونواب القضاء المحتفي بزائره الكريم . على ان قضاء الشوف قد امتاز في تظاهراته عن المتن وكسروان بأمرين : أولهما ان السعد الحبيب نائب رئيس مجلس الادارة هو من أكبر أبنائه البررة ، والثاني ان الزعامة في الشوف بارزة الأثر نظراً لكبير الفارق بين الزعماء وعامة الشعب علماً وثقافةً وثروةً ووجاهة .

لقد لفت الانظار في معظم الضيافات التي أقيمت في هذا القضاء ، ان كثرة اطراء الخطباء والشعراء مزايا الزعيم حبيب السعد وتعداد مناقبه ، الى جانب عبارة المديح المقتضبة الموجهة الى الحاكم نفسه ، قد تركت أثراً غير مستحب لم يخف على الناقد البصير .

أما قضاء المتن السالم من الزعماء والمتزعمين بفضل انتشار الثقافة بين جميع ابنائه ، فكانت استقبالاته هادئة مقرونة بالرصانة والوقار بالرغم من عبارات الترحيب الحارة ، كما كانت في جونيه مركز قضاء كسروان والقرى التي تمتعت باستقبال الحاكم . وقد أوضحنا فيما سبق ان الزعامة في هذا القضاء كادت تنحصر في المركز البطريركي الماروني الرفيع العماد، وتتقلص رويداً رويداً عن مشايخ آل خازن بفضل يقظة الاوساط الشعبية .

زيارة الاسطول الفرنسي ميناء جونيه

بعد عودة الحاكم من رحلاته في الأقضية الثلاثة الشوف والمتن وكسروان ، تلقى من قنصل فرنسا العام في بيروت كتاباً ينبئ بقرب زيارة الاسطول الفرنسي السواحل السورية اللبنانية ، وقبل انقضاء ثلاثة أيام على ذلك الكتاب ظهرت ثلاث قطع حربية من الاسطول المذكور في مياه بيروت ، التي تعودت استقبال مثل هذه المجاملات الودية الأجنبية .

ولكن حين تقدمت هذه القطع نحو جونيه وألقت مراسيها في مينائها ، وهذه أول زيارة يقوم بها أسطول أو باخرة حربية لذلك المرفأ منذ اجازت الدولة العثمانية في آخر عام ١٩١٢ رسو البواخر فيه ، ظهر اهتمام والي بيروت والمحافل السياسية بتفسير مغزى هذه الزيارة التي تجلت بنزول الاميرال الفرنسي مع بعض كبار ضباط بحارته الى البر ، وصعودهم على الأثر الى الكرسي البطريركي الماروني في بكركي لتحية غبطة البطريرك المعظم واستمداد بركته وأدعيته .

وقد اعتقد الساسة وغيرهم من مفكري لبنان وبيروت ان فرنسا قصدت بزيارة أسطولها ميناء جونيه اظهار متواصل اهتمامها بشؤون جبل لبنان وبأنها هي التي عضدت طلب اللبنانيين حين وافقت الدولة على جعل جونيه مرسى للبواخر الأجنبية ، ولا شك مطلقاً بصحة هذا الاهتمام .

وفي الغد أرسل قائد الاسطول يعلم دولة حاكم جبل لبنان بعزمه على زيارته في مقر الحكومة (بعبدا) ، وقبل حلول الوقت المعين لاستقباله دخل حبيب باشا السعد على الحاكم يستأذنه في استقبال قائد الاسطول وحاشيته في بهو مجلس الادارة باسم الشعب اللبناني ، بعد خروجهم من لدن صاحب الدولة الذي يكون قد قبلهم باسم حكومة لبنان ، فانتفض الحاكم غيظاً من هذا الطلب واعتبره تحدياً لسلطته العليا ، ورد عليه

قائلاً : « ليس لك يا حبيب باشا أية صفة تؤهلك لاستقبال الزائرين باسم اللبنانيين ، لأنك وكيلي في رئاسة مجلس الادارة فحسب وأنا استقبل الضيوف باسم الحكومة والشعب معاً » . وغادر السعد على الأثر مكتب الحاكم آسفاً لما وقع .

واستقبل الحاكم في الموعد المعين قائد الاسطول وحاشيته بالمجاملة المعتادة ورد له الزيارة ، يرافقه مدير الأمور الأجنبية وكبير المرافقين .

فتور ثقة الحاكم بحبيب باشا

لقد تكلف حبيب باشا جهد المستطاع كتم استيائه من فشله باستقبال قائد الاسطول الفرنسي ، ولكن الفتور الذي اعترى صلاته بالحاكم لم يخف على أحد من كبار رجال الادارة وأعضاء المجلس . وربما كانت شكوى خصومه السياسيين من حزبيته المتطرفة ، وسعيه لوصول انصاره الى المناصب الحكومية ، بالإضافة الى مكانته البارزة في الشوف وحبه للظهور بما يتفق وزعامته ، من أسباب ذلك الفتور .

لا شك بأن حبيب السعد كان مديناً بمركزه الحكومي الاول لسفارة فرنسا وقنصليتها العامة في بيروت أولاً ، والى أنصاره ، وفي طليعتهم خاله الشيخ كنعان الضاهر داهية شمال لبنان وكبير وجهاء ناحية الزاوية ثانياً ، وكان تودده الى الحاكم يستهدف الفوز بثقته ليتمكن من النفوذ في السلطة ومكافأة الانصار . وقد سايره الحاكم في بدء الأمر اعتقاداً منه برفيع منزلته في نفوس الشعب ، فعين بناءً على اقتراحه خاله الشيخ كنعان الموما اليه قائم مقام على كسروان ، وصديقه الكبير سليم بك المعوشي قائم مقام على جزين ، وأمين سره الكاتب الأديب فرنسوا خوري ، مكاتب شركة هافاس الاخبارية الفرنسية ، مترجماً في الديوان الاجنبي ، وغير ذلك من التعيينات التي أقلقت رجال العهد السابق فعدّوها بدء انتقام العهد الجديد منهم ، فتعالت شكواهم وتوالت ، مما جعل الحاكم يشك في نزاهة حبيب باشا وآرائه .

ولكن حبيب باشا المتمسك بحزبيته ظل متظاهراً برضى الحاكم عنه ، محافظاً على سابق وثيق صلاته بالقنصلية الفرنسية ومعتمدها الأول اميل الخوري أولاً ، ثم باقي القناصل — وأشهرهم قنصلا بريطانيا وروسيا — وتراجمتهم ، وذلك بفضل ما حباه الله من ذكاء وتهذيب عالٍ ولباقة في المعاشرة تعودها بسائق مركزه العائلي الاجتماعي .

الفصل السابع

ثورة الجند اللبناني

اسبابها وظهورها

كان الجند في لبنان قائماً مقام الشرطة والدرك في سائر الولايات العثمانية، وكان أفراده وصغار ضباطهم يشكون من زمن بعيد قلة رواتبهم، فلا نظام يصون حقوقهم ولا قواعد تبين وجه اختيارهم وترفيعهم، ولم يسبق لأحد المسؤولين ان وضع لهم تعليمات يسيرون عليها بل كانت الفوضى ضاربة أطنابها في ادارتهم وفي علاقتهم ببعضهم البعض وبرؤسائهم. وكانت نقمتهم تنصب في الغالب على مجلس الادارة المكلف بالتدقيق في الموازنة والموافقة عليها أو ردها مع بيان الملحوظات لاعادة تنظيمها، فاعتبروه المسؤول الأول عن اهمال شؤونهم واتهموه بالانصراف الى زيادة رواتب أعضائه وكبار الموظفين والأمراء العسكريين، وقد استفحلت هذه النقمة منذ ان عين ملحم بك الخوري قائداً للجند برتبة ميرالاي (زعيم) في عهد الحكومة السابقة.

وبعد قدوم اوهانس باشا حاكماً على جبل لبنان امل الجنود خيراً وانفراجاً لأزمتهم، ولما علموا أن المجلس الاداري لم يأخذ بعين الاعتبار ضرورة الترفيه عنهم في الموازنة المعروضة عليه لعام ١٩١٣، حنقوا عليه ونظموا تظاهرة ضده بدأوا بها في زغرتا وهم قليلو العدد، ثم انضم اليهم الأفراد القائمون على وظائفهم في شمالي لبنان فغادروها وساروا مع اخوانهم قاصدين الى بعبدا.

لما بلغ أمر الثورة مسامع الحاكم دعا اليه نائبه في المجلس الاداري حبيب باشا السعد وقائد الجند ملحم بك الخوري واستشارهما فيما يجب عمله. فالتزم القائد الصمت — وكان ثقيل السمع لمرض ألمّ به سابقاً ولذلك كان قليل الكلام — وأجاب حبيب باشا بأنه لا

يعير هذه المظاهرة أقل اهتمام، مؤكداً انه وحده قادر على تفريقها بمجرد مقابلته للقائمين بها نظراً لما يكنه الجند له من محبة واحترام باعتباره الزعيم اللبناني الأول ، فارتاح الحاكم لكلام نائبه السعد .

ولما تجاوز المتظاهرون جونيه في طريقهم الى بعبدا ، وكان عددهم قد بلغ ثلثي ملاك الجند ، وصل حبيب باشا على رأس وفد من زملائه أعضاء المجلس لملاقاتهم ونصحهم بالاقلاع عن المظاهرة . فما شاهدهم الجند يقتربون منه عند نهر الكلب حتى قابلهم بالشتائم وحملهم مسؤولية نكبته ، فعاد الوفد خائباً ودخل رئيسه على الحاكم مقترحاً عليه أن يستعمل صلاحيته بطلب قوة من الجيش التركي المرابط في الثكنة العسكرية في بيروت لرد المتظاهرين الهائجين قبل وصولهم الى بعبدا ، فأجابه الحاكم : « خسئت يا حبيب باشا ، أتدعي الزعامة في لبنان وتعرّض الجنود اللبنانيين لخطر نار اخوانهم الاتراك ؟ انصرف عني ودعني أتدبر الأمر بنفسي » . فعاد حبيب باشا الى مكتبه حزيناً كئيباً وترتب عليّ آنئذٍ أن أشيد بصواب رأي الحاكم من جهة وأسعى لتخفيف نقمته على نائبه من جهة ثانية .

وصول الجند الثائر الى بعبدا

بعد ساعة من الزمن قضيتها مع الحاكم ، اتلقن منه باللغة التركية كلمته التي يجب أن القيها بالعربية على الجنود حين يصلون الى بعبدا ، دخل علينا كبير المرافقين منبئاً بوصولهم وانتظامهم في الساحة أمام مدخل السراي. فنزل الحاكم لمقابلتهم فاستقبلوه بالتحيةِ العسكرية ، ثم أمرني فألقيت عليهم كلمته الآتية :

« أبنائي الجنود الأعزاء،

« بالرغم من حداثة عهدي في جبلكم لقد عرفت الحيف الواقع عليكم في مرتباتكم والصعوبات التي تلاقونها في سبيل تأمين اعاشة عيالكم فأسفت لذلك جد الأسف ، وسأعمل بدون أدنى تأخر على انصافكم وتنظيم شؤونكم . واذ كنتم على حق في طلبكم ، وهذا لا شك فيه ، فقد ارتكبتم شططاً في طريق الوصول اليه . أعتمدوا الآن لجنة منكم تتصل بي وتتقدم الي بمطاليبكم ، فتروا مني عدلاً وعطفاً كما ينتظر الأبناء من أبيهم ، وسأبدأ عملي في سبيلكم هذا اليوم منتظراً قدوم لجنتكم الي » .

وللحال علا هتاف الجند بصوت واحد بحياة الحاكم المحبوب . فشكرهم وهم بالعودة

الى مكتبه ، فلما رأى أعضاء مجلس الادارة من داخل السراي ،حيث كانوا يرقبون مصير التظاهرة ، انها قد انتهت بسلام خرجوا متقدمين نحو الحاكم لمقاسمته شرف هذه النهاية بحضورهم ، ولكن الجنود صاحوا بهم : « ارجعوا يا خونة » ، وأخــذوا يرمونهم بالحجارة وبالألفــاظ المهينة حتى أعادوهم الى داخل السراي حيث قبعوا في غرف الموظفين بانتظار الفرج .

أما الحاكم فعاد الى مكتبه باطمئنان مقرون بالحزم والوقار ولم يمر الآ القليل من الوقت حين تقدمت اليه اللجنة التي اعتمدها الجنود فأصدر امره على الفور بأن يصرف لهم من الخزينة مبلغ عشرة آلاف ليرة كسلفة لسد عوزهم ريثما ينظر في مطاليبهم بما تستحقه من العطف الأبوي .

ولما عادت اللجنة تنقل اليهم المقدمة الطيبة لوعد الحاكم الرؤوف ، تعالت اصوات هتافهم بالدعاء لدولته معلنين اعتمادهم على عدله وعنايته وانصرفوا بسلام كل منهم الى مركز عمله ، ودخل اعضاء مجلس الادارة على الحاكم في مكتبه يهنئونه على تدبير الأمر بحكمته دون اراقة نقطة دم ، وقد بر الحاكم بوعده وأثبت عطفه على جنوده .

البستاني في محل الخوري

اخذ الحاكم في اليوم التالي يدقق في قضية الجنود فتبين له تعدد شكواهم فيما سبق منفردين ومجتمعين دون ان تؤخذ بعين الاعتبار من قبل قــائدهم الأكبر ملحم بك الخوري زعيم الجند ، كما ظهر عجز هذا القائد عن القيام بمهام القيادة ، وقد بلغ من اهماله شأن الجنود انهم تمكنوا من التجمع والتظاهر ، تاركين مراكز وظائفهم دون ان يصل خبرهم الى علمه الآ بعد ان صاروا في منتصف طريقهم الى بعبدا . لذلك اشار اليه الحاكم بالاستقالة فامتثل للأمر فوراً واسندت قيادة الجند بالوكالة الى المقدم سعيد بك البستاني رئيس امناء لوازم الجند اللبناني .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان حبيب باشا كان ثاني المهنئين بوكالة البستاني دون ان يكون له فيها يد سوى سابق رغبة في اقصاء جميع رجال العهد السابق وفي مقدمتهم الزعيم الخوري عن مراكزهم الرئيسية .

التحقيق في ثورة الجند

لم يكتف الحاكم باقصاء ملحم بك الخوري من قيادة الجند بل اراد معرفة حقيقــة

اسباب الفوضى لقمع جذورها ومنع تكررها ، مستعيناً بخبراء حياديين لا دخل لهم في الحزبية، صالحين لاسداء النصيحة اللازمة للاصلاح . فطلب من مقام الصدارة العظمى ان يتفضل بارسال مفتشين من كبار رجال الجيش العثماني ، فأجيب الى طلبـــه وأوفد الميرالاي (زعيم) طيار بك ومعاوناً له فأتما مهمتهما خلال اسبوع ورفعا تقريرهما الى دولة الحاكم محبذين التدابير التي اتخذها وفي مقدمتها اقصاء ملحم بك عن قيادة الجند اللبناني لضعف ادارته وارادته .

كان طيار بك ومعاونه في فترة وجودهما في بعبدا ، على اتصال بي بحكم وظيفتي وموقفي الحيادي من المحاولات الحزبية المحلية، فأوضحا لي، عطفاً على ما جاء في تقريرهما، ان تظاهرات الجند سالمة حمداً لله من كل تدخل اجنبي ومنحصرة في نطاق التذمر من سوء الادارة التي ادت الى ضآلة مرتبات افراد الجند وصغار ضباطهم وعدم انصافهم من الترفيع الذي يستحقه بعضهم .

ومما لا شك فيه ان طلب الحاكم مفتشين من العاصمة زاد في ثقة عظمائها باخلاصه ولا يستكثر هذا الطلب على رجل السياسة مستشار وزارة الخارجية السابق .

وبدهي ان تتوثق اواصر الصداقة بيني وبين طيار بك ، وقد جمعنا الحياد في القضية التي جاء لأجلها ومعرفتي لغتـــه التركية والثقافة التي نشأ عليهـــا كلانا في مدارس الدولة العثمانية ودوائرها الحكومية فضلاً عن كرم الخلق الذي تحلى به ، وقد ظهر اثره فيما بعد كما سيأتي ذكره في الباب الثاني من هذا الكتاب .

استدعاء خبير فرنسي لتنظيم الدرك اللبناني

ان السياسة الحكيمة التي أظهرها الحاكم باستدعائه مفتشين من العاصمة كما جاء في البحث السابق قد سهلت له ، بعد اطلاعه على النظام البـــالي الذي كان عليه الجند اللبناني ، الاستعانة ، بموافقة الباب العالي ، بخبير فرنسي لوضع نظام جديد للجند يتفق والتطور العصري . فكان له ما اراد ، وجاء خبير فرنسي برتبة قومندان ، ظل في لبنان على نفقة الحكومة عشرة ايـــام ، درس فيها حالة الجند من جميع نواحيه العسكرية والادارية والمالية ، وعاد الى بلده فوضع تقريره مرفقاً بمشروع النظام المقتضى .

كان لعمل الحاكم في هذا السبيل صداه المستحب لدى مرجعه العثماني ولدى فرنسا وسائر الدول الاوربية الموقعة على صك امتياز لبنان ، الحريصة على سلامته من تدخل

الدولة العثمانية في شؤونه الداخلية تدخلاً قد يؤدي مع الزمن الى الاخلال باستقلاله الاداري .

كان الحاكم يشعر بحرص فرنسا قبل سواها على تأييد نظام جبل لبنان وقطع كل علاقة ادارية بينه وبين العاصمة العثمانية ، ويستدل على ذلك من كثرة تدخل موظفي القنصلية العامة الفرنسيين واللبنانيين في شؤون لبنان الحكومية والشعبية ، مما جعل الحاكم حذراً من هذا الموقف الذي لم يصل اليه قناصل سائر الدول ، وساعياً لوقف ذاك التدخل عند حد فيما يتعلق بأمر الحكومة وموظفيها . وعلى اثر ذلك رأينا قنصل بريطانيا العام وكبير تراجمته الشيخ اسبر شقير يطريان في كل مناسبة مزايا الحاكم العالية ، وفي مقدمتها حرصه على استقلال لبنان ، دون ان يترك مجالاً لتدخل احد في شؤونه مهما عظمت صفته ومنزلته .

تأصيل البستاني في القيادة

لما رأى الحاكم ، بعد عدة اشهر ، قيام البستاني بقيادة الجند على الوجه المنتظر من خبرته ونزاهته ، انهى بتعيينه قائداً اصيلاً برتبة ميرالاي (زعيم) فتم له ذلك بعد موافقة وزارة الحربية ، على مقتضى القواعد التي كانت متبعةً في ذلك العهد .

ومما تحدث به المتصلون بسعيد بك البستاني انه رغم الصداقة التي كانت له مع حبيب السعد ثم إنقلبت الى فتور وتباعد ، ظل على حيـــاده ازاء مختلف الاحزاب ولا سيما بالنسبة الى امراء الجند اللبناني وضباطه .

ومما تجب الاشارة اليه قبل ختام هـــذا البحث هو ان الجندي اللبناني آنذاك ، اذا جازت هذه التسمية ،كان دون زميله الجندي العثماني اطاعةً لمقتضيات القوانين والتعليمات وتدرباً على الاعمال العسكرية . وكان امراء الجند اللبناني اقل من زملائهم في الولايات علماً وخبرة في امور الجندية الا احدهم المقدم فؤاد شقير ، من وجهاء الدروز في قضاء المتن ، فقد تميز عن اخوانه الامراء والضباط بسعة اطلاعـــه على القوانين والأنظمة العسكريـــة ومعرفته اللغة التركية ، علاوةً على ما تحلى به من وطنية واخلاص وذكاء وتجرد عن الحزبية . وفي اعتقادي انه لو كانت قيادة الجند بيده لما وقعت الثورة، ولكن الذي حال دون اسناد القيادة اليه هو كونها من حقوق الاكثرية المارونية بمقتضى العرف المستمر في جبل لبنان .

ومما يجدر في هذا الصدد التنويه بأسمائهم من امراء الجند اللبناني وضباطه البارزين ، المقدمون سليم طرابلسي وحليم شقير وجرجس فرحـــات وسعيد حماده ونجيب معلوف والشيخ انطون الخازن وحنا الضاهر والخاج شاهين ، وقـــد عرف كل منهم بحسن السيرة والاقدام فيما يلقى على عاتقه من مهام .

الفصل الثامن

الحكومة في مقرّها الصّيفي

في نبع الصفا والباروك

في اول حزيران سنة ١٩١٣ ، غادر الحاكم منزله في بيروت تحيط بـه عائلته الكريمة وحاشيته ممتطين مركبات الخيل ، قاصدين الى بيت الدين المقر الصيفي لحكومة جبل لبنان .

كان مصطفى بك العماد ، رئيس دائرة الاستئناف الجزائية ، قد اعـد على شرف الحاكم مأدبة غداء في منتزه نبع الصفا دعا اليها عدداً كبيراً من اصدقاء وكبار موظفي الحكومة ، دون ان يكون بينهم حبيب باشا السعد ، وكيل رئيس مجلس الادارة ، ولا احد من انصاره ، نظراً للعداء المستحكم بين الفريقين من القديم .

قضى المدعوون في ذلك المنتزه الجميل الواقع على طريق بيت الدين نحو ساعتين من الوقت ، تناولوا فيه الغداء على مائدة فاخرة دلت على حسن ذوق المضيف وسخائه ، ثم سار الركب الى قرية الباروك حيث تقوم دار المضيف عـلى هضبة صخرية بعيدة عن الطريق المعبدة مسافة مئتي متر . فترجل الجميع وفي طليعتهم الحاكم وعائلته وحاشيته وسط هتافات الجماهير القادمة من انحاء الشوف لمشاركة زعيمها في استقبال الحاكم ، وفي تلك الدار التي لا تقل روعة عن احد القصور الجبلية غادرت عقيلة الحاكم الحفل الى دائرة الحرم ، حيث استقبلت بما يليق بها وبمقامها من ترحيب واكرام العظيم للعظيم .

لم ينحصر تسابق كبار الموظفين في احراز رضى الحاكم بل تجاوزه الى حب الظهور امام الشعب ، فقد رأيت الرفاق وكبار المستقبلين يتسابقون تقرباً من الحاكم اثناء سيره على الاقدام الى دار الضيافة تسابقاً غريباً في نظري ولكنه كما ظهر لي ، من العادات

المألوفة في معظم البلدان ، على اني فضلت ان آسير الهوينا مع صغار الفلاحين من اهل تلك المنطقة واستفسر منهم ما احتاجه من معرفـــة عن حقيقة احوال امثالهم المادية والاجتماعية ، فتبين لي ان اكثرية الشعب في هذه المنطقة تحصر اهتمامهـــا في الحصول على معيشتها بعرق جبينها في الزراعة وغيرها ولا تعرف من امر الحكومة والسياسة سوى ما تسمعه من زعيمها . فان كان يشغل منصباً حكومياً فالحكومة في نظرها على احسن ما يرام ، والعكس بالعكس . اما التزاحم على الوظائف فهو من اختصاص الطبقة الاقطاعية والمتعلمين ، وهم قلة ، خلافاً لما هي عليه المناطق الاخرى في قضاء الشوف نفسه وفي اكثر الاقضية من انتشار الثقافة بين جميع ابنائها .

بعد ان القيت على جمهور المستقبلين كلمة الحـــاكم المعبرة عن شكره لعواطفهم الصادقة ، الدالة على اخلاصهم لدولتنا العلية الممثلة بشخص الحاكم وعن استعداده لكل ما فيه خيرهم وخير لبنان ، صافح صاحب الدولة حضرة المضيف وصحبه شاكراً ومودعاً ، وتوجه مع حاشيته وسط الهتاف الشعبي الى مزرعة الفريديس ، حيث تناولوا الشاي في قصر الزعيم الشعبي امير الشعر الزجلي رشيد نخله بناءً على سابق دعوته ، ثم سار الموكب قاصداً بيت الدين .

بيت الدين

وصل الحاكم وصحبه قبل غروب الشمس ، تلك البلدة الصغيرة الهادئة بيت الدين ، المطلة على وادٍ ذي زرع تغطي منحدراته غابات الصنوبر ، فكانت العاصمة الصيفية مزدانة بالاعلام وأغصان الاشجار من ضاحيتها المعاصر مسكن الوجهاء آل صالح نعمه ، حتى سراي الحكومة ، نظراً لما يعلقونه على انتقال الحكومة اليهم من خير متواصل مدة الصيف بفضل اقبال الزائرين وذوي المصالح .

حل الحاكم وعائلته في القصر المعد له وهو قصر الامير بشير الشهابي ، وقد خصص لي فيه غرفتان ، وهذا فضل من الحاكم على امين سره لم يسبق له مثيل في سابق العهود التي تعاقبت على لبنان ، فكنت مع دولة الحاكم داخل القصر كما يكون الابن مع ابيه ، وخارج القصر كالموظف مع رئيسه .

كان لكل من المرافقين سعيد بك حماده والشيخ انطون الخازن غرفة في القسم الخارجي الملحق بالقصر ، وفاقاً للعادة المستمرة .

في فترة خمسة عشر يوماً ، وهي الفرصة المعينة لانتقال جميع موظفي الحكومة الرئيسية من بعبدا الى المقر الصيفي ، اتمت دوائر الحكومة معداتها وبدأت تسير سيرها المعتاد في رؤية مصالح العباد .

كانت عقيلة الحاكم السيدة الفاضلة المرأة الصالحة موضع احترام الذين زاروها وسمعوا حديثها واعجابهم بعالي مزاياها النادرة المثال ، وقد ردت لهم الزيارة في منازلهم الامر الذي يتعذر عليها في بعبدا وجوارها ، وكانت هي وزوجها جد مسرورين من حياة الجبل وقد فضلاها على حياة المدينة العظيمة بيروت لأسباب اهمها توفر الراحة التامة بعد عناء العمل.

ومن جملة دواعي الانشراح في بيت الدين قيام الموسيقى العسكرية كل مساء بالعزف في حديقة القصر بقيادة رئيسها الايطالي السيد افوليو.

زيارات القناصل

من العادات المستحبة في جبل لبنان ، ان قناصل الدول الاوربية المقيمين في بيروت يرون من الواجب عليهم القيام بزيارة الحاكم في مقره الصيفي كل سنة ، فيزوره اولاً القنصل العام الفرنسي ومعاونه فيحلان ضيفين عزيزين في القصر ، وبعد مغادرتهما يأتي على التوالي ، في فترات متقطعة من الايام ، القنصل البريطاني فالقنصل الروسي فالالماني فالايطالي فالنمسوي ، فيلقون نفس الترحيب والمجاملة المتعارف عليها في السلك السياسي . على ان ما يلفت النظر في هذه المجاملات ، التسابق الملحوظ بين كل من قنصلي فرنسا وبريطانيا العظمى في سبيل كسب مودة الحاكم وتأييد النفوذ بين اوساط الموظفين والشعب معاً . وبدهي ان تظاهرات قنصل فرنسا كانت بارزة يدعمها اكثرية الشعب اللبناني ، ويقابلها انشراح معظم الدروز لزيارة قنصل بريطانيا العظمى المتصفة بهدوء يزينه ابتسامات يقرأ فيها الشعب مرامي السياسة الانكليزية التقليدية .

لذلك كان حاكم الجبل يلتزم الدقة والحذر في حديثه مع هذين الممثلين السياسيين بالرغم من حرارة الترحيب المتبادلة . اما سائر القناصل الذين لم تكن لدولهم اهداف سياسية هامة في جبل لبنان ، فكانت صلاتهم مع الحاكم كسائر الاصدقاء المحببين .

زيارة قائم مقام الشوف في المختارة

المختارة بلدة صغيرة في وسط جبل الشوف والمقر الصيفي لقائم مقام القضاء ودوائر حكومته ، ذات تاريخ عظيم في نظر دروز لبنان باعتبارها مقر حاكمهم الشيخ بشير

جنبلاط فيما مضى . لبى الحاكم دعوة قائم مقامها نسيب بك جنبلاط زعيم قومه الى زيارته وتناول طعام الغداء على مائدته . وقد دعا اليها رؤساء دوائر الحكومـــة المركزية واعضاء مجلس الادارة وكبار الموظفين .

ذهب الحاكم مع حاشيته الكبرى الى المختارة حيث شاهدنا احتشاد الجماهير وكأنهم جميع اهل القضاء والاقضية المجاورة ، يهتفون بحياة القادم الكريم حاكم جبل لبنان وحياة زعيمهم سليل بيت المجد نسيب بك جنبلاط . وقد حضر مأدبتـــه الفاخرة اصدقاؤه الكثيرون من مختلف انحاء الجبل ، وتجلت في هذه الحفلة مكانة آل جنبلاط من نفوس الشعب والكرم الحاتمي الذي نشأ عليه صاحب الدعوة وزانه كرم الخلق ، فكان اول زعيم سلم من نقمة النقاد وسائر الناس ، عدا من كان يطمح الى وظيفته .

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ، ان الجماهير الـــذين كانوا يعدون بالآلاف شاركوا المدعوين في طعامهم والذي فضل عنهم كان من نصيب الفقراء .

ولا يجوز في صدد بحث هذه الزيارة اهمال المكانة المرموقة التي احرزتها السيدات الدرزيات ، فبالرغم من تحجبهن في ذلك العهد قد شارك بعضهن ازواجهن في سياستهم المحليـــة ، ومن عظيماتهن السيدة خولة عقيلة صاحب الدعوة . ثم قامت بعدها نسيبتها السيدة نظيرة جنبلاط التي فاقت الرجال في الزعامة والوجاهة واصبحت صاحبة الكلمة الاولى في قضاء الشوف .

اولى زياراتي لدير القمر

توجهت صباح يوم الاحد الى دير القمر لرد الزيارة ، وكان الآذن يرافقني كدليل. ولما وصلنا الى بيت المدير شاكر بك افرام البستاني ، دخل الآذن قبلي وانبأ اهل البيت بقدوم رئيس القلم التركي لزيارتهم فأجيب بكلمة الترحيب « اهلاً وسهلاً » . وبعد ان دخلت وسلمت على ربة البيت وضيوفها ، ولم يكن زوجها حاضراً ، وأخذت احدثهـــا حديث المجاملة المعتادة ، رفعت صوتها الى الآذن الذي ظل واقفاً على عتبة باب الدار وسألته : « أين هو » . فأشار اليّ بيده ، فابتسمت معتذرة بأنها ما كانت تعتقد ان مدير القلم التركي شاب نظيري بل كبير السن كسلفي وباقي رؤساء المصالح ، ثم اخذت تتلفظ بسيل من المجاملات التي ألفتها سيدات البيوت الكبيرة . ولما جاء زوجها ، عاتبني

على عدم سبق اخباره عن موعد زيارتي ليقوم بواجب الحفاوة ، ثم غادرت منزلـــه شاكراً ما لقيته من حضرته ومن زوجه الفاضلة من لطف واكرام . وفي اليوم ذاته قمت برد الزيارة لأكثر من واحد من وجهاء دير القمر ، فكان الشعور المتبادل بيني وبينهم السرور والارتياح للزيارة البسيطة السالمة من التكلف والترحيب المصطنع ، فأصبح كُل منهم فيما بعد ينظر الى كبير امناء سر الحاكم نظرة الصديق الى صديقه .

الفصل التاسع

رحلات الحاكم إلى زحله وشمالي لبنان

في زحلة

في شهر آب عام ١٩١٣ ، عزم الحاكم على القيام برحلة الى شمالي لبنان ، بعد زيارة زحلة ، وكانت حاشيته مؤلفة من قرينته وشقيقته ومن امين سره الاول (صاحب الذكريات) والدكتور بولس نجيم رئيس القلم الاجنبي ، وعبدالله بك الخوري مدير الامور الاجنبية القائم بمهام الرحلات ، واسعد بك يونس مفتش مصلحة الخراج ، والمرافقين العسكريين سعيد بك حماده والشيخ انطون الخازن .

استقبلت زحلة ضيفها الكبير وعائلته الكريمة وحاشيته استقبالاً شعبياً جميلاً ، وبعد ان حلوا في فندق قادري المعروف واستراحوا برهة من الزمن ، توجهوا الى منزل قائم المقام ابراهيم بك ابي خاطر لتناول طعام العشاء تلبية لسابق دعوته . وقد ازدانت الحفلة بوجود دولة والي سورية عارف بك الماrديني الذي قدم للسلام على حاكم لبنان ، كما حضرها توفيق بك البيسار قائم مقام بعلبك للترحيب بالضيف الكريم ودعوته الى زيارة بعلبك والقى صاحب الدعوة ، المشهود له بواسع العلم وطلاقة اللسان خطاباً باللغة الفرنسية رحب فيه بالزائرين العظيمين حاكم لبنان ووالي سورية ، فأجابه الحاكم بالفرنسية ايضاً شاكراً له كريم حفاوته ومشاركاً في الترحيب بزميله الكبير والي سورية ، فنهض هذا على الأثر وألقى بدوره وباللغة العربية الفصحى خطاباً رائعاً دل على مقدرته في عالمي السياسة والبيان .

كان القاء الحاكم خطابه بالفرنسية مألوفاً ، وهي اللغة التي يعرفها ويتقنها صاحب الدعوة وذووه ، دون ان يعرفوا اللغة التركية كما هو شأن اكثر اللبنانيين . فكانوا يدرسون

ويتثقفون في المدارس اللبنانية الوطنية والمعاهد الفرنسية ، ولا اثر للتركية فيها بالرغم من كون الحكومة العثمانية في العاصمة والولايات كانت ترحب بمن يود التحصيل في مدارسها من اللبنانيين مجاناً .

على مائدة يوسف لوند

في الليلة الثانية من وجودنا في زحله ، ازدان فندق قادري وافناؤه وحدائقه بمتنوع الازهار والاعلام والانوار علاوةً على ما كان عليـــه الليلة السابقة ، وذلك اتماماً لبديع نظام المأدبة التي اقامها على شرف الحاكم وحاشيته ، الرجل العصامي الهمام يوسف لوند، من خيرة اركان النهضة الشعبية .

ارى قبل وفاء هذه المأدبة حقها من الوصف ان آتي المامًا على ما سبقها من مساع لاحباطها ، فلما بلغ خبر الدعوة مسامع قائم المقام واخوانـــه الوجهاء ، اجتمعوا وقرروا توحيد الجهود والمساعي لحمل الحاكم على الاعتذار عن حضورها محتجين بكون صاحبها شاباً حديث العهد بالوجاهة . ولما فطن الحاكم الى حقيقة سبب هـــذه المساعي ، وهو النزاع المقنع في زحلة بين الطبقة الاقطاعية او الارستوقراطية وبين الشبيبة المثقفة الناهضة المتفوقة بنفوذها لدى الشعب ، ومنها السيد لوند ، لقاء ما تسديه اليـــه من خدم ، قبل الدعوة شاكراً .

امتازت هذه الحفلة المهيأة على فناء الفندق الفسيح المطل على الشارع الكبير وعلى مجرى البردوني الجميل بحفاوة شعبية اوحى بها اصدقاء السيد لوند ، امثال الاستاذ شبل دموس والاديب نجيب نكد والصحفي البـــارع شكري بخاش والوجيه عبدالله بك ابو خاطر . وقد زادها بهجة كلمة طيبة القاها احد كبار المدعوين الخطيب المصقع يوسف بك السبع ، الوجيه الدمشقي المعروف المصطاف مع عائلته الكريمة في زحله ، فكان لكلمته اجمل الاثر في نفوس المستمعين .

تظاهرة الشباب

لم يكدر ، في نظر الحاكم وصحبه ، صفو تلك المأدبة الانيقة سوى تظاهرة صامتة قام بها شبان زحله ، حاملين الانوار امام لوحة كتب عليها عبارة : « البقاع جزء من لبنان » .

كان الحاكم السياسي المحنك اوهانس باشا محقاً في انزعاجه من هذه التظاهرة التي يمكن ان تفسر بأنها من ايحاء الاجنبي ، احد ممثلي الدول الاوربية الموقعة على امتياز جبل لبنان ، وقد تحقق في اليوم التالي صحة تفكيره اذ تلقى من البـــاب العالي برقية رقمية (بالشيفره) تتضمن طلب ايضاح ماهية هذه التظاهرة والداعي اليها . فأجاب مؤكداً اقتصارها على فكرة بعض شبان من زحله تنحصر ثروتهم وثروة ذويهم فيما يملكون من مزارع وعقارات واقعة في سهل البقاع ، دون ان يكون هنالك اثر لتدخل اجنبي او فرنسي خاصة .

لم يسلم قائم مقام زحله من تقريع الحاكم الذي قاله له في نهايـــة الحفلة : « اما ان تكون ضعيف التأثير على الشبيبة فلم تستطع تحويلهم عن تظاهرتهم ، واما راغباً في وقوعها لتشويش الحفلة التي كنت تقترح عليّ عدم قبولها » . فنفى قائم المقام الشق الثاني نفياً باتاً مؤيداً بالقسم ، وفسر الشق الاول بأنه يتفق مع رأي وجهاء زحله وجلهم من ذوي العلاقات العقارية والزراعية في سهل البقاع . ولما خلوت بالحاكم اكدت له اعتقادي بأن قائم المقام وهو الاداري الاديب ، صادق في جوابه ولا يمكن ان يرضى عن تعكير صفاء الجو ، ولا سيما حين الاحتفال بالضيف الكبير حاكم لبنان العزيز ، فوافقني على اعتقادي وشمل قائم المقام بمزيد من العطف والتقدير .

في بعلبك

حين جاء زحله قائم مقام بعلبك داعياً الحاكم لزيارتها ومشاهدة آثارها القديمة وقلعتها الشهيرة ، قبل الحاكم دعوته باعتبارها داخلةً في برنامج الرحلة ، كما سبق فوعـــد آل مطران برد الزيارة لهم في منزل زعيمهم نخله باشا معتذراً عن قبول المأدبة التي ارادوا اقامتها على شرف دولته .

غادر الركب زحله في اليوم الثالث مشيعاً بما يليق بمكانة صاحب الدولة من مجالي الاكرام ، فوصلنا بعلبك قبل الظهر وحللنا في فندق رأس العين لاصحابه ومديريه السادة خوام ، وقد برعوا في مهنتهم وأحرزوا المرتبة الاولى في حسن ادارة الفنادق .

زرنا عصر ذلك اليوم بمعية الحاكم وعائلته « القلعة » وما حوته من هياكل ، وتجولنا في مختلف انحائها معجبين بآثارها الرائعة منشدين قول الشاعر :

ان آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار .

وهنالك بالغ قائم المقـــام توفيق بك البيسار الطرابلسي الهمام في اكرام ضيوفه والترحيب بهم .

بعد تناول العشاء في الفندق خرج الحاكم وعائلته وصحبه لقضاء السهرة في منزل آل مطران ، وبقيت وحدي اهيىء البرقيات الرقمية الى الصدارة العظمى لاحاطتهـــا علماً بتنقلات الحاكم وبما قد يكون ذا صلة بالناحية السياسية .

واذا كان الباب العـــالي (الصدارة العظمى) لا يتدخل في شؤون الجبل الداخلية البحتة ، ملقياً عبأها على كاهل المتصرف الحائز كامل ثقته ، فانه لا يتوانى عن كل شاردة وواردة في الجبل مما له صلة بجواره او بمداخلة احدى الدول الاجنبية ، وأخصها فرنسا وبريطانيا العظمى.

بعد انتهائي من البرقيات السالفة الذكر دخلت غرفة منامتي طلباً للراحة ، وكان فيها سريران طلب الي عبدالله بك الخوري ان ينام في احدهما وان اكتم الامر عن زميلـــه الاستاذ بولس نجيم الذي اعد له مع باقي رجال الحاشية الاماكن المقتضية في الغرف الملحقة بالفندق .

مداعبة قاسية بين الزميلين

في نصف الليل ، عاد الحاكم وصحبه من السهرة وبعد ان وثق عبدالله بك من نوم سيده جاءني شاكراً حسن الحظ بخلاصه من مزاحمة الاستاذ نجيم على سرير نومه ، وبعد ان انتضى ثياب النوم وصلى صلاته المعتادة واستلقى عـــلى ظهره في سريره قائلاً لي : « تصبحون بخير » ، اذ بباب الغرفة يطرق بشدة ، فشعر بأن الطارق هو الاستاذ نجيم وأسرع اليه راجياً منه السكوت والسكون حرصاً على راحة الحاكم النائم في الغرفة المجاورة . ولكن نجيماً استغل وضع الخوري وكرم خلقه وسلامة طويته وصاح به منتقداً اهمال راحة رفقائه في سبيل هناء نفسه وطلب ان يحـــل محله ، فرضخ عبدالله للطلب معتبراً نفسه اول مسؤول عن راحة الحاكم في حال السفر ، ولم يتوان عن لف ثيابه بمعطفـــه وحملها على ظهره وخرج من الغرفة قاصداً محل زميله نجيم . ولم ينس ان يتحفني قبل مغادرته الغرفة بعبارة الوداع : «بخاطرك يا اخي » .

اغلق نجيم باب الغرفة وقبل ان يتم اعتـــذاره عن ازعاجي بمداعبة زميله على الوجه المذكور ، سمعنا ضجيجاً وأصوات شبه معركة في الفندق ، فخرجنا نستقصي الخبر ، واذ

بحــارس الفندق يناقش عبدالله بك قابضاً يده ، مشتبهاً بأمره ، غير عارف حقيقة شخصيته العالية ، وهو يوصيه بخفض صوته فيزداد شبهةً به ، ولم يصغ الى ايضاحه الحادث الذي اوصله الى هذه الحالة ، حتى نهض خدم الفندق وموظفوه من نومهم على اثر صياح الحارس واعتذروا لعبدالله بك عن جهل الحارس الذي ترامى حينئذ عــلى قدميه راجياً عفوه. وبعد ان شاطرنا زميلنا الطيب القلب اسفه لما حدث ، عاد كل منّا الى مكانه وأخذت بدوري اوجه الى الاستاذ نجيم اللوم على ما بدا منه وكان سبباً في ازعاج زميله الرفيع التهذيب .

وفي الصباح اخبرنا عبدالله بك انه لم يستطع النوم في الغرفة بسبب شخير نزيلها زميله الثاني اسعد بك يونس مفتش الخراج فقضى ليلته على كرسي هزاز في بهو الفندق .

لما وقف الحاكم وعائلته على الحادث بوصفــه السالف الذكر لم يتمالكوا فوراً من الضحك المرافق للاسف ، على ان الحاكم أنب الاستاذ نجيماً على قسوته في مداعبة زميله وأوجب عليــه تقديم الاعتذار له وانتهى الامر بين الزميلين بتبادل القبلات غير الحارة طبعاً .

في الطريق الى حمص

ركبنا صباحاً « صالون » القطار المسافر الى حمص ، وبعد ان قطع بنا مسافة عشرين ميلاً فوجئنا بثلاث طلقات نارية ثقبت زجاج نوافذ الصالون دون ان تصيب احداً ، حمداً لله ، وأخذنا نتساءل عن السبب دون ان نصل الى ما يلقي عليه نوراً او نهتدي الى أثر الفاعل .

انتقل الخبر بسرعة البرق الى العاصمة اسطنبول والبلدان الاوربية ، مبالغاً فيــه ، واهتمت دوائر الامن العام في سورية بالتحقيق دون الوصول الى نتيجة سوى عزل قائم مقام بعلبك من وظيفته لعلة تقصيره في امر المحافظة على الامن في منطقة القضاء الذي يديره ، ولا سيما حين مرور دولة حاكم لبنان ، وذلك بالرغم عما هو معروف عن قائم المقــام من الحزم والذكاء وحسن الادارة وعما قام به من بالغ الحفاوة بضيف سورية الكريم وحاشيته مدة وجودهم في بعلبك .

اما الاشاعات التي حامت حول هذا الحادث فكثيرة ومختلفة ، منها ان زيارة الحاكم لنخله باشا مطران من زعماء احد الفريقين المتناظرين المعروف برغبته في انضمام قضاء

بعلبك الى جبل لبنان قد ولدت موجدةً وغيظاً في نفس الفريق الثاني ، فدفع بعض اخصائه الى اطلاق النار لاظهار عدم الارتياح لمساعي نخله مطران .

والغريب في ذلك ان الياس بك مطران شقيق نخله باشا هو أحد اركان هذا الفريق الثاني المعارض لفكرة شقيقه ، وقد تبين ان أركان كل فريق من هذين الفريقين هم من آل حيدر وآل مطران معاً وان الحزبية بما قامت عليه من مصالح قد تغلبت على صلات النسب بل على الرابطة العائلية سواء بين الاخوة أو بين ابناء العمومة .

ومن تلك الاشاعات ، ان الحادث لا يبعد ان يكون رد فعل للتظاهرة التي قامت في زحله للمطالبة بضم البقاع الى لبنان .

ومنها ايضاً ان الحادث هو اثر من آثار نقمة المعارضين لنفوذ زعيم الهرمل سعيد بك حماده وابنه سعدالله بك مدير الناحيــة المجاورة من ابناء الطائفة نفسها ، ولا تزال الحقيقة مجهولة .

بعد استراحة قصيرة في محطة راس بعلبك حيث كان الزعيم سعيد بك وابنه سعدالله بك ورجالها وجمّ غفير من اهل الهرمل بانتظار الحاكم للترحيب به ودعوته الى الهرمل ، وعدهم بزيارة خاصة في فرصة مقبلة فتعالت اصوات الهتاف لدولته ، ثم سار بنا القطار فوصلنا ظهراً الى محطة حمص وفيها تناولنا طعام الغداء وركبنا القطار المسافر الى طرابلس قاصدين لبنان الشمالي .

في طرابلس

كانت محطة طرابلس غــاصة بجماهير المستقبلين ، وفي طليعتهم فضيلة القاضي الشرعي ، القائم بمهام المتصرفية بالوكالة لوجود الاصيل في العــاصمة ، وكبار الموظفين وسرية من الجيش ، وازدان الجمع الغفير بأعيان الفيحاء وأدبائها ومختلف جمعياتها فالوفود اللبنانية القادمة من انحاء شمالي لبنان .

وقبيل وصول القطار الى المحطة ، لم يتمكن حاكم لبنان من اخفاء استغرابه من فخامة الاستقبال ، فقلت له ان الطرابلسيين الكرام يعطفون دوماً على جارهم لبنان ويعتبرونه موطنهم الصيفي ، لذلك جــاؤوا يشاركون ابناءه النازحين من مختلف انحائه لاستقبال حاكمهم السامي المقام .

وقبل ان يتوقف القطار في المحطة اسرع بعض اصدقائي الى الصالون كما دخل شبانهم من نوافذه مرحبين مسلمين ، وصعد البعض الآخر بعد وقوف القطار حاملين باقات الازهار الجميلة وقدموها الى الحاكم وقرينته الجليلة وغيرهما ، فنظر اليّ الحاكم آنئذٍ نظرة عطف ومحبة قائلاً : « لقد عرفت الآن مغزى هذا الاستقبال الشعبي الرائع » .

وبعد النزول من القطار صافح الحاكم وكيل المتصرف ورجـال حكومته وبعض المستقبلين ، واستعرض سرية الجيش وشكر قائدها وحيا جماهير المستقبلين ، ثم ركب مركبة الخيـل الى جانب وكيل المتصرف وتبعها الركب بين متواصل الهتاف حتى دار المطرانية الارثوذكسية المعدة لنزوله ، بناءً على سابق دعوة مطران الابرشية الارثوذكسية السيد الكسندروس الجزيل الاحترام .

اما قرينة الحاكم الفاضلة ، فقد امتطت المركبة المعدة لها الى جانب المطران المشار اليه ، فوصلا دار المطرانية قبل وصول الحاكم وصحبه .

في دار المطرانية

ان الحفاوة الهادئة التي لقيها الحاكم وصحبه في دار المطرانية الارثوذكسية قد اثارت اعجابهم ، كما ضمنت راحتهم وسرورهم الى أبعد حد ودلت على حسن الذوق ورقـة العواطف وغير ذلك من المزايا العالية التي اتصف بها المضيف الحبر الجليل . وكفى دليلاً على ذلك ان الوجيه البيروتي الماروني الثري الكبير سليم بك ايوب ثابت ، القادم لمشاركة لبنان الشمالي في افراحه باستقبال حاكمه ، وقـد كان من ضيوف سيادة المطران ، قد اسرع الى الديمان لمقابلة غبطة البطريرك الماروني وكبار رجاله ، وكان اهم ما قاله لهم بدعابته المعروفة : « ان مطران طرابلس الارثوذكسي قد اكتسح الساحة في كسب اعجاب حاكم لبنان وعائلته وحاشيته وتقديرهم للاساليب المتخذة لتأمين راحة الضيوف وهنائهم » .

اراد سليم بك بهذا الكلام تنشيط سادة الديمان الاجـلاء في حسن استقبالهم زائرهم الكريم ، ولكنهم في الحقيقة ليسوا بحاجة الى تنشيط وهم ادرى الناس بالواجب وأسبقهم الى توثيق الصلات بينهم وبين الحاكم لما في ذلك من خير لجبل لبنان .

في الطريق الى اهدن

بعد استراحة نهار وليلتين ، غادر الحاكم وصحبه طرابلس صباحاً ولكنه لم يصل الى

اهدن الا قبيل الغروب بسبب تعدد مواقفه في القرى التي يمر بها الطريق ، وهي قرى ناحية الزاوية الغنية بتربتها وكرومها ولا سيما كروم الزيتون ، فكانت كل قرية منهـا تسابق غيرها بأنواع الزينات وتعدد اقواس النصر ، مجتمعةً بسكانها وجوارهم في الموقف الفسيح المعد لاستقبال الحاكم . فما ان يصل اليهم حتى تتعالى اصوات الهتاف والأهازيج مرحبين به ترحيباً حاراً دالاً على منزلة الراعي الصالح من قلوب رعيته الواثقة به .

وقد طال التوقف في قرية سبعل حيث تناول الحاكم وصحبه طعام الغداء الفاخر وشربوا النبيذ السبعلي على مائدة آل طربيه الكرام المقيمين في طرابلس وقد اتخذوا وطنهم الاصلي سبعل مصيفاً لهم توفرت فيه اسباب راحتهم وراحة ضيوفهم .

في اهدن

ان استقبال اهدن ، معقل الابطال ، لحـاكم جبل لبنان ، قد فاق حد الوصف وتجلت فيه روح الحماس الشرقية بأوضح معانيها من تسابق الفرسان بين طلقات النيران وأهازيج الحسان ، الى نشر الرايات واللوحات الترحيبية في كل مكان، وظهور كل فريق من الفريقين الكبيرين المتناظرين في اهدن ومعظم شمالي لبنان سباقاً في ميادين المكرمات واظهار صادق العواطف نحو سيد لبنان ، دون ان يتركوا مجالاً للشعور بوجود تنازع على النفوذ بين آل فرنجية وآل كرم ومعوض .

حل الحاكم وعائلته وبعض صحبه ضيوفاً في قصر السيدة النبيلة نزهة كرم ، ارملة المرحوم اسعد بك كرم ، المتزوجة بعده بابن عمه رزق بك كرم، بناءً على سابق دعوتها. كما لبى دعوة الزعيم قبلان بك فرنجية والزعيم ميشيل بك معوض الى مآدب فاخرة حافلة بكرام القوم وكبار الفريقين ونخبة المصطافين الطرابلسيين ، وتحدث الى السيدة سلطانة شقيقة الزعيم فرنجية وقدر ذكاءها وتفوقها على كثير من الرجال . وهكذا وجدنا الحاكم يحسن الادارة بين الاحزاب بحنكته السياسية محافظاً على حياده معتبراً نفسه بمنزلة الوالد لجميع اللبنانيين على السواء .

الى بشراي

غادر الحاكم وصحبه اهدن ، مشيعاً بمثل الهتافات التي استقبلته ، قصد الوصول قبل الظهر الى قرية كفرصغاب التي اتخذت فيما مضى مركزاً صيفياً لحكومة قضاء البترون

لمعبر عنه بشمالي لبنان وذلك نظراً لوقوع هذه القرية في منتصف الطريق بـين اهدن وبشراي ، البلدتين المتناظرتين في ميادين الوجاهة والنفوذ .

تناولنا طعام الغداء على مائدة الشيخين الشابين يوسف وسايد اسطفان ، من وجهاء الشمال ، صاحبي معظم اراضي كفرصغاب ، في قصرهما الجميل المبني على الطراز الحديث. وبعد قيلولة قصيرة ، توجه الركب الى بشراي فوصلها قبل غروب الشمس بين هتاف المستقبلين من فرسان ومشاة ، فاذا هي لم تكن اقل من نظيرتها اهدن حماساً في استقبال حاكم لبنان .

حل الحاكم وعائلته وبعض صحبه في منزل مدير الناحية نجيب بك حنا الضاهر زعيم احد الحزبين القائمين في بشراي ، وأشار الى البعض الآخر بالنزول في دار الزعيم الآخر عزيز بك حنا الضاهر ، الذي أقام في اليوم الثاني حفلة عشاء شاملة على شرف الحاكم. وقد رأينا في هذه الحفلة ، كما في غيرها ، التهذيب العالي في مجاملة رجال الحزبين بعضهم بعضاً ، كما رأينا الحاكم الاداري السياسي اللبق يعامل الجميع معاملة واحدة ، مكتسباً محبتهم وثقتهم ، غير ملتفت الى مرامي كل منهم وهي في الحقيقة لا تتجاوز حب التفوق في النفوذ المحلي .

واحدة بواحدة

لم ينس عبدالله بك الخوري ، مدير الامور الاجنبية ، المداعبة القاسية التي فاجأه بها زميله الاستاذ نجيم اثناء زيارة بعلبك ، فأراد ان يقابله عليها فأوحى اليه بواسطة اصدقائه ان الوجيه الكبير سليم ثابت بك ، الذي يرافقنا منذ وصلنا الى طرابلس ، يطمع في وظيفته ، رئاسة القلم الأجنبي ، ويسعى اليها سعياً حثيثاً ولذلك يتقرب بأساليبه الناعمة وأحاديثه العذبة الى دولة الحاكم . فجازت هذه الخدعة على الاستاذ نجيم فأراد الحط من قدر هذا الوجيه ، مع انه بعيد كل البعد عن قبول الوظيفة ، مكتفياً بثروته الطائلة ووجاهته البارزة ، شغوفاً بمعاشرة العظماء والادبـاء والأثرياء . وبالرغم من ذلك أخذ الاستاذ نجيم ينظر اليه شزراً وينتقد التحاقه بركب الحاكم ، وقد شعر سليم بك بالفتور البادي على محياه فقابله بعدم الاكتراث.

ولما اعدت مأدبة العشاء في منزل المدير وتعينت مقاعد المدعوين بالبطاقات المعتادة ، كانت بطاقة سليم ثابت عن يسار السيدة قرينة الحاكم المقابلة لزوجها ، في وسط المائدة ،

وحين قدوم الضيوف اليها لوحظ وقوع مبادلة بين بطاقتي نجيم وثابت ، فانسحب هذا فوراً الى غرفته وقفل بابها من الداخل ، فاستغرب الحضور غيابه عن المائدة . ولم يظهر سليم بك الآ بعد انتهائنا من الطعام، اذ تحين الفرصة المناسبة للتحدث الى الحاكم وبعض خاصته مفضياً اليهم ما تركه عمل الاستاذ نجيم من سيء الأثر في اهــل البيت وأهل البلدة اجمعين ، ولا شك بأن سليم بك قد بالغ في وصف الحالة .

كان الحاكم لطيفاً مع جميع الناس ولكنه لم يكن ليرضى عن اغضاب حاشيته في سبيل ارضاء الآخرين مهما علت وجاهتهم وثروتهم ، ولم يكتم عني اسفه لبروز اثر التوتر بين صحبه، ولا سيما من اجل امور تافهة . فهونت على دولته الامر وطمأنته عن امكان اصلاح ذات البين بين الاثنين وكل منهما يفضي اليّ بما يكنه نحو الآخر من شعور ، فالاستاذ نجيم ينقم على الوجيه طمعه في منصبه ، والوجيه يتبرأ من ذلك وهو صادق في قوله ولا يدفعه الى مرافقة الحاكم في هذه الرحلة سوى حب الظهور ، شأن معظم الوجهاء الاثرياء . ولما كان الحاكم واثقاً من كفاءة الاستاذ نجيم العلمية والخلقية تمكنت من ازالة الشكوك من ذهنه .

ولما دعينا الى مأدبة الغداء في اليوم الثاني ، كان موقع الاستاذ نجيم عن يسار قرينة الحاكم باعتباره من رؤساء الادارة المركزية ، لا يفكر المضيف بمس شعوره والانتقاص من احترامه رغم ما يكنه للوجيه ثابت من اعتبار واكرام . حينئذ شعر كبير امناء الحاكم بامتعاض سليم بك امتعاضاً افقده طلاقة لسانه المعهودة ، ففاجأه بدعوة الى مكانه عن يمين السيدة المشار اليها وجلس الامين المشار اليه بين سائر المدعوين وكلهم من خيار الرفاق والوجهاء فتمنع سليم بك تمنع المتأدب ، ثم قبل بالرجاء وحلت المشكلة بــين صديقين رفيقي سفر على صورة احرزت تقدير الحاضرين .

ولما عاتب الاستاذ نجيم زميله على المفاجأة التي بدرت منه تكريماً لخصمه ، اقنعه بأنهما من أهل البيت وثابت بك لم يكن سوى ضيف موقت ، وبعد النهوض عن الطعام اصلح الصديق بينهما فتصافحا وتبادلا حديث المجاملة .

الى الارز

تهيأ الركب صباحاً لصعود أرز لبنان على ظهور خيل احسن اعدادها مدير الناحية نجيب بك واخواه بطرس بك ، الخبير المقدام في الفروسية ، وحنا بك الرئيس في الجند

اللبناني ، ولم تكن طريق المركبات قد وصلت آنئذٍ الى تلك الاعالي .

سارت بنا الخيل على بركات الله ، ولما وصلت الى السهل الفسيح قبيل غابة الارز اخذت تلعب وتمرح ، فظهر عليَّ العجز في هذا السباق الذي ما كنت انتظره وسمعت صوتاً يناديني : « خذ يمينك » فامتثلت الاشارة ، ومـا وقفت بي الفرس حتى سارع بطرس بك وغيره فساعدوني على النزول وقدموا لي فرساً هادئاً جداً . ولما عاتبت بطرس بك على انتقائه الفرس الاول الشديد المراس اقنعني بقوله : « رأيتك تضع الكوفية والعقال ولم تهمل القماط على ساقيك ، وأهل اللاذقية مشهورون بالفروسية ، فاخترت لك أحسن الافراس » . ولم يكن يدري اني اسوأ الفرسان .

حين وقف الحاكم وصحبه حيث يلتقي ضلعا الجبل حول وادي قاديشا وينفرجان تدريجياً حتى ساحل البحر ، استولت عليهم نشوة السكر بسحر المناظر الطبيعية وخصب الارض مع غزارة الماء وجودة الهواء ، مما جعل كل قرية وبلدة في هــذا الجبل العالي مصيفاً ومشتى .

ثم جلسنا وسط غابة الارز التاريخي على مائدة غنية تتفق وذوق مدير الناحية واخوته وسخائهم ولا تفترق بشيء عن افخر الموائد التي تقام في أعظم بيوتات بيروت . وبعد الاستراحة ، امتطينا الخيل عائدين الى بشراي ، فوصلناها مع غياب الشمس .

بين بشراي والديمان

عرج الحاكم وركبه في طريقهم الى الديمان عــلى قرية بزعون ، تلبية لدعوة وجيهها الاكبر يوسف بك شعيا ، حاتم لبنان ، وقد دلت مأدبته السخية وداره العامرة بالاصدقاء من مختلف الانحاء وما اظهره مع اسرته المحترمة من اللطف والكرم احتفاءً بضيوفه على استحقاقه ذلك اللقب الخاص .

ولما كان الشيخ قزحيا ، شيخ الصلح ، يرئس حزباً آخر ، رأى الحــاكم ان يطيب خاطره ، فأرسل لزيارته الاستاذ نجيماً بالنيابة عنه ، فكان لهذا العطف الحاكمي أجمل وقع في نفوس الشيخ وأنصاره .

ولما جئنا حصرون كان الاستقبال حافلاً بالاهلين والمصطافين وجلهم من طرابلس ، وبعد استراحة قصيرة في منزل مدير الناحية الشيخ يوسف عواد ، حيث كان شقيقــه

للحبر المفضال المطران بولس مصطافاً ، محض الحاكم سيادته والحفل الكريم شكره وتوجه مع صحبه نحو الديمان .

زيارة الديمان

وصلنا قبيل غروب الشمس الى دير الديمـــان ، المقر الصيفي لبطاركة جبل لبنان الموارنة ، فاستقبلنا في الساحة الخارجية الفسيحة السادة المطارنة الاجلاء ومعاونوهم الكهنة الامناء الادباء ، ولما دخلنا الدير وجدنا أنفسنا أمام اقنوم الطهر والوقار الشيخ الجليل البطريرك الحويك ، فتشرفنا بلثم أنامله بعد ان صافحه صاحب الدولة وبادله القبلات المعتادة بين عظيمين مثلهما ، وشعرنا فوراً بالغبطة تحيط بنا ممثلة عواطف لبنان بأجمعه .

حللنا كامل الطابق العلوي، وقد اخلاه اصحابه السادة الاجلاء لضيوفهم ، وبعد استراحة لا بد منها في حال السفر ، وقفنا حول مائدة العشاء فباركها صاحب الغبطـــة بصلاة قصيرة ، ثم جلسنا نأكل بشهية ، وخـــلال فترات متقطعة كنا نصغي الى الكلمات الطيبة المتبادلة بين رجل الدولة ورجل لبنان ، كما كان كل من المطران عبدالله الخوري والمطران يوسف صقر ، مستشاري البطريرك الدائمين ، يتحفنا بحديثه اللطيف عن تاريخ الديمان ودير قنوبين الكائن في وسط الجبل الذي يتشكل منه الضلع الجنوبي ، المائل حول وادي قاديشا (وادي القديسين) .

وكان أمناء سر غبطته العلماء الياس ريشا وبولس عقل واسطفان الدويهي يؤانسون جيرانهم على المائدة بأحاديث قيمة تليق بالمقام ، بينما كان أحـــدهم الدويهي ينثر النكات المستحبة ، فكانت المائدة مزدانة بعواطف المحبة والمسرة يكللها الوقار .

ولما نهضنا عن المائدة ، كان مسك الختام صلاة مختصرة فاه بها البطريرك شكراً لله على انعامه . ثم قضى الضيوف والمضيفين ما يقرب من ساعتين ، متفرقين مثنى وثلاث في ارجاء الدير العامر يتمتعون بالهواء الطلق الصافي ، وكان من حسن حظي ان اقضي هذا الوقت مع الخوري بولس عقل ، متمشين على السطح المطل على الوادي والقرى المحيطة به ، يظللنا ضوء القمر ، وكنت أصغي الى محدثي بسرور وشغف ، فأطلعني على موجز الادارة في البطريركية العامرة وتاريخ صلاتها بالحكام وعطفهـــا على الشعب اللبناني دون تفريق بين الاديـــان والمذاهب والاحزاب ، ومما زادني سروراً قوله : « ان صاحب الغبطة راضٍ كل الرضى عن مسلك دولة الحاكم أوهانس باشا وحياته العائلية

النقية وحياده بين مختلف النزعات الحزبية والعائلية ، فالبطريرك يؤيده كل التأييد، واذا قلنا البطريرك عنينا لبنان بأسره » .

ولما كنت عارفاً من قبل ان المحيط البطريركي لا يخلو من تحزبات بين أركانه تبعاً للحزبيات التي الفها الشعب ، اكبرت التهذيب العالي النزيه الذي تجلى في حديث الخوري بولس ، وأجللت حسن التربية الكهنوتية والنظام السائد بين أفرادها كباراً وصغاراً ، مما يزيد المقام البطريركي قوة واحتراماً في نظر الحكومة والشعب معاً .

اختلى صاحب الغبطة بدولة الحاكم برهة من الزمن تناولا فيها مجمل الادارة والسياسة ورأي الشعب في الحكومة ، حسب العادة المستمرة في جبل لبنـــان منذ القدم ، وشمل صاحب الغبطة قرينة الحاكم الفاضلة وصحبه بعطف خاص ، اقتفى اثره سادة الدير ورهبانه الذين جعلونا ننعم بما وفروه لنا من أسباب الراحة والرياضة الروحية والمباسطات الادبية ، حتى غادرنا الدير عصر اليوم الثاني مشيعين بالانظار الصادقة والادعية الصالحة .

رأيي في البطريرك الحويك

وصل هذا المقام العالي في عهد البطريرك الحويك الى قمة المجد من ناحيتيه الدينية والمدنية ، ففي الناحية الاولى أحسن الادارة الاحسان كله ولم يشذ عن الامتثال لارادته مطران من المطارنة ، بالرغم من حرية الرأي التي يتمتعون بها وانحياز بعضهم الى الحزبيات الشعبية وانقسامهم حين انتقاء مرشح للسدة البطريركية ، ولكنه انقسام منحصر في هذه الدائرة لا يتعداها ولا يدع مجـــالاً لتدخل السلطة البابوية العليا ، ولا شك بأن الفضل الاكبر في ذلك يعود الى حكمة البطريرك ونزاهته في العمل . أما في الناحية المدنية فكان مثال الحرص على استقلال لبنان ، يدافع عنه بكل قواه ولا يرضى عنـــه بديلاً ، واذا كان يعطف على فرنسا فلانها عطفت على لبنان في أيام محنته وناصرته في الحصول على نظامه الخاص وحالت دون نفوذ السلطة العثمانية الى شأن من شؤونه الداخلية ، ولما كان الشعب بقلوبه وعيونه ملتفاً حوله تمت له المنزلة السامية لدى أولياء الامر من الحاكم حتى أصغر موظف ، ولكنه مع كل ذلك لم يتقدم بطلب خاص الى أحد منهم ، بل يكتفي منهم بأن يكونوا أمناء على وظائفهم وحقوق لبـــنان . لم تطأ قدما غبطته أرض الولايتين المجاورتين ولم يقم بزيارة الى حاكم الجبل لا في منزله الخاص في بيروت ولا في

مقره الرسمي ، سراي بعبدا ، تحاشياً من المرور بأرض الولاية وبالتالي من زيارة واليها . على انه حين يأتي الحاكم الى جونيه ويحل في دار حكومتها أو في منزل قائم مقامها ، لا يتأخر صاحب الغبطة وحاشيته عن اداء واجب هذه الزيارة .

ولا شك بان المطارنة الاجلاء الملتفين حوله وحاشيته الكريمة ، وفي مقدمتها أمناء سره ، قد أحاطوه بهالة من الاحترام والتعظيم جعلته أمام الشعب ، عنوان القداسة ، ولكن نفسه الكبيرة المتواضعة لم تتبدل بهذه المظاهر الدنيوية ، فظل أباً عطوفاً على جميع اللبنانيين ، لا فرق عنده بين كبير وصغير وغني وفقير ، فاستحق بذلك في نظر الشعب والحكومة معاً لقب اللبناني الاول .

الحاكم في ضيافة ابي سليمان

حين غادر الحاكم وصحبه الديمان توجه غرباً قاصداً الهبوط الى قضاء الكوره ؛ وفي منتصف الطريق الجبلية المعبدة ، حيث تعددت التعاريج والدورات لتأمين سير مركبات الخيل صعوداً وهبوطاً ، في ذلك المنحدر ، رأى الحاكم وعقيلته أن يترجلا وتبعهما الصحب ، سالكين شعب المنحدر (القادومية) الذي يسلكه القرويون مشياً على الاقدام ، وكان في منتصفه حانوت صغير يديره صاحبه « ابو سليمان » ، فلما وصلنا اليه جرى بيننا وبينه الحديث على الوجه الآتي :

قلت : « أسعد الله أوقاتك يا عماه » . وكرر الاخوان هذا السلام .

فرد السلام بمثله وحملق بعينيه قائلاً : « عليكم سمات الذوات ، فما الذي دعاكم لسلوك هذه الطريق ؟ »

قلت مترجماً كلام الحاكم : « أردنا أن نشاطرك ترويض النفس في هذه البقعة الجميلة حيث الهواء الطلق ، ولا ندري هل عندك ماء عذب؟ »

قال : « الغني يحسد الفقير على الماء والهواء وهما عطية الله . أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم » . ثم قدم لنا ابريق ماء ذا بلبل (زلومه) يشرب منه العطشان دون أن يمس فاه .

قلت : «أما عندك قدح للشرب به ؟ »

قال : « وما حاجتي الى القدح وكل الناس تشرب هكذا ؟ — قال ذلك وأخذ يشرب بالابريق — نظافة ووقاية من المرض » .

قلت : « وهل عندكم مرض ؟ »

قال : « لا مرض في الجبل ولكن لا أعرف حالة الذين يمرون بي » .

ثم قال : « ما لنا ولهذا الكلام ، ماذا تأمرون لنقدمه ؟ »

قلت : « ما عندك ؟ »

قال : « من المأكول ، لبنة وجبن وبيض وزيتون وزيت ، ومن الفاكهة العنب ، ومن المشروب القهوة والشاي وأجود الخمر والعرق اللبناني » .

قلت (مترجماً على الدوام كلام الحاكم) : « ائتنا بالقهوة » .

قال مخاطباً زوجته : « يا مرتا ! ثمانية فناجين قهوة للذوات » . ثم قال (حين رأى مركبات الخيل تسير في الطريق المعبدة) : « يظهر انكم آتون من الديمان حيث سلمتم على حاكم لبنان . الحق انكم سعداء » .

قلت : « لماذا لم تشترك في هذه السعادة ؟ »

قال : « لأني فقير لا يتيسر لي مقابلة الحاكم والتحدث اليه بل تقتصر مهمتي حينئذ كأمثالي على التصفيق والهتاف عند أول اشارة من الزعيم أو شيخ الصلح . على ان جميع الناس الذين يمرون بي يتحدثون عن عدل الحاكم الجديد وحبه للفقراء ، أطال الله عمره» .

قلت : « وماذا تعطيني ان أنلتك شرف مقابلته ومصافحته يداً بيد ؟ »

قال : « أعفيكم من ثمن القهوة ، واحدة بواحـــدة ، مع علمي بأنك تمزح فلا مصلحة لك في تنفيذ وعدك ولا أنا أريد ثمن قهوة أقدمها لضيوفي الذوات بعد هذه المعرفة والصحبة » .

حينئذٍ تقدم الحاكم اليه وصافحه قائلاً : « انعم بالاً أيها الفقير الغني فان الحـــاكم أتاك بنفسه بدون سابق دعوة فتمنَّ عليه ما تشتهي وتريد » . فأسرع أبو سليمان ولثم يد الحاكم داعياً له ولعائلته بطول العمر . وحين أخذ الحاكم يسأله عن حاله وحال ذويه جاءت زوجته بصينية القهوة ، فتناولها أبو سليمان وقدمها للحاكم وصحبه فشربناها لذيذة ، ولما قمنا لوداعه أخرج الحاكم من جيبه ليرة عثمانية ذهباً وقدمها لولده الصغير ، فامتنع أولاً الولد والوالد ولكن الحاكم أقنعه قائلاً : « ان هدية الوالد لاحد أولاده الصغار لا تردّ ، واذا أردت أن تراجعني في أمر ما فاحضر اليّ في بعبدا أو في بيت الدين حيث أقابلك على ضيافتك بضيافة ، واحدة بواحدة كما قلت ، واقضي لك حاجتك » .

فأجابه أبو سليمان : « حقاً قالوا عنك ابو الشعب » ، ثم فارقناه ممتلئين سروراً من

ضيافته وحديثه . وكأننا نردد قول الشاعر :

يا ناق سيري عنقاً فسيحا   الى سليمان فنستريحـا .

في اميون مركز قضاء الكوره

وصلنا أميون قبل غروب الشمس، فاستقبلنا في الساحة الفسيحة أمام دار الحكومة، قائمام المقام والموظفون وأهل البلد ومن انضم اليهم من وجهاء القضاء في مختلف انحائه، وعلت الهتافات بحياة الحاكم وحياة لبنان وقدمت بنات المدارس الى الحاكم وقرينتـه باقات الزهور الجميلة، فشكرهم الحاكم بكلمة طيبة على عواطفهم النبيلة، وذهب مع صحبه الى منزل السيد عبيد صهر عبدالله بك الخوري .

ولما كان الحاكم قد أعياه السفر وشعر بحاجة الى الراحة، نابت عنه قرينته الفاضلة في الوليمة الفاخرة التي أعدها قائم المقام ابراهيم بك الاسود في منزله الكبير، يحيط بها جميع رجال الحاشية عدا عبدالله بك الذي بقي ملازماً صاحب الدولة .

كانت الوليمة حافلة بوجهاء الكورة وأدبائها وهم كثر، والقى قائم المقام كلمته مشيداً بمزايا حاكم لبنان وقرينته السيدة النبيلة التي شرفت هذه الحفلة بالنيابة عنه، داعياً لهما بدوام العافية وطول العمر والتوفيق لخير لبنان . فشكرت السيدة المشار اليها قـائم المقام وقرينته الكريمة على فائق حفاوتها والحفل المجتمع على صادق عواطفه، آسفة لعدم تمكن زوجها الحاكم من التحدث اليهم بسبب انحراف صحته، فهتف الجميع داعين بسلامة الحاكم من كل سوء .

من غريب حفاوة قائم مقام الكوره بضيوفه انه كتم عن زوجته خبر وفاة والدتها، الذي تلقاه صباح ذلك اليوم برقياً من بيروت، لكي تتمكن من حضور الوليمة الشائقة التي أعدها ومشاركته في استقبال الحـاكم وقرينته بما يليق بهما من الترحيب . ولكن الحاكم حين علم بذلك، لم يخف انتقاده قسوة العاطفة في نفس عامله بازاء زوجه المحترمة التي شهدت بعالي تهذيبها قرينة الحاكم وأثنت على مزاياهـا أمام صاحب الدولة، ولا يعرف الفضل الا ذووه .

لم يتفاءل قائم مقام الكورة بتغيب الحاكم عن وليمته وحلوله ضيفاً على صهر أحـد خصومه السياسيين . واذا كان مصيباً في تشاؤمـه من حيث النتيجة، الا ان عبدالله الخوري كان أقل خصومه خطراً عليه، وواقع الحال ان الحاكم سئم كثرة الشكاوي الواردة

ضد عامله في الكورة ، من مختلف النواحي ، وتحقق لديه صحة بعضها من أوثق المصادر ، ولا سيما بعد اتصاله بمطران طرابلس والكوره الارثوذكسي ، وهكذا تأيدت من قائم المقام بعد ان شهد عليه شاهد من اهله ، فأقاله الحاكم بعد اشهر من هذه الزيارة وعين مكانه الشيخ الياس الخوري ، القاضي المتقاعد المعروف بنزاهته وحياده ، كما سيرد ذكره فيما بعد .

حين تهيأ الحاكم وصحبه لمغادرة الكوره ، وهي منتهى الرحلة الشمالية ، استأذنته بالسفر الى اللاذقية لمشاهدة والدتي واخوتي ، فأجازني اسبوعاً واحداً وسافر الركب بطريق شكا – البترون – جونيه الى بيروت فبيت الدين ، حيث وافيته في ختام مدة اجازتي .

الغاية من الرحلة

لم تكن الغاية من تجوال الحاكم في مراكز اقضية لبنان وقراه العامرة ومصايفه الجميلة مجرد النزهة فحسب ، انما اضيف اليها فكرة التعرف الى الشعب وحاجاته والوقوف على منزلة الوجهاء والزعماء منه والاطلاع على سير الادارة الحكومية وعلى ما تتطلبه البلاد من اصلاح وعمران . لذلك لم يرفض الحاكم الاجتماع بأحد ممن ارادوا عرض حاجتهم في خلوة معه ، فكان يصغي اليهم بكل انتباه مع مزيد الدقة واللباقة ، لكي لا يترك في نفس احد مجالاً لاثارة النزعات الحزبية والشك في مغزى الزيارة التقليدية التي جرى عليها كل من سبقه من الحكام . فكان بعد كل خلوة يلقي نظرة على ما دونته في كتاب خاص اتخذته مفكرة ، من موجز الشكاوى والطلبات والاقتراحات ، على ان ينظر في مقتضاه بعد عودته الى مقره ، كما فعل في الشكاوى التي تلقاها بحق قائم مقام الكوره على الوجه المذكور في البحث السابق .

ولا ريب في ان حياد الحاشية التي اصطحبها الحاكم في رحلته قد ساعد الى حد بعيد في عدم اثارة الضغائن بين الاحزاب ، فكانت رحلة موفقة من جميع نواحيها .

ومما تجب الاشارة اليه في هذا الصدد ، ان نظرة اللبنانيين الشغوفين بحريتهم واستقلال جبلهم الى حاكمه لا تختلف عن نظرة الرعية الى راعيها والعشيرة الى اميرها ، او اي بلد من بلدان اقصى الشمال في اوربا الى ملكها ، فيعتبرون زيارته عيداً قومياً يتبارون خلاله في اظهار عواطفهم وثبات افكارهم بأروع ما يمكن من الصور .

الدس الاجنبي

ما كدنا نستقر في بيت الدين بعد تلك الرحلة الصيفية الى شمالي لبنـــان ، حتى طلعت علينا جريدة « جورنال دوكير » الفرنسية التي تصدر في القاهرة بتعليق غريب في بابه ، فقد جاء فيه : « ان النفوذ في جبل لبنان قـــد انتقل من جانب الموارنة الى الارثوذكس بفضل تفوق الحكيم ، مدير القلم التركي ، على مناظره حبيب باشا السعد ، نائب الحاكم في رئاسة مجلس الادارة ، الذي لم يبق له من الوظيفـــة سوى اسمها ، اذ يبقى ملازماً منزله في بيت الدين بينما يرافق الحكيم حاكم لبنان في حله وترحاله ، ويحلان معاً في دار المطرانية الارثوذكسية التي لا تبعد عن مطرانية الموارنة بطرابلس الآ بضع عشرات من الامتار» .

ولفتت الجريدة في ختام تعليقها ، نظر ممثل فرنسا الى هـــذا التحول في سياسة لبنان ، مع ان الجريدة نفسها كانت قد هنأت لبنان بتعيين الحكيم في مديرية القلم التركي ووصفته بالحياد التام بين مختلف الاحزاب في لبنان . لذلك بت اعتقد ان هدف الجريدة او هدف مراسلها البيروتي ، اما الحط من نفوذ حبيب باشا في نظر اللبنانيين والفرنسيين معاً ، او خلق جو التناظر بيني وبينه ،رغم اعتباري اياه الاخ الاكبر الجدير بكل محبة واحترام ، واما فتح ثغرة لتدخل القنصلية الفرنسية العامة بحجة المحافظة على حقوق الاكثرية المارونية . بيد ان الحاكم الرصين الذي اعتاد تحمل النزعات الصحفية براحة بال لم يبدل من ثقته بي ، فظل يعتبرني اميناً عاماً وخاصاً له ولحكومته ، كما ان غبطة البطريرك الماروني لم يقلل من رضاه عني ومن اعلان ثقته بي في كل مناسبة تأييداً لثقة شعبه وفي طليعته حبيب باشا نفسه . وبالرغم من جميع ذلك ، فلا يبعد ان يترك دس الجريدة المذكورة في نفس كل من الحاكم وقنصل فرنسا العـــام اثراً قد لا يتفق مع اتجاه كل منهما ادارياً وسياسياً .

نقص العظماء

لما رأى الناس ، من موظفي الحكومة وغيرهم عطف الحاكم على كبير امناء سره وهو رئيس القلم التركي ،واعتماده اياه في ادارة شؤون الجبل ، تسابقوا لاكرامه واحراز ثقتـــه واكتساب مودته ، شأن امثالهم في كل زمان ومكان . لذلك كثر الحسد في نفوس بعض طلاب النفوذ والمنافع — وهل يخلو منهم بلد ؟— وجلهم من كبار رؤساء الدوائر وذويهم من

حماة وأنصار ، ولما لم يجدوا فيه مطعناً لجأوا الى تحريك عامل الكبرياء والكرامة في نفس الحاكم ، فأخذوا يكثرون أمامه امتداح الحكيم ويبالغون في وصف المنزلة التي احرزها عند الشعب ، حتى حسب المسؤول الاول عن الحكم .

وبالرغم من عالي خصال الحاكم وثقته بكبير امنائه ، فقد عظم عليه ان يشك الناس في مقدرته ويزعموا استسلامه الى امينه، وهذا نقص في اكثر الرؤساء والعظماء من الحكام والامراء ، فعزم على ما ظهر ان ينفي ما علق بالاذهـــان من تمتع الحكيم بنفوذ الحكم وتفوقه على سواه من كبار رجال حكومة لبنان . فاستدعاه الى مكتبه ذات يوم من ايام الصيف وكان مقطب الحاجبين تعلو وجهه امارات الانفعال ، وقبل ان يستقر به المقام بادره قائلاً : « انا الحاكم في جبل لبنان فلا يوافقني ولا يوافق مصلحة الحكومة ان يقال ان النفوذ بيد غيري ، وليس من مصلحتك ايضاً تحمل اعباء الحكم وحسادك كثر لا تستطيع اطفاء نار حسدهم » .

فأجابه الامين : « هذا هو شأن معظم الناس ، انهم يحسدون غيرهم حتى على تضحيته بهنائه في سبيل الواجب وان كان في خدمة وطنهم ، انا اخدم رئيسي وحكومتي ووطني بكل استطاعتي وباخلاص لا شائبة فيه دون ان يكون لي في ذلك اي نفع شخصي ، فماذا تطلبون مني بعد ذلك ؟ »

قال الحاكم : « انا اعتبرك اكبر موظفي حكومتي وأثق بك كل الثقة وأعاملك في بيتي الخاص معاملة الاب لابنه ، فلا تظهر امام الناس بمظهر من يستطيع الحل والربط في امور الحكومة لان عيون المنتقدين من اجانب ووطنيين متجهة نحونا كلينا » .

لما لحظ الامين على وجه الحاكم وفي نبرات صوته انه يتنازعه عاملان ، عامل الكرامة والكبرياء والحذر من جهة وعامل الاقرار بالحقيقة وباخلاص امينه من جهة ثانية ، قال له :

« ليكن لك ما تريده مني يا دولة الحاكم، ولو شمل خروجي من بيتك واستقالتي من حكومتك » .

وللحال اغرورقت عينا الحاكم بالدمع وقال بصوت متهدج : « لا ، لن نصل الى هذا الحد بل سنبقى كما نحن عليه اباً وابناً يعملان معاً باخلاص لخير لبنـــان ، مع محاذرة الذئاب على قدر الامكان وبالطرق الحكيمة التي تحفظ للحاكم والحكومة الهيبة والاحترام».

خرج الامين من لدن الحاكم وبدأ يقلل من الدخول اليه في مكتبـــه الرسمي ومن

مرافقته في مجيئه دار الحكومة ومغادرتها مما لفت انظار جميع الموظفين ، مع بقاء الامين مقيماً في منزل الحاكم كل مدة الصيف ضيفاً مكرماً فاقت كرامته كرامة الابناء المخلصين.

اغتبط الحساد وأنصارهم لهذه البادرة دون ان يقتنع كبارهم بجديتها ، كما استاء منها اخصامهم لاعتقادهم بتأثير مظهرهـــا على العامة ، ولكن الامين ظل مثابراً على عمله باخلاص هادئاً في تفكيره ومقابلاته المراجعين على اختلاف غاياتهم ، معتقداً ان الكمال لله وحده وان البشر مهما عظمت مزاياهم لا يسلمون من نقص في عظمتهم ، الى ان جاء زمن لم يجد فيه الحاكم من يبادله الرأي مجرداً عن كل غرض ولا سيما غرض الحزبية المحلية والسياسية ، فعاد الى امينه يمحضه سراً وعلناً كامل ثقته ، ضارباً بالحجاب الذي دام شهراً من الزمن عرض الحائط كما يتضح فيما يأتي من الابحاث .

قبل اتمام هذا البحث يجدر بي ان اشير الى عواطف الرفاق ونزعاتهم في فترة ابتعادي عن الحاكم ، فكان بعضهم يشير بأن اطلع قنصل فرنسا العام على حقيقة واقع الحـــال دفعاً لوشايات الحساد ، وآخر يشير بمقابلة القنصل البريطاني العام فيأخذ بناصري بحجة المحافظة على مصلحة لبنان وحقوق الاقليـــات ، بينما يوحي الثالث بالالتجاء الى قنصل روسيا ، ولم اسمع من احد اشارة الى مقابلة والي بيروت بهذا الشأن ، على انني لم أعر هذه النزعات والاشارات اقل اهتمام ، معتقداً كل الاعتقاد بصلاح الخطة التي اتبعتهـــا وهي خطة الثبات على مبادئ الصدق والاخلاص والاستقامة ، وهي عين الكرامة ، وقد اقتطفت ثمرتها حمداً لله.

النزعات الطائفية

كان الحاكم اذا غاب عن مقره موقتاً لسبب من الاسباب التي لا يخلو منها انسان ، ينيب عنه كبير امناء سره رئيس القلم التركي ليقوم بمهام الاشراف على الادارة الداخلية وانجاز المعاملات في اوقاتها ، حرصاً منه على عدم تأخير المصالح الحكومية والشعبية التي تتطلب السرعة في سيرها ولا يجوز تأجيلها ، كما هي الحال في مركز الولاية بين الوالي وأمينه العام (المكتوبجي) ، وفي معظم الادارات العامة . وكنت اقوم بهـــذا الواجب بصورة كوفئت عليها بزيادة رضى الحاكم عني وعن اعمالي ، بالاضافة الى شكر ذوي المصالح من دوائر وأفراد .

وذات يوم كنت في مكتبي اوقع الاوراق التي من هـــذا القبيل بالنيابة عن دولة الحاكم الذي كان ملازماً بيته لوعكة صحية الزمته الفراش ، فاذا بالسادة : حبيب باشا السعد نائب رئيس مجلس الادارة وسعدالله بك ا لحويك احد اعضائه والاستاذ سليم باز المدعي العام الاستئنافي يفاجئونني .بزيارتهم مجتمعين . فرحبت بهم وبعـــد مبادلتهم المجاملات الودية جرى بيننا الحديث الآتي ، وكان المتكلم عنهم سعدالله بك الحويك :

قال : « تعلم يا سعادة البك المنزلة الرفيعة التي لك في قلب كل منا من حب واحترام وشكر على غيرتك واخلاصك للبنان وحكومته ، حتى ان سيدنا البطريرك يخصك في كل مناسبة بعطف خاص وتقدير لم ينله غيرك . ولكن المسئلة التي فاجئناك من اجلها تتعلق بحقوق طائفة بكاملها هي الاكثرية المارونية ، وقد جرى العرف ان يكون احـــد ابنائها نائباً عن الحاكم حال غيابه فنأمل منك ان تساعدنا على المحافظة على هذا العرف ، فنظل لك من الشاكرين المعجبين بك».

قلت : « جوابي عبارة عن كلمتين : الاولى تخالف مستندكم ، أما الكلمة الثانيـــة فتتفق مع امانيكم ، فاسمحوا لي بالقائهما الواحدة تلو الاخرى:

« ان العرف الذي اشرتم اليه في كلامكم محله اذا غاب الحاكم عن جبل لبنان غياباً نهائياً ، كأن تنتهي مدته ويغادر البلاد قبل قدوم خلفه ، أو حل سبب آخر مفاجئ أصبح الجبل على اثره بدون حاكم . حينئذٍ يجتمع مجلس الادارة ويقرر باجماع الرأي أو بأكثريته تعيين الوكيل الذي يدير الجبل ريثما يعين ويرد الاصل ، كما جرى من هـــذا القبيل في انتخابكم ، يا سعدالله بك ، بعد مغادرة الحاكم السابق يوسف فرانكو باشا . اما اذا كان الحاكم باقياً في البلاد ولم تنته مدة حكمه ، بل اضطر للملازمة منزله لوعكة صحية ألمت به ، كما هو واقع الحال ، او كان هنالك سبب آخر من هذا القبيل فللحاكم وحده ، دون سواه ، ان ينيب عنه من شاء من امنائه وغيرهم ، كما يجري في الولايات والمتصرفيات وجميع المصالح الادارية العامة . فستندكم المتعلق بهذه الناحية واهٍ لا اساس له ، واذا كان للاستاذ الكبير سليم باز ، شارح القوانين ، اعتراض على كلمتي هذه فليتفضل ! » .

قال الاستاذ باز : « لا اعتراض على كلمتك هذه ولنسمع الكلمة الثانية » .

قلت : « انا غريب عن جبلكم وأحزابه وطائفياته وان كنت قريباً من قلوبكم وقلب غبطة اللبناني الاول البطريرك الحويك ، الذي يعطف علي ويمحضني كامل ثقته القيمة . بهدفي في لبنان ان اقوم بواجب وظيفتي بكل استطـــاعتي بحياد تام بين الطوائف

والاحزاب ، حياد يتفق مع خطة الحاكم اوهانس باشا قيومجيان ، ثم اسافر الى العاصمة حيث ينتظرني مستقبلي . اما اهل لبنان الكرام ، وأنتم من وجهائهم وكبار ساستهم ، فقد اعتادوا على مواجهة الاحزاب ونزعاتها والطائفية وحقوقها وعلى الموالاة للحكومة القائمة ومعارضتها ، فاعذركم اذا صبوتم الى المناصب الهامة فيها فكلكم ، ولا سيما الاخ الاكبر والزعيم البارز حبيب باشا نائب رئيس المجلس ، لجدير كل الجدارة بالنيابة عن الحاكم خارج المجلس ايضاً ، وثقوا كل الثقة بأني أقوم بمعيته بنفس الواجب المترتب عليّ بازاء الحاكم ، فأتموا سعيكم والله موفقكم لكل خير » .

قال حبيب باشا : « اشكر عواطفك ايها الاخ العزيز جداً على قلبي ودولة الحاكم نفسه يعرف كل المعرفة شعوري نحو مواهبك وما قمت به في طرابلس من اعمال باهرة ، وثق بأني لا ارغب في منصب النيابة عن الحاكم في هذه الايام القليلة المتقطعة الا للخلاص من الحاف اصدقائي وبعض ذوي المقامات بازاء هجوم الحزب المعارض لي ولكم وللحكومة معاً ، فتفضل اذاً نقوم معاً بزيارة الحاكم وعرض الواقع لدولته ، لعله يساعدنا في تلبية ندائنا واسكات المعارضة عن الطعن في سياستنا » .

قلت : « لن اذهب معكم خشية ان يظن الحاكم اني اتهرب من المسؤولية ، مسؤولية النيابة عنه ، وفضلاً عن ذلك فلدي اوراق يجب ان اتمم ما تتطلبه من دراسة وتدقيق ثم اتوجه الى دولة الحاكم آملاً ان اراه بصحة جيدة فأعرض عليه ما يستدعي تلقي امره بشأنه . فيمكنكم والحالة هذه ان تذهبوا انتم الثلاثة وتباحثوه في الامر واني لأرجو ان توفقوا الى ما ترون من حل لهذه المسئلة » .

فودعوني شاكرين وتوجهوا في سبيلهم ، وبعد ساعة من الزمن اتممت اعمالي وامتطيت المركبة (عربة الخيل) لتوصلني الى منزل الحاكم في بيروت ، في بناية الكونت طرازي.

ولدى وصولي الى « مطبعة الاميركان » شاهدني الذوات الثلاثة عائدين بمركبتهم من منزل الحاكم ، فارتجلنا جميعاً ، ورأيت علائم الغضب بادية على وجوههم ، وما لبثوا ان شكوا من عصبية الحاكم وغضبه دون ان يترك لهم المجال لسرد حججهم ، ورجوا مني ان اغتنم فرصة استرداده العافية وراحة فكره لاعرض عليه الواقع .

ولما وصلت الى منزل دولة الحاكم ، قابلني بابتسامة وابتدرني بنقل مقابلته للذوات الثلاثة قائلاً : « قلت لهم ليس للنزعات الحزبية والطائفية من سبيل الى الحاكم الذي يعرف واجباته وصلاحياته ولا ينيب عنه الاّ من وثق بنزاهته وترفعه عن تلك النزعات .

فليعد كل منكم الى عمله ولا يتجاوز حدود وظيفته » .

ثم اخذ الحاكم يفصح امامي عن اسفه لبقاء النزعات الطائفية واتخاذها ستاراً لاغراض اكثر ما تكون شخصية ، في بلد كلبنان كثر مفكروه وعلماؤه وأدباؤه ، دون تتبع التطور الاجتماعي الذي اخذت تسير عليه الدولة العثمانية وتطبقه على قدر الامكان في العاصمة وفي الولايات .

بعد حزم الحاكم المقترن بالنزاهة والترفع عن كل غرض سوى اقامة العدل وضمان الامن ورفاهية السكان والمحافظة على نظام لبنان ، وقف كل طامع من كبار رؤساء المصالح وغيرهم عند حده ، ونعم اللبنانيون في عهد الحاكم اوهانس باشا قيومجيان بما نعموا به هم ومن سبقهم في عهود اسلافه من الحكام .

استقالة نسيب بك جنبلاط قائم مقام الشوف وتعيين الامير توفيق مجيد ارسلان

اوضحنا في الفصل المتعلق بالحزبية في قضاء الشوف ، وفي الاكثرية الدرزية ، التزاحم على تولي المنصب الاول بالنسبة اليها بين الحزبين الجنبلاطي واليزبكي ، وأتينا على ذكر مزايا نسيب بك جنبلاط قائم مقام الشوف من كرم الخلق واليد والوجاهة البارزة ولطف المعاشرة والمعاملة ، الاّ انه لم يتصف بالحزم في القيام بواجب وظيفته ، فبدأت حوادث الاعتداءات الفردية تقع في القضاء المذكور ولاسيما في طرق المواصلات بين القرى دون ان تتمكن حكومة القضاء من الاهتداء الى معرفة المجرمين ومعاقبتهم ، مما دعا الحاكم الى استدعاء قائم المقام اليه وحثه على بذل الهمة والنشاط في وظيفته وانذاره بتعيين خلف له اذا لم يستطع قطع دابر الشقاوة والقبض على المعتدين في اقرب وقت . ولما عجز عن ذلك استقال من الوظيفة فأسندها الحاكم الى عهدة الامير توفيق مجيد ارسلان المقيم في عاليه ، فوفق بأسرع وقت الى اعادة الامن والاستقرار الى نصابهما وأحسن الادارة وأثبت كفاءته لاحراز ثقة الحاكم والشعب معاً .

واذا كان الحزب الجنبلاطي غير راض عن اقصاء زعيمه عن الوظيفة واسنادها الى مرضي عنه من الحزب اليزبكي ، فان الامير توفيق تمكن بذكائه واسلوبه من اكتساب عطف آل جنبلاط وتقديرهم لحزمه ونتائجه ، حتى ان ابناء عمومته المختلفين معه ومع

اخوته لاسباب خاصة لم يروا في مسلكه الاداري ما يستوجب الشكوى او النقـــد .
وسيجد القارئ فيما بعد ان هذا الاداري الحـــازم النزيه لم يسلم من النفي الى الاناضول بأمر من جمال باشا القائد الاعلى في هذه البلاد اثناء الحرب العالمية الاولى .

الفصل العاشر

بيروت والانتخابات النيابية

في الانتخابين الاول (١٩٠٨) والثاني (١٩١٢)

كان نواب الامة في المجلس النيابي (مجلس مبعوثان) ينتخبون في مركز الولايــة والالوية ، باعتبار كل مركز مع اقضيته يؤلف دائرة انتخابية ، على اساس نائب عن كل خمسين الفاً من ذكور الطائفة التي ينتسب اليها ، فاذا لم يتوفر هذا العدد في الدائرة الانتخابية قام مقامه ما زاد عن خمسة وعشرين الفاً . وعليــه كان لبيروت وأقضيتها الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون بالانتخاب الحر الجاري في الربع الاخير من سنة ١٩٠٨ نائبان عن المسلمين ، هما الوجيه رضى بك الصلح من المتصرفين السابقين ، وكامل بك الاسعد الزعيم العاملي المعروف ، ونائب عن المسيحيين هو العلامــة الشهير سليمان افندي البستاني .

ولما حل المجلس النيابي في ٥ كانون الثاني سنة ١٩١٢ قبل ختام دورته الرابعة ، على اثر خلاف بينه وبين وزارتين متعاقبتين في قضية معروضة عليه ، جرت انتخابات نيابية جديدة كان فيها لبيروت وأقضيتها نائبان هما رضى بك الصلح وكامل بك الاسعد المشار اليهما ، دون ان يكون للمسيحيين نائب لانه تبين لدى الرجوع الى سجلات النفوس ان عددهم لم يبلغ الحد المطلوب قانوناً ، ولعل السبب في ذلك وجود عــدد كبير منهم غير مسجل في دوائر النفوس تخلصاً من الخدمة العسكرية .

وفي ٥ نيسان من السنة المذكورة اجتمع مجلس النواب دورة واحدة اعتبر في نهايتها ان مهمته منحصرة بصفته الحكمية في حل الخلاف الذي قــام بين المجلس السابق والوزارتين المتعاقبتين ، فصدرت الارادة السنية في ٢٢ تموز بناءً على قرار مجلس الوكلاء

الموافق لرأي مجلس الاعيان باعتبار مهمته منتهية وباجراء انتخابات نيابية جديدة على مقتضى القانون . وقد تأخرت هذه الانتخابات « بسبب الظروف الحاضرة » (ولعلها حرب البلقان) كما جاء في نص الارادة السنية .

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٣ بدئ بتهيئة امر الانتخابات وقد تمت قبل حلول شهر نيسان سنة ١٩١٤ ، وفي العشرين منه صدرت الارادة السنية بافتتاح مجلس النواب في اليوم الاول من شهر ايار على ان يدوم اجتماعه شهرين . فعلى اي وجه تمت هذه الانتخابات في بيروت ؟

نائب مسيحي عن بيروت في انتخابات سنة ١٩١٤

كان عدد المسيحيين سنة ١٩١٤ في دائرة بيروت الانتخابية الشاملة مركز الولاية وأقضيتها الثلاثة دون الحد اللازم لاحراز مقعد نائب عنهم كما اشير الى ذلك في البحث السابق ، ولكن ولاية بيروت تلقت امراً من وزارة الداخلية مبنياً على قرار مجلس وكلاء الدولة بوجوب انتخاب نائب مسيحي نظراً لاهمية المسيحيين في هذه الولاية علمياً واجتماعياً واقتصادياً ، يعود الفضل في استصدار هذا الامر الاستثنائي الى غبطة البطريرك الانطاكي الارثوذكسي السيد غريغوريوس حداد وسياسته الحكيمة . فانه حين تلقى سنة ١٩١٣ دعوة من قيصر روسيا نقولا الثاني ليرئس الاحتفال الكنسي بمرور ثلاث مئة سنة على تولي آل رومانوف الحكم ، اعرب الى والي سورية عن رغبته في تقديم واجب الاخلاص لجلالة السلطان ، قبل سفره الى روسيا ، فصدرت الارادة السنية بأن يحل مع حاشيته ضيوفاً على السلطان مدة اقامتهم في العاصمة . ولما وصلوها في شباط سنة ١٩١٣ ، استقبلهم ممثلو اركان الدولة بما يليق بالمقام وحلوا على الرحب والسعة في الجناح المعد لهم في فندق « پيرا بالاس » ، ولم يتأخروا عن زيارة قداسة البطريرك المسكوني وكنيسة الفنار .

وفي الميعاد المعين لمقابلة السلطان وصلت الى الفندق مركبات السراي الهمايوني فأقلت البطريرك الانطاكي وصحبه بموكب رسمي ، واثناء المقابلة الرسمية دعا البطريرك لجلالة السلطان بطول العمر وتزايد اليمن وسعادة رعيته الصادقة على اختلاف اديانها ومذاهبها ، فشمله السلطان بعطفه وتمنى لغبطته دوام العافية والتوفيق .

زار البطريرك بعدئذ الصدر الاعظم والوزراء وكبار رجال الدولة فرحبوا به اجمل

ترحيب وقدروا نبيل مغزى زيارته الى العاصمة قبل سفره الى روسيا . فاغتنم هذه الفرصة وهو الحبر السياسي العظيم ، لافتاً نظرهم الى حق مسيحيي بيروت بنائب منهم يمثلهم في المجلس النيابي ، نظراً لمكانتهم البارزة في مختلف نواحي الثقافة والاجتماع والثروة والاقتصاد ، فوعدوه بتحقيق مطلبه في الانتخابات المقبلة .

الاستعداد للانتخابات

في مطلع عام ١٩١٤ بدأت الانتخابات النيابية في جميـــع المملكة العثمانية ، وكان اكثر المرشحين للنيابة عن بيروت وأقضيتها أملاً بالنجاح كل من سامي بك الصلح ، الوجيه البيروتي المعروف بنبل خلقه وعالي ثقافته ، وكامل بك الاسعد، زعيم جبل عامل بلا منازع ، اما كرسي النائب المسيحي فقـــد كثر طلابه وأهمهم اسكندر بك فرج الله طراد وجان بك نقاش من رجال القانون والوجاهة ، دون ان يكون لاحدهما امل بالتفوق على الآخر .

وكانت العادة المألوفة في ذلك الزمن ان يستقبل الوالي زائريه في منزله الخاص كل يوم جمعة من الصباح حتى الظهر ، وهي عادة اجتماعية درج عليها جميع رؤساء الحكومات والطوائف وزعماء القوم في كل بلد .

وذات يوم من هذه الايام ، زارني الوجيه الكبير رضى بك الصلح يرافقه نجله النابغ رياض بك وأخبرني انه آتٍ من زيارة دولة الوالي بكر سامي بك ، الذي تناول حديثه الى ضيوفه بحث الانتخابات النيابية ، وأظهر لهم أمله بأن يفوز بالنيابة كل من سامي الصلح وكامل الاسعد ويوسف الحكيم . فأكد لدولته جميع الحضور رغبتهم في تحقيق هذا الامل وتساءل بعضهم قائلين : « هل الحكيم من جملة المرشحين للنيابة ؟ »

فأجابهم الوالي بكلمة : « نعم » .

وبعد ان تلطف الضيفان العزيزان بتمحيض صديقهما التهنئة سلفاً ، شكرتهما على نبل عاطفتهما نحوي وصارحتهما بأني لم ارشح نفسي للنيابة ولكني سأنزل عند رغبـــة الاصدقاء اذا رأوا فيَّ الكفاءة ، ثم فارقاني مكررين اعتقادهما بفوزي في الانتخاب .

وبعد قليل من الوقت زارني الزعيمان البارزان ابو علي سلام ومختار بك بيهم ، وكررا ما جرى في منزل الوالي بشأن الانتخابات النيابية بما يتفق وحديث رضى بك الصلح ،

وشجعاني على خوض المعركة الانتخابية وبشراني سلفاً بالنجاح ، فشكرت لهما جميل عاطفتهما وأخذت من ذلك الوقت افكر بنفسي توصلاً لمعرفة مصدر هذا النبأ الذي أحرز عطف دولة الوالي وتأييده .

وفي صباح اليوم التالي دعاني الوالي المشار اليه الى مكتبه وقال لي بلطفه المعروف: « يظهر ان الاقبال على ترشيحك للنيابة عظيم وانتخابك مضمون ، ولكن المهم في نظر الدولة ان نجد من يقوم مقامك في لبنان » . فوعدته بقبول النيابة شاكراً عطفه وثقته وبمراجعة حاكم جبل لبنان في أمر من يخلفني في الوظيفة ، وربما كان اخي الامين القاضي في محكمة طرابلس ، فأظهر مزيد ارتياحه لجوابي .

خرجت من لدن الوالي شاعراً بأن الفضل في ترشيحي للنيابة يعود الى السادة الصلح وبيهم وسلام ، على ما بين الاول والاخيرين من اختلاف في النزعات المحلية ، فلا شك بأنهم واخوانهم الذين حضروا مجلس الوالي أتوا على ذكري بما جادت به عواطفهم النبيلة ولقيت صداها المستحب في نفس الوالي الهمام .

لما حدثت رئيسي حاكم لبنان بما دار بيني وبين والي بيروت ، وافق عليه كل الموافقة وأضاف قائلاً : « آمل من وجودك في العاصمة خيراً لجبل لبنان ومستقبلاً باهراً لك وستصبح عن قريب وزيراً ومع ذلك فاني احتفظ لك بمركزك في لبنان فأعين فيه شقيقك بالوكالة ريثما ينجلي امرك » .

وفي اليوم الثالث ، زارني زعيم الجنوب كامل بك الاسعد مؤكداً لي ضمان نجاحنا معاً حسبما اشار اليه دولة الوالي ؛ فشكرته على همته الشماء وبدأت اهيىء لنفسي خطة اسير عليها في النيابة وأسعى لايجاد تفاهم بين الزميلين الاسعد والصلح فيما يعود لمصلحة بيروت وملحقاتها ، لان الاول اتحادي صميم والثاني يميل الى حزب الائتلاف الذي كان يضم معظم نواب المناطق العربية وبينهم عمه الكبير رضى بك .

اللامركزية والاستقلال الاداري

نشطت في بيروت المعارضة لسياسة حكومة الاتحاديين كما اشير الى ذلك في ابحاث سابقة واتخذت لنفسها صفة طلاب الاصلاح الاداري مستهدفة حصول كل من ولايتي بيروت وسورية وفلسطين على صلاحيات ادارية واسعة معبر عنها باللامركزية كما

كانت تطالب بذلك معظم الولايات ، لما فيـه من ضمان لرقيها ولسرعة انجاز مصالح الشعب التي كان البت فيها من اختصاص الادارة المركزية في العاصمة .

اما الهدف الحقيقي الذي كان يدور في رؤوس معظم ابناء سورية من نواب وأدباء ومفكرين، فهو الاستقلال التام لسورية ساحلاً وداخلاً، دون ان يجرؤ احد على المطالبة به او ايراده بشكل ما لما يترتب على ذلك من عقوبات صارمة منصوص عليها في القوانين. لذلك عمد الاستقلاليون في بادئ الامر على الاكتفاء بطلب الاستقلال الاداري، فيكون للولايات السورية صلاحيات ادارية واسعة مقيدة بمجلس عام مؤلف من نواب ينتخبهم الشعب في كل ولاية على حدة ، وعلى هذا الاساس تمكن هؤلاء الاستقلاليون من الاتحاد مع انصار توسيع صلاحيات الولايات او الاستقـلال الاداري ، دون ان يكون لمعظم هؤلاء الانصار رأي بالانفكاك عن جسم المملكة العثمانية وعرف الفريقان داخل البلاد باسم انصار الاصلاح الاداري .

وفد الاصلاحيين في باريس

نشط الاصلاحيون في بيروت وسورية في ترويج فكرتهم واعلانهـا مستفيدين من الحرية التي نص عليها الدستور ، والفوا منهم وفداً الى فرنسا حيث يوجد الكثيرون من اخوانهم العرب المجاهدين بأفكارهم الحرة ، وعقدوا معاً في باريس فى ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ مؤتمراً ايدوا فيه مبدأ الاستقلال الاداري او اللامركزية في جميع الولايات العربية، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا فرادى ومجتمعين يقابلون اركان وزارة الخارجية الفرنسية فيلقون مزيد اللطف الفرنسي المعروف والعطف على قضاياهم .

لم تخف مذاكرات المؤتمرين بظواهرها وخفاياها على السفارة العثمانيـة ورجال استخباراتها ، فعرضتها على الوزارة في الاستانة مما اوجب تنبه الحكومة المركزية الى اخطار هذه المعارضة ، واتخذت للقضاء عليها تدابير شديدة تجلت في كلام معسول صادر عن المسؤولين ، نشرته صحف العاصمة وغيرها مشيدة بفضل الاخـاء العثماني العربي التركي ومثنية على رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي، نائب حمص . وعقب هذه النشريات تعيين عدد بارز من اركان المعارضة العرب ومن طلاب الاصلاح الاداري في مناصب هامة في العاصمة ومراكز الولايات، كوظيفة مدير شعبة في الوزارة ، ومفتش في العدليـة والداخلية وفي الشؤون الزراعية .

ان هذه التدابير التي خدرت الافكار زمناً لم تخمد اتقاد الفكرة العربية المتأصلة في نفوس السوريين ، دون ان يستطيعوا الظهور بأي مظهر معاد للدولة ، مكتفين بما يقوم به وفدهم في باريس من مداخلات لدى المراجع السياسية وفي مقدمتها الفرنسية .

الاتجاه الى فرنسا

ان تطلع طلاب الاستقلال السوري الى فرنسا طلباً لمعونتها السياسية قد وحَّد الى حد كبير بين السوريين واللبنانيين ، فتضافرت في باريس جهود الوفد السوري مع العاملين لمصلحة لبنان ، كما اصبحت دار القنصلية العامة الفرنسية في بيروت قبلة انظارهم . يحجون اليها في كل فرصة ومناسبة فيلقون من القنصل العام ومعاونيه وموظفيه الفرنسيين واللبنانيين كل ترحاب .

ولا عجب في اتجاه الاحرار الى فرنسا ، فقد كانت منذ ثورتها الكبرى ملجأ للاحرار من مختلف البلدان ، طالما لجأ اليها منهم اتراك وعرب فراراً من مطاردة رجال السلطان وتوصلاً الى الحرية والطمأنينة اللتين يتمتع بهما كل لاجئ سياسي الى فرنسا . وقد سهل انتشار الثقافة الفرنسية في سورية ولبنان ولا سيما في بيروت وملحقاتها، بفضل المؤسسات الفرنسية العديدة ، للسوريين واللبنانيين سبل الالتجاء الى فرنسا قبل سواها من الدول العظمى ، على ان اللبنانيين كانوا في جميع مراجعاتهم وطلباتهم يستهدفون توسيع حدود جبلهم اتماماً لرفاهية سكانه ووقايتهم من الحاجة الى القمح وغيره من المنتجات الارضية لتأمين معاشهم . ويتمنون لسورية في الوقت نفسه استقلالاً مضموناً باشراف فرنسا دون غيرها تخلصاً من تزاحم اجنبي بين المتجاورين لا يعرف مدى تأثيره الا الله والمجربون والراسخون في العلم .

القضاء على المعارضة

لم يمر على اعلان البدء بمعاملات الانتخابات النيابية اسبوعان حتى فوجئت بيروت بمفاجأة سارة ، الا وهي تعيين الوجيهين الكبيرين السيدين محمد بيهم ويوسف سرسق ، من شيوخ اعيان بيروت ، عضوين في مجلس الاعيان، وكلاهما غير منتسب لحزب من الاحزاب السياسية ، ولكنهما يميلان بصلة القرابة والعاطفة الى انصار الاصلاح الاداري الذي ينشده السوريون في بيروت ودمشق وغيرهما من المدن العربية ، فكان هذا التعيين

اول بادرة من الحكومة نحو التفاهم مع المعارضين من العرب . ثم ورد نبـأ تعيين الشيخ العلامة عبد الحميد زهراوي ، نائب حمص ، عضواً في مجلس الاعيان مكافأة له على سعيه لتأييد الاخاء العربي التركي، وأنباء اخرى بتعيين آخرين من السوريين في مراكز هامة.

والظاهر ان حكومة العاصمة وقفت على ما يلقاه الوفد السوري في باريس من عطف ساسة الدول الاوربية ، فقامت بهذه المفاجأة المحببة ووافقت عـلى اقتراح والي بيروت بكر سامي بك الحريص على قلب المعارضة الى جبهة مؤيدة للحكومة احباطاً لمساعي الوفد المذكور ، بأن يفوز بالنيابة عن بيروت الوجيهان الكبيران سليم سلام وميشيل ابراهيم سرسق وكلاهما من مؤيدي طلاب الاصلاح . ومما يجدر ذكره ان احد المعينين يوسف سرسق لم يذهب الى العاصمة لحضور مجلس الاعيان بل ظل في بيروت شتاءً وفي صوفر صيفاً لم يغادرهما طول حياته .

دعاني بعد ايام قليلة والي بيروت الى مكتبه وقال لي: « تعلم ان المسيحيين في بيروت وأقضيتها لا يؤلفون عدداً يخولهم انتخاب نائب عنهم ولكن الدولة العلية منحتهم هذا الحق رغبة منها في ربط قلوبهم بحبل الاخلاص فأرجو ان تكون مسروراً من ترشيح صديقك ميشيل ابراهيم سرسق للنيابة واثقاً بتعيينك متصرفاً في احد الالوية حين تشاء » . فأجبته : « اني افضل البقاء في مركزي الآ اذا كان في نقلي من مكان الى آخر مصلحة لدولتي فلن اتأخر حينئذٍ عن الاطاعة لامرها ». فشكرني الوالي على عاطفتي وأكد لي انشراحه وانشراح الدولة لوجودي في لبنان .

لقد وقع اختيار الوالي على السيدين سليم سلام وميشيل سرسق للنيابة ، وكلاهما من اوجه رجال بيروت ومن أهم أركان طلاب الاصلاح الاداري ، مع الابقاء على كامل الاسعد للاستعانة بنفوذه المحلي واجماع كلمة الاقضية الثلاثة صيدا وصور ومرجعيون على انتخابه .

وعين الوالي على الاثر مختار بيهم ، وهو من طليعة الاصلاحيين ، رئيساً لبلديـة بيروت بدلاً من الاتحادي منح رمضان بعد ان اشير اليه بالاستقالة .

المال عصب السياسة

لقد ظهر ان مشروع استثمار اراضي الحولة من قبـل شركة بيهم وسلام وسرسق قد لقي معارضة ومقاومة في العاصمة لاسباب اقتصادية وسياسية ، فاغتنم والي بيروت الظرف الراهن للقضاء على معارضة حزب الاصلاح الاداري قضاءً مبرماً . فكان له ما اراد ونفذ

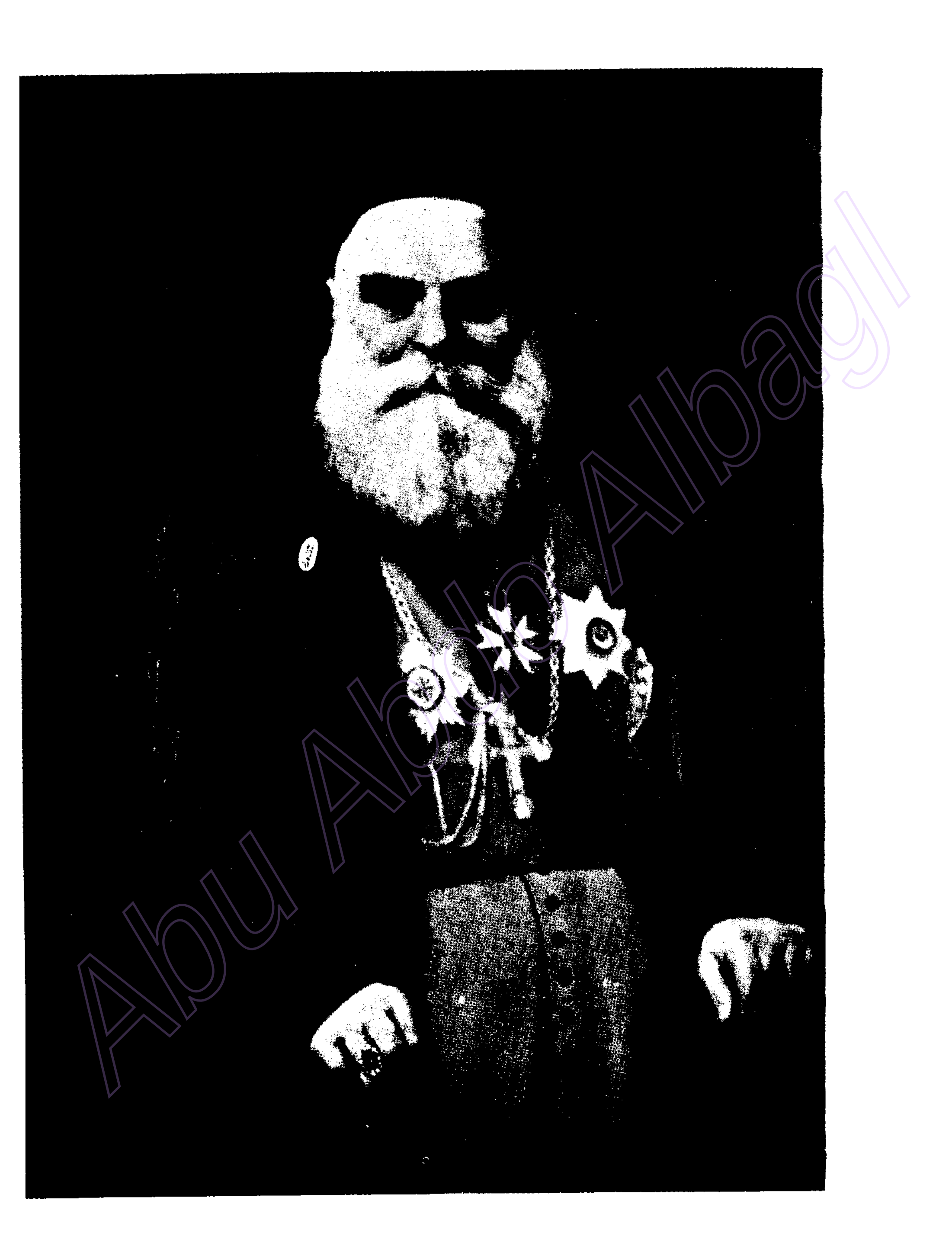
بذلك الخطة السياسية التي اتفق عليها مع الوزارة ، فشل حركة الحزب بعد ان استفحل امره في باريس ولقي وفده كل اهتمام من صحافتها ودوائرهـا السياسية ، وضمن الوالي لاصحاب الشركة الآنفة الذكر المراكز الحكومية الهامة التي تساعد على نجاح المشروع الاستثماري المنشود .

لقد انتقد سامي الصلح المرشح الاصلي للنيابة اعمـال الوالي التي ادت الى فشله في الانتخابات انتقاداً مراً في كتاب مفتوح معزز بالبراهين الدامغة ، نشره مطبوعاً في ٥ نيسان سنة ١٩١٤ باللغـات العربية والتركية والفرنسية فعدد فيه الفضائح المقترفة اثناء الانتخاب ، وأشار تفضلاً منه الى مزايا صديقه الحكيم واستغراب الرأي العـام ابداله بسواه من كبار الوجهاء الاثرياء .

لقد وفق الوالي الى اتمام الانتخاب قاضياً على المعارضة وخادماً سياسة حكومته وفاز المرشحان سلام وسرسق بالنيابة فمثلا الوجاهة البيروتية خير تمثيل وحصلا، بعد انتقال الوالي بكر سامي بك من ولاية بيروت الى سواها ، على امتياز استثمار الحولة .



البطريرك غريغوريوس حداد



البطريرك الياس الحويك

القسم الثاني

لبنان والحرب العالمية الأولى

الفصل الأول

صلات الدول الكبرى بلبنان قبل الحرب

التزاحم الاجنبي

نوجز فيما يلي صلات لبنان بالدول الاوربية نظراً لما كان لها من تأثير في مصيره قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها.

كان جبل لبنان قبل الحرب سهلاً للدعاية الفرنسية خصباً لاسباب عديدة، اهمها تمسك ملوك فرنسا قديماً بحق حماية المسيحيين في سورية ولبنان، وسبق فرنسا سائر الدول الاوربية في التدخل السياسي والعسكري اثر الحوادث الدامية التي وقعت سنة ١٨٦٠، وتجهيز لبنان بامتيازه الخاص، عدا مساهمتها بما في بيروت وامهات المدن السورية من المعاهد والمدارس الفرنسية التي نشرت ثقافتها، وعدا مصالحها الاقتصادية البارزة في البنك العثماني وشركة مرفأ بيروت وشركة الخطوط الحديدية المعروفة باسم «الشام — حماه وتمديداتها» وفرعها الممتد من حمص الى طرابلس.

لم يعكر على فرنسا صفاء جو لبنان وسورية سوى الدعاية البريطانية التي كانت تظهر تارةً وتختفي طوراً ولكنها كادت تكون حسب القول المأثور موجودة في كل زمان ومكان.

واذا كان جبل لبنان قد خلا من دور القنصليات الاجنبية، فانه لم يسلم في الحقيقة من تأثيرها ومداخلاتها بل يمكن القول انه لم يشأ ان يفترق عنها، وكيف يفترق وممثلو الدول العظمى في بيروت هم حراس امتيازه الخاص وصيانته من عبث حكامه الوزراء العثمانيين باستقلاله ومن تدخل الدولة العثمانية نفسها للانتقاص من استقلاله، تحيط به ولايتا بيروت وسورية وفيهما اكثر من رقيب على مدى تدخل الاجنبي في شؤونه.

كان قنصل فرنسا العام في بيروت يتدخل في شؤون جبل لبنان بحجة المحافظة على استقلاله وعلى حقوق الموارنة الذين يؤلفون اكثر من نصف سكانه ، وحقوق الكاثوليك واللاتين والمتاولة الذين يراجعونه في كل مناسبة ، بينما كان قنصل بريطانيا العام يقابله بدعوى السهر على حماية حقوق الدروز ، ثم يأتي قنصل روسيا العام بدوره بحجة حماية حقوق الارثوذكس . فكان هؤلاء القناصل الثلاثة كمفوضين سياسيين بالنسبة الى جبل لبنان ، وكان قناصل المانيا والنمسا وايطاليا محافظين على حسن الصلات بالحاكم ؛ دون اي تدخل في شؤونه ودون ان يسبق لاحدهم اية مراجعة .

اما الاقلية المسلمة السنية فكان الحارس الامين لحقوقها حاكم جبل لبنان ناشر لواء العدل بين جميع ابنائه على السواء .

يتساءل المرء عن سبب التجاء المتاولة الجعفريين الى القنصلية الفرنسية عند الحاجة ، خلافاً للسنيين الذين يرون في شخصية الحاكم العثماني ملاذهم الاوحد ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان الدولة العثمانية كانت حتى اعلان القانون الاساسي ، شديدة التمسك بمذهبها السني ، فتفضل السنيين على غيرهم من المذاهب الاخرى ، بينما تفتح المراجع الفرنسية صدرها لكل من يلجأ اليها .

ان هذا التزاحم الاجنبي في لبنان لم يحط من نفوذ حكامه العثمانيين ، نظراً لما يتمتع به هؤلاء من مزايا عالية ومن سلطة واسعة جمعت صلاحيات الوزارات في الدولة وبعض صلاحيات الحاكم المطلق التصرف ، لذلك ظل اللبنانيون على تعدد طوائفهم ينعمون باستقلال اداري طالما حسدهم عليه جيرانهم .

تدخل قنصل فرنسا في شؤون ادارة جبل لبنان

في مطلع عام ١٩١٤ اصدر حاكم لبنان امره بانهاء خدمة سليم بك ناصيف ، قائم مقام قضاء البترون ، والشيخ كنعان الضاهر ، قائم مقام كسروان ، واملاء هذين المنصبين بتعيين جورج بك زوين في البترون والامير مالك شهاب في كسروان . وكان السبب فيما يتعلق بسليم بك توالي الشكايات من ضعف ادارته مما افقده ثقة الشعب . اما الشيخ كنعان الضاهر ، المعدود من ادهى رجال لبنان ، فربما كان اقصاؤه عن الوظيفة ناتجاً ، حسبما اتصل بالحاكم ، عن اتفاقه مع ابن اخته حبيب باشا السعد على شدّ ازر انصارهما معارضي العهد السابق واحلالهم في كل وظيفة تشغر مما لا يتفق وحياد الحاكم .

ان هذا الاقصاء والتعيين في القائمين على رأس الادارة في القضاءين المـــارونيين بأكثرية سكانهما قد اغضب قنصل فرنسا العام مسيو جورج بيكو الواصل حديثاً الى بيروت ، لانه قد تم بدون سابق استمزاجه على ما يقتضيه التقليد المستمر . فأسرع الى الاحتجاج لدى الحاكم الذي اجابه بصراحة ان حاكم جبل لبنان مستقل في جميع شؤونه الادارية على مقتضى نظامه الخاص ، دون ان يكون ملزماً باستشارة قنـــاصل الدول العظمى ، باعتبار صلاحياتهم في هذا الصدد تنحصر في مراقبة ما يجري خلافاً للنظام المذكور ، دون مشاركة الحاكم في الادارة.

بعد انقضاء يومين على ما سبق ذكره ، وردت برقية من مقـــام الصدارة العظمى تتضمن الاستيضاح عن هذه القضية التي احتجت عليها سفارة فرنسا ، فأجابها الحاكم ببيان واقع الحال ، وبدهي ان المقام المشار اليه قد ارتاح لخطة الحاكم المثلى .

ان هذه الخطة التي تحول دون تدخل الاجنبي في ادارة شؤون الجبل من جملة اسباب رضى السلطة العليا في العاصمة عن الحاكم، وقد زادت ثقة احرار لبنان بصدق عزيمته ، وكانت درساً لسائر القناصل الذين اخذوا يتحفظون شديد التحفظ حين يعرضون عليه مقترحاتهم وآراءهم .

الفصل الثاني

موقف الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى

في السياسة الخارجية

كان قلق الدولة العثمانية في الشؤون الخارجية ناتجاً في الدرجة الاولى عن طموح روسيا في مضيقي البوسفور والدردنيل توصلاً الى البحر الابيض ، وطموح النمسا في مكدونيا حتى ميناء سلانيك ، وبريطانيا العظمى في الجزيرة العربية ، اقرب طرقها الى الهند ، أكبر مستعمراتها .

وبعد اعلان القانون الاساسي في الدولة العثمانية ، تعرضت لمفاجآت من قبل جاراتها دول البلقان ، كانت نتيجتها احتفاظ الدولة بالقسم الغربي من ولاية ادرنه حتى ساحل بحر مرمره وقسم من ساحل بحر ايجه ،وتصافت مع النمسا بتركها لها ولايتي بوسنه وهرسك ، ومع ايطاليا بتخليها لها عن ولاية طرابلس الغرب وبنغازي ، وأكدت اعترافها لفرنسا بمصالحها الاقتصادية ومعاهدها الثقافية وعلاقاتها ببعض المؤسسات الدينية ، كما اعترفت لبريطانيا بضم جزيرة قبرص اليها نهائياً وبمصالحها في القطر المصري . ولم يكن للدولة العثمانية آنئذ من صديق لا مطمع له في اراضيها سوى المانيا ،التي فتحت ابواب معاهدها العسكرية للطلاب والضباط العثمانيين وعرضت مساعداتها الاقتصادية ، وأهمها مد خط حديد الى بغداد .

امتياز الخطوط الحديدية في الاناضول

كانت الشركة الالمانية لمد الخطوط الحديدية من الاناضول وحتى بغداد صاحبة الحظ الاوفر لدى الحكومة العثمانية ومجلسي الاعيان والنواب، فنالت الامتياز لمدة تسع وتسعين سنة ، على ان تقوم بمهمة كشف المعـادن على مسافة عشرين كيلومتراً من كل من جانبي الخطوط الحديدية ، دون ان تتحمل الحكومة العثمانية اي ضمان في هذا الشأن ، بل تستوفي من الشركة المذكورة مبلغاً من المال لقاء بدل كفالة . وقد صدرت الارادة السنية باعطاء الامتياز على الوجه المذكور في العاشر من شهر آب سنة ١٩٠٩ ، مما زاد في نشاط الالمانيين حكومة وشعباً في البلاد العثمانية ، من ارسال الخبراء الفنيين وتأسيس المصارف ونشر الثقافة الالمانية في أهم مدنها .

الدولة العثمانية في الحقل الداخلي

بعد اعلان الدستور العثماني (١٩٠٨) وخلع السلطان عبد الحميد واعتلاء اخيـه السلطان رشاد العرش (١٩٠٩) ، ساد البلاد العثمانية الهدوء والسكينة والعدل والمساواة بين جميع العناصر العثمانية على اختلاف عروقها وأديانها ومذاهبها ، وتمتع كل فرد منها بحرية ابداء الفكر في الصحف والمجلات والحفلات على اختلاف الأحزاب والنزعات وتعاقب الحكومات ، فالاتحادية اولاً فالائتلافية فالاتحادية حـتى بدء الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ .

ولما قام في جبل لبنان فئة معارضة لحكومته تطلب الغاء امتيازه الاداري وانتخاب نواب عنه اسوة بسائر الولايات والالوية العثمانية ، لم تنل مأرباً بفضل حرص الحكومة على الاخذ برغبات اللبنانيين المتمسكين باستقلال جبلهم ، عدا تلك الفئة المغامرة بسبب عدم نفوذها في حكومة ذلك العهد .

لم يتبدل هذا النعيم الا بعد دخول الدولة العثمانية الحرب المشار اليها كما هو مفصل في الابحاث الآتية .

الفصل الثالث

إعلان الحرب العالمية الأولى
واثره في جو بيروت ولبنان

مقتل ولي عهد النمسا

بدأ العداء بين الشعب الصربي ودولة النمسا (اوستريا والمجر) منذ احتلالها ولايتي بوسنه وهرسك سنة ١٨٧٥ ، وجميع سكانهما من الصرب ، واستيلائها عليهما نهائياً سنة ١٩٠٨ ، وبروز مطامعها في مكدونيا حتى ميناء سلانيك . ولما استولت صربيا بدورها في حربها مع العثمانيين (١٩١٢–١٩١٣) على معظم مكدونيا ، اتسعت حدودها وعظم شأنها وتعلقت آمالها باسترداد بوسنه وهرسك في اول فرصة تسنح لها .

واذا كانت النمسا دولة معظمة ذات حول وطول ، فلصربيا حليفة قوية بل نصيرة تقليدية وعنصرية هي روسيا القيصرية ، مما قوى آمال الصربيين فألفوا جمعية سرية قيل ان للحكومة علماً بأمرها ، هدفها انقاذ الولايتين المذكورتين من السيطرة النمسوية .

وفي الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩١٤قام ولي عهد النمسا الارشيدوق فرديناند وزوجه بزيارة بلدة سراجيفو في بوسنه بعد حضورهما استعراضاً عسكرياً على الحدود ، واثناء سير الموكب الى دائرة البلدية انفجرت قنبلة ادت الى جرح اثنين من رجال الارشيدوق ، وقد قبض على المجرم ، وهو صربي ، وفي نهاية حفلة البلدية توجه الارشيدوق الى المستشفى لتفقد الجريحين وقبل وصوله اطلق الرصاص عليه وعلى زوجه حال وجودهما في السيارة فوقعا للحال صريعين . واعتقل الجاني فوراً وهو طالب صربي اسمه « برنسيب ».

اثار هذا الحادث الرأي العام الاوربي ولا سيما في النمسا حيث توحدت الصفوف على الاثر والقت تبعة الجناية على صربيا وبدأت الانباء تشير الى اهتمام الدول الاوربية ولا سيما الروسية والالمانية والفرنسية والبريطانية بما ستجر اليه هذه الكارثة من ذيول حربية، الى ان اصدرت حكومة النمسا في ٢٣ تموز انذاراً الى حكومة صربيا حاوياً عشرة شروط لعدم قطع العلاقات بينهما . فلم تر صربيا مفراً من قبول تسعة منها ، اما الشرط الواحد الذي لم تستطع قبوله فيتعلق بملاحقة كل من له ضلع في المؤامرة من الصربيين ، على ان يشترك في التحقيق الذي يجري في هذا الشأن مندوبون تبعث بهم حكومة النمسا . ولما رأت حكومة صربيا في هذا الشرط مساساً باستقلالها وكرامتها ، رفضته بجواب سلمته الى المفوضية النمسوية في بلغراد بتاريخ ٢٥ تموز وهو نهاية مدة الانذار ، فغادر المفوض النمسوي بلغراد عائداً الى بلاده .

اعلان الحرب بين الدول الاوربية

اعلنت النمسا الحرب على صربيا في ٢٨ تموزسنة ١٩١٤ ، وفي ٣٠ تموز قررت روسيا التعبئة العامة ، وحشدت جيوشها على حدود النمسا ، فقابلتها المانيا تضامناً مع النمسا باعلان الحرب عليها في اول شهر آب ، كما اعلنت الحرب على فرنسا في الثالث من الشهر المذكور ، ودخلت بلجيكا الحرب في الرابع منه بعد ان امتنعت عن السماح بمرور الجيش الالماني عبر اراضيها الى الاراضي الفرنسية . وفي الخامس منه اعلنت بريطانيا العظمى الحرب على المانيا وأصبحت الحرب قائمة بين ثماني دول اوربية هي المانيا والنمسا من جهة ، وروسيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وصربيا والجبل الاسود من جهة اخرى .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان بريطانيا قد اظهرت في بادئ الامر حيادها مقترحة ان يحل الخلاف النمسوي الصربي حلاً سلمياً ولكنها حين رأت جيوش المانيا تهاجم بلجيكا المحايدة وتتجاوز اراضيها، حينئذٍ دخلت الحرب تضامناً مع فرنسا بموجب سابق الاتفاق بينهما . ولم يبق في ذلك التاريخ من دول اوربا العظمى على الحياد سوى ايطاليا ، وقد رفضت دخول الحرب الى جانب حليفتيها المانيا والنمسا محتجة بكون الحلف القائم بينهن حيادياً في حين ان النمسا هي التي بادرت بمهاجمة صربيا .

بدء الحرب وحوادثها الواردة في البرقيات والصحف والبلاغات

في الجبهة الغربية : اسرعت المانيا في الاستيلاء على « دوقية » لكسمبرغ المستقلة في ٢ آب سنة ١٩١٤ ثم انذرت حكومة بلجيكا بمرور الجيش الالماني في اراضيها توصلاً الى فرنسا ، ولما رفضت بلجيكا الطلب ، تقدم الجيش الالماني بقيادة الجنرال لودندورف واستولى على لياج في ١٢ من الشهر المذكور ثم تابع هجومه وأخذ يحارب الجيش الفرنسي وحليفه الجيش البريطاني . وبعد تبادل الهجوم بين الفريقين تقدم الجيش الالماني نحو باريس وصار منها على مقربة اربعين كيلومتراً ، فغادرت الحكومة الفرنسية عاصمتها في ايلول منتقلة الى بوردو وظلت الجيوش تقابل بعضها بعضاً بين هجوم ودفاع حتى وقعت معركة المارن الشهيرة شرقي باريس وانتهت بتراجع الجيوش الالمانية امام هجمات الجيوش الفرنسية والبريطانية كما هو موضح في اواخر هذا الجزء .

في الجبهة الشرقية : كانت الحرب بين النمسويين والصربيين سجالاً في بادئ الامر ، ثم تقدم الجيش النمسوي واستولى على بلغراد . بيد ان الجيش الصربي تمكن في نهايـــة سنة ١٩١٤ من جمع شمله وطرد النمسويين وجيشهم من جميع الاراضي الصربية وذلك بعد سبق الهزيمة التي مني بها الجيش النمساوي في ايلول امـــام الجيوش الروسية ، التي تقدمت واحتلت لمبرغ وبرزميل وغيرهما .

بين الروس والالمان : كان هجوم الجيش الالماني على الاراضي الروسية هجوماً صاعقاً بلغ اشده في معركة تاننبرغ ، حيث طوق الجيش الروسي في نهايـــة شهر آب سنة ١٩١٤ وتمكن في اوائل ايلول من السنة نفسها من السيطرة على بروسيا الشرقية باعتبارها جزءاً من المانيا .

اليابان : في هذه الظروف اعلنت اليابان الحرب على المانيا وأخذت تحتل ممتلكاتها في الشرق الاقصى .

صدى الكارثة في بيروت ولبنان

لم يكن مقتل الارشيدوق بحد ذاته مثيراً لقلق العالم وخشيته من نشوب حرب ، فقد سبق اغتيال اكثر من امير وملك دون ان ينشأ عنه حرب ، ولكن الظروف التي احاطت

بمقتل الارشيدوق هي التي ادت الى الكارثة . فأول هذه الظروف وقوع الاغتيال بيد شاب صربي منتسب الى جمعية سرية ارهابية تستهدف ابعاد النمسا عن مقاطعتي بوسنه وهرسك الصربيتين بسكانهما وترقب كل من الدولتين، النمسا وصربيا ، الفرص للاستيلاء على كامل مكدونيا حتى بحر ايجه ، والتنافس القديم المستمر بين النمسا وروسيا حول التوسع على حساب الدولة العثمانية وفي بلاد الروم خاصة، وخشية كل من فرنسا، حليفة روسيا ، وبريطانيا العظمى المحايدة من التفوق المتزايد في مختلف القوى البرية والبحرية والاقتصادية التي احرزتها المانيا حليفة النمسا .

لذلك كان صدى الاغتيال داعياً الى اهتمام جميع ساسة العالم والى تخوف جميع العقلاء محبي السلام من عقباه ولم تخل بيروت ولبنان من امثالهم . اما اعلان الحرب بعد شهر من الزمن بين الدول المشار اليها ، فكان وقعه فيهما اشبه بهبوب عاصفة نارية اضطربت من حولها الافكار وذعر المصطافون في صوفر وبحمدون وعاليه وسوق الغرب وبرمانا وبكفيا وضهور الشوير وجميع مصايف لبنان الجميلة، وبينهم كبار المصريين واللبنانيين والسوريين الذين استوطنوا القطر المصري واعتادوا الاصطياف في هذا الجبل العزيز ، فأسرعوا الى بيروت يزدحمون في البواخر عائدين الى بلدهم، حاسبين لنتائج الحرب الف حساب .

وكان اللبنانيون ، وهم الشعب الراقي الناعم البال الحريص على بقاء امتيازه واستقلاله الاداري اكثر قلقاً على مصيرهم بعد وقوع الحرب بين الدول العظمى الموقعة على نظام جبلهم الخاص ، يخامرهم الشك والريبة في نوايا ولاة الامر العثمانيين في العاصمة والولايات المجاورة الناقمين على بقاء الوضع الاستثنائي الذي يتمتع به لبنان بفضل سابق اتفاق الدول التي اخذت تحارب بعضها البعض، مما يفسح المجال لاركان السلطنة العثمانية لتعمل ما تشاء ، فلا عجب اذا تشاءم العقلاء ومحبو السلام من هذه الحرب وبدهي ان يكون حاكم لبنان اوهانس باشا قيومجيان اكثرهم قلقاً وتشاؤماً .

النفير العام

بعد مقتل ولي عهد النمسا في سراجيفو وبدء تأزم الحالة بين الدول الاوربية ، اصدرت الحكومة العثمانية في ٢١ تموز قانوناً ينص على ان اهل العاصمة (المسماة دار السعادة) وجميع الملل غير المسلمة مكلفون بالخدمة العسكرية من سن العشرين حتى

الخامسة والاربعين ، وعقب ذلك اعـــلان النفير العام والحياد المسلح ازاء الفريقين الاوربيين اللذين خاضا غمار الحرب عن رغبة او اضطرار كما سبق بيانه .

ولما كان الحياد المسلح يتطلب ان تكون الدولة الحيادية على اهبة الاستعداد لكل طارئ لتدفع عن نفسها ما يحتمل وقوعه من اعتداء عليها ، بدأت معاملات التجنيد في بيروت كما في غيرها من الولايات بما يتطلبه من تموين وتنظيم .

لقد اقلق النفير العام البلاد العثمانية جمعاء وشعر اللبنانيون ، رغم استثنائهم من الخدمة العسكرية ، بشدة وقعه على سورية الداخلية والساحلية وجبلهم محاط بها من جهاته الثلاث ولاهله فيها صلات زراعية واقتصادية لا يمكنهم الاستغناء عنها .

اخذ بعض شبان بيروت وملحقاتها الساحلية يرسلون عيالهم الى داخل سورية خشية المفاجآت التي قد تأتي من قبل اساطيل فرنسا وبريطانيا العظمى . اما من كان في سن الخدمة العسكرية ولا يستطيع الخلاص منها ببدل نقدي او بغيره من الوسائل فيلجأ الى جبل لبنان بحجة ما دون افشاء سر لجوئــه . كان ذلك يجري بسهولة في اكثر المدن والقرى المجاورة للبنان وليس فيها اي مخفر للمراقبة باعتباره ، رغم امتيازه الاداري ، بلداً عثمانياً .

واللاذقية الواقعة على ساحل البحر ، وهي آنئذٍ مركز متصرفية تابعة لولاية بيروت ، لم تسلم من القلق ، فهب عدد من الاثرياء ومتوسطي الحال يتهيأون للسفر الى قبرص مهما كلفهم الامر من نفقات ، وقد تمكنوا من بغيتهم بفضل مساعدة المتصرف النبيل عطا بك الايوبي .

وبدهي ان تأسف والدتي واخوتي لغياب اولئك المسافرين وبينهم القريب والصديق ، فقبلوا دعوتي وأقاموا معي في بعبدا في بيت صحي وجميل بين خيرة الجيران الاكارم ، امثال آل ملاط وفياض وشهاب وصفا وشمعون وغيرهم من اهــل بعبدا او من رجال الحكومة الذين اختاروا الاقامة العائلية في العاصمة اللبنانية .

وقد خفف قليلا من شدة النفير العام صدور القانون القاضي بقبول البدلات النقدية من افراد الاحتياط والمستحفظ ، وهم الجنود الذين قاموا بالدور الاول من الجندية .

وصدر في ٢٤ تموز قانون يتضمن الوظائف التي يستثنى القائمون عليها من الخدمة العسكرية ، وفي مقدمتهم الرؤساء والقضاة في العدلية وشورى الدولة وغيرهم في العاصمة

والولايات ، وقد جاء بينهم ذكر اركان المفوضية العثمانية في القطر المصري ورئيس القلم التركي في حكومة جبل لبنان .

من ذيول النفير العام

لقد صدر قانون بفرض رسوم معينة باسم « ضريبة الحرب » تسري على بيروت وسائر الولايات غير الممتازة باستقلال اداري ، وبموجبها يستوفى من جميع موظفي الدولة ثلاثة بالمئة من رواتبهم ومخصصاتهم .

ثم صدر قانون النفوس الجديد في ١٤ آب سنة ١٩١٤ وقد نص على ان يذكر في السجل وورقة الهوية دين المسلم ودين ومذهب غير المسلم دون بيان سبب هذا التفريق ، مع ان المذاهب متعددة في الاسلام والمسيحية في مختلف انحاء المملكة العثمانية .

نشطت شعب اخذ العسكر في بيروت كما في سائر انحاء الولاية نشاطاً بارزاً تعرض اللبنانيون خلاله للانزعاج بدناً ومالاً كما هو مفصل في مكان آخر .

وأخذت الدوائر المختصة التي اشترك فيها مدنيون وعسكريون تراقب المراسلات والبرقيات الصادرة والواردة باعتبار ذلك من متممات النفير العام .

وبدأ موظفو مؤسسات الخفية والتحري يلعبون دورهم وكاد الخوف منهم يقضي على الثقة بين الناس حتى بين الاهل والاصدقاء .

تسرب الخوف الى نفوس العقلاء

بالرغم من كون اعلان النفير العام لم يشمل جبل لبنان بفضل نظامه الخاص ، فقد بدأ المفكرون من رجاله يتحادثون سراً عما يمكن ان تجره عليه حرب ضروس تقوم بين خمس دول معظمة موقعة على امتيازه ، ولا يبعد ان تدخل غمارها الدولة السادسة ايطاليا والدولة العثمانية نفسها ، ولم يغرب عن البال ان هذه الاخيرة لم تكن في سرها راضية عن امتياز جبل لبنان وتدخل النفوذ الاجنبي في شؤونه . وكانت ولايتا بيروت وسورية المجاورتان تحسدانه على امتيازه واستقلاله ، رغم الغبطة التي يشعر بها محبوه وعشاق الحرية وأنصار فكرة توسيع صلاحيات الولايات في كل مكان .

بدأت الاجتماعات السرية تعقد على حدة بين رجالات الدروز وشيوخ العقل كما

تعقد بين المهتمين بسياسة الجبل ومصيره من المسيحيين ، وكان هنالك اجتماعات مختلطة بين الخاصة من المسيحيين والدروز وكلهم يرجو حسن العاقبة ، يخامر رجاءهم الخوف مما ستخلقه الحرب من ويلات تأتي على الاخضر واليابس فتطيح بامتياز جبل لبنـــان وبسعادة ابنائه .

بيد ان فريقاً من الناقمين على الحكومة لاقصائهم عن الوظائف ، لا يخلو بلد من امثالهم ، اخذ يتكتل ويعمل على تعكير مجرى الادارة والدس عـــلى رجالها لاصطياد الوظيفة ، غير حاسب لصوت الضمير وداعي الوطنية اي حساب . فأخذ يتقرب من والي بيروت منوهاً بامكان ضم جبل لبنان الى الولاية ، وهذا ما كانت تطيب له نفس الوالي وأركان الولاية ، وقد فتحوا صدورهم قبل مكاتبهم لقبول زيارة اولئك اللبنانيين المخلصين !

لا شك بأن الوالي بكر سامي بك متصف بالحزم وحسن الادارة ، قوي الارادة ، مخلص لدولته ، متفق مع الحكومة المركزية على السياسة الواجب اتباعها بازاء لبنان وله في افئدة عارفيه الوجهاء اسمى مقام . فلا يلام اذا اصغى لكل من يعرض عليه امكان ضم جبل لبنان الى ولايته ، بل اذا زاد في نشاطهم لتحقيق هذه الامنية بشرط واحد ، هو ان يرضى عنها الباب العالي . ولكن اللوم كل اللوم على اولئك الذين يعدون انفسهم لبنانيين فيضحوا باستقلال لبنان لمجرد اشباع اهوائهم الشخصية !

الفصل الرابع

يقظة حاكم لبنان

احصاء نفوس اللبنانيين

ان تعرض اللبنانيين المقيمين في بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع وغيرها من مدن ولايتي بيروت وسورية واخوانهم الذين لا يستغنون عن التردد اليها يومياً او في اكثر الاوقات لقضاء مصالحهم الخاصة ، قد تعرضوا على اثر اعلان النفير العام الى ملاحقة جنود شعب اخذ العسكر المنتشرين في تلك المدن . فكانوا يطلبون من كل من يصادفونه وثيقة تتضمن هويته واستثناءه من الخدمة العسكرية ، والاّ ساقوه الى الشعبة المختصة حيث يظل موقفاً ريثما يبرز الوثيقة المطلوبة في اقصر مهلة ، او يساق الى الجندية اذا كان فقيراً عاجزاً عن تدارك الوثيقة او ما يقوم مقامها بما يقتنع به الجنود الملاحقون او رؤساؤهم .

ولما بلغ مسامع الحاكم شكوى ابنائه اللبنانيين من هذه المعاملة القاسية رأى قبل استفحال امرها ، العمل باقتراح كبير امنائه وملخصه ان يزود كل لبناني بتذكرة هوية لبنانية تخلصاً مما يتكبده من مشقات في سبيل اثبات هويته لدى شعب اخذ العسكر وموظفيها . وأمر على الفور بطبع مئآت الالوف من تذاكر الهوية . وبعد توزيعها على الاقضية والمديريات امر باحصاء نفوس اللبنانيين واعطاء كل واحد منهم تذكرة لقاء خرج زهيد بلغ عشرة قروش ، يسد بما يتوفر منه ما يحتاجه الجبل من نفقات طارئة في الظرف المحفوف باحرج الاخطار . فكان لهذا العمل احسن الاثر ، ولمس اللبنانيون ثمراته الطيبة داعين لحاكمهم بطول العمر ودوام التوفيق .

بين قائم مقام زحلة وكاتب الرسائل

لقد نفذ جميع القائمين على اقضية جبل لبنان ونواحيه امر الحاكم المتعلق باحصاء النفوس بكل هدوء واطمئنان الا قائم مقام زحله ، فقد اراد استغلال الاحصاء للانتقام من كاتب رسائله المعروف بصدقه واخلاصه في العمل الاستاذ امين الوف باقصائه عن وظيفته ، لا لشيء سوى وثيق اتصاله بزعماء الشباب الذين يكثرون من انتقاد قائم المقام في تصرفاته الادارية ، محتجين بالدفاع عن مصالح الشعب ولا سيما ضعفائه ومعلنين انفسهم قادة الرأي العام والنهضة الفكرية العاملة للتخلص من تحكم الوجهاء الاقطاعيين .

جاء قائم المقام بعبدا حيث قابل دولة الحاكم وأخبره بنجاح الاحصاء في احياء زحله عدا حي واحد خاضع لنفوذ كاتب الرسائل السيد الوف ، الذي تمكن من تحريض اهل هذا الحي على مقاومة الاحصاء بحجة اعتباره مقدمة لتجنيد الشبان اللبنانيين وبهذه الوسيلة تمكن قائم المقام ، بفضل مؤازرة رئيس القلم العربي ، من استحصال امر الحاكم بعزل الكاتب من وظيفته وعاد على الاثر الى زحله .

ولما اتصل الخبر بالشبيبة الزحلية الراقية ابرقت الى الحاكم معلنة براءة السيد الوف مما عزاه قائم المقام ، فاستدعاني الحاكم وأطلعني على البرقية آسفاً لتسرعه باقصاء الكاتب عن وظيفته قبل التحقيق معه وقبل سؤاله للدفاع عن نفسه في أقل تقدير . فشاطرته الاسف وأوضحت لدولته ضرورة التحقيق قبل البت في الشكوى ، فأبرق فوراً الى قائم المقام باعادة امر العزل دون تنفيذه انتظاراً لنتيجة التحقيق ، وقد اثبت فيما بعد براءة كاتب الرسائل مما عزي اليه .

جاءني قائم المقام على اثر تلقيه البرقية المذكورة شاكياً صدور امرين متناقضين في قضية واحدة خلال اربع وعشرين ساعة مما يفقد الحكومة هيبتها . فأجبته : « ان الظلم هو الذي يفقد الثقة بالحكومة وان الخطأ كل الخطأ هو في استحصال امر الحاكم باقصاء كاتب الرسائل عن وظيفته بدون سابق تحقيق معه ، بل بدون سؤاله ليتمكن من الدفاع عن نفسه ؛ اما رجوع الحاكم عن سابق خطئه ففضيلة » . فقال : « ان كاتب الرسائل غير مخلص للحكومة اخلاصه لمعارضيها » . فأجبته : « ولكن شكواكم السابقة لم تتضمن هذه الناحية ومع ذلك الا توافقون على مبدأ عدم تسريح الموظف عن عمله ، مهما علت مرتبته او سفلت ، بدون سابق تحقيق معه او استماع الى دفاعه ؟ »

فلم يبد جواباً وانتهى الحديث بيننا عند هذا الحد .

اللجوء الى قنصل فرنسا

لما يئس قائم مقام زحله من امكان تحقيق مبتغاه وهو القضاء على كاتب الرسائل، اسرع الى قنصل فرنسا العام في بيروت شاكياً اليه شدة نفوذ الحكيم الارثوذكسي المذهب في حكومة جبل لبنان، الذي لم ينل استقلاله الاّ بفضل عطف فرنسا عليه، فلم يتوان القنصل على اثر هذا الكلام عن زيارة الحاكم في منزله الخاص في بيروت منتقداً، كما اسر اليّ الحاكم نفسه فيما بعد، تفوق نفوذ الحكيم على سائر الزعماء المخلصين لفرنسا. ولكن الحاكم النزيه الكبير اكد لضيفه نزاهة امينه الحكيم وانصرافه لمصلحة الحكومة وخير الشعب اللبناني بأسره، دون اي تفريق بين طائفة واخرى، وأضاف الى ذلك ان الشاكي قائم المقام والمشكو منه كاتب رسائله هما من طائفة واحدة فلا محل لاثارة الطائفية.

حين بلّغني الحاكم هذه النتيجة اوضحت له سبباً آخر قد يكون مما زاد في نقمة القنصل عليّ، وهو انني حين كنت نائباً عاماً في طرابلس اطلقت سراح شاب فرنسي من سجن الحكومة، رغم رغبة قنصل طرابلس في بقائه سجيناً لسبب شخصي، دون ان يكون له علاقة بجرم ما، ولما شكاني هذا القنصل الى مرجعه في بيروت معتبراً عملي مقاومة لنفوذ فرنسا، اخرسه القنصل العام السابق مسيو كوجه لما رآه، مع سائر احرار فرنسا في بيروت وطرابلس، في عملي مجرد انتصار للعدالة ومحافظة على احكام القانون.

وأخيراً رأى الحاكم بازاء التنافر المتزايد بين قائم المقام وكاتب الرسائل، ترفيع الكاتب الاستاذ الوف ونقله الى القضاء عضواً في محكمة بداية قضاء جزين، فكان فيه القاضي العادل الذي أحبه الشعب ومحضه كامل ثقته كما كانت حاله في زحله.

الصحف التركية

بعد اعلان النفير العام، لم يظهر في المملكة العثمانية ولا سيما في سورية ولبنان اثر للشغب او المعارضة او الانتقاد. فمن لم يقتنع بصحة السياسة والادارة التي اتبعتها الحكومة اختار السكوت المطلق، بينما كانت صحف العاصمة والولايات طافحة بأخبار انتصارات المانيا في الميادين الاوربية، ساكتة عن كل ما كان في مصلحة دول الاتفاق وعن الاشارة الى النصائح التي كانت تسديها بريطانيا العظمى الى تركيا في سبيل بقائها على الحياد. وقد تبين فيما بعد ان الدولة العثمانية وقعت في الثالث من آب ١٩١٤

بمعاهدة سرية مع المانيا تلتزم بها بدخول الحرب الى جانبها في حال اتخاذ روسيا تدابير عسكرية ايجابية حيال النمسا .

لم يستغرب العقلاء موقف تركيا من الفريقين المتحاربين بعد ان تغلغل النفوذ الالماني في دوائر الحكومة وفي افكار كبار رجالها وسيطر على المواقع الدفاعية المحيطة بالعاصمة ، ولا سيما بعد لجوء المدرعتين الالمانيتين « غوبن » و« برسلو » الى موانئها في العاشر من آب عام ١٩١٤ ، هرباً من مطارده الاسطول البريطاني .

ان الاسلوب الذي اتخذته صحف الاستانة بعد نشوب الحرب الاوربية قد دل بحد ذاته على عزم الدولة العثمانية على خوض غمارها بجانب المانيـــا . لذلك رأيت من الواجب لفت نظر غبطة البطريرك الحويك ، باعتباره اللبناني الاول ، وحاشيته المؤلفة من خيرة رجال الدين ، الى ما تكتبه تلك الصحف ، لعلهم يتخذون خطة جديدة للسير عليها تقيهم خطر الانتقام التركي الالماني ويكفون عن الاشادة بحب فرنسا وعظمتها ، ذاكرين ان النمسا ايضاً كاثوليكية فضلاً عن ان ثلث الشعب الالمـــاني كاثوليكي ، والحكمة تقضي بأن يبقى لبنان حيادياً في ظاهر عواطفه على الاقل . فعاد اليّ صديقي الشيخ طنوس جعجع مستشار دائرة الاستئناف الحقوقية ، الذي نقل كلمتي الى المقام البطريركي ، حاملاً شكر من حدثهم على اخلاصي واعتقادهم (سامحهم الله) ان امد الحرب قصير باذن الله سبحانه وتعالى .

صحف بيروت ولبنان

انقسمت صحف بيروت فيما يتعلق باخبار الحرب الى فئات ثلاث :

فئة اتبعت سياسة الحكومة ناشرة اخبار انتصارات المانيا ، وفئة ظلت عـــلى سابق خطتها مشيدة بفرنسا وبريطانيا العظمى — ومن هذه الفئة صحف حزب الاصلاح ومن والاهم ورأى رأيهم — وفئة ثالثة التزمت الحكمة والسداد في أسلوبها ، تاركة للقارئ اللبيب استكناه الحقيقة من بين السطور .

لم يشأ والي بيروت ان يفرض ارادته على الفئة الثانية آنئذٍ لان الدولة العثمانية كانت حتى ذاك التاريخ على الحياد ، فلم ير مـــن حسن السياسة ان يثير انتقاد قناصل دول الاتفاق في مركز ولايته وان كان يظهر عليه كامل الارتياح لما تكتبه الفئة الاولى التي استحقت ان يطلق عليها « الصحف الحكومية » .

اما الصحف التي كانت تصدر في جبل لبنان – في فرن الشباك وجونيه وزحله – فكانت تتغنى بمجد فرنسا صديقة لبنان داعيةً لها ولجيوشها بالنصر المبين .

وفي اواخر شهر آب اطلعني قائد الجند اللبناني سعيد البستاني على كتاب بأحرف سريانية ورده من اخيه سليمان البستاني وزير الزراعة، يتضمن استغرابه ظهور الصحف اللبنانية بمظهر العطف على فرنسا بعد ان ترجح دخول الدولة العثمانية الحرب بجانب المانيا، وينصح البستاني الكبير بمسايرة رجال القنصليتين الالمانيـــة والنمسوية . فأشرت الى قائد الجند اللبناني ان يطلع البطريرك وامناءه على الكتاب المذكور، ولكن اللبنانيين المحافظين على ولائهم لدول الاتفاق وأخصها فرنسا قد تغلبت عواطفهم على كل تكلف ، حتى سدت عليهم الابواب السياسية التي يلجأ اليها الضعفاء حين اشتداد الازمات بين اقوى دول العالم .

بين زحلة الفتاة والرأي العام

عرفت الجريدة اللبنانية الراقية « زحلة الفتاة » بحبها لفرنسا وثقافتها ، وكانت تظهر عواطفها هذه في كل مناسبة حتى بعد نشوب الحرب الاوربية ، فردت عليها صحف بيروت ودمشق بانتقاد مرير .

ولما طال الجدل العنيف بين «زحلة الفتاة» وجريدة «الرأي العام» البيروتية، تلقى حاكم لبنان من والي بيروت كتاباً رسمياً جاء فيه ما ترجمته : « ان جريدة زحلة الفتاة بما تنشره من مقالات منافية للروح الوطنية تبث التفرقة بين ابناء البلاد وتمس كرامة المسلمين ، فأرجو ان تأمروا بمنع صدورها ومعاقبة اصحابها تطميناً للرأي العام الاسلامي الهائج » .

فبعث اليه حاكم لبنان بالجواب الآتي :

« لم نر في رد زحلة الفتاة على جريدة الرأي العام البيروتية ما يستدعي العقوبة ومع ذلك فقد امرنا اصحاب زحلة الفتاة بالكف عن الرد ، فأرجو ان تقوموا بدوركم بدعوة اصحاب جريدة الرأي العام الى التزام التعقل فيما تكتبه تجنباً من كل ما يمكن ان يثير الاحقاد في نفوس ابناء الوطن الواحد » .

حين اطلعنا على ما تنشره صحف العاصمة من اخبار وآراء تمشياً مع السياسة الالمانية، والصحف الحكومية في بيروت تحذو حذوها ، ورأينا والي بيروت يقف من حاكم لبنان

موقفاً فاتراً يختلف عن موقفه السابق المليء بمعاني اللطف والمودة، تبادر الى ذهننا (الحاكم وأمينه) ان الناقين على امتياز جبل لبنان ينتظرون سبباً يمكن ان تستند اليه السلطة العليا (الباب العالي) حين تشاء التدخل في جبل لبنان وشؤونه . ولما ازداد موقف الوالي شدةً، لم يبق لدينا شك في كون الدولة العلية قد اوشكت ان تدخل الحرب بجانب المانيا، فاستدعيت في تشرين الاول سنة ١٩١٤ الكاتب الاديب الجريء شكري بخاش رئيس تحرير زحلة الفتاة، وبعد مبادلة الحديث سألته : « هل ترغب في السفر الى اوربا او اميركا ؟ ».

فقال : « هل من سبيل الى ذلك ؟ »

قلت : « نعم ».

فانشرح صدره وطلب الاسراع بجواز السفر، فعرضت فوراً الامر على دولة الحاكم فلم يتوان عن تلبية الطلب، وسافر الاستاذ في اليوم التالي على الباخرة الفرنسية التي كانت راسية بل كانت الاخيرة في ميناء جونيه .

بعد مرور سنة ونصف على سفر الأستاذ بخاش، وجد اسمه بين الذين حكم عليهم الديوان العرفي في عاليه حكماً غيابياً بعقوبة الاعدام من اجل جناية الاخلال بامن الدولة الخارجي . وبعد انتهاء الحرب عاد بالسلامة الى وطنه حيث استأنف اصدار جريدته وأخذ يلهب الافكار بحماسه البارز في مقالاته الرائعة، في سبيل استقلال لبنان وحريته وسيره دوماً الى الامام وتأييد الاخاء بين جميع ابنائه الكرام .

الفصل الخامس

التحرش بجبل لبنان

والي بيروت يكشف ورقته

كشف والي بيروت بكر سامي بك عن حقيقة نواياه حين اخذ يستقبل في مكتبه ، بكثير من اللطف والعطف ، طلاب الوظائف والمنافع من اللبنانيين ، وهم انفسهم كانوا بالامس يواظبون على دور القنصليات الاجنبية للغاية عينها ، ولم يخف ان تدخل الوالي بالشكل المفضوح قد يؤدي في النهاية الى ضم الجبل الى ولاية بيروت .

لم ابح لنفسي انتقاد الوالي على خطته الاخيرة ، اذ يحتمل ان يكون مدفوعاً باجتهاده الوطني الخاص او ان يكون قد تلقى سراً موافقة مرجعه العالي على ذلك حين لقي من بعض اللبنانيين من عشاق النفوذ والوظائف ، اقبالاً وتشجيعاً ولسان حالهم يقول : « من بعدي الطوفان » .

اخذ الوالي السامي المقام ، خلافاً لسابق العادة ، يكثر من زياراته في انحاء لبنان الساحلية والجبلية ، وقد لفت تعدد هذه الزيارات في فترات متقاربة وبدعوة من بعض اللبنانيين ، نظر الحاكم وكبار رجال لبنان ، دون ان يقيموا لها آنئذٍ كبير وزن ، لاعتقادهم ان مصير لبنان معلق بيد الدولة التي يحالفها النصر في نتيجة الحرب القائمة .

العلم العثماني في سوق الغرب

كان والي بيروت مصطافاً كسابق عادته في بلدة سوق الغرب المصيف اللبناني المعروف بجمال موقعه ومناظره الطبيعية وجودة مائه واعتدال هوائه .

وفي ٢٣ تموز سنة ١٩١٤ ، وهو اليوم الذي اصبح عيداً وطنياً تعيده الامة العثمانية سنوياً منذ اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، اقيمت الزينات في مختلف انحـاء جبل لبنان اسوة بسائر الولايات العثمانية ولم تتأخر بلدة سوق الغرب عن القيام بالواجب المترتب عليها في العيد السعيد .

وكان يصطاف في سوق الغرب رجل فقير من سكان بيروت يدعى نجيب الشويفاتي ، يتعاطى بيع المرطبات في حانوت صغير كائن في وسط البلدة . ولما كان العلم الذي جاء به موظف البلدية وركزه على باب حانوته كاد يسد مدخله ، هم نجيب بنزعه لوضعه في مكان آخر ، فمنعه الموظف وحصل بين الاثنين من اجل ذلك مشادة سقط اثناءها العلم على الارض . فأسرع دركي لبناني ورفعه في مكان مناسب وفرق بـين المتشاجرين وانتهى الامر بسلام عند هذا الحد .

ولما اتصل الخبر بالوالي بعد وصوله الى مصيفه قـادماً من بيروت ، اراد استغلال الحادث رغم سلامته من كل فكرة سياسية ، فأرسل الى حاكم لبنان البرقية الآتية :
« ان العلم العثماني المبجل في كل مكان قد اصبح عرضة للاحتقار والامتهان في جبل لبنان حيث رماه احد اللبنانيين ارضاً في سوق الغرب على مرأى من الدركي اللبناني الذي قصر عما تفرضه عليه وظيفته . الشعب المسلم في هياج لا يثق بالقضاء اللبنـاني ارجو تسليم الجاني الى حكومة بيروت ليلقى عقابه الصارم ».

فأجابه حاكم لبنان بالبرقية التالية :

« ان العلم العثماني المفدى مكرم في جبل لبنان كما هو في كل مكان ، لقد اثبت التحقيق الذي قامت به السلطات اللبنانية ذات الاختصاص القانوني ان عمـل نجيب البيروتي المصطاف في سوق الغرب لم يقصد به مس كرامة العلم بل ازاحته عن مدخل حانوته ومع ذلك فقد سيق الى محكمة الشوف ذات الصلاحية المكانية لينال ما يستحقه من العقاب ، ولما كان العدل والقانون مصونين في محاكم جبل لبنان لا أرى مبرراً لهياج اهل بيروت ، اما الدركي الذي قام بواجبه اثناء الحادث فقد كوفئ بنـاءً على اقتراح رئيسه باجازة يومين مع التقدير ».

الاسلحة المحفوظة في دير القمر

بعد حادث العلم الوارد في البحث السابق بأيام قليلة ، تلقى حاكم جبل لبنان برقية من

زكي باشا الفاروقي قائد الفيلق الرابع المقيم في دمشق تتضمن « وجوب ارسال الاسلحة المحفوظة في مستودع دير القمر الى دمشق مع الايعاز الى الشيخ خليل الخازن الرئيس في الجند اللبناني قائد موقع عاليه بالشخوص لمقابلته » .

اسف الحاكم لهذا الطلب الذي جاء اثر شكوى والي بيروت من حادث العلم في سوق الغرب وحار في تفسيره ومرماه ، ولكنه بعد اعمال الروية اجابه بالكتاب المكتوم الآتي :

« ان الاسلحة التي تأمرون بارسالها الى دمشق غير صالحة للاستعمال نظراً لقدمها وهي محفوظة في مستودعها بدير القمر كآثار عتيقة وأرى من الواجبُ عليَّ لفت نظر دولتكم الى ان نقلها من محلها في الظروف الراهنة يثير شكوك الاهلين ويعيد الى ذاكرتهم حوادث سنة ١٨٦٠ الاليمة دون ان يكون في نقلها اية مصلحة للدولة . اما الرئيس الشيخ خليل الخازن فيسافر غداً امتثالاً لامركم وأرجو ان تأمروه بالعودة الى مقر وظيفته التي يقوم بها بكل غيرة وشرف واخلاص » .

كان لهذه البرقية الجوابية اثرها المبتغى لدى الفريق زكي باشا فقد صرف النظر عن الاسلحة المطلوبة وأعاد الضابط اللبناني النشيط الى مركز عمله فور مقابلته التي اقترنت بعطف ولطف معهودين بالفاروقي النبيل .

الاحتجاج باختلال الامن

اذا كان الاسلوب الذي سارت عليه صحف العاصمة دالاً بحد ذاته على اختمار فكرة دخول الدولة الحرب في اذهان اولياء الامر الاتراك ، كما سبق بيانه ، فان خطة والي بيروت باثارته الصحف وخلق المشاكل في لبنان لدليل آخر على ما تنويه الحكومة الرئيسية من القضاء على امتيازه الخاص ولكن اوهانس باشا قيومجيان ، المعين حاكماً عليه بموجب ارادة السلطان واجماع ممثلي الدول الاوربية العظمى الست ، ظل مخلصاً لاستقلاله الاداري متجاهلاً مرجعه السياسي ، كما تحقق ذلك من الحوادث المتعاقبة الآتي ذكرها .

في اول ايلول عام ١٩١٤ كان حاكم جبل لبنان لا يزال مع دوائر الحكومة في المقر الصيفي ببيت الدين ، حيث تلقى من الصدارة العظمى برقية رقمية كانت كافية للافصاح عن نوايا الدولة العثمانية بحق الجبل وامتيازه الاداري وهذه ترجمتها :

« اصبح الامن في جبل لبنان مختلاً ولا سبيل لضمان الراحة العامة فيه الاّ بأن تطلبوا قوة كافية من الجيش فتدبروا الامر بما امكن من السرعة » .

استشاط الحاكم غيظاً حين قدمت له حل البرقية واعاد قراءتها ثم صاح قائلاً :

« ما هذه الوسائل المصطنعة توصلاً لاحتلال جبل لبنان عسكرياً » .

قال ذلك وأظهر عزمه على الاستقالة من منصبه وأمرني بتهيئة نص الاستقالة فوراً ولكن ، بعد اخذ ورد معه ، تمكنت من تهدئة توتر اعصابه وتحويله عن عزمه كما يترتب على كل مأمور معية بازاء رئيسه . ولم يكن رئيسي ، كافأه الله عن لبنان خيراً ، بحاجة الى ايضاحي خطورة الموقف ، لأن مآل البرقية يتضمن معنى الامر من اسمى مقام في الدولة الى احد وزرائها التابعين له مباشرةً ، اعني حاكم جبل لبنان ، بوجوب اتباع سياستها في الظروف الراهنة ، بل كان قد سبقني الى ادراك مغزى البرقية ، ولكنه يرى ان مجرد قبوله منصب حاكم لبنان بموافقة الدول العظمى الست لاقتراح الباب العالي يطوي ضمنه التعهد بادارة الجبل بكل اخلاص مع المحافظة على امتيـــازه الخاص ، فنكوله عن هذا التعهد لا يتفق مع ضميره الحي ولا يليق بشرف رجل عظيم احرز مرتبـــة الوزارة بكل جدارة واستحقاق .

وفي نهاية الحديث وتبادل الرأي وقع الحاكم على البرقية الجوابية الآتية ، وقد هيأتها كما امرني ورقمتها (جعلتها شيفرة) بمعاونته :

« لقد اوحى اليّ امركم العالي في الظروف الراهنة فكرة تبديل الوضع اللبناني تبعاً للوضع الحربي بين الدول الموقعة على نظام جبل لبنـــان والاكتفاء فيه بحاكم اداري لا تتناوله السياسة الخارجيـــة فاذا تفضلتم بالموافقة على ذلك قبلتم استقالتي واصدرتم امركم للعمل بموجبه » .

لم يرد جواب على هذه البرقية مما دل على كون الباب العالي لم ير ان استقالة الحاكم قد آن اوانها .

التعليق على برقية الصدارة العظمى وجواب الحاكم

قد يتساءل المرء لماذا لجأ الباب العالي الى مثل هذه المداورات لاجل القضاء عـــلى امتياز جبل لبنان وخمسة من حماتـــه في حالة نزاع وحرب فيما بينهم ، فرنسا وبريطانيا

العظمى وروسيا ضد المانيا والنمسا ، وكل من هذين الفريقين يسعى لاستمالة تركيا اليه فماذا يقف في سبيلها اذا ارادت تنفيذ رغبتها في جبل لبنان ؟

اما الجواب على ذلك فهو ان ايطاليا ، الدولة الاوربية السادسة الموقعة على نظام جبل لبنان ، لم تكن قد دخلت الحرب بل كانت حائرة بين ان تنضم الى حليفتها القديمة النمسا او تنزل عند وعود بريطانيا العظمى فتسير بجانبها وجانب فرنسا . وكان كل من هذين الفريقين المتحاربين يسعى جهده لاستمالتها اليه ، فلم يكن من الحكمة ان تفاجئها الدولة المحايدة تركيا ، بدون مبرر ، بما يخل بنظام مضمون بتوقيعها بين تواقيع الدول العظمى ، اما ارسال الجيش التركي الى لبنان لمجرد حفظ الامن العام فيه ، فقد علقه نظام جبل لبنان على سبق طلب من حاكمه بهذا الشأن .

في الصراع الدموي الناشب بين اعظم دول العالم وحين تواجه جيوشها المعارك الطاحنة التي تشغلها عن الاهتمام بنظام جبل لبنان وبما هو اهم من لبنان ، في ذلك الظرف العصيب تأمر الدولة العثمانية وزيرها حاكم لبنان الارمني الجنس — والارمن كانوا دوماً موضع شك الدولة في اخلاصهم لها نظراً لنزعتهم القومية الاستقلالية المعروفة — بأن يطلب قوة من الجيش لضمان الامن في الجبل فيأبى الحاكم تلبية الامر لما فيه من القضاء على استقلال لبنان ويفضل الاستقالة من منصبه على الاخلال بما اؤتمن عليه ، معتبراً ان محافظة الانسان على الامانة لهي من الامور اللازمة لشرفه وراحة ضميره ، لا يجوز التخلي عنها مهما كان خطر الظروف المحيطة به ، ويظل مدافعاً عن جبل لبنان ونظامه رغم ما تعرض له من تهديد ونكبات حتى اصبح الحكم للقوة القاهرة ، قلت : اين هذا الحاكم الانساني الشريف الحر الابي السموأل من رجال هذا العصر ومن دوله التي تعد وتخل بوعودها وتسيء الى الامانة التي أوكل اليها حفظها وتضحي بسمعتها وشرفها في سبيل اطماعها المادية واستثمار خيرات ارض غيرها ولو كان في ذلك قتل شعب آمن باسره !

الامتيازات الاجنبية

تضمن الجزء الاول من الذكريات بحثاً وافياً عن الامتيازات الاجنبية في المملكة العثمانية وشدة وقعها على نفوس العثمانيين ، الذين رأوا ميزة الاجنبي عليهم في عقر دارهم امتهاناً لكرامتهم ، مما دعا بعض الوجهاء الى قبول وظيفة فخرية في القنصلية الاجنبية

لمجرد مساواتهم بالاجنبي لدى الحكومة العثمانية ودوائرها العدلية والمالية ومصلحة الجمارك والامن العام .

ومن هذا القبيل ، كان من كبار وجهاء بيروت الاثرياء نخله بك تويني ترجماناً شرقياً لقنصلية فرنسا العامة ، وميشيل خليل سرسق لدى قنصلية بريطانيا العظمى ، كما كان من الوجهاء غير الاثرياء ، من بيروت ولبنان ، موظفون متصفون بالحنكة السياسية والادارية والعلمية براتب يفوق مرتبات امثالهم في دوائر الحكومة . فكان اسبر شقير الملقب بشيخ التراجمة في القنصلية البريطانية ، واميل الخوري وفيليب زلزل في القنصلية الفرنسية ، وعزيز فيعاني في القنصلية الروسية ، وجرجي ديمتري سرسق في القنصلية الالمانية ، وغيرهم في سائر القنصليات .

لقد برزت نقمة الاحرار العثمانيين على الامتيازات الاجنبية ، بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ حين تمتع الشعب بحرية ابداء الرأي مما جعل حكومة الاتحاديين تترقب سنوح الفرصة المؤاتية لالغاء هذه الامتيازات التي تشوه الاستقلال .

وحين اعلنت الحرب بين الدول الاوربية العظمى ، رأت فيها الحكومة العثمانية الفرصة المرتقبة لالغاء الامتيازات الاجنبية فأعلنت الغاءها في ٩ ايلول سنة ١٩١٤ ، فعم الانشراح جميع العثمانيين .

ولما كان هذا الالغاء قد شمل دوائر البريد الاجنبية التي كانت قائمة بنشاط في المملكة العثمانية ، قامت حكومة ولاية بيروت باقفال ما لديها من هذه المكاتب ، ثم وضعت يدها عليها وأخذت تدقق ما حوته من مراسلات وقيود مما القى الرعب في نفوس الذين كانوا على صلة مالية او سياسية مع اوربا . اما جبل لبنان فكان خلواً من اي للبريد الاجنبي ، باعتبار القنصليات الاجنبية وجميع مكاتبها مفتوحة الابواب بيروت وجميع اللبنانيين على السواء بفضل الجوار وكثرة الروابط في مختلف الحياة .

داود عمون

منتصف ايلول ، غادرت حكومة جبل لبنان مقرها الصيفي بيت الدين الى المقر في بعبدا ، وكان الحاكم ومن ورائه رؤساء الدوائر وسائر الموظفين المخلصين والشعب العزيز المؤمن بحقه الصريح في بقاء امتيازه والقلق على مصيره في الصراع الدولي

الرهيب يتلقون بمزيد الاسف اخبار الفئة التي اعتادت الاصطياد في الماء العكر ، ومن جملة اخبارها دعوتها والي بيروت من وقت الى آخر الى مآدب تقيمها على شرفه في مختلف قرى لبنان ، حيث يعلو الهتاف بحياة الوالي والدعاء باتحاد بيروت ولبنانِ تحت راية واحدة وحكم واحد . وقد جهلت تلك الفئة او تجاهلت ان الجبل في حالة الاتحاد يتبع بيروت لا العكس .

كان داود بك عمون ، نائب دير القمر في مجلس الادارة ، من ابرز نواب لبنان وأقدرهم علماً وأدباً ، وقد ادرك منذ بدء الحرب الخطر الذي ينتظره اذا بقي في لبنان ، فزارني ذات يوم في مكتبي وأبدى لي ذعره من تصرف تلك الفئة الضالة حسب تعبيره ومن المخاوف التي تلازمه وتهدد مصيره ، وأفصح لي عن تذمره من عدم سماح الحاكم له بمغادرة لبنان الى القطر المصري ليتمكن من سحب امواله المودعة في المصارف الاجنبية وهي كل ما يملكه ، وألح علي بتسهيل امر سفره وانقاذه من القلق المستولي عليه وعلى اسرته .

راجعت على الاثر دولة الحاكم بشأنه ، فاستغرب مغادرة الزعماء امثال داود عمون بلدهم في احرج اوقاته ، بدلاً من التفافهم حول حاكمهم يؤازرونه في تخفيف الازمات المحيقة به بسبب الوضع الدولي ، فأجبته : « ان الواجب الوطني يقضي بما تفضلتم ببيانه ، ولكن هل يعتقد صاحب الدولة ان داود عمون وأمثاله المعروفين بشديد تعلقهم بفرنسا ينجون من حكم الاعدام اذا دخلت الدولة العثمانية الحرب بجانب المانيا ؟ » قال : « لا اعتقد ذلك » . قلت : « وأي تبكيت ضمير يرافقكم ان لم تسمحوا له بالسفر وحلت به الكارثة ؟ » حينئذٍ ظهر على وجه الحاكم شديد التأثر نظراً لما انطوت عليه نفسه من عواطف نبيلة وأجاز للاستاذ عمون السفر الى مصر ، فكان بعد دخول الدولة الحرب ممن حكم عليهم الديوان العرفي في عاليه غيابياً بعقوبة الاعدام .

لقد عاد داود بك بعد انتهاء الحرب الى بيروت حيث كان يرشد رجال الانتداب في بدء عهده لما يرى فيه الخير للبنان ، الى ان وافته المنية فانتقل الى رحمة ربه مذكوراً بحميد الخصال .

الفصل السادس

من دخول الدّولة العثمانية الحرب حتى قدوم جمال باشا

موقف الدولة العثمانية ازاء الدول الاوربية قبل الحرب العالمية الاولى

بعد ان خسرت الدولة العثمانيـــة الحرب مع ايطاليا في طرابلس الغرب (١٩١١ – ١٩١٢) وحرب مكدونيا والبانيا مع دول البلقان واليونان (١٩١٣)، لم يكن لها بين الدول العظمى من صديق تعتمد عليه سوى المانيا، التي زادت علاقتها الاقتصادية معها عما كانت عليه في عهد السلطان عبد الحميد ومدتها بالخبراء الفنيين والعسكريين ونالت الشركة الالمانية امتياز مد الخطوط الحديدية من الاناضول حتى بغداد. ولما بدأت الحرب الاوربية بين الفريقين العظيمين، أخذت بريطانيا بتأييد من حلفائها تبذل المساعي للتحالف مع الدولة العثمانية او لبقائها في اقل تقدير على الحيـــاد، مع اعطائها متنوع الضمانات لاستقلالها حاضراً ومستقبلاً.

ولكن جميع هذه المساعي ذهبت ادراج الرياح امام النفوذ الالماني المتزايد، بفضل العطف الخاص الـــذي كان يلقاه من الامبراطور غليوم كل من انور باشا، وزير الحربية وقائد الجيش الاعلى، واخوانه المتخرجون من المعاهد العسكرية الالمانية، وكلهم مقتنع بأن النصر سيكون حليف المانيا بعد الظفر الذي احرزته جيوشها في الأشهر الثلاثة الاولى من بدء الحرب في عدة مواقع.

دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا

كان اهم المعارك البحرية في الحرب القائمة بين الدول الاوربية منذ شهر آب سنة ١٩١٤ هو ما وقع بين السفن والغواصات من بريطانية والمانيــة . ولما كان للاسطول البريطاني شأن هام في بحر الشمال والبحر الابيض المتوسط ، اضطر الطرادان الالمانيان غوبن وبرسلو ، اللذان كانا في مرفأ مسينا بعيدين عن اعين السفن البريطانية، الى الفرار ودخول مضيق الدردنيل في ١٠ آب .

ولما كانت معاهدة برلين المنعقدة سنة ١٨٧١ تحظر مرور السفن الحربية بالمضيق المذكور اثناء الحرب ، رفع العلم العثماني على الطرادين المشار اليهما حين تقدما الى الاستانة في السادس عشر من آب ، اعلاناً لانتقال ملكيتهما الى الدولة العثمانية ، وقد عزز وجود هذين الطرادين موقف وزير الحربية انور باشا واخوانه العسكريين وضمن لفكرته الغلبة على معظم زملائه الوزراء الذين كانوا يرغبون عدم دخول الدولة الحرب مفضلين بقاءها على الحياد .

وبعد حياد دام ثلاثة اشهر ، لبت الحكومة العثمانية نداء المانيا في التاسع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، فأسرع الطرادان غوبن وبرسلو الى البحر الاسود والقيا القنابل على اودسا وسيباستبول ، وعلى اثر ذلك اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية .

استقالة شيخ الاسلام والوزير البستاني

لم تعدم الدولة العثمانيية في وقت من الاوقات رجالاً عرفوا ببعــد النظر في السياسة وقدموا لدولتهم اجل الخدم في متنوع الوظائف التي سبق لهم القيام بهــا ، كما ان جمعية الاتحاد والترقي التي طوحت بالبلاد الى خوض غمار الحرب لم تخل من اولئك الافذاذ وان قل عددهم ، وقد قيل قديماً وحديثاً « ان الكرام قليــل » ، فان خيري افندي شيخ الاسلام الممتاز بعلمه وبفضله واصالة رأيه وسمو أخلاقه قد افصح لاخوانه في مجلس وكلاء الدولة برئاسة الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ، عن رأيه بضرورة بقاء الدولة العلية على الحياد في تلك الحرب الضروس، ولما لم يستطع تحويل انور وطلعت واكثرية الوزراء عن فكرتهم الحربية ، قدم استقالته من منصبه السامي . ولكن اخوانــه الوزراء انذروه بسوء المصير الذي ينتظره ويتعرض له أمن الدولة الداخلي اذا هو اصر على الاستقالة ، فعدل عنها مكرهاً وظل منصرفاً عن السياسة الى شؤون منصبه من اصلاح الاوقــاف

الاسلامية وحسن ادارتها الى تأسيس مصرف لانماء ثروتها وصرف الجهود لتدريس قضاة الشرع – وكانوا آنئذٍ مرتبطين بالمشيخة الاسلامية – الفقه والحقوق في المعهد المختص بهم واعلاء شأن العلماء وضمان حياتهم الاجتماعية .

ان وزير الزراعة اللبناني العلامة سليمان البستاني قد حـذا حذو شيخ الاسلام في معارضته دخول الدولة الحرب ، ثم قدم استقالته وغادر العاصمة الى سويسرا البلد المحايد، حيث اخذ يدافع عن الدولة العثمانية ويمد وكلاءها بما امكن من المعلومات ، ساعياً بلا ملل لدى ممثلي دول الاتفاق لسلامة تركيا بالتي هي احسن . ثم تبعه في الاستقالة ناظر البرق والبريد اوسقان افندي ، وهو ارمني الجنس ، لمجرد اعتقاده بخطأ دخول الدولة في حرب قائمة بين دول اوربا دون سواها . ثم استقـال جاويد بك وزير المالية للسبب نفسه ، وعهد بوزاراتهم الى بعض زملائهم . ومما يلفت النظر ان هذه الوزارة وما عقبها من تعديل لم يكن فيها عربي ولا مسيحي حتى نهاية الحرب ، بالرغم من وجود عدد غير قليل من العرب المسلمين والمسيحيين اهل لكل وزارة وصديق حميم لالمانيا .

تصريح قنصل فرنسا

لم تكن صلات فرنسا بسورية ولبنان مقتصرة على النواحي الثقافية والاقتصادية ، بل تجاوزت هذا الحد الى الناحية السياسية ولا سيما حين عطفت اخيراً على طلاب الاصلاح والاستقلال السوريين وعلى وفدهم في باريس ، مما ازعج رجال السلطة العثمانية كما هو معروف . لذلك كان اعلان الدولة النفير العام اولاً ، ثم الحرب الى جانب المانيا، كافياً لخلق القلق في نفس كل سوري وكل لبناني .

وحين غادر قناصل الدول المعادية بيروت ، كان اسبقهم قنصل فرنسا العام وقد قيل انه القى قبل ركوبه الباخرة على موظفيه ومشيعيه الكلمة الآتية: «الى اللقاء بعد خمسة عشر يوماً» .

انتقلت هذه الكلمة الى كثيرين ، وكل سر جـاوز الاثنين شاع ، حتى بلغت مسامع والي بيروت ورجال الحكومة والسلطة العسكرية . فاستنتجوا منها ان فرنسا عازمة على احتلال ساحل سورية ولبنان في اقرب فرصة، وأخذت المراقبة العسكرية في بيروت وغيرها تشتد سراً وجهراً كما خصص فوج من الجند لخفر السواحـل بقيادة المقدم التركي (بكباشي) توفيق بك .

استغرب الذين عانوا السياسة القاء مسيو بيكو تلك الكلمة الوداعية على مسمع اكثر من واحد في ذلك الظرف الرهيب ، فنسب بعضهم اليه قلّة التروي ، واعتبره البعض واثقاً ، بحكم وظيفته ، بقرب تحقق ما بشر به سامعيه ، ولامه آخرون على تسرعه ، وهو السياسي اللبق الذي يقدر خطورة هذا التصريح ، بينما يقول البعض ، دفاعاً عنه ، انه فاه بتلك العبارة تطميناً لخاطر موظفيه الاخصاء ، دون ان يخطر بباله انهم يبوحون بها قبل تحققها ، وسنرى فيما بعد ان كبيرهم لم يكن جديراً بهذا التطمين لانـــه افشى سر مهنته وتسبب في انزال العقاب الصارم على رؤوس اصدقاء فرنسا .

نقل رعايا الدول المعادية من الساحل الى دمشق

ان دخول الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى ، جعل الذين لم يتمكنوا من السفر بحراً فور اعلان الحرب ، من رعايا هذه الدول في بيروت وملحقاتها ، في احرج المواقف ، وقد نقلوا بأمر من حكومة العاصمة الى دمشق حيث سبقهم اليهـــا تراجمة القنصليات التابعين لهـــا ، الموظفون والشرفيون (بدون راتب) . وكان بين هؤلاء قنصل روسيا العام في بيروت السيد بتيشكوف ، الذي تأخر عن السفر بالباخرة الاخيرة اسوة بزملائه ، لانصرافه الى التدقيق في الاخبارات التي لديه وحرق ما كان منها ذا صلة بأحد الاهالي ، حرصاً منه على سلامتهم من العقوبة والمؤاخذة حين تضع الحكومة المحلية يدها على موجودات القنصلية ، فكان ذكره يقابل بالثناء والاجلال في جميع الاندية وعلى كل لسان .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا البحث ، ان المسيو بورتاليس من كبار الفرنسيين المقيم في بيروت منذ عهد بعيد ، ومن أصحاب الأملاك في قرية بتاتر ، من اعمال قضاء الشوف ، كان ملازماً فراشه لمرض ألم به . فتوسط من اجل السماح له بالبقاء في منزله كل من والي بيروت بكر سامي بك ، وحاكم جبل لبنان اوهانس باشا ، لدى قائد الفيلق الرابع زكي باشا الفاروقي ، فأجابهما الى طلبهما فاستحقوا من اجل ذلك عاطر الثناء من جميع عارفي الشيخ بورتاليس ومزاياه الحميدة .

اعلان الجهاد المقدس

في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، تلقى كل من ولاة سوريـــة وحلب وبيروت ومتصرفي جبل لبنان والقدس برقية من وزارة الداخلية معممة لجميع الولاة ، تتضمن

اعلان جلالة السلطان محمد رشاد بصفته امير المؤمنين ، الجهاد المقدس على اعـــداء الاسلام محاربي الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الاسلامية .

يعلم القراء ان صفة الخلافة الاسلامية قد انتقلت بعد انتقال النبي محمد (ص) الى الملأ الاعلى ، الى الخلفاء الراشدين على التوالي ، ثم الى الامويـــين فالعباسيين ، حتى استولى السلطان سليم التركي ، من اعاظم سلاطين آل عثمان ، على سورية ومصر سنة ٩٢٣ هجرية (الموافقة لسنة ١٥١٦-١٥١٧ ميلادية) . واثناء وجوده في القاهرة ظافراً ، ارسل اليه الشريف امير مكة المكرمة مفاتيح الحرمين الشريفين ، وحين وصل الى حلب عائداً الى عاصمة ملكه ، دعي له في خطبة الجمعة ملقباً بخادم الحرمين الشريفين ، وبعد ذلك تنازل له الخليفة العباسي المتوكل على الله عن الخلافة الاسلامية ، فأحرز بذلك لقب الخليفة امير المؤمنين وانتقل هذا اللقب بعد موته الى سلاطين آل عثمان كما اشير الى ذلك في الجزء الاول .

لقد نعمت الدولة العثمانية بهذا اللقب فجرت من ورائه منافـــع جمة مادية وادبية . واعتقدت دول اوربا زمناً طويلاً ان اغتصاب الخليفـــة السلطان هو اغتصاب العالم الاسلامي بأسره ، فلا عجب بعد كل هذا ان يلجأ رجال الدولة العثمانية الى الاستعانة بهذا اللقب حـــين اعلن سلطانهم الجهاد المقدس على اعدائه المحاربين روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى ، وفي بـــلادهم ومستعمراتهم من الرعايا المسلمين ما يزيد عن مئتي مليون نسمة . غير ان اكثرية المسلمين لم تأبه لهذا النداء ، لاعتقادها ان الخلافـــة الحقيقية هي في قريش لا في غاصبيها الغرباء عن اهل البيت ، كما هو وارد في البحث المتعلق بقيام امير مكة المكرمة الشريف حسين واعلانه الجهاد المقدس على الترك .

الحرب على الحدود العثمانية الروسية

من الانباء التي وصلت الى سمع بعض كبار الرجال الرسميين وتأيدت فيما بعد ، انه على اثر اعتداء الطرادين غوبن وبرسلو على اودسا وسيباستبول ضرباً بالقنابل في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، بدأت الجيوش الروسية زحفها على القوقاز فارمينيـــا ضمن الحدود العثمانية ، واحتلت قسماً كبيراً من الاراضي والمدن والقرى والمواضع المستحكمة . ولما ذهب انور باشا وزير الحربية بنفسه لقيادة الحملة التي جهزها بالامدادات الوفيرة ، املاً باسترداد الاراضي العثمانية ، خسر معظم قواته وعاد بالفشل الى العاصمة .

اما الجيوش الروسية فواصلت هجومهـــا واستولت في نيسان سنة ١٩١٦ ، بقيادة الغراندوق نيقولا ، عم القيصر ، على طرابزون شمالاً ، وعلى ارضروم في الاناضول حتى وادي دجله ، وقد دام احتلالها هذه المناطق الى ان ظهرت الثورة في روسيا واستلم على اثرها البولشفيك (الشيوعيون) الروس الحكم في ١٧ تشرين الاول سنة ١٩١٧ واعلنت حكومتهم في السابع من كانون الاول من السنة نفسها نبذ المعاهدة الموقعة بين الحكومة القيصرية وحلفائها حول تقسيم الاراضي العثمانية .

في الدردنيل ومكدونيا

بدأ الاسطول البريطاني هجومه على مضيق الدردنيل في مطلع كانون الثاني سنة١٩١٥ ، وتمكن في اواخر شباط من انزال الجنود الى البر حين تعذر عليه مرور المضيق الى بحر مرمره حيث وضعت الالغام وغرقت بسبب انفجارها سفينتـــان او اكثر من السفن الحربية البريطانية .

اشتدت المعارك في القسم الغربي من المضيق وفي شبه جزيرة غاليبولي بين المهاجمين من الجنود البريطانيين وحلفائهم الفرنسيين وبين المدافعين الترك الذين ابدوا مقاومة عنيفة اضطرت قوى العدو ، في بدء السنة الجديدة ١٩١٦ ، الى الانسحاب الى جبهة حربية اخرى في مكدونيا .

وقد قيل آنئذٍ ان فضل مقاومة العسكر التركي يعود الى بسالة القائد مصطفى كمال ، وهو الذي لقب فيما بعد بأتاتورك (ابي الترك) وانتخب سنة ١٩٢٠ رئيساً لجمهوريـــة تركيا القائمة على انقاض السلطنة العثمانية .

كان من ابرز القادة الفرنسيين في جبهة مكدونيا (روم ايلي) الجنرال غورو ، ولما اصيب برصاصة افقدته يده اليمنى خلفه الجنرال سراي (وقد عين كل منهما بعد الحرب مفوضاً سامياً في عهد الانتداب الفرنسي على سوريـــة ولبنان كما هو مفصل في الجزء الرابع من الذكريات) . والى قيادتهما يعود معظم الفضل في احراز النصر على القوى العثمانية والبلغارية ، كما يأتي ايضاحه في مكان آخر .

الدس على غبطة البطريرك

في تلك الايام ، تلقى الحاكم من الباب العالي برقية رقمية تتضمن ان جريدة « الماتان » Le Matin التي تصدر في باريس ، نشرت خبراً لمراسلها يتلخص « في كون البطريرك

الماروني قد اكد له استعداد خمسة آلاف لبناني مسلح للعمل يداً واحدة مع الجند الفرنسي فور احتلاله الساحل اللبناني ، وطلب الصدر الاعظم سرعة التحقيق والجواب » .

لم يضطرب الحاكم لهذا النبأ لثقته بترفع غبطة البطريرك عن الادلاء بمثل هذا البيان لمراسل « الماتان » او غيره ولكنه ، قياماً بالواجب ، عهد الى المقدم فؤاد شقير ، وهو من اهم قادة الجند اللبناني المعروفين بالصدق والاخلاص لوطنهم والنزاهة في عملهم ، بل هو اكثر زملائه علماً بقوانين الدرك والجندية ، القيام بالتحقيق المقتضى سراً . فقام بمهمته وتوجه الى المقر البطريركي في بكركي واطلع على المستودعات المجاورة ، فلم يظفر بما يحتمل معه تصديق الخبر وعليه اجاب الحاكم الصدارة العظمى بالبرقية الرقمية الآتية :

« ان التحقيق الذي قمت به بنفسي وبواسطة من اثق بهم من كبار ضباط الجند اللبناني اثبت عدم صحة الخبر الذي نشرته الماتان الفرنسية ، ان اللبنانيين وعلى رأسهم البطريرك المخلص الحكيم مقتنعون باستقلالهم الاداري في ظل العلم العثماني لا يرتضون عنه بديلاً ، اما عواطفهم نحو فرنسا فليست الا من قبيل الاقرار بالجميل الذي كانت تسديه اليهم بمدارسها ومستشفياتها فاذا شملتهم الدولة العليـــة في الظرف الراهن بعطفها الابوي قطعوا كل صلة لهم بأية دولة اجنبية ، ارجو ان تثقوا بذلك كما انا به واثق » .

دعوة حاكم لبنان لمقابلة الفريق في دمشق

كانت دمشق في عهد السلطان عبد الحميد وما قبله مقراً لقيادة الفيلق الثامن وعلى رأسها مشير ، الى ان الغيت المشيرية بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨م وغدا الفيلق الرابع بدمشق بقيادة فريق تشمل صلاحياته سورية الطبيعية من حدود اضنا شمالاً حتى حدود مصر جنوباً ، مضافاً اليها الحجاز واليمن وجبل لبنان مع الاحتفاظ بنظامه الخاص .

بعد دخول الدولة الحرب ، عقد قائد الفيلق الرابع الفريق زكي باشا الفاروقي مجلساً في مقره ، مؤلفاً من ولاة سورية وبيروت وحلب ومتصرفي القدس ودير الزور ، وذاكرهم في الشؤون الادارية مما له صلة بالحرب والدفاع ، ثم استدعى اليــــه حاكم جبل لبنان بالبرقية الآتية :

« حضرة صاحب الدولة اوهانس باشا متصرف جبل لبنان

« ارجو ان تتفضلوا بزيارتي في المقر العام للمذاكرة في امور هامـــة واعلامي سلفاً موعد قدومكم » .

عزم الحاكم على تلبية الدعوة في اليوم التالي دون ان يخبر الفريق عن واسطة السفر ، أهي السيارة ام قطار سكة الحديد ، تواضعاً منه وتحاشياً من ان يظن فيه الميل للاستقبال الرسمي .

وفي اليوم التالي استقل الحاكم السيارة ، وكنت بجانبه كما كان كبير المرافقين سعيد بك حماده امامه ، ولما وصلنا الى منتزه دمر شاهدنا مفرزة عسكرية تتقدمها جوقة الموسيقى في طريقها الى محطة دمر ، فاستنتجنا انها قادمة لاستقبال حاكم لبنان ، ولكننا تابعنا سيرنا وحللنا في نزل فكتوريا وذهب فوراً سعيد بك حماده الى المقر العام لاشعاره بوصول الحاكم ، فأجيب بأن الفريق بانتظار تشريفه ، ولما جئنا فندق « داماسكوس پالاس » المتخذ مقراً عاماً وصعدنا الدرج الى الطابق الاول ، وجدنا الفريق يخرج من مكتبه لاستقبال ضيفه والبشر يعلو وجهه والابتسامة ملء فيه ، وبعد ان تصافحا بحرارة قدمني الحاكم اليه ثم دخلنا مكتبه ، وكان بدء الحديث اظهار الفريق اسفه لعدم تحديد الحاكم موعد وصوله وواسطة السفر مما كان سبباً في تأخر مفرزة الاستقبال بضعة دقائق عند بلوغها محطة دمر . فشكره الحاكم على عطفه وفائق عنايته ، وبعد مبادلتهما حديث الود والمجاملة وعملاً بسابق توصية الحاكم خرجت بعد الاستئذان الى غرفة الانتظار ، وبعد ساعة من الزمن خرج الحاكم مشيعاً بمجالي الاكرام الفاروقي ، وعدنا الى فندق فكتوريا حيث قص عليّ الحاكم ما جرى في خلوته مع الفريق من حديث يحوم حول وجوب اخلاد اللبنانيين الى السكينة ، واظهار آثار اخلاصهم لدولتهم العلية باعتبارهم من جملة ابنائها ، وقطعهم كل صلة بالدول الاوربية .

عدنا في اليوم التالي الى بيروت والحاكم يحدثني عن نبل الفريق زكي باشا وعما يكنه لهذه البلاد من حب وعطف ، ولم يخف عني في الوقت نفسه ما يساوره من قلق الفكر ومما تأتي به الايام المقبلة اذا طال امد الحرب ، وقد ظهر فيما بعد انه كان على صواب في تفكيره .

لم يكن قلق الحاكم من مصير الحرب جديداً فقد ساوره منذ اعلان النفير العام ، فما هو سر تكراره ذكر القلق بعد خروجه من مقابلة الفريق زكي باشا؟ هذا ما كنت اتساءل عنه في نفسي دون ان ابوح به الى الحاكم خشية ان يسند الي الفضول ، ولكن سعيت بمتنوع اساليب الحديث الى كشف هذا السر ، فاستنتجت في النهاية ان الفريق المشار اليه غير مطمئن عن الحالة الحاضرة بالنسبة لهذه المنطقة وغير مرتاح لكثرة تدخل القادة الالمان في شؤون الجيش العثماني .

كان زكي باشا الفاروقي كما يشهد له جميع عارفيه ، متصفاً بدماثة الخلق والعطف على قومه العرب ، فلم يشعر السوريون واللبنانيون في عهده بشدة وطأة الحرب ،حتى ابدل بسواه كما سيأتي بيانه .

تسرع المغتربين

لا ريب في كون معظم اللبنانيين في المهجر محافظين على عواطفهم وعواطف ذويهم نحو فرنسا ، وما ان اعلنت الدولة العثمانية دخولها الحرب الى جانب المانية حتى كثر المتطوعون منهم في الجيش الفرنسي وأخذوا يبعثون الى ذويهم في جبل لبنان رسائل ملؤها الطعن في تركيا والبشرى بقرب اللقاء . وما درى هؤلاء البسطاء الطيبي القلب ان اعلان النفير العام بل دخول الحرب تعقبه المراقبة على الرسائل قبل توزيعها على اصحابها ولاسيما تلك الواردة من البلدان الاجنبية ، فتألفت في بيروت لجنة مراقبة كان من اختصاصها رفع تلك الرسائل الى السلطة العسكرية ومنها الى الديوان العرفي الذي اسس في عاليه كما اسس غيره في دمشق ، حيث ملئت السجون بالمشتبه بهم من الناحية السياسية وبمن وجهت اليهم تلك الرسائل دون ان يبدو منهم اي شيء بوجوب الشبهة عليهم . واذا كان التحقيق معهم قد اقترن بعد اشهر من توقيفهم باعلان براءة بعضهم والافراج عنهم ، فقد بقي منهم قيد التوقيف عدد غير قليل انتهت محاكمتهم بالعقوبة الصارمة والاعدام ، كما سيأتي بيانه .

دخول الجيش العثماني جبل لبنان

في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ غادر دمشق فوج من الجيش متوجهاً الى البقاع ودخل بلدة زحله ، فاستقبلته حكومة وشعباً بما يجب من الترحيب . ولما اعلن قائده عزمه على الصعود به على الجبال في نزهة عسكرية الى ضهور الشوير ، انذروه بخطر سلوك الطريق تحت الغيوم الماطرة ، فلم يعبأ بقولهم وسار بجيشه . ولما انتصفوا الطريق الجبلية ، هبت عليهم عاصفة ثلجية اضلتهم السبيل وهددتهم بخطر مداهم اذ ظلوا في مكانهم ، فلجأوا الى المزارع القريبة فآواهم اهلوها بعطف ، ثم رافقوهم بعد سكون

العاصفة الى ضهور الشوير حيث نزلوا على الرحب والسعة في بيوتها وقصورها الصيفية الجميلة الخالية من السكان ، وقد توفرت فيها جميع الوسائل الصحية .

لما بلغ خبر الكارثة مسامع حاكم جبل لبنان ، ارسل علـى الفور بعثة طبية برئاسة الدكتور نجيب الخوري مجهزة بالاغذية والادوية والمشروبات الضرورية ، كما تبرعت عقيلة الحاكم بمئات اللحف والاغطية لوقاية الجنود من برد الثلوج المتساقطة ، فكان لهذا العمل اثره المستحب لدى الفريق زكي باشا ، فبعث من دمشق ببرقيـة تتضمن مزيد شكره على عاطفة الحاكم والسيدة النبيلة عقيلته بازاء ابنائهما الجنود .

الفصل السابع

المرحلة الأولى من عهد جمال باشا

تعيينه لقيادة الجيش في سورية

منذ اعلان الحرب في اوربا ، اخذت دمشق مقر قيادة الفيلق الرابع تشاهد الضباط الالمان على اختلاف مراتبهم يفدون تدريجياً من العاصمة اسطنبول ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب كان عدد هؤلاء الالمان قد بلغ حداً بارزاً وكلهم يقوم بما عهد اليه في النواحي العسكرية المتعددة بنشاط كما لو كان يعمل في بيته وبلده . وكان زكي باشا قائد الفيلق يقابل وجودهم وازدياد تدخلهم في شؤون الجيش بصبر وحزم مقرون ببرودة دم ، كما لاحظ ذلك المقربون اليه من ترك والمان ، دون ان يروا منه سرعة الاهتمام بما ارادوه من شؤون تنظيم الجيش . فأشاروا الى مراجعهم في الاستانة بضرورة نقله من دمشق الى مكان آخر ، فتم لهم ما ارادوه بفضل نفوذ كبار القادة الالمان لدى انور باشا الغازي نائب القائد الاعلى للجيش وكبار القادة الترك واركان الحكومة الاتحادية في العاصمة ، فاستدعي اليها زكي باشا في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ وعين خلفاً له الفريق جمال باشا ناظر البحرية بصلاحيات واسعة في سورية وفلسطين والحجاز حتى الحدود المصرية ، مع بقاء صفة الوزارة عليه .

اسف لمغادرة زكي باشا سورية جميع العرب وبعض الترك في سورية ولبنان ، مرددين ذكر خصاله العالية ونواياه الحسنة ، بينما سر الالمان لخلاصهم من قيادته بما لا يتفق وامانيهم العسكرية والسياسية .

اما خلفه جمال باشا فهو أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي ومن ابطال انقلاب عام

١٩٠٨ ، معروف بالحزم والشدة وقوة الارادة مذ كان والياً عـــلى أضنا بعد النكبة التي اصابتها باقتتال عنصريها التركي والارمني ، اثر قيام الجمعية المحمدية والمؤامرة الارتجاعية في آخر العهد الحميدي ، فوطد فيها الامن وقام باصلاحات جمة . ولكنه حين جاء سورية ، كان شرّ خلف لخير سلف ، وظهرت على يده نقمة السلطة التركية على العرب كما يتضح من الحوادث المتعاقبة المفصلة في الابحاث الآ تية .

تحذير اللبنانيين

قبل ان تطأ قدما جمال باشا مقره العسكري في دمشق ، أذاع في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ بلاغاً الى أهل جبل لبنان دعاهم فيه الى الاخلاص لدولتهم العلية ، واعداً باستمرار عطفها عليهم بما منحتهم من نظام خاص يضمن رفاهيتهم ، فلا تزاد عليهم ضريبة ولا يكلفون بالخدمة العسكرية . وأعلن ان الادارة العرفية التي اقتضتها ظروف الحرب وشملت جميع انحاء المملكة العثمانية ستطبق في جبل لبنان ، وقد ارسل اليه قوة من الجند لصد ما يحتمل وقوعه من هجوم الاعداء المحاربين ، وأوصى اللبنانيين في ختام البلاغ ان يخلدوا الى السكينة وينصرفوا الى أعمالهم الخاصة .

ومما هو جدير بالذكر فيما يتعلق بصلاحيات الفريق جمال باشا ، انه بعد قدومه الى سورية انقطع الباب العالي عن اتصاله بحاكم جبل لبنان برقياً ومراسلة ، وقد دلت الحوادث المتعاقبة على ان جمال باشا كان مزوداً بالسلطة العليا عسكرياً وادارياً .

دوارع الاعداء في مياه الساحل

في فجر أول كانون الاول سنة ١٩١٤ شوهد أمام ثغر بيروت دارعة حربية ، فظنها الاهلون من طلائع السفن الحربية القادمة لاحتلال لبنان وساحل سورية ، وزادهم قوة في ظنهم اسراع حكومة بيروت بناءً على أمر الوالي ، الى نقل السجلات والملفات الهامة الى صوفر . غير ان الدارعة المذكورة ، التي عرف انها روسية ، لم تطل توقفها في ميناء بيروت بل غادرتها شمالاً بسلام .

كنا بين حين وآخر نشاهد ونحن في بيروت وبعبدا سفناً ماخرة في عرض البحر دون ان تقترب من الساحل ، فكانت رؤيتها تقلق رجال الحكومة ولا سيما السلطة العسكرية في عاليه وبيروت ولكنهـــا كانت تلقي في نفوس الاهلين مختلف التأثيرات . على ان

معظمهم كان يتمنى في سره ، تحقيقاً لوعد قنصل فرنسا قبيـــل مغادرته بيروت ، قرب نزول الجيوش الفرنسية والبريطانية الى البر السوري اللبناني قبـــل ان يصبح ميداناً للحرب وتم فيه الدولة استعداداتها واقامة الاستحكامات لصد الاعداء .

جمال باشا في دمشق ودعوته حاكم لبنان لمقابلته

قدم جمال باشا ناظر البحرية ، المعين قائداً للفيلق الرابع ، دمشق في ٥ كانون الاول سنة ١٩١٤ ، فاستقبل استقبال الملوك وجعل مسكنه الخـــاص في بعض غرف فندق داماسكوس پالاس المتخذ مقراً لقيادة الجيش العليا . وبعد ايام قضاها مع كبار قادة الفيلق ومستشاريهم الالمان في دراسات عسكرية لا بد منها ، دعا الى مقابلتـــه الولاة ومتصرفي الالوية المستقلة في منطقة قيادته ، للوقوف منهم على حالة البلاد التي يرئسون ادارتها ويزودهم بتوجيهاته كما هو المنتظر وكما شاع على ألسنة الكبار من عسكريين ومدنيين . وبعد ثلاثة ايام ، تلقى حاكم جبل لبنان وهو في بعبدا مركز الحكومة البرقية التالية ترجمتها حرفياً :

« متصرف جبل لبنان ــ تعالوا غداً لمقابلتي في دمشق .

قائد الفيلق الرابع

جمال »

انقبض صدر الحاكم من هذه البرقية لورودها بأسلوب لم يألفه من قبل ولكبير الفرق بينها وبين الدعوة التي تلقاها فيما سبق من القائد التركي زكي باشا ، وقد قص عليّ بهذه المناسبة شيئاً يسيراً عن سابق معرفته جمال باشا حين كان « قائد مئة » (يوزباشي) في الجيش ، مرافقاً بين مرافقي المشير محمود شوكت باشا ناظر الحربية في بدء عهد الانقلاب العثماني ، فكان المرافق جمال يأتي منزل اوهانس باشا مستشار وزارة الخارجية آنئذ حاملاً كلمة من دولة المشير ، فيدعى الى الجلوس فيعتذر ويبلغ كلمـــة المشير وهو واقف على رجليه ، ثم يعود بجوابها ، لذلك كان الحاكم يأمل من جمال باشا أن يذكر سابق الصلات بينهما فيكون لبقاً في اسلوب دعوته لمقابلته .

بعد قليل من التأمل وهدوء الاعصاب ، فطن الحاكم الى ضرورة تقبل اوامر قادة الجيش في الظرف الراهن بارتياح وطول اناة ، فطالما تعرض كبار الرجـــال لصدمات الثورات فيصبح العالي وضيعاً والوضيع رفيعاً . فتوافقت مع الحاكم على هذه الحقيقة دون



جمال باشا

ان يخفي تشاؤمه من الدعوة ، ثم عزم على السفر بالقطار اتقاء البرد وأمر أن أرافقه . وفي اليوم التالي ركبنا القطار فوصلنا دمشق دون ان نشاهد في محطتها أو في محطة دمر قبلها ما رأيناه في زيارتنا السابقة لزكي باشا من حفاوة واستقبال ، كأن روح الديموقراطية قد سادت بين جميع من في دمشق من كبير وصغير عدا الحاكم بأمره ، جمال باشا ، فهو الشخصية الوحيدة التي كانت تتجلى فيها عظمة الدولة وسطوتها . ذهبنا تواً الى فندق فكتوريا وقد الفناه ، وبعد استراحة قصيرة توجهنا لمقابلة جمال باشا في مقره العام حسب الموعد المحدد بالمخابرة مع رئيس مكتبه الخاص .

مقابلة جمال باشا

ولما وصلنا الى المقر العام لم نجد امامنا سوى ضابط من مرافقي جمال باشا كان بانتظار متصرف لبنان ، فرحب به وسار امامنا حتى مكتب رئيسه الاعلى . ولما دخلناه ، اسرع جمال باشا من امام المنضدة لاستقبال ضيفه وصافحه بحرارة راجياً ان يكون غير منزعج من السفر في الشتاء البارد . وبعد ان قدمني الحاكم اليه ، صافحني وشملني بكلمة ترحيب مع الابتسامة ، ثم استأذنته منسحباً الى بهو الانتظار تاركاً الرجلين العظيمين في خلوتهما.

بعد خلوة ساعة من الزمن ، خرج الحاكم تعلو وجهه امارات الجدّ وغادرنا المقر العام مشيعين كما استقبلنا ، ولما صرنا في الفندق افضى الي الحاكم ان جمال باشا ناقم على موقف اللبنانيين العاطفي نحو فرنسا وبريطانيا العظمى دون ان يراعوا وجودهما في حالة حرب مع الدولة العلية . وقد طلب منه الايعاز الى كل من حبيب باشا السعد وعضوي مجلس الادارة خليل عقل نائب قضاء المتن ونعوم باخوس نائب كسروان وفرنسوا خوري مراسل شركة هافاس الاخبارية وبعض الصحف الفرنسية بأن يحضروا لمقابلته في دمشق . وقد أسرَّ اليّ الحاكم ان جمالاً لا يستصوب بقاء هؤلاء الاربعة في لبنان نظراً لوثيق صلاتهم بفرنسا ،وأضاف الحاكم قائلاً انه حاول كثيراً اقناع الفريق المشار اليه بالعدول عن فكرته فلم ينجح في محاولته .

بعد عودتنا الى بعبدا ، بلغ الحاكم الذوات الاربعة دعوة جمال باشا ، فتشاءموا منها ولم يخف حبيب باشا المتمسك بالتقاليد الارستوقراطية ، امتعاضه من دعوته مع الآخرين في وقت واحد ، كما استغرب حشر صديقه فرنسوا خوري المترجم في القلم الاجنبي بين اعضاء مجلس الادارة .

لم ابح لهؤلاء الاخوان بما اسره الي الحاكم عن موجب دعوتهم ولكني لم اخف عنهم نقمة جمال باشا على اللبنانيين بسبب عاطفتهم نحو فرنسا وانكلترا ، قاصداً من ذلك ان يتمكنوا من اقناعه باخلاصهم لدولتهم العثمانية، فشكروني على هذا التنبيه لانه قد خفف عنهم الخوف من تهمة اعظم قد تتجاوز حد العاطفة .

حبيب باشا واخوانه في حضرة جمال باشا

سافر حبيب باشا السعد واخوانه الثلاثة عقل وباخوس وخوري الى دمشق حيث قابلوا على انفراد قائد الجيش الاعلى . وفي اليوم الثاني عاد حبيب باشا دون اخوانه واخبر انهم تلقوا من جمال باشا امراً بالسفر الى بلد معين في الاناضول . فكان لهذا الخبر أسوأ الاثر في نفوس اللبنانيين ، عدا فئة قليلة تعودت الاصطياد في الماء العكر والارتزاق من ويلات الآخرين .

زارني حبيب باشا بعد يومين من عودته راجياً ترجمة عريضة اعدها الى جمال باشا ، فقمت بترجمتها الى التركية وفيما يلي نصها :

« دولة قائد الجيش الرابع الافخم .

« يعرض مقدمه حبيب السعد نائب رئيس مجلس الادارة في جبل لبنان ان ما لقيته من دولتكم من آثار العطف والاعتماد قد جرأني على رفع هذه العريضة رداً على مفتريات حسادي ، وان كانت لا تؤثر على ضميركم الحي كما تفضلتم فذكرتم لي شخصياً حين تشرفت بمقابلتكم .

« ان اخلاص عائلتنا لدولتنا العلية العثمانية معروف ومشهور لذلك أكتفي بذكر بعض الادلة عليه :

« ١ - جاء في كتاب « السياحة الى سورية» لمؤلفه مسيو ڤولنيه Volney من مشاهير المؤرخين الفرنسيين : « ان الشيخ سعد (جدي ابو والدي) من اعاظم رجال لبنان متفق الفكر مع الاتراك حول جبل لبنان » .

« ٢ - اثناء الحرب العثمانية اليونانية الفت لجنة لجمع الاعانات للجيش وقد جمعت ما يزيد عن الفي ليرة عثمانية ذهباً عدا الملبوسات وغيرها كما يتضح من الوثائق المحفوظة لدي.

« ٣ - على اثر اعلان الدستور العثماني ، عينت رئيساً لنادي جمعية الاتحاد والترقي

في بيروت ، ولما وقع الاحتلال المشهور في العاصمة ابرقت محتجاً عـلى اعمال السلطان عبد الحميد ، متوخياً مصلحة الوطن .

« ٤ ـ حين اعلنت الحياة الدستورية ، ذهبت على رأس المتقدمين في جبل لبنان الى متصرفه يوسف فرانكو باشا مطالباً باعلانها في لبنان ايضاً ، وبعد ان نزل على طلبنا عدل عنه على اثر اجتماعه مع قناصل فرنسا وانكلترا وروسيا .

« ٥ ـ لدي وثائق تثبت اني الفت جمعية للمطالبة بارسال لبنان مبعوثين عنـه الى المجلس النيابي اسوة بسائر الولايات العثمانية ، فقاومني بعض الصحف بتشويق قناصل الدول الاوربية السالفة الذكر .

«٦ ـ ان جريدة « جورنال دو كير » الفرنسية التي انتقدتني آنئذٍ وصفتني بأني من غلاة الاتحاديين ومن اصحاب فكرة الغاء امتياز جبل لبنان وضمه الى الولاية ، فرددت عليها بمقال نشرته جريدة «الرأي العام» الوطنية ، مما يدل على متواصل سعيي لتأييد السياسة العثمانية في جبل لبنان . واذا كنت لم انحرف عن واجب عبوديتي للدولة العلية في ابان النفوذ الاجنبي ، فبالاولى ان اثابر على هذه الخطة وعلى الدعاء بتوفيق الجيش العثماني المظفر في الظروف الحاضرة التي افاخر بما تتطلبه مني من وظائف مقدسة .

التوقيع

حبيب السعد

نائب رئيس مجلس ادارة جبل لبنان »

ظل حبيب باشا مثابراً على وظيفته يساوره القلق من المصير الذي يهدده ، بالرغم من تظاهره بالانشراح اعتماداً على عطف جمال باشا ، وأخذ يسعى بواسطة نسيبه الغيور اللبق المقدام المطران بولس عواد لحمل غبطة البطريرك الحويك المعظم والمطارنة الاجلاء على التماس استصدار فرمانات سلطانية بمناصبهم الدينية ، اسوة بأمثالهم من الطوائف المسيحية في المملكة العثمانية .

ان المساعي التي بذلها حبيب باشا في سبيل كسب ثقة جمال باشا قد ادت الى بقائه في لبنان زمناً ولكنها لم تنجه من النفي في وقت قريب . على انها شفعت في جعل منفاه مدينة اضنا ، وكانت في نظر السوريين واللبنانيين خير المنافي نظراً لقربها وتوفر اسباب الراحة فيها .

منكوبو الارمن

كان المسافر سنة ١٩١٥ بين بيروت ودمشق يشاهد في سهول البقاع آلاف الاطفال والنساء والشيوخ مفترشين الارض وملتحفين الهواء بحالة ينفطر لها قلب كل انسان ، وجميعهم من منكوبي الارمن المشردين عن اوطانهم في الولايات الشرقية من الاناضول ومن كيليكيا .

ففي الربع الاول من السنة المذكورة تجددت نقمة رجال الحكم الترك في الدولة العثمانية على الارمن بسبب مغادرة شبانهم منازلهم الى الضواحي والجبال فراراً من الجندية وجهاداً في سبيل استقلال ارمينيا ، وبعد تقتيل عدد كبير من ذويهم تقتيلاً اشترك فيه مواطنوهم الترك والاكراد ، اصدرت الحكومة امراً بتهجير جميع الارمن تهجيراً عاماً من جميع الاناضول الى الصحاري العربية بين سورية والعراق حيث لاقى الكثيرون منهم حتفهم . اما الذين كان نصيبهم الوصول الى السهول الممتدة بين حلب والشام ولا سيما سهل البقاع ، تحت الحراسة العسكرية ، فقد سلموا من الموت متحملين شظف العيش مدة سنة ، الى ان سمح لهم بدخول المدن السورية حيث وجدوا اثر العطف العربي ومعاملة الاخ لأخيه الانسان كما لا يزال يذكر ذلك بمزيد التقدير والثناء من اختار حلب ودمشق وغيرهما مقراً له ، بينما وضعت الحكومة التركية يدها على جميع اموال الارمن وممتلكاتهم في الاناضول . ولما احتج على ذلك الاستاذ زهراب افندي الزعيم الارمني الكبير وزميله وارتكس افندي من نواب العاصمة ، لدى وزير الداخلية طلعت باشا ، كان نصيبهما النفي فالقتل اثناء الطريق ، كما هو مفصل في الجزء المتعلق بسورية من الذكريات .

لقد قيل ان زواج قائد الجيش الاعلى في سورية الفريق جمال باشا من احدى البنات الارمنيات المدعوة « روز » ، قد اوحى اليه الشفقة على ابناء جنسها والسماح لهم بدخول المدن السورية يعيشون بكد يمينهم وعرق جبينهم . وقد اتضح للجميع ان هذا الشعب الابي قد تناسى النكبات التي حلت به وأقبل افراده على العمل في متنوع المهن بجد واخلاص دون ان تمتد من احدهم يد للاستجداء ، كما ان الشعب العربي في سورية ولبنان قد اعجب بنشاط الارمن وعاملهم معاملة ملؤها الاعتبار والتقدير والثقة .

الفتك بوجهاء ارمن اللاذقية

في اللاذقية مركز المتصرفية التابعة لولاية بيروت استوطن بعض الارمن من قديم الزمن

وكانوا عائشين دوماً بآمان واطمئنان مع اخوانهم العرب اللاذقيـــين . وفي غمرة اضطهاد ارمن كيليكيا والاناضول سنة ١٩١٥ لم يسلم وجهاء الارمن في اللاذقيـــة من وشايات بعض مواطنيهم ، فصدر على اثرها امر عسكري من الفريق جمال باشا بنقلهم الى حماه، فساقهم الجنود قسراً من منازلهم ولم يبتعدوا بهم عن البلدة قليلاً حتى اطلقوا عليهم النار وأعدموهم عن بكرة ابيهم متذرعين بحجة محاولتهم الفرار ، وهي حجـــة كاذبة لم يقتنع بصحتها احد في اللاذقية لما عرف فيهم من مزايا الوداعة وحسن السيرة والمعاملة والاطاعة للحكومة في ماضي حياتهم ، وقد عرفت احدهم السيد يعقوب صايغ من خيرة الناس خلقاً وأشرفهم عملاً وسيرة .

جمال باشا في عاليه

بعد خوض الدولة العثمانية غمار الحرب ، اتخذت سلطة الجيش بلـــدة عاليه مركزاً لقيادة الفرقة العسكرية في بيروت وجبل لبنان . وفي آخر كانون الاول، تلقى حاكم لبنان نبأ عزم جمال باشا على زيارة عاليه لتفقد شؤون القيـــادة ، فأسرع وأركان حكومته لاستقباله في عاليه حيث كانت جماهير الشعب القادمة من جوارها ومن سائر انحاء الشوف والمتن ، وبعد الترحيب المعتاد التي جمـــال باشا في ساحة البلدة الكائنة امام مركز القيادة خطاباً باللغة التركية حثهم فيه على الاعتماد بعد الله سبحانه وتعالى ، على دولتهم العلية العثمانية دون سواها واضاف قائلاً : « ان الدولة العلية هي امكم التي ترأف بكم وتنقذكم من الاجانب الذين يأتونكم بحجة حمايتكم والدفاع عن حقوقكم واستقلالكم ولكنهم في الحقيقة كالعلق يمتصون دماءكم ويقضون عـــلى كرامة نفوسكم فلا تصدقوهم ولا تلتفتوا اليهم وأطيعوا امكم وقوانينها فتعيشوا بسلام وتنعموا بالسعادة والطمأنينة».

ثم سأل جمال باشا حاكم لبنان عمن يترجم خطابـــه الى العربية ، لعلمه ان معظم المستمعين يجهلون التركية ، اشار الحاكم اليَّ ، فقمت على الاثر بمهمة الترجمة . وبعد الانتهاء منها وتصفيق الجمع الغفير صافحني جمال باشا بكلمة شكر مقرونة بابتسامة الارتياح .

الديوان العرفي في عاليه

كان تأسيس الديوان العرفي في عاليه علاوة على الديوان المؤلف في دمشق دليلاً على انه سيتناول المشتبه بأمرهم من البيروتيين واللبنانيين ومجاوريهم . وكان رئيسه الميرالاي

(عميد ، كولونيل) تحسين بك ، القائم في الوقت نفسه بمهام قيادة الفرقة العسكرية ، من خيرة الاتراك ادباً وخلقاً كريماً وكانت صلاته بحاكم لبنان وكبار الموظفين على احسن ما يرام من التفاهم النزيه .

بدأ سجن الديوان العرفي يستقبل ضيوفه حتى كاد يضيق ، على تعدد غرفه ، بالسجناء الموقوفين رهن التحقيق والمحاكمة ، دون ان يسمع عن احدهم شكوى من تعذيب او سوء معاملة ، الى ان فوجئ مركز القيادة بنقل تحسين بك الموما اليه الى مكان آخر خارج لبنان دون ان يعرف السبب . ولكن الحاكم اوهانس باشا استطاع الوقوف عليه من فم تحسين بك وأسرَّ به اليَّ ، وهو ان تحسيناً لم يكن على وفاق مع رؤسائه في القيادة العليا بدمشق بشأن مصير فريق من سجناء عاليه ، ولما اشاروا اليه بوجوب الحكم عليهم بعقوبة الاعدام رفض اشارتهم باباء قائلاً : « لست جلاداً ولن استطيع ان اكونه » .

ان حاكم لبنان الذي نقل اليَّ هذا الكلام صادق لا يُشك في قوله كما ان التهذيب العالي الذي تحققناه في تحسين بك مدة اقامته في بيروت وعاليه لا يدع مجالاً للارتياب في صدقه وضميره الحر ، وقد ايدت ذلك الاحكام التي صدرت بعد نقله ، عن الديوان العرفي وروعت سورية ولبنان بتنفيذها كما هو مبين في الابحاث الآتية .

رضا بك قائد الفرقة

بعد نقل تحسين بك من عاليه كما ذكر في البحث السابق ، عين الميرالاي (كولونيل) رضا بك لقيادة فرقة بيروت ولبنان كما عين قائد آخر لرئاسة الديوان العرفي في عاليه .

زار رضا بك بعد وصوله الى مقر عمله كلاً من والي بيروت ومتصرف جبل لبنان زيارة تعارف اظهر فيها استعداده لمبادلة التعاون فاذا به ممتلئ الجسم ، طويل القامة ، بشع منظر الوجه ، قديم التربية ، صادق اللهجة ، قضى معظم حياته العسكرية في اليمن وجوارها .

كان رئيس الديوان العرفي الجديد برتبة عقيد ومستشاروه برتب مقدم (بيكباشي) ورئيس (يوزباشي) وكلهم تابع لامر قائد الفرقة رضا بك ، وفوق جميعهم قائد الفيلق الرابع اسماً والقائد الاعلى فعلاً في جميع سورية حتى الحدود المصرية .

حين وصل رضا بك الى عاليه ، فرض هيبته على الفرقة بجميع ضباطها وافرادها واقتصر عمله اولاً على مهامه العسكرية . ولما التف حوله في حياته الخاصة فريق من

اللبنانيين ، شعر بلذة الحياة المدنية ، وكان محروماً من مثلها في اليمن ، فظهر ارتياحه لمعاشرة هذا الفريق ، وفيه كل من كان ينتظر رزقاً جديداً ومـــن كان قليل الحظ في الحصول على وظيفة في دوائر الحكومة او في العودة الى وظيفة كان اقصي عنها . وأخذ هؤلاء الذين يعدون انفسهم رجالاً يتزلفون الى سيدهم الجديد ويشون امامــه باخوانهم اللبنانيين ولا سيما الموظفين ، طاعنين في اخلاصهم لدولتهم العلية وناسبين اليهم الانتماء بعواطفهم الى فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى . فكان القائد رضا بك يصغي اليهم والى جميع محدثيه دون ان يبوح بشيء ، منصرفاً في غالب الاحوال الى شؤون مهمته العسكرية. ولما ارتقى بعد قليل من الزمن مرتبة اللواء ، المقرونة عادةً بلقب باشا ، بدأ يعطي المرتبة الجديدة ما تستحقه من مظاهر الابهة ، وقد تيسر له ذلك ولا سيما حين تغلبت السلطة العسكرية على السلطة المدنية بسبب حالة الحرب والادارة العرفية المتركزة في مقره عاليه .

ولما كانت الشؤون العسكرية لا تروي وحدها بين الغرباء عنها مطامع الابهة امـــام الشعب ، بدأ رضا باشا يتدخل مع ضباط الدرك اللبنـــاني وقوام المقام ومديري النواحي والوجهاء لاستقصاء المعلومات عن شؤون جبل لبنان ، فخشي هؤلاء المصير الذي قد يتعرضون له واضطروا الى مسايرته ومصاحبة اخوانه اما دفعاً للغرم او طلباً للغنم .

كان رضا باشا كغيره من الترك ومعظم اهل الولايات المجاورة ، راغباً في الغاء امتياز جبل لبنـــان وضمه الى ولاية بيروت . ولكنه بعد وثيق اتصاله باللبنانيين وتدخله في شؤونهم ، عدل عن فكرته مرجحاً ان يكون لبنان مرتبطاً بوزارة الداخلية مباشرةً ، اسوة بالمتصرفيات المستقلة كالقدس وغيرها ، وقد ذكر ذلك امامي في عدة مناسبات دون ان يصدر عني ما يدل على تأييد فكرته او مخالفتها .

نفي كبار رجال حكومة لبنان

اخذ جمال باشا وهو في دمشق حيناً وفي القدس حيناً آخر يستدعي اليه رؤساء دوائر الحكومة اللبنانية واعضاء مجلس ادارتها وكبار موظفيها ، وكلهم معروف بصريح عواطفـــه نحو فرنسا او روسيا او بريطانيـــا العظمى ، وبعد ان يقابلهم يوعز اليهم بالسفر الى الاناضول مجتمعين ومنفردين حسبما يتراءى له ، وفيما يلي اسماء معظمهم :

الاميرالاي سعيد بك البستاني ، قائد الجند اللبناني .
جرجس بك صفا ، رئيس دائرة الحقوق الاستئنافية .

مصطفى بك عماد ، رئيس دائرة الجزاء الاستئنافية .
الاستاذ سليم باز ، المدعي العام الاستئنافي.
الدكتور بولس نجيم ، رئيس القلم الاجنبي .
نمر افندي بو شمعون ، معاون رئيس المالية .
ابراهيم بك ابو خاطر ، قائم مقام زحلة .
سعدالله بك الحويك ، نائب قضاء البترون في مجلس ادارة المتصرفية .
فؤاد بك عبد الملك ، » » الشوف »
سليمان بك كنعان ، » » جزين »
نسيب افندي الخوري ، مميز قلم الاوراق في مركز المتصرفية .
ابراهيم بك عقل ، مدير ناحية البترون .

ولم يسلم من النفي الى الاناضول الزعيم الشعبي الكبير امير الشعر الزجلي رشيد بك نخله ، بسبب خطبة فياضة بعواطف اللبنانيين ارتجلها امام النائب الفرنسي موريس بارس حين زاره في قصره بالفريديس عام ١٩١٢ .

وبعد فترة من الزمن ظن فيها الناس ان النفي قد انتهى امره ، صدر امر جمال باشا بابعاد قائم مقام المتن الامير فايق شهاب وعقيلته الفرنسية ، والامير توفيق مجيد ارسلان قائم مقام الشوف وشقيقه الامير فؤاد الى الاناضول ايضاً .

اما نائب الكوره نقولا بك غصن ومستشار محكمة الاستئناف جرجي افندي تامر وكميل افندي شدياق معاون رئيس القلم الاجنبي ، فقد استدعوا لمقابلة جمال باشا في القدس حيث ظلوا مدة يسيرة سمح لهم بعدها بالعودة الى وطنهم بسلام ، فكانت فرحة الاهل والاصدقاء بهم عظيمة .

ومما يجدر ذكره نقلاً عن رسائل اولئك المبعدين الواردة الى ذويهم ، انهم كانوا مدة نفيهم حائزين على احترام رجال السلطة والشعب التركي في مختلف بلدان الاناضول التي كانت الاقامة فيها من نصيبهم وعلى كل ما هو ضروري لتأمين معيشتهم واطمئنان بالهم. وقد اسكن معظمهم في بيوت الارمن الذين شردوا مضطهدين الى سورية .

لقد عزا هؤلاء المبعدون وذووهم الوشاية بهم الى حسادهم على وظائفهم الملتفين حول رضا باشا قائد الفرقة ، توصلاً لاحداث شواغر في وظائف الحكومة قد تسند اليهم .

لكن كانت الوشاية هذه غير بعيدة عن الحقيقة بالنسبة الى البعض نظراً لتردد جميع

الموظفين وطلاب الوظائف الحكومية في لبنان على قنصليات فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا اثباتاً لعواطفهم وطلباً لتأييدهم فيما يحتاجون من وساطة ، ولم يسلم الواشون أنفسهم من مثل هذه المراجعات ، الا ان الوشاية مكروهة بحد ذاتها سواء أكانت صحيحة ام كاذبة . على ان الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان اولئك الرؤساء والموظفين هم كجميع اللبنانيين حريصون على استقلال لبنان لا يختارون عنه بديلاً ، على أنهم يفترقون في اختيار الحليف الذي يضمن لهم النفع والنفوذ . فأراد جمال باشا بابعادهم املاء وظائفهم بسواهم ممن لا يعترفون لغيره بالفضل عليهم فيخلصون له ولدولته ويكونون رسلاً لدعايته .

القطر المصري تحت الحماية البريطانية

عرف خديوي مصر اسماعيل باشا ابن محمد علي باشا باسرافه اموال الخزينة اسرافاً الجأه الى بيع حصة حكومته من اسهم شركة قناة السويس الى بريطانيا العظمى بمبلغ اربعة ملايين من الجنيهات . ولم يكن خلفه توفيق باشا أقل اسرافاً منه ، مما اوجب قيام فريق الناقمين بزعامة عرابي باشا بالثورة على الخديوي الذي استعان بالاسطول البريطاني ، فقصف بمدافعه في ١٢ تموز سنة ١٨٨٢ الاسكندرية واحتلت الجيوش البريطانية البلاد المصرية احتلالاً موقتاً حسبما وصفه وزير الخارجية البريطانية .

دام هذا الاحتلال الموقت اثنتين وثلاثين سنة ، انقلب بعدها الى احتلال مقرون بالحماية البريطانية في ١٨ كانون الاول سنة ١٩١٤ ، على أثر دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا .

ولما كان الخديوي عباس حلمي باشا موجوداً آنئذٍ في العاصمة العثمانية موالياً للترك ، أقامت بريطانيا العظمى الامير حسن كامل من العائلة الحاكمة نفسها سلطاناً على مصر ، باحتفال مهيب جرى في القاهرة التي جعلت على الاثر مقراً للقائد البريطاني الجنرال اللنبي قائد القوات الحليفة . وقد أتم هذا الجنرال مهمته بنجاح طوال مدة الحرب وبعدها ، كما يتضح من الابحاث المقبلة .

الاستعداد لحملة الترعة

ان تعيين وزير البحرية الفريق جمال باشا التركي الاتحادي لقيادة الجيش العليا قائداً للجيش في سورية ، بدلاً من الفريق زكي باشا الفاروقي العربي ، قد أوحى الى

المفكرين في سورية ولبنان عزم الوزارة وسلطة الجيش العليا عـلى اتخاذ خطة جديدة تسير عليهـا ، بعد ان أعلن الجنرال البريطاني مكسويل الغاء سيادة تركيا عن القطر المصري المحتل من قبل الجيوش البريطانية ، وخلع الخديوي عباس باشا الثاني الموالي للترك والمقيم بينهم ، واجلاس ابن عمه الامير حسين كامل على العرش المصري بلقب سلطان مصر . ثم قر الرأي العثماني، بايعاز من الحلفاء الالمان الذين تكاثروا في العاصمة اسطنبول وفي دمشق ، على تخفيف العبء عن كاهل الحليفة الكبرى المـانيا في ساحات الحرب الاوربية ، بمهاجمة البريطانيين في مصر وبتهيئة الحملة العسكرية لعبور قناة السويس ، مما اضطر بريطانيا العظمى لامداد قواتها في القطر المصري بقوات ومعدات جديدة .

جهز جمال باشا جيوشه استعداداً للهجوم على القناة فمصر ، بعد ان توفرت لديه القوات والذخائر الحربية التي كانت ترد بطريق الاناضول ، مستعيناً من الناحية الصحية بأطباء من لبنان وهم كثر ، فدخلوا بصفة متطوعين في خدمة الجيش برتبة يوزباشي أو بيكباشي (رئيس او مقدم) وقاموا بمهامهم الصحية خير قيام استحقوا عليه تقدير زملائهم من ترك وعرب سوريين .

اول معركة في الترعة

عهد قائد الجيش الرابع جمال باشا الكبير بقيادة الحملة العسكرية لترعة السويس الى قائد الفيلق الثاني جمال باشا المرسيني الملقب بالصغير ، تمييزاً له عن جمال باشا الكبير، يعاونه القائد الالماني فون كيرس ، صاحب فكرة اقتحام الترعة المعين رئيساً لاركان حربه .

سارت الحملة من سورية وفلسطين جنوباً باتجاه الترعـة في الشهر الاول من سنة ١٩١٥ ، واتخذ جمال باشا الكبير مدينة القدس مقراً لقيادته . وبعد محاربات متقطعة مع الجيش البريطاني بالقرب من الترعة ، اجتازت طلائع الحملة القناة في الثاني من شباط وأسرع موظفو البرق المرافقون للحملة يزفون البشرى بمخابرات خاصة الى اخوانهم في بيروت والمدن السورية .

وحين كان والي بيروت آنئذٍ يرئس حفلة خيرية ليلية في ملهى كبير على ساحـة البرج ، تقدم منه مدير البرق حـاملاً تلك البشرى . فما كاد الوالي بكر سامي بك يتم قراءتها حتى أخذته نشوة الفرح والسرور ، فتلا البرقية بصوته الجهوري من محله العالي

على الجمهور الذي صفق طويلاً وتعالت هتافاته ، وأضاف الوالي قائلاً : « ان حسين كامل السلطان المزيف سيعلق قريباً على اعواد المشنقــة لخروجه على متبوعه صاحب الجلالة العثمانية المعظم » .

ولكن سرعان ما تبدلت الحالة وانقلبت رأساً على عقب ، فقد ورد في فجر الليلة نفسها برقية من القائد الاعلى جمال باشا الى كل من الوالي ومتصرف جبل لبنــان (وهي برقية معممة على الولاة والمتصرفين المستقلين في المنطقة الخاصة لقيادته) تضمن نصها : « ان الاعداء البريطانيين قاموا بخدعة حربية تاركين طلائع الجيش العثماني تعبر القناة ، ولما تبعها معظم الجيش انهالت عليه نيران القوات البريطانية من كل جانب والقيت عليه القنابل من الطائرات وتفجرت الالغام في البحر ، ممــا اضطر من سلم من الجيش الى الانسحاب من المعركة ».

وهكذا ذهبت الجهود في سبيل اجــلاء البريطانيين عن القطر المصري ادراج الرياح عدا الخسائر الكبرى في الارواح .

ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد ، ان رئيس بلدية بيروت مختار بك بيهم كان قد هيأ بأمر الوالي تظاهرة شعبية كبرى ابتهاجاً بــدخول الجيش العثماني المظفر ، القطر المصري ، ووقف المتظاهرون منذ الصباح امام دار الولاية يهتفون الهتافات العالية المعبرة عن افراحهم ونشاطهم منتظرين بفارغ الصبر ظهور الوالي امامهم . ولما ابطأ وظل قابعاً في مكتبه على اثر برقية القائد الاعلى السالفة الذكر ، صعد اليه رئيس البلدية راجياً ان يطل من على الشرفة ويشكر بكلمة طيبــة الاهلين المتظاهرين على اخلاصهم لدولتهم وغيرتهم على وطنهم ، فأنابه الوالي ان يقوم بالنيابة عنه بهذه المهمة ويوصيهم بالعودة الى اعمالهم فعادوا والخيبة ملء نفوسهم .

على ان القائد الاعلى في سورية جمال باشا لم ييأس من النتيجة ، بل اعلن عزمه على استئناف الحملة بعد استكمال معداتها من جميع الوجوه ، قاصداً من وراء اعلانه هذا الاحتفاظ بالهيبة العسكرية . وتحقيقاً لذلك فقد بدئ فعلاً بمد سكة الحديد حتى بئر سبع تحت اشراف المهندس الالماني مايستر باشا . ولما كان هذا العمل يستدعي المزيد من القضبان الحديدية التي لم تكن متوفرة ، فقد استعيض عنها بأشجار الصنوبر والأرز التي قطعت من حراج لبنان ودفعت قيمتها لاصحابها ومتعهديها . وفي السابع عشر من تشرين الاول سنة ١٩١٥ احتفل بانجاز هذا الخط وطوله يزيد على مئة كيلومتر .

حل مجلس الادارة في جبل لبنان

اشرنا فيما سبق الى الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها جمال باشا قائد الفيلق الرابع ، فأصبح في واقع الحال القائد الاعلى للجيوش وللادارة الحكومية معاً في جميع سورية الطبيعية حتى حدود مصر ، يفعل ما يراه موافقاً لمصلحة دولته وللمقتضيات العسكرية والسياسية دون ان يستأذن مرجعه الاعلى في العاصمة الا حين يرى تبديل الولاة والمتصرفين المستقلين . لذلك رأينا منذ قدومه الى سورية ، انقطاع مخابرات الصدارة العظمى عن حاكم جبل لبنان .

وفي ٢٣ اذار سنة ١٩١٥ أصدر جمال باشا بلاغاً الى حاكم لبنان يتضمن حل مجلس الادارة . لقد كان حله طبيعياً بعد ان وقفت حركته وأبعد اكثر اعضائه الى منفاهم . ومما لا ريب فيه ان اللبنانيين المتعصبين لاستقلال جبلهم ينظرون الى المجلس الاداري كصوره مصغرة عن المجالس النيابية ، بالرغم من اقتصار صلاحياته على التدقيق في موازنة الحكومة والموافقة عليها والاشراف على التحقيق الذي يستوجب اقصاء القضاة عن مناصبهم .

لقد سمع الحاكم من فم جمال باشا ، كما سمعت من الرجال المتصلين به بحكم الوظيفة ، ان حجته في حل المجلس لا تخرج عن اعتقاده بوثيق صلات اعضائه منذ انتخابهم ، بل قبله ، بقنصليات دول الاتفاق التي اصبحت في الحالة الراهنة دولاً معادية محاربة ، فلا تتفق سيرتهم مع سياسة الدولة الحاكمة التي تريد لجبل لبنان استقلالاً ادارياً سليما من كل تدخل اجنبي ، فيشعر الشعب اللبناني ككل فرد عثماني بأن ليس له مرجع يحافظ على كرامته وامته وسلامته سوى الدولة العلية العثمانية .

دعوة البطريرك الى الديوان العرفي

في اواخر شهر نيسان سنة ١٩١٥ انحرفت صحة الحاكم اوهانس باشا ، وزاده ألماً وانزعاجاً دخول دولته العثمانية غمار الحرب الاوربية وعقم الخطة التي يسير عليها قائد الجيش الاعلى في سورية وكبار معاونيه في عاليه ، بالاضافة الى ما شاهده الحاكم بعينيه اثناء سفره الى دمشق لمقابلة جمال باشا من جماهير الارمن من شيوخ ونساء واطفال ، المشردين عن اوطانهم في كيليكيا والاناضول ، بعد تقتيل شبانهم وتعريضهم للبؤس والشقاء . فلازم فراشه في منزله وأمرني بادارة شؤون الحكومة بالنيابة عنه ، فكنت اقوم

بالواجبات المترتبة وأعود اليه مساء كل يوم لاحيطه علماً بما جرى وأتلقى منه التوجيه في الامور الهامة .

ولما غادرت دار الحكومة في بعبدا ذات يوم قبل غروب الشمس ، متوجهاً الى بيروت لمقابلة الحاكم، التقيت اثناء الطريق بالامير مالك شهاب قائم مقام قضاء كسروان قادماً من مركز وظيفته في جونيه . فنزل كل منا من مركبته وتقدم الي مسلماً ويده ترتجف وأخرج من محفظة اوراقه برقية من رئيس للديوان العرفي بعاليه هذا نصها :

« الى قائم مقام جونيه – ارسلوا حالاً حنه زوجة طنوس من قرية الكفور والياس حويك البطريرك الماروني » .

حينئذٍ عذرت قائم المقام على اضطرابه وبعد قليل من التأمل اشرت اليه بأن يعود الى مركز وظيفته بدون تأخر ، حتى اذا سئل عن مصير البرقية اجاب ان نائب الحاكم رئيس القلم التركي تسلمها .

تابعت سيري الى منزل الحاكم ، ولما قابلته في غرفة نومه وأطلعته على البرقية بعد تمهيد لا بد منه ، حرصاً على صحته ، لم يتمالك من اظهار تألمه وشدة تأسفه لجهل هؤلاء القادة العسكريين امور السياسة والادارة ، واشمئزازه من هذه المعاملة التي تسيء الى سمعة الدولة وتجرح عواطف اللبنانيين وجميع المسيحيين في العالم . ولما كانت حالته الصحية لا تمكنه من القيام بأية مخابرة في هذا السبيل، خففت من تألمه قائلاً : اني باذن الله وتوجيه دولته سأحول دون تنفيذ هذه البرقية ، مستعيناً بالاسلوب الذي تقتضيه الحالة ويقره المنطق ، وعدت صباح الغد الى بعبدا حيث أخذت اخابر هاتفياً اللواء رضا باشا قائد الفرقة في عاليه ودار بيننا الحديث على الوجه الآتي :

الحكيم : أطلعني قائم مقام كسروان على برقية رئيس الديوان العرفي (وقبل ان اتم كلامي اجابني)

رضا باشا : ألم يرسله ؟

الحكيم : من تقصدون ؟

رضا باشا : البطرك الماروني !

الحكيم : اذا كان في ذلك مصلحة للدولة فكلنا فداء لها ، اما اذا كان الامر بالعكس فماذا تقولون ؟

رضا باشا : كيف ذلك ؟

الحكيم : ان مطارنة الموارنة يتمتعون في جبل لبنان بمنزلة شعبية بـــارزة ورئيسهم البطريرك الجليل الياس الحويك المحبوب والمحترم من جميع الطوائف دون استثناء فرد منها، يعتبر صاحب المقام الاول في لبنان بعد دولة الحاكم طبعاً، ومرجعهم الروحي الاعلى قداسة البابا في روما يصدر عنه امر تثبيتهم في مناصبهم. وقد بلغني اخيراً من اوثق المصادر انهم عقدوا اجتماعاً برئاسة غبطة البطريرك قرروا فيه طلب استصدار فرمانات سلطانية بمراتبهم اسوة بسائر رؤساء الطوائف المسيحية في المملكة العثمانية، فيصبح مولانا السلطان مرجعهم الاعلي . ألا ترون يا سعادة الباشا بعد كل ما ذكرته ، وجوب رعايتهم باحترام اوفر مما كانوا عليه في السابق ؟

رضا باشا : حسناً تكلمت ولم اكن عارفاً هذه الناحية ، لذلك صرفنـــا النظر عن تنفيذ البرقية » .

فشكرته وانتهى الامر.

كيف انتقلت المخابرة الى ذوي العلاقة

اثناء مكالمتي هاتفياً مع رضا باشا قائد الفرقة، كان الضابط سركيس افندي الدويهي امين لوازم الجند اللبناني جالساً في مكتبه المجاور لغرفة الهاتف، وحين سمع من حديثي ذكر البطريرك والمطارنة قلقت افكاره نظراً للظروف الراهنة المحيطة بلبنان ، ورجاني ازالة القلق عنه باطلاعه على الامر بما اريد من اختصار . وبعد ان اقسم اليمين عـــلى كتمان السر ، اطلعته اولاً على البرقية عينها . فازداد اضطراباً وامتقع لون وجهه ، فأسرعت انبئه بالنتيجة التي توصلت اليها ، فتنفس الصعداء داعياً لي بالخير ، والتمس السماح له بزيـــارة اخيه الخوري اسطفان الدويهي امين سر صاحب الغبطة ومرافقه في الحل والترحال، فلم اوافقه على طلبه وشددت عليه وجوب كتمان الامر لاني اود ان يظـــل رضا باشا معتقداً اني استهدف بمراجعاتي وآرائي خدمة دولتي وحسن سمعتها قبل كل شيء آخر . ولكنه ، كما يتضح مما يلي ، لم يستطع الصبر على عدم ايصال الخبر الى المقر البطريركي .

زارني مساء ذلك اليوم صديقي الحميم الشيخ طنوس جعجع مستشار محكمة الاستئناف، المعروف بغيرته على مصلحة لبنان وشرف المقام البطريركي خاصةً ، وأخـــذ يستدرجني بمتنوع اساليبه الناعمة الى النطق ببعض ما حصل ، فاستنتجت من كلامه ان الضابط

الدويهي لم يكتم الامر عنه ، فتوسطه لديّ بايصال الخبر الى المقام البطريركي . وعليه احطته علماً بما وقع ، فحاول اقناعي بضرورة نقله الى مسامع صاحب الغبطة وأمنائه وكلهم يحفظ لي اسمى منزلة الحب والاعتبار ، فأجبته اني لم اقم الا بما يفرضه علي الواجب بازاء سمعة دولتي وازاء ذلك الشيخ الجليل شيخ لبنان وبازاء الشعب اللبناني خاصةً والعالم المسيحي عامة ، وأوصيت صديقي بالكتمان لئلا يخطر ببال رضا باشا واخوانه اني اتوخى بنصائحي لهم خدمة لبنان قبل مصلحة الدولة . ولكن الشيخ طنوس خالفني هذه المرة ، بدليل ما لقيت بعدئذٍ من صاحب الغبطة ورجاله من آيات الشكر وجميل الدعاء، علاوة على ما سبق فرأيته منهم من ادلة الرضى الابوي.

املاء الشواغر في دوائر الحكومة

أخذ جمال باشا يفرض ارادته في اسناد الوظائف الشاغرة عن اربابها المبعدين ، الى من يرى فيهم الكفاءة والاخلاص للدولة ، مستنداً الى المعلومات التي تصله من عامله رضا باشا قائد الفرقة في عاليه ، مراعياً في ذلك العرف الطائفي . فكانت اوامره تصدر الى حاكم لبنان باسلوب اقتراح فيقوم الحاكم بدوره في اصدار قرارات التعيين ، وقد صدر القسم الاول منها على الوجه التالي :

١ – نقل الامير مالك شهاب قائم مقام كسروان الى رئاسة دائرة الحقوق الاستئنافية في مركز بعبدا ، خلفاً للاستاذ جرجس بك صفا الرئيس السابق .

٢ – ترفيع محمد بك عز الدين مستشار محكمة الاستئناف رئيساً لدائرتها الجزائيـــة بدل الرئيس مصطفى بك عماد .

٣ – تعيين الاستاذ نعيم صوايا مؤسس المدرسة الخاصة في بعبدات ومديرها قائم مقام في زحلة خلفاً لابراهيم بك ابي خاطر .

٤ – تعيين الرائد (ميجر) في الدرك اللبناني الامير فايز شهاب قائم مقام في قضاء كسروان بالوكالة .

اما وظيفة النائب العام الاستئنافي الشاغرة عن ابعاد الاستاذ سليم باز فظل قائماً عليها معاونه الاستاذ نجيب مشرق .

تلقى الرأي العام اللبناني هذه التعيينات بملء الارتياح نظراً للثقة بالمزايا الحميدة التي توفرت في المختارين لها .

تصلب الحاكم في رأيه

بعد ان غصت سجون عاليه بالمتهمين السياسيين من رجــال سورية ولبنان وأخذت الدعوة الى الديوان العرفي تتوالى على اللبنانيين كباراً وصغاراً لاقل شبهة او وشاية ، وأخذ والي بيروت من ناحية ثانية يوالي اثارة الشغب في الجبل توصلاً لضمه الى ولايته يعاونه بعض اللبنانيين ، وانقطعت المخابرات المباشرة بين حاكم لبنان والباب العالي بعد تعيين جمال باشا قائداً للجيش في سورية وتخويله مطلق الصلاحية في منطقته الواسعة ومنها جبل لبنان ، وظهرت آثار النفوذ العسكري وتحكمه في ادارة الولايات ، بعد كل ذلك كررت اقتراحي على دولة الحاكم ، ضرورة التفاهم مع قائد الفرقة رضا باشا ورجاله العسكريين لعلنا نتمكن بذلك من الحد من وشايات الزمرة المحيطة بهم . فكان الحاكم ، ويا للأسف ، مصراً على نفرته من تلك الزمرة وبالتالي من رضا باشا نفسه ، لانصياعه لآرائها ، نادباً سوء الحالة التي حولت لبنان ، النعيم الارضي ، الى جهنم فساد ساعد على رواجــه ظروف الحرب . فأجبته ان الزمرة التي نشكو منها كلنا ، يا صاحب الدولة ، لا تستهدف في الحقيقة سوى الحصول على الوظيفة ولافرادها الخبرة الكافية في الادارة . فهل من مانع لاختيار افضلهم او اقلهم شراً لوظيفة بسيطة غير ذات اهمية ، فيصبح اداة نصح وخير بدلاً من ان يبقى داعية شر لدى رضا باشا الطيب القلب ، الذي يجهل حقيقة لبنان وأهله وتنطلي عليه الحيلة . فقطع الحاكم حديثي قائلاً : « لن اعمل مع موظف طرد من وظيفته لسوء تصرفه ، ولا مع آخر مشكوك في نزاهته وسيرته ، ولا مع ثالث يبيع مصلحة وطنه في سبيل جر مغنم لنفسه ، فلنترك التقادير تجري في اعنتها » .

ملحم حماده لقيادة الدرك اللبناني

كان العرف المستمر في جبل لبنان ان يعهد بالقيادة الاولى للجند اللبناني الى كفء من الموارنة باعتبارهم اكثرية سكانه ، وكان في الجند اللبنــاني ، من المقدمين والرؤساء من جميع الطوائف ، من هم اهل للقيادة ، ولكن جمالاً صاحب السلطة العليا في جميع سورية تجاهل هاتين الناحيتين واختار ملحم بك حماده ، المقدم في الجيش العثماني ، قائداً للدرك اللبناني محل سعيد بك البستاني ، الذي نفي الى الاناضول مع غيره ، كما سبق ذكره .

ان الدرك اللبناني والجند اللبناني اسمان لمسمى واحد ، وقد استمر اختيار الشعب اللبناني الاسم الثاني وان كان الاول اكثر انطباقاً على واقع الحال .

لم يكن المقدم حماده غريباً عن لبنان ، فهو من آل حماده الكرام ، ابن عم كل من شيخ عقل الدروز ومرافق الحاكم ، وقد غادر لبنان الى العاصمـــة حيث دخل مدارسها العسكرية وخرج منها ضابطاً والتحق بالجيش ورقي الى مرتبة بيكباشي (مقدم) ، فاذا كان تعيينه لقيادة الدرك اللبناني مخالفاً للعرف المحلي فهو مبرر بظروف الحرب .

قابل المقدمون والضباط اللبنانيون ، ولا سيما المقدم فؤاد بك شقير الذي توفرت فيه الكفاءة وكل صفات القيادة ، اسنادها الى غريب عنهم بكثير من الامتعاض . ولكن المقدم حماده تمكن بحسن ادارته وكرم خلقه ولطف معشره من التغلب على جميع الصعوبات التي كانت تعترضه في بادئ الامر ،وحاز على رضى الحاكم وقائد الفرقة معاً .

استعراض الجيش في رياق

تجلد جمال باشا امام الضربة القاسية التي نزلت بحملته على اجتياز ترعة السويس ، معلناً انها حملة استطلاع واختبار في سبيل الحملة الكبرى المقبلة . ولما انضم الى اركانه خبراء ومستشارون المان قدموا حديثاً من العاصمة اسطنبول ، ازداد نشاطه بالاشتراك معهم في تمهيد كل صعوبة قد تقف امامهم ، ثم دعا حاكم لبنان ووالي بيروت ووالي سورية وكبار الموظفين والاعيـــان لحضور استعراض الجيش المخيم في الرياق والسهل استعداداً للحملة المهيأة لاجتياز الترعة ودخول مصر . وكان المفكرون في زحلة ، وعلى رأسهم الوجيه الكبير يوسف البريدي ، قد عولوا على ان تقوم بلدية زحلة بدعوة جمال باشا وضيوفه الى تناول طعام العشاء مساء يوم الاستعراض ، في فندق قادري الكبير . ولما عرضوا فكرتهم على حاكم لبنان، وافقهم عليها ورحب بها ترحيباً حاراً لما تضمنته من معنى اظهار العطف اللبناني على الجيش العثماني مضافاً اليه ، بنوع خاص، عطف الزحليين اصحاب الاملاك والمزارع في سهل البقاع المرتبط بولاية سورية .

وفي مساء ذلك اليوم، بدت زحلة سماءً تتلألأ فيها الانوار وبدأ فندق قادري الفسيح يستقبل الضيوف وترحب بهم لجنة البلدية يتقدمها يوسف بك البريدي ، ولما قدم جمال باشا وحاشيته المؤلفة من كبار الرجال والقادة العثمانيين والالمان ، كان حاكم لبنان على رأس المستقبلين .

قدّم جمال باشا المكانَ المخصص له في قلب المائدة ذات الثلاثة اضلاع الى السيدة زوجة الجنرال الالماني وجلس الى يسارها ، وامامها حاكم لبنـــان ، وأخذ العظماء وسائر

المدعوين مراكزهم . وفي نهاية الطعام ، وقف جمال باشا والقى بلغته التركية كلمة حـــارة ترجمها فوراً الى العربية الخطيب المصقع الشيخ اسعد الشقيري نائب عكا ومفتي الجيش ، كان اهم ما فيها الفقرة الآتية :

« ان الجيش الذي شاهـــدتم اليوم عرضه ، هو جيشكم الذي يذود عن حريتكم واستقلالكم ويرد عنكم كل اعتـــداء ، وهو المتحفز لانقاذ مصر وتطهيرها من رجس محتلها العدو البريطاني ، وكما نقوم نحن بما يترتب علينا ، تقوم حليفتنا الكبرى المانيا بتسديد ضرباتها في وجه الاعداء المنقضين على استعمار الشعوب الضعيفة وابتزاز ثرواتها والتحكم في مقدراتها ، ان الله معنا والظفر حليفنا ، فقروا عيناً وثقوا بعطف الدولة العلية على جميع ابنائها المخلصين وأنتم منهم » .

استمرار النفي الى الاناضول

ذكرنا فيما سبق ، نفي التراجمة والموظفين لدى قناصل الدول المحاربـــة فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى في بيروت وطرابلس وصيدا واللاذقية الى دمشق ، حيث اقاموا زمناً بدون ادنى انزعاج سوى اثبات وجودهم يومياً لدى دائرة الامن العام . ثم نفوا اخيراً بأمر جمال باشا الى الاناضول ، حيث لقوا من اهلها وحكوماتها معاملة طيبة خففت عنهم شيئاً من وحشة بعدهم عن الوطن .

لم يستغرب الناس هذا التدبير الحكومي الذي اقتضته ظروف الحرب ، ولكن الذعر اخذ يدب في النفوس حين شمل النفي فريقاً من الرعايا العثمانيين لمجرد الشبهة في عواطفهم ، ولو كانوا من افضل الرؤساء الروحيين ، كالحبر الجليل السيد بطرس شبلي مطران الموارنة على بيروت وما يليها ، فقد امر جمـــال باشا في آذار سنة ١٩١٥ بنفيه الى اضنا في الاناضول ، دون ان يكون هنالك من سبب سوى ما نسب اليه من محبته لفرنسا .

كان الاخ المريمي ايزيدور كرم ، من فضلاء الاخوة المريميين في مدرسة صيدا ، بين اخوانه الفرنسيين حين عمدت الحكومة الى سوقهم لدمشق . فدفعت المروءة والوفاء اهل صيدا على اختلاف مذاهبهم الى الاحاطة بهم ، وكفلوهم لدى السلطة ، فبقوا لديهم حتى تمكن الاخ ايزيدور من الحصول على تذكرة تثبت هويته اللبنانية ، وتوسط قداسة البابا بشأن اخوانه الفرنسيين فسلموا من النفي .

لما اغلقت القيادة العليا المدارس الاجنبية ، والفرنسية منها منتشرة في كثير من مدن لبنان وقراه ، قام الاخ ايزيدور كرم الموما اليه يجمع اخوانه المريميين غــير الفرنسيين وآواهم في بيت استأجره في بلدته عمشيت واعتنى بأمر اعاشتهم ، الى ان جاءني ذات يوم شاكياً معارضة شيخ الصلح بناءً على أمر تلقاه من الامير فايق شهاب ، قائم مقام القضاء بالوكالة ، بوجوب تخليه عن اخوانه وتسليمهم الى الحكومة . وقد صادف وجود الامير فايق في بعبدا آنئذ فاستدعيته الي وسألته : « هل اولئك الاخوة من رعايا الدول المعادية؟ » فنفى ذلك ولكنه تذّرع بكونهم في خدمة مدرسة أجنبية وأظهر خشيته من السلطة التركية اذا تساهل بشأنهم . فطمأنته من هذه الناحيــة وحلت دون معارضته لهم وظلوا أحراراً برعاية اخيهم ايزيدور كرم ، الى ان تلقوا بعد قليل من الزمن دعوة من مرجعهم البابوي في ايطاليا ، فسافروا على باخرة ايطالية دون ان يلحق بهم أدنى أذى .

الفصل الثامن

المرحلة الثانية من عهد جمال باشا

دخول ايطاليا الحرب

كانت ايطاليا، الدولة الاوربية السادسة الموقعة على نظام جبل لبنان ، حليفة للنمسا منذ عام ١٨٨٢ . ولما اعلنت الحرب سنة ١٩١٤ بين الحليفتين ، المانيا والنمسا ، وبين دول الاتفاق ، فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى ، ظلت ايطاليا على الحياد يتنازع كل من الفريقين دخولها الحرب بجانبه ، الى ان تغلبت عليها السياسة البريطانية فأعلنت ، في ٢ ايار سنة ١٩١٥ ، انسحابها من الحلف الالماني النمسوي . وفي ٢٣ ايار انضمت الى دول الاتفاق وخاضت معها غمار الحرب ، فأصبحت الدولة العثمانية طليقة من كل قيد بالنسبة الى جبل لبنان . فالمانيا والنمسا تؤيدانها في الغاء نظامه الخاص ، ودول الاتفاق في حالة حرب معها ، فلم يبق في سبيلها ما يحول دون الغائه حين تشاء ، دون حاجة الى ايجاد المبررات التي يستند اليها القوي عادةً حين ينقض العهد مع الضعيف .

كان النفوذ الالماني بارز الاثر في العاصمة العثمانية ، كما كان المستشارون الالمان في دمشق والقدس يحيطون بالقائد الاعلى جمال باشا ، وبينهم الهر لوتفيد قنصل حيفا السابق اللبق ، الذي يتقن اللغة التركية عدا عدة لغات اوربية . فرأى حاكم لبنان اوهانس باشا وكبار المغتربين اللبنانيين انه لم يبق للبنان من نصير يدافع عنه في محنته لدى الدولة العثمانية أو لدى الفريق جمال باشا ، ويعطف عليه ويأخذ بناصره سوى دولة النمسا الكاثوليكية. فاقتنع صاحب الغبطة البطريرك الماروني ومطارنته الاجلاء بسداد هـــذا الرأي واتصل بعضهم بقنصل النمسا في بيروت ، فأوعز اليهم ان يطلبوا من الباب العالي استصدار براءات سلطانية بتثبيتهم في مناصبهم اسوة بأمثالهم بطاركة ومطارنة الطوائف المسيحية في المملكة

العثمانية . غير ان طلبهم هذا لم يعلن على الشعب اللبناني الحريص على تقاليده ، لمعرفة ما يصدر عن الدولة بشأنه ، فجاء مسعى حاكم لبنان موافقاً لما تمناه جمال باشا قائد الجيش وأشار به ضمناً دون اشاعة اهتمام الدولة بهذا الامر .

دوارع الاعداء امام شكا وانفه

في ٢٦ ايار سنة ١٩١٥ ، أقبلت الدارعة الفرنسية جان دارك وتوقفت امام ساحل شكا وألقت قنابلها على مستودع الكاز الخاص بالوجيه البيروتي الكبير ميشيل بك سرسق.

وبعد ثلاثة ايام ، رست دارعة روسية أمام انفه ، المركز الشتوي لقضاء الكوره ، وجاء منها زورق بخاري يحمل ربانها الذي صعد الى البر وزار قائم المقام الشيخ الياس الخوري في مقره الرسمي ودعاه الى رد الزيارة على ظهر الدارعة ، فلبى الدعوة وبعد ان عاد الى مقره ، أبرق الى دولة الحاكم يخبره بما جرى . ولما استدعاه الحاكم لاستجلاء الحقيقة والوقوف على تفصيل ما دار بينه وبين ربان الدارعة من حديث، أوضح بسلامة القلب المعروفة فيه ان الزيارة وردها لم يخرجا عن دائرة المجاملة المتقابلة ، وانه أنقذ بذلك ساحل الكوره وداخلها من كارثة قد تنزل بها لولا هذه المجاملة .

أما القيادة العسكرية ، فاعتبرت ضرب مستودع شكا دليلاً على وجود جواسيس في جبل لبنان يمدون بأخباره الاعداء المحاربين واحتجت على تصرف قائم المقام الذي لا يتفق بوجه من الوجوه والوضع الحربي . ولما أكد لها الحاكم صدق طويته واخلاصه للدولة اكتفى القائد الاعلى جمال باشا باقصائه عن الوظيفة وطلب تعيين الشيخ فؤاد العازار في مكانه، فنزل الحاكم على تنفيذ هذا الامر مكرهاً .

فؤاد العازار

هو ابن الشيخ جرجس العازار ، نائب الكوره فيما سبق ، من كبار الوجهاء وأعزهم شأناً . وبعد وفاته، لم يستطع ابنه الشيخ فؤاد الوصول الى النيابة أو أية وظيفة ذات شأن، ودفعه ضيق ذات اليد الى الارتضاء بما هو دونها فلم يسعفه الحظ ، فانضم الى حزب المعارضة الذي رأسه حبيب باشا السعد في عهد المتصرف السابق يوسف فرانكو باشا .

ولما جاء الحاكم اوهانس باشا وعين حبيب السعد نائباً عنه في مجلس الادارة وبعض أنصاره في وظائف أخرى ، لم يكن للشيخ فؤاد نصيب منها . وقد علمت، بعد ان تمكنت

صلاتي بالحاكم المشار اليه ، ان سبب تحوله عنه يعود الى وثيــق اتصاله بالسيد عزيز فيعاني ، ترجمان قنصل روسيا العام في بيروت ، والى وشايات كان يقوم بها اعداؤه الكوريون .

غير ان الشيخ فؤاد يعتقد ان هذه الوشايات كانت تصل الى الحاكم بطريق عبدالله بك الخوري ، مدير الامور الاجنبية القائم بمهام التشريفات لدى الحاكم ، وهو من وجهاء الكوره ومن أنسباء الاستاذ جرجي تامر ، مناظر والده في الانتخابات السابقة .

وقد ساقني هذا الايضاح الى الوقوف على سبب آخر من هذا القبيل وهو ان الشيخ فؤاد العازار وعزيز أفندي الفيعاني معاً كانا في الانتخابات الاخيرة التي جرت بعد قدوم اوهانس باشا الى لبنان يقومان بدعاية واسعة للمرشح نقولا غصن اول وجهاء كسبا بلا منازع ، ضد المرشح الآخر جرجي تامر ، من وجهاء حامات ، فنجح الاول وأخفق الثاني . ولكن الحاكم لعلمه بمزايا الاستاذ تامر الحميدة ونزاهته وخبرته الحقوقية ، عينه مستشاراً في محكمة الاستئناف عوضاً عن ابراهيم بك الاسود الذي نقله قائم مقام على الكوره بعد اقالة سلفه الدكتور محفوض طالب لظهور ضعفه الاداري رغم نزاهته وحميد خصاله ، ثم أقصي ابراهيم بك عن الوظيفة كما سبق ذكره .

مما يجدر بيانه في هذا البحث ، اني حين رأيت فريقاً من طلاب الوظائف يسير في ركاب رضا باشا قائد الفرقة ، تقدمت الى الحاكم باقتراح يرمي الى تعيــين بعضهم في وظائف تليق بهم ، فينصرفون الى خدمة وطنهم ويؤمنون براتبها أمر معيشتهم ، كتعيين الشيخ نؤاد امين سر في ديوان مجلس الادارة او مديراً في احدى النواحي ، نظراً لواسع خبرته في شؤون الجبل وأحوال أبنائه ولوفائه لرؤسائه وأصدقائه . ولكن الحاكم ظل مصراً على رأيه ولم يشأ استرضاء أحد من الناقمين عليــه رغم ظروف الحرب القاسية ، وهذا لعمر الحق من غريب ما ينتظر من رجل كبير قضى شطراً عظيماً من حياته في المناصب السياسية الكبرى . على انه ، سامحه الله ، قد تفضل علي بأن اعترف بصواب اقتراحي السالف الذكر حين اضطر الى تعيين الشيخ فؤاد قائم مقام على الكوره .

مجلس الادارة الجديد

في الربع الاخير من ايار سنة ١٩١٥ ، أصدر جمال باشا أمره بتأليف مجلس الادارة اللبناني من أعضاء جدد ، محافظاً في تعيينهم على العدد السابق والنسبة الطائفية المرعية .

واختار لنيابة الرئيس الامير سليم ابي اللمع ، الشيخ السليم القلب والحسن السيرة .

لم يكن بين أعضاء المجلس الجدد من أعضاء المجلس السابق سوى حسين بك الحجار، نائب الشوف المعروف بوثيق صلاته بالامير مصطفى ارسلان .

ليس غريباً ان يعين جمال باشا أعضاء المجلس الجديد تعييناً بدل الانتخاب ، ليكونوا غير مدينين لسواه ، بعد ان اشتبكت بالمحاربة جميع الدول الموقعة على نظام جبل لبنان ، بل الغريب ان يقوم ، وهو القائد الاعلى للجيش في منطقة سورية الكبرى ، على الاهتمام بالادارة والاخلال بنظام لبنان قبل ان ينال ظفراً واحداً في مهمته العسكرية ، دع عنك الفشل المريع الذي منيت به حملته على القناة المصرية .

استقبل اللبنانيون استبدال المجلس الجديـــد بفتور ممزوج بالقلق على مصير نظام جبلهم ، بالرغم من مزايا بعض الشخصيات التي تألف منها . فان السادة احمد الحسيني ، المعين عن قضاء كسروان ، وسليم داود تابت عن دير القمر ، وحسين الحجار والامير سامي ارسلان عن الشوف ، والشيخ عقل أبي صعب عن البترون ، والمقدم رشيد مزهر عن المتن ، معروفون بالصدق والنزاهة وحرية ابداء الرأي ، وأسعد مخايـــل لحود ، من عمشيت متصف بحبه العمران واتقانه اللغة التركية كأحد أبنائها وحسن معاشرتـــه عظماء الاتراك ، وابراهيم بك الاسود عن قضاء المتن ، خطيب مفوه وشاعر موهوب ، واسكندر بك الخوري عن المتن ، وجيه ثري حسن السيرة ، وهو شقيق ملحم بك الخوري المستقيل من قيادة الجند اللبناني على أثر ثورته سنة ١٩١٣ ، وزخور بك العازار عن الكوره ، طبيب في الجيش العثماني سابقاً ، ويوسف بك بردويل عن زحله ، شاب نشيط ، وفؤاد عازوري عن جزين ، وجيه مزاحم لسليمان بك كنعان في انتخابات المجلس المحلول .

ابلغهم الحاكم أمر تعيينهم ودعاهم للاجتماع في ٢٧ ايار سنة١٩١٥ فلبوا دعوته ، وبعد ان هنأهم ، القى عليهم كلمة تمنى لهم فيها التوفيق في مهمتهم والعمل باخلاص للدولة العلية ومصلحة جبل لبنان العزيز . وقد بدا على وجه الحاكم وصوته حين القى هذه الكلمة علائم الجد وانقباض الصدر دون أن يرافقها شيء من الترحيب .

ولما سألته في جلسة خاصة عن سبب اسلوبه الجاف حين القى كلمته في المجلس ، أجابني قائلاً : « اني غير متفائل من وجود ابراهيم الاسود وزخور العازار وأسعد لحود بين اعضائه ، فالاول مقصي عن وظيفة قائم مقام الكوره ، والثاني ابن عم الشيخ فؤاد والظاهر انه على شاكلته ، والثالث ناقم علي بسبب عدم تعيينه قائم مقام ». فقلت : « الا

تظنون، يا صاحب الدولة ، ان هؤلاء الثلاثة مع باقي اخوانهم يعملون لخير لبنان ، ويستطيعون ذلك بفضل تفاهمهم مع رضا باشا والتفافهم حوله في اكثر الاوقات؟ » فأشار بوجهه اشارة سلبية وانتقل بي الى حديث آخر .

الهلال الاحمر في لبنان

ان الصفات البارزة التي أشرنا اليها في البحث السابق عن أعضاء مجلس الادارة الجديد ، لم تحل دون الاشتراك في العمل على هدم امتياز جبل لبنان تدريجياً ، بوحي من والي بيروت بكر سامي بك ، وقائد الفرقة العسكرية رضا باشا ، وأول عمل قام به المجلس انه قرر انشاء فرع لجمعية الهلال الاحمر في جبل لبنان تحت رئاسة دولة متصرفه ووالي بيروت معاً .

ولما تقدم نائب الرئيس والاعضاء مجتمعين الى الحاكم بقرارهم هذا المكتوب بالعربية كالمعتاد ، أمر بعرضه على كبير أمنائه لدرسه وابداء ملحوظاته عليه. فحمله اليّ رئيس ديوان المجلس محمود بك تقي الدين ، ولما قرأته استغربت اضافة اسم والي بيروت الى اسم حاكم لبنان مع ان كلاً منهما مستقل عن الآخر في ادارة شؤون ولايته ، هذا في جبل لبنان وذاك في بيروت . وأشرت الى محمود بك بأن يرفع المجلس اسم والي بيروت من نص القرار ، فيصبح جديراً بأن يقره حاكم جبل لبنان ويأمر بتنفيذه . فذهب ، ثم عاد الي وقلم الحبر بيده وطلب باسم المجلس ان أصحح بخط يدي القرار كما أشاء . فشعرت فوراً بالدسيسة التي يحيكها أعضاء المجلس للايقاع بي لدى والي بيروت ، ولكني لم اعبأ بها لثقتي بنفسي وبعدالة تفكيري وأخذت القلم وشطبت اسم والي بيروت وقلت للسيد تقي الدين بأعلى صوتي : « ان اخلاصي لدولتي يدفعني الى وقاية النظام الذي ارتضته لجبل لبنان من كل عبث ، فقل لاخوانك اعضاء المجلس : من كان مخلصاً لدولته صادقاً في قوله وعمله لا يخشى لومة لائم » .

وفي اليوم التالي نظم المجلس قراره بموجب التعديل الذي قمت به فأقره الحاكم وأمر بتنفيذه ، وتألفت لجان الهلال الاحمر في جبل لبنان وفاقاً لأمثالها في الولاية .

ولما اجتمعت بعد ذلك مع الوالي في نادي بيروت ، عاتبني على موقفي منه فيما يعود لقرار مجلس الادارة ، فأجبته بأني أكن لدولته كل تعظيم واحترام ولكنني قمت بما يترتب علي كموظف عثماني أمين لرئيسه الوزير العثماني .

قال : « ان مصلحة الدولة هي فوق الوظيفة وفوق المتصرف الوزير ».

قلت : « هل يختلف متصرف جبل لبنان عن دولتكم بالنسبة للمرجع الاعلى في العاصمة ؟ فلو رأى هذا المرجع ضم لبنان الى بيروت لأشار بذلك الى المتصرف فلا يتأخر عن تنفيذ مقتضى الاشارة ، فتحفظ حينئذ كرامته وكرامة وظيفته » .

قال : « عليك ان تقدر ان مصلحة الدولة تستدعي الغاء امتياز جبل لبنان ».

قلت : « ممن يجب على مثلي ان يتلقى ما تفرضه مصلحة الدولة ؟ أمن رئيسه أم من جاره والي الولاية ؟ أقول ذلك مع مزيد احترامي واجلالي للمزايا العالية التي يتحلى بها كل منكما » .

قال : « اذا لم تستطع بداعي احترامك لرئيسك مساعدتنا فيما يعود لالغاء امتياز الجبل ، فيترتب عليك بأقل تقدير أن لا تعاكس مايقوم به غيرك ممن يسعون الى ذلك ».

قلت : « اني مسؤول عن ادارة الجبل بفضل الثقة التي أولانيها الحاكم ، فكيف أتجاوزها بدون علمه ؟ وهل من فرق في نظر رجال الادارة بين اقتراف العمل المخالف لمصلحة الجبل وبين اغماض العين عنه ؟ »

قال : « سنرى ما يكون » .

ثم افترقنا عند هذا الحد وأنا معتقد كل الاعتقاد ان الوالي يرغب في ضم جبل لبنان الى ولاية بيروت ويسعى الى ذلك بمتنوع الصور ، وربما كانت الوزارة في العاصمة ترى رأيه ولكنها لم تجد ان وقت تنفيذه قد حان ، فعلي وعلى رئيسي حاكم لبنان ، والحالة هذه ، انتظار صدور الأمر عنها لا عن والي بيروت .

ثم أخذت أتساءل عما يترتب علي اختياره عند تناقض المصالح بين الدولة التي أنتمي اليها ولبنان الذي أخدمه ، ثم بين رأي الحاكم الذي أولاني ثقته ومصلحتي الشخصية . فسهل علي تضحية الاخيرة بدون أدنى تردد ، ولكنني وجدت نفسي مقتنعاً بحق لبنان في الاستقلال الاداري وبضرورة توسيع صلاحيات الولاية في بيروت وغيرها من الولايات التي لا تقل رقياً عن العاصمة . ولم تختلف قناعتي عن رأي الحاكم الذي يرى وجوب الحرص على العهد الذي قطعه على نفسه حين تعيينه حاكماً على جبل لبنان بموافقة الدول السبع العظمى ، وشعرت في آخر الامر اني قد نشأت لأخدم الحق في السياسة .

ولما كنت ، فيما يتعلق بوظيفتي ، خاضعاً لأمر رئيسي متصرف جبل لبنان وأمر مرجعه

الأعلى، فعلى هذا المرجع أن يمدنا سراً أو علناً بارادته للعمل على تنفيذها والاّ فالانسحاب من الوظيفة .

غير ان والي بيروت تجاهل ارتباط متصرف لبنان بمقام الصدارة العظمى مباشرة ، وأخذ يستعين بأعضاء مجلس ادارة لبنان لترويج مبتغاه . لذلك أخذوا يكثرون من دعوته الى كل اجتماع يعقد في المدن والقرى اللبنانية ، تارة باسم جمعية الهلال الاحمر وطوراً باسم مؤاساة جرحى الجيش، عدا تلبية الدعوة الى ولائم خاصة يقيمها لتكريم أولئك الاعضاء.

أمام هذه التظاهرات، اكتفى حاكم لبنان باظهار امتعاضه أمام أمين سره ، آسفاً لما تجر اليه السياسة في كثير من الاحيان من سقوط في الاخلاق ومستغرباً عدم مكاشفته من قبل مرجعه الصدر الاعظم أو القائد الاعلى في سورية جمال باشا ، ولو بصورة سرية ما يتطلبه منه الوضع الراهن ، بالرغم من سبق عرض استعداده للاستقالة .

مستودع السر

لما اشتدت الازمة بين الحاكم وأعضاء مجلس الادارة ، بسبب موقفهم المنافي لمصلحة لبنان والموحى به من والي بيروت ورضا باشا ، قاطعهم الحاكم ولم يشأ مجالستهم لا في مكتبه ولا في مجلس الادارة ، مما حال دون مراجعاتهم لأغراض خاصة تتعلق باظهار نفوذهم وتأمين المنفعة لذويهم . فدعاني ذات يوم أحدهم الدكتور زخور العازار الى منزله في بيروت ، للاجتماع مع بعض زملائه والمذاكرة فيما يجب اتخاذه لاحلال التفاهم بينهم وبين الحاكم بدل الجفاء المستمر. فلبيت الدعوة ، وكان عند صاحبها زميلاه أسعد بك لحود ويوسف بك بردويل ، وبعد استعراض الموقف تلخصت شكواهم في اهمال الحاكم مراجعاتهم واجتنابه مجالستهم ومؤانستهم .

هذه حقيقة لم أرتب في صحتها ، وقد سبق للحاكم ان أخبرني عنها . فأما مراجعاتهم ، فتنحصر في مطاليب شخصية وارضاء نزعات حزبية . وأما مجالستهم ومؤانستهم ، فما لا يستطيعه الحاكم نظراً لمزاجه السريع التأثر والانفعال وللفارق الكبير بين ما ألفه وألفوه ، لذلك كان جوابي لهم :

«ترفّعوا عن الطلبات الشخصية وانصرفوا لما فيه مصلحة لبنان ، يصغ الحاكم اليكم ، اتركوا والي بيروت وشأنه ، فما هو مغزى دعوتكم اياه الى الحفلات التي تقام في قرى لبنان بكل مناسبة دون أن يكون لها أدنى صلة بولاية بيروت؟ تجنبوا هذه التظاهرات والتفوا

حول حاكمكم وساعدوه على خلق جو صاف يجمع بينه وبين قائد الفرقة رضا باشا، فيسلم جبلكم من الاضطرابات وتحفظ لكم كرامتكم لدى الشعب اللبناني » . فاعتذروا بأن دوام نفوذهم ومكانتهم انما يتوقف على تعيين نصرائهم في وظائف الحكومة ، لأن العهد عهدهم ولكل زمان دولة ورجال . فاذا لم يجارهم الحاكم في مطلبهم ، فـلا فائدة لهم من تبديل خطتهم . فقلت لهم : « اذاً ينتهي بكم المطاف الى رؤية والي بيروت أو رضا باشا حاكماً على جبل لبنان فيفقد حينئذ امتيازه المضمون بنظامه الخاص » . فأظهروا بحركة بدت على شفاههم وأكتافهم عدم الاكتراث بمصلحة لبنان ، ثم افترقنا على ان يقوم كل منا بما يوحيه اليه ضميره للتقريب بينهم وبين الحاكم ، كما تعاهدنا على كتمان ما جرى بيننا من حديث ولا سيما فيما يتعلق بما يتعرض له لبنان من مصير .

وستبدي لك الايام والحوادث التي وقعت بعدئذ أكان السر في بيت النائب زخور العازار مصوناً أم ذائعاً .

نكتة خازنية

لم يجد رضا باشا قائد الفرقة وأركانه وضباطه أية صعوبة في عاليـه ، حيث توفرت اسباب الراحة بفضل منازلها العديدة المعدة للاصطياف ، وقد تركها أصحابها بمفروشاتها الكاملة حسب سابق عاداتهم .

ومن طريف ما يذكر ، ان حاكم لبنان احتفظ بوجود الشيخ خليل الخازن الرئيس في الجند اللبناني آنئذ قائداً لموقع عاليه ، نظراً لما هو معروف عنه من اللباقة وحسن التدبير وسهولة التفاهم مع الضباط الاتراك ، دون أن يترك لهم مجـالاً للاحتكاك بأهل البلدة والاختلاف معهم . فلم يكن يتوانى عن تلبية مطاليبهم أو الرد عليهم بالتي هي أحسن . وبعد ان انتهوا من مصادرة البيوت المفروشة ، أخذوا يصادرون المنازل الخالية من الاثاث تبعاً لحاجة الضباط . وأخيراً جاء ضابط معيّن عضواً في الديوان العرفي وطلب مسكناً ، فقدم له بيتاً مناسباً لحالته ، ولكنه لم يكتف بما حواه هذا البيت من أشياء ضرورية ، بل رفع الى أمير اللواء رضا باشا قائمة بالاشياء البيتية الكمالية لضمان رفاهيته مع عائلته ، فاحالها الى العقيد وهذا أحالها الى المقدم الذي أحالها بدوره الى قائد الموقع التركي فأحالها هذا الى قائد الموقع اللبناني . فلما تصفحها الشيخ خليل الخـازن وتبين له صعوبة تدارك محتوياتها ، كتب في ذيلها تحت الحوالات السابقة هذه العبارة : « حوالة الى معمل السيوفي

في بيروت » وسلمها الى صاحبها . فغضب من هذه الحوالة الاخيرة وراجع رضا باشا ، فاستدعى اليه الشيخ خليل وسأله عن مغزى حوالته ، فأجابه بأسلوبه الخازني : « لا يمكن وجود الاشياء التي يطلبها حضرة الضابط بموجب قائمته الآ في مخازن السيوفي ومعامله فأحلته اليها » . وكان رضا باشا قد تصفح القائمة من قبل واستفظع كثرة محتوياتها ، فلما سمع جواب الشيخ خليل حتى اغرق في الضحك وقال للشيخ : « دبر بحكمتك ما يمكن الحصول عليه » . وانتهت المشكلة بسلام بفضل النكتة الخازنية .

ومما هو معروف عن اللبنانيين ولا سيما آل خازن الكرام ، انهم يحبون النكتة . فمتى وجد أحدهم مناسبة لها القاها فوراً دون أن يثنيه عنها أمر . وكان أعظمهم شأناً في ظرافة النكتة كبيرهم الشيخ رشيد الخازن ، قائم مقام كسروان فيما سبق ، وقد يليه الشيخ خليل الذي أصبح ، بعد انتهاء الحرب ، مقدماً فزعيماً على الجند اللبناني .

رأيي في الحاكم وموقفه من رضا باشا

حين نقلت الى الحاكم النكتة الخازنية وظهر ارتياحه لها ، أعدت على مسمعه ضرورة التفاهم مع رضا باشا نائب جمال باشا في هذه المنطقة (جبل لبنان وبيروت وملحقاتها) وجرى بيننا النقاش على الوجه الآتي :

الحاكم : « ان تربيتي وتفكيري يحولان دون تقربي من رضا باشا ومحيطه المعروف بل من جميع رجال السلطة العسكرية وتحكمهم في الظرف الراهن » .

الحكيم : « ان الظرف الراهن يقضي على الحكام الاداريين بالانصياع لاوامر السلطة العسكرية . فجمال باشا قائم مقام الباب العالي ووزارة الدفاع في جميع سورية ، ومعتمده في لبنان انما هو رضا باشا دون سواه ، أما مقامك كحاكم جبل لبنان فقد يصبح مهدداً بالانهيار اذا ظل الخلاف بينكما قائماً » .

الحاكم ، وقد سطا التأثر على عواطفه : « اني أفضل ترك الحكم على الانصياع لاوامر رضا باشا ، طالما يحيط به أولئك الاشرار » .

الحكيم : « ان تقرب دولتك منه قد يقصيهم عنه » .

الحاكم : « دعني أستريح » . فانصرفت عنه الى مكتبي آسفاً ، دون أن ينقطع أملي من تأمين التفاهم بينه وبين رضا باشا .

يضطرني الانصاف في هذا البحث الى التصريح برأيي في شخصية الحاكم أوهانس باشا خدمة للحقيقة والتاريخ : انه رفيع التهذيب نبيل العاطفة ، الف معاشرة أمثاله رجال السياسة العظام ، مخلص لدولته ولجبل لبنان ، شريف حافظ للعهد ، ولكنه عصبي المزاج يشكو ألماً في معدته أكثر الاحيان ، لم يألف الادارة الداخلية في ماضي حياته وهو في الوقت عينه صريح في قوله نزيه في تفكيره لا يستطيع الصبر على المكاره ، يأنف الخضوع لامر آمر عرفه من قبل دونه مرتبة وهكذا فاقت محاسنه ما يشكونه منه ، والكمال لله وحده.

وفي صدد كره الحاكم لبعض أعضاء مجلس الادارة ، أصرح بأنه لو كان أطول بالاً وأرحب صدراً وأحسن سياسة في الادارة ، أي لو كان من هذه النواحي مثل غيره من عظماء الولاة الاتراك ، لاستطاع التفاهم معهم والتغلب عليهم وسد أفواههم تارة بالمجاملة وطوراً بشديد المعاملة ، مراعياً في ذلك الظروف التي تنتاب كل انسان مهما سما قدره .

ومن الانصاف ، قبل اتمام هذا البحث ، أن أشيد بذكر الحسيني وثابت والحجار من أعضاء مجلس الادارة الجديد ، فقد تجلت نزاهتهم واخلاصهم لوطنهم وضمائرهم كما ظهر احترامهم لدولة الحاكم وتقديرهم عالي مزاياه ، واستحقوا من أجل ذلك شكر جميع اللبنانيين واحترام رضا باشا نفسه . وقد شاركوني أكثر من مرة في محاولة اقناع الحاكم بالتمسك بالصبر ومسايرة الوضع الراهن ، ولكن صلابته ، كما سبق البيان ، جعلت كل محاولة من هذا القبيل عقيمة .

العقبة الكأداء

لقد اطلعت اثناء وجودي في دمشق ، امتثالاً لأمر القائد الاعلى جمال باشا كما سيأتي بيانه ، على برقية أرسلها اليه رضا باشا قائد الفرقة في عاليه ، وهذه ترجمتها :

« ان وجود يوسف بك الحكيم أميناً عاماً وخاصاً لمتصرف جبل لبنان لما يحول دون السياسة المتوخاة ، بالرغم من اخلاصه للدولة العلية ، فاذا نقل الى مكان آخر يليق بمقدرته ، خارج لبنان ، اضطر المتصرف الى النزول عند طلب الجيش أو الى اعتزال الحكم » .

وعقب ذلك ، وردت برقية من جمال باشا الى حاكم جبل لبنان هذا نصها :

« أرسلوا يوسف بك الحكيم لمقابلتي » .

لما أطلعني الحاكم على هذه البرقية ، أظهرت كامل استعدادي لمقابلة جمال باشا ، غير

خائف من أن يحل بي ما حل بغيري من نفي الى الاناضول ، لاني لم أكن في وقت ما ذا صلة بالاجنبي ولا يمكن لعدو مهما جار أن يصمني بمثل هذه التهمة ، ولاعتقادي ان رضا باشا نفسه لا يفتري على أحد وان كان غير راض عن خطتي الآيلة للاحتفـــاظ بنظام جبل لبنان. ولكن الحاكم أجابني قائلاً : «أخشى أن لا تعود الي اذا سمحت لك بالذهاب الى جمال باشا » .

عبثاً حاولت اقناع الحاكم بصواب رأيي وبعد المداولة أرسل الى القائد الأعلى البرقية الجوابية الآتية :

« ان ابتعاد يوسف بك الحكيم عن حكومة لبنان سيؤدي الى الاخلال بالادارة ، لانه الوحيد الذي اعتمد على خبرته ونزاهته ، فاذا أصررتم عـــلى طلبه ، أرجو أن تتفضلوا بقبول استقالتي » .

وفي اليوم التالي تلقى الحاكم الجواب البرقي الآتي :

« قالسون مراق يتميكز » وترجمته : « ليبق ولا تقلقوا » .

اطمأن الحاكم بعد ذلك على كبير ثقة القائد الاعلى به وعطفه على لبنان ، وبالرغم من التفاف عبيد القوة والمصلحة الشخصية حول رضا باشا وددت لو تكون الصلات بينه وبين حاكم لبنان على ما يرومه المخلصون .

السعي للتفاهم

لما فشل كل سعي قام به محبو السلام ، كما سبق بيانه ، عرضت على الحاكم أن أتصل بنفسي برضا باشا لازالة التوتر القائم بينهما ، فأبى عليّ ذلك قائلاً : « أنت أميني الخاص والعام وكل مسعى تقوم به ينسب الي ولا فائدة منه ، بفرض نجاحك فيـــه ، لان مصير جبل لبنان قد تقرر منذ دخول الدولة العلية الحرب بجانب المانيا ، وقد كان حياد ايطاليا باعثاً للامل في بقاء امتياز لبنان . أما وقد دخلت هي أيضاً الحرب مع دول الاتفاق فلم يبق للبنان من أمل ».

قلت : « وهل من ضرر اذا كان رضا باشا صديقاً لخيار القوم بدلاً من صداقته لأشرارهم » .

قال : « لا بأس في ذلك ولكن ليكن السعي لغيرك لا لك » .

سكت الحاكم قليلاً ثم أردف قائلاً : « بعد معرفتنا المصير المعد للبنان ، هل ترضى ان يلغى امتيازه عن يدنا ؟ »

قلت : « لا ولكن هذا لا يمنعني من السعي بما أمكن من الوسائل الشريفة الحكيمة لاطالة الأمل ، كالطبيب الذي يداوي مريضه وهو يائس من شفائه » .

قال : « ولكن مريضنا في حالة الاحتضار لا ينفع فيه دواء » .

وفي نهاية الحديث ، اضطررت الى الامتثال لارادته وظللت أمينه الخاص والعام بانتظار ما يأتي به الغد .

وبعد أيام ، جاءني قائد الدرك اللبناني ملحم بك حماده شاكياً من حراجة وضعه قائلاً : « اني تابع لرضا باشا من الناحية العسكرية ولدولة حاكم لبنان من الناحية الادارية ، وقد تتعارض هاتان الناحيتان فأتلقى منهما أوامر متضادة فأقع في حيرة من امري » .

وبعد ان تداولنا بحث الوضع الراهن ، لم نجد علاجاً لشكوى محدثي ولا لغيرها مما يزعج جبل لبنان ويخل بادارته ، سوى التفاهم بين الحاكم وقائد الفرقة ، وطلبت من ملحم بك ان يساعدني على تهيئة جو صالح للتفاهم . فوافق على ذلك وأخذ يكثر من مقابلة الحاكم ويعرض عليه فكرة التفاهم ولكن بدون جدوى . فأوعزت اليه ان يبذل مساعيه لدى رضا باشا ، لعله يكون البادئ بالتفاهم والسابق في المكرمات ، فوعدني ببذل اقصى جهوده في هذا السبيل .

بعد عدة ايام ، عاد الي المقدم حماده وأخبرني ان رضا باشا نال وساماً رفيعاً من الدولة العلية فيجدر بالحاكم أن يهنئه به في عاليه أو في بيروت ، ولرضا باشا مكتب في كل منهما ، فتكون هذه الزيارة بدء التفاهم ويتبعها اتصالات جمة . فوافقته على اقتراحه ونقلته فوراً الى الحاكم ، فرفضه أولاً ولكني صبرت عليه وأوضحت له ضرورة هذه الزيارة بعد ان زاره رضا باشا مراراً ، فوافق عليها ورأى فوق ذلك ان يدعو رضا باشا وحده الى الطعام في منزله ، فيخلو لهما جو التفاهم النزيه بصراحة واخلاص تامين لا يشوبه أدنى تحفظ . وفي مساء ذلك اليوم ، قام الحاكم بهذه البادرة وقبل رضا باشا دعوته لتناول الغداء في منزله ظهر الغد الاحد .

رضا باشا يدعو اعضاء مجلس الادارة الى مأدبة الحاكم

وفي صباح ذلك الغد ، الاحد في ٣١ ايار سنة ١٩١٥ جاءني الشاب فاروق بك ابن

رئيس المالية حليم بك المقيم في بيته المجاور لبعبدا حيث أقيم مع والدتي واخوتي ، طالباً ان يصحبني والده الى بيروت اذا كنت عازماً على النزول ، فأجبته بالايجاب وبعد قليل جاء حليم بك وقص عليّ الحديث الآتي :

«كنت الليلة الماضية مع قائد الدرك المقدم حماده وأعضاء مجلس الادارة ، في منزل أحدهم اسكندر الخوري في بيروت ، تلبية للدعوة التي أقامها لتكريم قائد الفرقة رضا باشا . واثناء احتساء المكيفات وتناول المقبلات ، أخبرنا رضا باشا عن زيارة الحاكم له وتهنئته بالوسام ودعوته الى طعام الغداء مع من يشاء من اخوانه ، وأظهر رضا باشا امتنانه لعاطفة الحاكم ورغب في استصحاب الاخوان الموجودين لازالة الخلاف القائم بينهم وبين الحاكم . فساد السكوت برهة ، ثم اقترحت (الكلام لحليم بك) على رضا باشا ان يأمر بابلاغ مقر الحاكم أسماء رجال المعية لتأمين الاستعداد لقبولهم وتهيئة المائدة على حسب عددهم ، فأمر الباشا قائد الدرك أن يهتف الى ابن عمه سعيد بك كبير مرافقي الحاكم ، بأن خمسة عشر ذاتاً يصحبونه على مائدة الحاكم » .

اعتقد محدثي حليم بك خطأ اني سأحضر المأدبة واني ساحول دون ما يحتمل وقوعه من اصطدام الآراء بين الحاكم وأعضاء المجلس بسبب عدم سبق التمهيد لهذا الاجتماع ، فأخبرته ما علمته من ان دعوة الحاكم مقتصرة على رضا باشا دون سواه ، ليصارح فيها كل منهما الآخر برأيه في تسوية الامور بما يضمن رفاهية جبل لبنان ضمن مصلحة الدولة العليا ، ومتى تم التفاهم بينهما يزول القلق المستولي على الموظفين والاهلين معاً . وأخبرته اني بناءً على فكرة اختلاء الكبيرين في هذه المأدبة الخاصة ، قبلت دعوة السيدة الفاضلة والدة الوجيه الكبير يعقوب كرم لتناول الغداء في منزلها ورجوت في ختام الحديث من حليم بك أن يبذل جهده للحيلولة دون حدوث ما يتصوره من اصطدام .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

اسرد ما انتهت اليه مأدبة الحاكم وما سبقها وتلاها في اليوم نفسه استناداً الى اقوال كل من رئيس المالية ودولة الحاكم :

قبل ظهر الاحد ، كان رضا باشا على كرسي المزين (الحلاق) في ساحة البرج ، بينما كان بانتظاره حليم بك وأعضاء المجلس جالسين على رصيف مقهى نجيب الخوري فدعي حليم بك لمقابلة رضا باشا ، فذهب اليه وتلقى أمره بأن يستصحب اخوانه ويسبقوه

الى منزل الحاكم ، فامتثل الامر ممتعضاً في سره . ولما وصلوا الى باب المنزل خرج المرافق سعيد حماده لاستقبالهم وعاد فوراً لاعلام سيده بقدومهم قائلاً : « جاؤوا » . فهرع الحاكم لاستقبال ضيوفه ، معتقداً ان رضا باشا قد استصحب رجاله العسكريين ، فاذا به أمام أعدائه وأبعد الناس عن قلبه . فكتم غيظه على قدر استطاعته وقال لهم : « تفضلوا »ومشى أمامهم الى قاعة الاستقبال . فتبعوه واجمين من منظره الذي ينم عن حقيقة شعوره ، ونظر بعضهم الى بعض شزراً بينما كان حليم بك يلعن في سره تلك الساعة ، ساعة مرافقته اياهم .

ترك الحاكم ضيوفه في القاعة ، ودخل غرفة قرينته السيدة الجليلـــة التي كانت تلزم فراشها لمرض ألم بها من قبل . ولما اخبر بقدوم رضا باشا ، خرج لاستقباله استقبالاً لائقاً به وبمقامه وجلس بقربه يوجه كل حديثه اليه دون سواه .

أخذ رضا باشا يتكلم مفاخراً بمقامه العسكري الاول في بيروت وجبل لبنـــان ونفوذه الحبي على اخوانه الاداريين ، وكان لسلامة طويته وحسن نيته يتخذ اسلوب رجل عظيم يود اصلاح ذات البين بين ابنائه مما يجوز له لو كان هو القائد الاعلى أو الصدر الاعظم. وانتهى الى القول ان الصلح بين الحاكم وأعضاء المجلس ضروري لتأمين سير الادارة ، وانه لهذه الغاية دعاهم الى منزل دولته ومأدبته ولكن الحاكم اكتفى بالاصغاء الى حديثـــه وشد على المنبه الكهربائي فحضر خادم المائدة معلناً ان كل شيء جاهز ، فنهض الحاكم راجياً من ضيفه تشريف المائدة وتبعهما الباقون .

كان الحاكم اثناء تناول الطعام يحاول حصر الحديث فيما يولد السرور في نفوس الآكلين ويزيد في شهيتهم كلما بحث رضا باشا الغاية النبيلة التي من اجلها جـــاء باخوانه ، ولما أحرج الحاكم أجابه : « اشكرك يا حضرة رضا باشا على عواطفك الشريفة ونواياك الحسنة ، وأؤكد لك اني اعرف الشخصيات اللبنانية جيداً لصلتي بهم ويوجد بينهم عظماء ، ولكنهم مع الاسف غائبون » . فنهض النائب اسعد بك لحود ، وكان يتقن اللغة التركية ، محتجاً وقال : « نحن لا نقبل هذا الامتهان من دولة الحاكم » . غير ان رضا باشا تمكن بلطيف كلامه من تسكين حدته ، وعلى اثر ذلك انقطع حديث الصلح بل كل حديث وناب عنه شرب القهوة المرة ، ثم عادوا جميعاً الى قاعة الاستقبال .

فاستأنف رضا باشا حديث المصالحة والتفاهم بأسلوب يؤيد حسن نيته وكرم سجيته فرجاه الحاكم منه ان يترك هذا البحث الى فرصة اخرى ، ولكن رضا باشا أصر على رأيه

بلهجة حادة ولكنها بريئة ، فلم تتحملها أعصاب الحاكم فأجابه :

« انا اعرف يا حضرة رضا باشا كيف يجب ان يدعى هؤلاء الاعضاء الى الطريق السوي » ، وقبل ان يتم الحاكم كلامه صاح النائبان لحود وعازار وهما وحدهما يعرفان التركية : « نحن لا نقبل هذه الاهانة » فنهض حينئذ رضا باشا موجهاً خطابه الى الحاكم : « اردت ان اعمل معك جميلاً فأتيت بأعدائك الى منزلك فقابلتهم بالاهانة فأنا أتحملها عنهم وأفارقك » .

قال ذلك والتفت الى اصحابه قائلاً « هيوا » ، وعبثاً حاول الحاكم تهدئة غضب رضا باشا الذي غادر وصحبه المنزل على غير ما كان يتمناه الفريقان .

التعليق حول مائدة الحاكم

١ ـ لا شك في صحة الواقع المبسوط في البحث السابق ، بعد ان اتفقت عليه كلمة الحاكم ورئيس المالية الرجل المعروف بحياده ونزاهته . وقد دل هذا الواقع على حسن طوية رضا باشا بالرغم من جهله مقتضيات المجتمع السياسي والمدني من أساليب تتفق ومركز الفريقين المتخالفين ، كما دل ، من جهة ثانية مقابلة ، على توتر أعصاب الحاكم توتراً أفقده الصواب في ذلك الظرف الرهيب ، ظرف الحرب التي كانت تهدد لبنان بويلات أقل ما فيها فقده امتيازه . وربما كان اضطراب الحاكم من أجل زوجه العزيزة على قلبه كثيراً ، وهي في فراش المرض ، من جملة أسباب الحالة العصبية التي انتابته خلافاً للمأمول منه .

٢ ـ اذا جاز أساساً لرضا باشا استصحاب من شاء من رجاله العسكريين دون سبق دعوة أو ذكر أسمائهم الى دولة الحاكم ، فلا يجوز له البتة ان يستصحب أعضاء مجلس الادارة اللبناني مع ما هو معروف من انقطاع الصلات بينهم وبين رئيسهم دون سبق استئذانه . ولكن انى لرضا باشا العسكري العتيق الذي قضى معظم حياته في بلاد اليمن والصحراء ان يخطر بباله مثل هذه المراسم والمصطلحات التمدنية التي لازمت الوزير مستشار وزارة الخارجية ومستشار السفارة في روما وغيرها .

٣ ـ تبادر الى ذهني ان اسرع الى الحاكم ضمن ذلك النهار واكرر لديه ما نصه علي رئيس المالية واعرض على دولته ضرورة الالتفات الى اعضاء المجلس اكراماً لرضا باشا الذي تغلبت حسن نياته على الواجبات الاجتماعية ، ولكن اعتقدت آنئذ ان دولة الحاكم

لا يحتاج لمثل هذه النصيحة بعد ان رأى اعداءه في منزله وقد اصبحوا معنوياً في حماه. ولا شك بأن الاسلوب البدوي الذي لازم رضا باشا جعل الحاكم يفسر حديثه بشأن المصالحة بمعنى الاكراه عليها ، وهذا ما لم تطقه نفس الحاكم او تتجاهله .

٤ ــ لو ذهبت الى الحاكم في ذلك اليوم ولم انجح في مسعاي لظن ــ وبعض الظن اثم ــ اعضاء المجلس وقائد الفرقة البسيط التفكير والسليم الطوية بأني السبب المستقل في عدم انصياع الحاكم لامره العسكري ، بدليل ما جرى عقب ذلك في منزل النائب اسكندر الخوري كما هو مذكور في البحث التالي .

ذيل المأدبة في منزل النائب الخوري

غادر رضا باشا وصحبه منزل الحاكم وتوجهوا تواً الى منزل أحدهم اسكندر الخوري ، حيث تناولوا المرطبات تسكيناً لحرارة انزعاجهم وتخفيفاً مما أصاب سيدهم من غضب وكدر بسببهم . ولكن رضا باشا طيب القلب لا يحمل ضغينة على أحد ، وصحبه يعرفون فيه هذه المزية العالية ويخشونها لانها لا تؤدي الى ما يرومون ، فما العمل لاستغلال الحادث .

اذكر ما جرى في هذا الاجتماع نقلاً عن حليم بك رئيس المالية وقد وصفه بأنه تمثيل روائي قام بأهم ادواره أعضاء المجلس !

حين كان رضا باشا محولاً أنظاره الى ما وراء النافذة من مناظر لكي ينسى الحادث أو يتناساه ، وقف أسعد لحود مقطب الحاجبين من شدة التأثر (المصطنع) قائلاً : « لا تتكدر يا سعادة الباشا لان الاهانة على جسامتها قد وقعت علينا نحن لا على سعادتك ، فطب نفساً ونحن نعرف كيف ننتقم من الحاكم » .

العازار (رداً على زميله لحود) : « ما قيمة هذا الحاكم ، فليأمر سعـــادة الباشا بما يراه بشأنه وعلينا تنفيذ الامر » .

الاسود : « اطمئنوا يا اخوان ، اليوم خمر وغداً امر ، ليس فينا من يقبل هذه الاهانة » .

لحود (وقد اغرورقت عيناه بالدموع) : « نفسي فداك يا مولاي الباشا ، أستحلفك بالله أن لا تتكدر ، صحتك غالية علينا وعلى البلاد ، ثق بأن الحاكم عصبي المزاج لدرجة الجنون لا يعرف نتيجة عمله الفظيع بحضرة قائد الفرقة ممثل قائد الجيش الاعلى » .

العازار : « ليس الذنب ذنبه (الضمير للحاكم) بل ذنب مستشاره الحكيم الذي كان يتلقى منه الكلام في كل مرة يغادر قاعة اجتماعنا » .

(كان الحاكم يغادر الاجتماع في كل فترة للاطمئنان عن حالة زوجه المريضة وهرباً من حديث المصالحة الذي كان يكرره رضا باشا ، فأراد الطبيب زخور أن يوهم رضا باشا بأني كنت في غرفة ثانية لإيغار صدره عليه) .

بعد ان اكثروا من هذه الاقاويل المثيرة ، نهض رضا باشا من مكانه الى أمام المنضدة وطلب ورقاً للكتابة ، فأجيب الى طلبه فوراً وكتب الى قائده الاعلى جمال باشا برقية ذكر فيها سعيه لمصالحة الحاكم مع اعضاء المجلس واستصحابهم الى منزله وما صدر من الحاكم من امتهان لا يرضى عنه أي رجل شريف ، وأقسم في ختام البرقية بشرفه العسكري على انه لا يبقى في لبنان ما دام اوهانس باشا حاكماً فيه .

ارسلت هذه البرقية بدون تأخير وقضى الاخوان بعدها ليلة سمر تطييباً لنفس رضا باشا ، وتنشيطاً له في ثأره من الحاكم ورجاله ، ولم يدر في خلدهم انهم بخطتهم هذه يمهدون السبيل للقضاء على امتياز جبل لبنان البلد الامين الذي نشأوا فيه ونعموا بخيراته في ظل نظامه الخاص .

الفصل التاسع

آخر عهد أوهانس باشا قيومجيان

استقالة الحاكم على اثر دعوتي لمقابلة جمال باشا

دلنا الاستنتاج من مجمل الحوادث الحربية آنئذٍ على ان قائد الجيش الاعلى في سورية الحائز على الصلاحيات الواسعة من عسكرية وادارية لا يستغني عن وجود رضا باشا قائد الفرقة في لبنان وبيروت، كما لا يمكنه في الظرف الراهن البت من تلقاء نفسه في استقالة الحاكم من منصبه الدولي بدون موافقة الباب العالي، لتعلق ذلك بسياسة الدولة العامة. فرأى بعد برقية رضا باشا حلاً وسطاً لارضائه ريثما تبت العاصمة في أمر الحاكم، كما ظهر من برقيته الواردة عصر الخميس ٤ حزيران سنة ١٩١٥ ومصدرها القدس :

« الى متصرف جبل لبنان — ارسلوا يوسف بك الحكيم لمقابلتي وقد اعلمت بذلك قائد الفرقة رضا باشا ».

كنت مع الحاكم في منزله ببيروت حين تلقى هذه البرقية، فاضطرب لدى تلاوتها ايما اضطراب وقال : « لقد وصل الامر الى حده الاخير، فعلي ان استقيل فوراً ». فهدأت روعه وعبثاً حاولت تعديل فكرته، وللوقت دخل علينا كبير مرافقيه سعيد بك حماده قائلاً : « ان عريفاً مع اثنين من الجنود اللبنانيين يطلبون مرافقة يوسف بك الى رضا باشا في عاليه ». فأجبته بموافقة الحاكم ان ينتظروني قليلاً، ثم استأنفت محاولتي اقناع

الحاكم بالعدول عن الاستقالة فلم يقتنع بل ازداد غيظاً حين رأى الجنود تأتي منزله بطلبي ، ثم امرني بكتابة البرقية التالية :

« دولة قائد الجيش الرابع — ان معتمدي الوحيد في حكومة جبل لبنان يوسف بك الحكيم لم يكن حاضراً الاجتماع الذي استاء رضا باشا من نتيجته ، فاصراركم على طلبه اضطرني الى الاستقالة وتسليم حليم بك رئيس المالية مقاليد الحكم بالوكالة » .

وقع الحاكم البرقية وأمر بارسالها ثم أخذ يسرد علي ما يبرر استقالته على الوجه الآتي :

١ — لم يعد ادنى امل ، بعد دخول ايطاليا الحرب ، بابقاء الدولة العثمانية على امتياز جبل لبنان ، بل لا بد لها من جعله لواءً مرتبطاً مباشرةً بوزارة الداخلية .

٢ — ان استمراري في الحكم بعد الحالة السالفة الذكر يزيد في نقمة رجال الجيش عليَّ وفي خلق المشاكل التي تحرجني بينما تمهد استقالتي السبيل للباب العالي باتخاذ ما يراه من اجراءات ، بدلاً من ان يكون مسؤولاً دولياً عن اقالة حاكم منتخب بموافقة الدول الاوربية العظمى .

٣ — ان ما حل بالارمن وغيرهم من الاقليات العثمانية من نكبات لم يبق في نفسي نشاطاً على العمل مع عسكريين لا يقيمون في الغالب وزناً لحسن الادارة واحترام القوانين.

٤ — ان حاكماً تركياً مدنياً حائزاً على ثقة الحكومة في العاصمة وثقة جمال باشا معاً ليستطيع العمل لخير اللبنانيين والوقوف في وجه مطامع رضا باشا واعوانه الى ان يقضي الله بما يشاء .

بعد هذا الحديث الصادر عن سياسي خبير استأذنته بالانصراف على ان اعود اليه مساء غد الجمعة قبل سفري لمقابلة جمال باشا .

مكالمة هاتفية مع رضا باشا

غادرت منزل الحاكم ممتطياً مركبة خيل يرافقني عريف رضا باشا ، ولما وصلنا الى بعبدا دخلنا بناءً على طلبي دار الحكومة حيث اسرعت الى الهاتف مكلماً رضا باشا على الوجه الآتي :

الحكيم : « امتثالاً لامركم وعملاً ببرقيــة دولة جمال باشا غادرت منزل الحاكم وأتيت بعبدا بصحبة عريف الجند ، فهل يجب ان اسافر فوراً الى دمشق فالقدس ام تسمحون ببقائي يومين مع والدتي واخوتي لاتمم معدات السفر ؟ »

رضا باشا : « لا مانع من تأجيل سفركم المدة التي ترونها » .

الحكيم : « اشكركم يا حضرة الباشا » .

رضا باشا : « لا يوجد ما يستلزم الشكر والمهم ان تكون بصحة جيدة » .

كان العريف الذي رافقني بأمر رضا باشا على مقربة مني حـين قمت بهذه المكالمة هاتفياً ، ففارقته وذهبت الى منزلي في بعبدا شاعراً بأن هدف رضا باشا هو الخلاص من الحاكم لا الإساءة الي .

وحي العاطفة

تظاهرت امام والدتي واخوتي بملء النشاط والارتياح لتناول طعـام الغداء معهم ظهر اليوم التالي بدعوة من جارنا الصديق اللطيف الوجيه الدكتور فارس الملاط وعائلته ، في بستانهم الجميل الواقع بالقرب من الحازمية .

وحين صرنا في البستان ، اخذت الهج بجميل ذكريات القدس ويافا حيث كنت قاضياً مدة عام ونصف تقريباً (من ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٠ حتى آخر حزيران سنة ١٩١١) منوهاً بمكارم الاخلاق والمزايا العالية التي تحلى بها اهلوهما ولا سيما اصدقائي وهم كثر ، ممهداً بذلك لتهوين وقع سفري على اهلي وخلاني ، دون ان يخامرني ادنى قلق على مصيري سواء أبقيت في الوظيفة ام انفككت عنها .

الوداع في منزل الحاكم

جئت منزل الحاكم عصر يوم الجمعة مستصحباً جميع مخابراته المكتومـة من خطية ورقمية ، وهي المخابرات التي رفعها الى مقام الصدارة العظمى واراد الاحتفاظ بها . فسلمته اياها تطميناً لراحة باله بمقابلة وصول يتضمن تواريخها وأرقامهـا ، وبعد ذلك نظر الي

الحاكم وعيناه مغرورقتان بالدموع نظرة الوالد العطوف الخائف على مصير ولده ، وحدق بي لحظة كأنه يريد خلالها تخفيف الحزن المستولي عليه ليستطيع النطق ثم قال :

« أيوسف لقد قمت بواجبك كأمين عام لحاكم جبل لبنان احسن قيام، كما قمت فوق ذلك بكل ما يمكن ان يقوم به رجل شريف غيور على مصلحة امته وبلده ورئيسه في احرج الاوقات، حتى خاطرت بمستقبلك وربما بنفسك في سبيلي وسبيل لبنان . والآن تغادرني دون ان اعرف مصيرك ، فان بقينا من الاحياء كنت مديناً لك بحياتي والاّ فان الله يكافئك عني » .

لم يتم هذه العبارة حتى بدأت عيناه تذرفان الدمع سخياً . فقلت له : « مهلاً سيدي ، اني لم اقم الاّ بالواجب المرتب عليّ نحو دولتي ونحو لبنان العزيز على قلبي وحاكمه الذي شرفني بعظيم ثقته وكان لي بمقام الوالد ، على اني جد مسرور من سفري لمقابلة جمال باشا ، فأشرح له حقيقة الحال وأعود ظافراً باذن الله » .

قال : « لا تطعن امام جمال باشا بعامله رضا باشا ، فكلاهما تركي ولا يغضب احدهما الآخر من اجلك وأجلي فتحل نقمة الاثنين عليك لا سمح الله » .

قلت : « كن مطمئناً يا مولاي فلن اقول الاّ الحقيقة التي ناصرناها معاً دوماً ، ولم تكن الازمة الحاضرة بالنسبة الي اعظم مما اصابني من متصرف طرابلس حيث كنت نائباً عاماً ادافع عن المظلوم فأبعدني استبداداً عن مقر وظيفتي ولكن العدل ، العدل الذي سارت عليه الوزارة التركية آنئذٍ ، قضى باقصاء المتصرف التركي عن منصبه وسوقه الى المحاكمة واعادني الى وظيفتي معززاً مكرماً ، وبفضل هذه النتيجة الباهرة عرفتموني ودعوتموني لخدمة لبنان، وحوادث التاريخ تتكرر والعاقبة للمتقين » .

لحظت اثناء ذلك على وجه الحاكم انه يريد التكلم ولكنه لم يستطعه ، ثم رفع عينيه الى العلاء داعياً لي بالتوفيق في الذهاب والاياب ورسم بيمينه اشارة الصليب على وجهي. ولما نهضت لوداعه قال : « ألا تودع برجوي ؟ » (وهذا اسم قرينته المريضة في فراشها ، وهي سيدة نبيلة جمعت في نفسها افضل الخصال التي تزين المرأة الفاضلة) .

قلت : « من كل بد ، اذا لم يكن من ذلك انزعاج لها » .

فأخذني بيدي الى غرفتها وهي في الفراش ، وقد امتلأت عيناها بالدموع فلم استطع ان افوه بكلمة خشية البكاء ، فأسرعت الى تقبيل يدها وخرجت فتبعني زوجها ولما

GOUVERNEMENT DU LIBAN

Youssouf Bey Hakim

صورة الغلاف الذي تضمن الشهادة المكتوبة بخط يد اوهانس باشا للمؤلف . وفيما يلي ترجمتها :

انا الموقع بذيله حاكم جبل لبنان اعلن ان يوسف بك الحكيم المنتمي الى اسرة شريفة في اللاذقية ومن موظفي العدل العثمانيين قد اخترته بنفسي وعينته اميناً عاماً للتحريرات التركية في لبنان فقام بمهام وظيفته مدة سنتين وكان لي مساعداً قيماً سواء باتقانه اللغتين العربية والتركية وآدابهما العالية وبعميق دراسته الحقوقية بالاضافة الى ذكائه وحكمته ومقدرته على العمل النادرة المثال وبخلقه المستقيم واخلاصه وكامل تجرده ونزاهته . لذلك وبعد قناعتي واختباري له اعطيته هذه الشهادة متضمنةً اعتباري وخالص تقديري .

٥ تموز سنة ١٩١٥

الخاتم والتوقيع

متصرف جبل لبنان

اوهانس قيومجيان

de travail peu commune,
son caractère droit et loyal
et sa parfaite intégrité.
C'est avec conviction
et après l'avoir éprouvé que
je lui donne ici le témoi-
gnage de mon estime et
de ma considération toute
spéciale.

Beyrouth, le 5 Juillet 1918

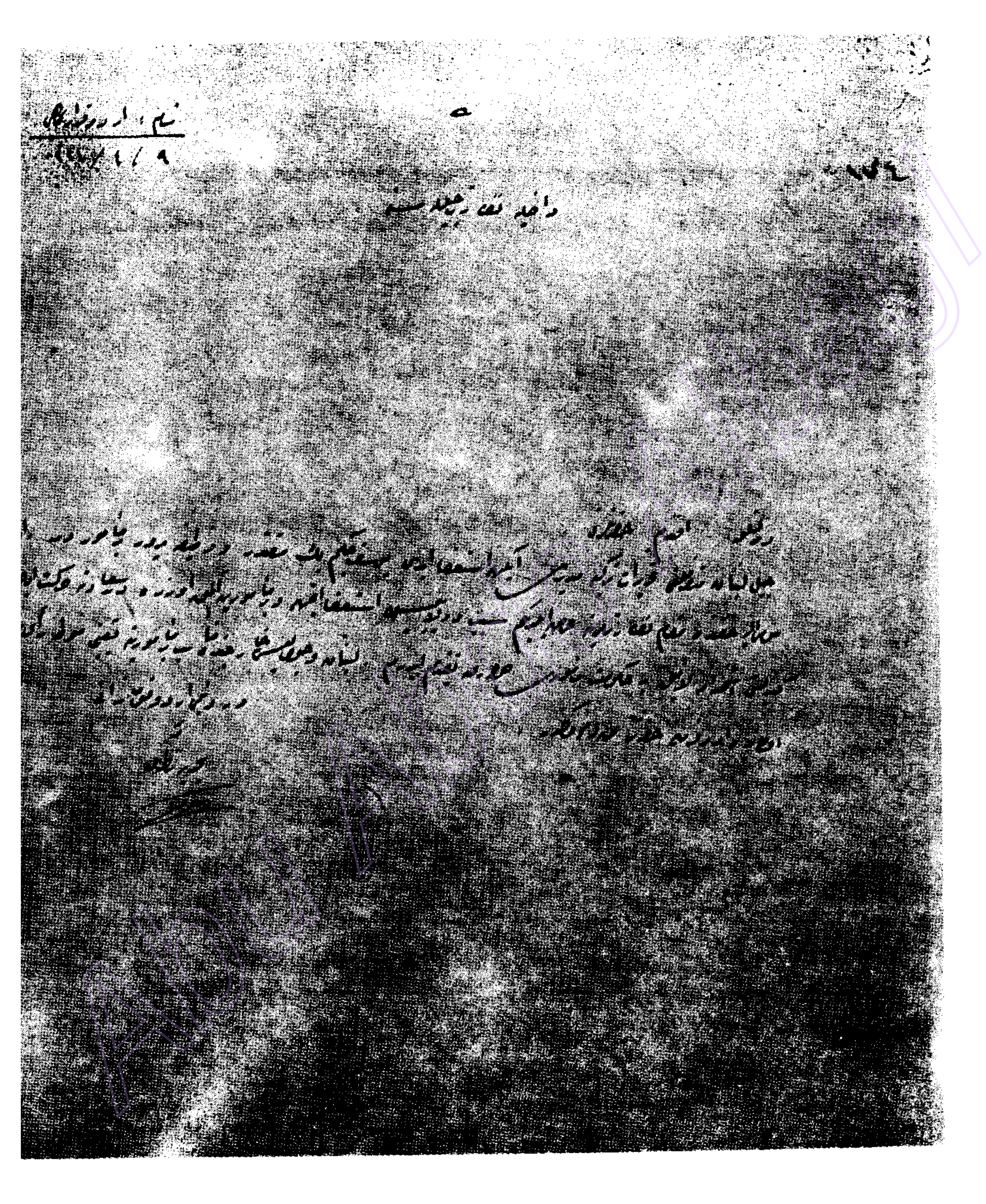
H. Cuyoumdjian

صورة الشهادة التي كتبها اوهانس باشا بخط يده للمؤلف (ص ٢)

Je soussigné, Gouverneur du Liban, déclare que Youssouf Bey Hakim, appartenant à une honorable famille de Lattakié, ancien fonctionnaire judiciaire Ottoman, a été choisi et nommé 1er Secrétaire Général pour la Correspondance en langue turque du Liban et qu'il a occupé ce poste important pendant plus de deux ans.

Youssouf Bey Hakim a été pour moi un collaborateur précieux, aussi bien par sa connaissance parfaite et supé-rieure des deux langues, turque et arabe ainsi que de leurs littératures, par son étude approfondie du droit Ottoman que par son intelligence et sa sagacité, sa capacité

صورة الشهادة التي كتبها اوهانس باشا بخط يده للمؤلف (ص ١)



صورة الكتاب الذي وقعه جمال باشا طالباً من وزارة الداخلية تعيين المؤلف خارج لبنان وسورية وحواليهما

ابتعدنا قليلاً عن غرفتها ضمني بين ذراعيه الى صدره وأخـــذ يذرف الدمع واضعاً فاه على خدي لكي يحول دون صوت بكائه فيصل الى سمع زوجته . وبعد ان بلل وجهي بدموعه ، تخلصت منه بلطف حرصاً على تخفيف ألم الفراق عن كل منـــا وانسحبت من امامه وهو يمد ذراعيه نحوي حتى خروجي من باب المنزل .

ان الشهادة الخطية التي اعطانيها الحاكم لا تزال محفوظة عندي وهي تدل على عظم ثقته بي وتقديره ما قمت به من خدمات طول مدة وجودي في حكومة جبل لبنان . اما كتابة الشهادة باللغة الفرنسية بدلاً من التركية لغة الدولة الرسمية ، فنـــاشئة عن اعتقاده بخسارة الدولة العثمانية وحلفائها الحرب وجلائها عن هذه البلاد التي ستكون من نصيب فرنسا في بادئ الامر ، وهكذا كان ولكن الى حين .

الفصل العاشر

حول مقابلة جمال باشا

في الطريق الى دمشق ومقابلة رضا باشا في عاليه

عدت مساء ذلك اليوم الى منزلي في بعبدا وأخبرت والدتي واخوتي ان القائد الاعلى جمالاً امر بأن اقابله في دمشق او القدس ، وتظاهرت امامهم بعظيم الانشراح لهذه السياحة القصيرة ، فقابلوا كلامي بارتياح يخفي ضمنه شكاً برزت آثاره على ملامح وجوههم رغماً عنهم. وفي ذلك الوقت ، زارني صديقي العزيز الوجيه سليم طربيه قادماً من طرابلس وطلب ان يرافقني الى دمشق حيث يستقصي من الدوائر العسكرية اخبار اخيه الطبيب الموظف في الجيش مع غيره من الاطباء اللبنانيين ، فأجبته بأن مرافقتي قد تسبب له نقمة الملتفين حول رضا باشا ، فأصر على رأيه غير عابئ بأمرهم ، فشكرته على عاطفته التي انشرح لها طبعاً صدر امي واخوتي .

امتطينا صباح السبت مع رفيقي سليم مركبة السفر من بعبدا قاصدين دمشق . ولما وصلنا عاليه ، استوقفنا جندي لبناني قائلاً ان رضا باشا ينتظرنا في مقره . فلبينا الدعوة التي كانت في ذلك الظرف بمثابة امر عسكري ، ودخلت وحدي اليه في مكتبه فأحسن استقبالي وأظهر لي عطفاً ولطفاً كبيرين ودعاني الى طعام العشاء في بيته حيث نقضي السهرة بلعبة الواحد والثلاثين (اوتوز بر) ، وهي لعبة ورق يشترك فيها رضا باشا مع اصحابه وقت الفراغ من العمل ، دون ان يكون لها ميزة لعب الميسر ، وبعد استئذانه قدمت له صديقي سليم طربيه فرحب به ودعاه معي ، فقبلنا الدعوة شاكرين وتفاءلنا منها خيراً قد يؤثر في المصير الذي انتظره من هذه الرحلة .

فرصة الوفاء لاصدقائي الزحليين

لما خرجنا من مكتب رضا باشا ، التقينا بجماعة يقارب عددهم العشرين من كرام الزحليين مدعوين الى الديوان العرفي بتهمة عزاها اليهم قائم المقام نعيم بك صوابا ، تتلخص في كونهم ينشرون بين الشعب اخباراً كاذبة تثير الرأي العام ، كعزم السلطة العسكرية على تجنيد اللبنانيين وسوقهم الى ميادين الحرب. وحين رأوني اقبلوا علي يصافحونني شاكين غدر مواطنهم ، فعدت فوراً الى رضا باشا وشهدت لديه بحميد خصالهم ورجوت عطفه عليهم وبينهم صديقي الكريم اسعد نكد وامثاله النجباء الغيّر الذين كانوا يحيطونني برعايتهم كلما زرت زحله الوفية ، حتى ان جريدتها الراقية « زحلة الفتاة » كانت تنعتني بحبيب الزحليين ، فوعدني رضا باشا خيراً وبر بوعده في اليوم نفسه ، وعاد الاصدقاء الى بلدهم احراراً ، وقد اعتبروا قيامي بهذا الواجب الزهيد جداً جميلاً يذكرونه في كل مناسبة .

في منزل رضا باشا

نحو الساعة الثامنة مساءً ذهبت والرفيق الصديق سليم الى منزل قائد الفرقة الكائن في الحي العالي من عاليه ، فوجدنا عنده رئيس اركان حربه المقدم محمد اسماعيل ، وهو دمشقي رفيع التهذيب ، انيس المعشر ، واسع العلم ، كما وجد غيره من كبار ضباط الفرقة . واثناء احتساء ما يجلب الشهية وأهمه العرق اللبناني الذي يفضله رضا باشا على غيره من المشروبات ، دعاني القائد المشار اليه الى خلوة في غرفة مجاورة ، وأخذ يبث لي شكواه من عناد الحاكم الارمني وتصلبه في رأيه ، غير آخذ بالسياسة العليا التي تتوخاها الدولة ، وصرح لي بأنه يأمل ان اعود قريباً بعد مقابلتي جمال باشا حاكماً على لبنان ، وأضاف الى ذلك ان نجاحي يتوقف على حسن الاسلوب الذي يجب علي اتخاذه حين المقابلة ، فكنت اصغي الى حديثه دون أن أجيبه بكلمة سوى كلمة الشكر على نبيل عواطفه لاني اعتبرت في قرارة نفسي عودتي حاكماً على لبنان ، اذا قدر لي ذلك ، قد تثير الشك في اخلاصي لجبل لبنان وحاكمه الذي أولاني كامل ثقته ، بالرغم من عناده في امور شتى منها عدم اتباعه نصيحتي بأن يحسن التفاهم مع رضا باشا الطيب القلب والبدوي المعشر ، فيسهل عليه بعد ذلك قيادة اعضاء مجلس الادارة الذين يخضعون للقوة حيث كانت .

لم أبح لرضا باشا بما كان يدور في خلدي، خشية ان ينقم علي فيفسد مراحل سفرتي، كما لم اوافقه على رأيه خوف ان يطالبني فيما بعد بتحقيق ما أقوله أو أتعهد به، بل كنت اكتفي بمقابلة لطيف حديثه باعلان اعتقادي بشرفه ونزاهة ضميره التي ترفعه دوماً عن الانزلاق فيما يسعى اليه النمامون، آسفاً لسوء التفاهم بينه وبين الحاكم الذي يكن له كل تقدير واعجاب، واذا قصر حيناً عن الترحيب بضيوفه فلأنه كان يشكو ألماً في معدته، وقد ازعج اعصابه فوق ذلك مرض زوجته، الأمر الذي يدعوه الى طلب الاستراحة من عناء العمل. فوافقني على حسن سيرة الحاكم ولكنه انتقد ضيق صدره عن معاشرة اخوانه وأضاف قائلاً: « ان مثل هذا الحاكم لا يستطيع العمل في الظروف الراهنة »، وختم حديثه متمنياً لي النجاح في الذهاب والاياب.

في حضرة جمال باشا

في صباح اليوم السابع من حزيران سنة ١٩١٥، امتطيت وصديقي سليم مركبة الخيل الى زحله، حيث وافاني الصديق الوفي الغيور يوسف لوند وأصر على مرافقتنا، وقد أذهب عني مشقة السفر طلاوة حديث الرفيقين. ولما وصلنا مساءً الى دمشق، قرأنا في صحفها خبر الاستعداد لاستقبال الفريق جمال باشا القادم صباح الغد، فسررنا لخلاصنا من طول الطريق حتى القدس.

وفي الوقت المعين لوصول الباشا، كنت في قصر المشيرية بين المستقبلين، ولما تقدمت منه مهنئاً بقدومه الميمون، شكرني بلطف وأمر بأن اقابله في المقر العام (فندق دامسكوس بالاس).

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، أدخلني المرافق لمقابلته في الغرفة الكبرى المعدة لاستقبال زائريه، وبعد مبادلة التحية جلس في مكانه وأشار الي بالجلوس امامه ثم فاجأني بقوله: « يوسف بك! أهكذا يدار جبل لبنان؟ »

استنتجت من سؤاله على هذا الوجه انه أصبح كغيره يعتقد خطأ أو يظن ان ادارة حكومة جبل لبنان ملقاة بكاملها على عاتقي لا يخالفني الحاكم في شيء منها، فأجبته قائلاً: « لست حاكم لبنان يا سيدي الباشا، اني مدير رسائله وكبير أمناء سره ».

قال: «لا تقل مثل هذا الكلام لي، لأني أعرف المدير الحقيقي لحكومة جبل لبنان».

قلت: « اني يا سيدي أقدم الرأي لرئيسي، فان قبله أمر بتنفيذه واذا رده لم يبق

لي ما أقوله ، ولا بد لي من الاعتراف بتصلب رأيه في معظم الامور ، فـاذا سمحتم لي أتيت على ذكر حادثين من هذا القبيل ».

قال : « تكلم ! »

قلت : « كانت العادة المتبعة ، مع كل أسف ، ان يتدخل قنصل فرنسا في بعض الشؤون الادارية بحجة المحافظة على حقوق الموارنة ، وقنصل بريطانيا العظمى بحجة حماية حقوق الدروز ، وقنصل روسيا فيما يتعلق بـالارثوذكس ، وكان المتصرفون فيما سبق يستمزجون بأسلوب لا يخل باستقلالهم اولئك القناصل قبل تعيين كبار الموظفين . ولكن اوهانس باشا قيومجيان خالف هذه العادة حين اقصى عن الوظيفـة قائم مقام كل من قضائي البترون وكسروان . ولما لفت نظره أحد رؤساء المصالح القدامى الى الخطة التي كان سلفاؤه يسيرون عليها ، اجابه « بأن جبل لبنان بلد عثماني لا يختلف في عثمانيته عن سائر الولايات ، فلا دخل لقناصل الدول الاجنبية في ادارة شؤونه، بل تنحصر مهمتهم في مراقبة اعمالي من ناحية المحافظة على نظامه، فاذا أتيت ما يخالفه أخبروا به مراجعهم».

حينئذٍ قلت له : « ألا ترون ، يا دولة المتصرف ، من المصلحة معرفة ما اذا كان في المرشحينَ الجديدين من مطعن يمكن ان يستند اليه القنصل لدي احتجاجه على تعيينهما في حال عدم سبق اقتراحه بشأنهما ، فتحولون بذلك دون انزعاج الباب العالي بشكوى السفارات التي تجعل من الحبة قبة عند كل خـلاف ، مهما كان بسيطاً ؟ » فأجابني : «كلا ، أريد أن أتجاهل تلك العادة السيئة وأحول دون تدخل أجنبي في الجبل ».

وكانت النتيجة يا دولة الفريق ، ان المتصرف نفذ أمره ، وبعد قليل من الزمن وردت برقية رقمية من مقام الصدارة العظمى تنبئه بشكوى سفارة فرنسا من اهماله التقاليد القديمة فيما يتعلق بتعيين قوام المقام ، وتطلب منه الايضاحات المقتضبة لاعطاء السفارة الجواب على شكواها . وبعد مخابرات اقتضت بعض الوقت، انتهت القضية بسلام بفضل التدبير الحكيم الذي اتخذه الباب العالي . وفي اعتقادي يا دولة الفريق انه لولا بالغ الثقة التي يتمتع بها اوهانس باشا لدى اولياء الأمر ، لكان في أقل تقدير عرضة لمواصلـة السفارة وقنصليتها ازعاج الباب العالي بشكاوى لا تقف عند حد » .

لا شك بأني بالغت أمام جمال باشا في تحميل نفسي عار الوقوف على رأي الاجنبي اتباعاً للتقليد المستمر الذي ذكره احد رفاقي القدامى خليل بك الخوري ، رئيس القلم العربي ، وقد دفعني الى هذه المبالغة حرصي على انقـاذ رئيسي قيومجيان باشا من كل

تهمة أو شبهة سياسية قد تأتي من احد اعدائه، بعد ان سمعت رضا باشا في عاليه ينعتـه بالارمني ، في حال وجود العنصر الارمني محكوماً عليه بما يشبـه الابادة ، مشرداً عن اوطانه ومنفياً الى سوريا تحت محافظة الجنود ومراقبتهم . لم اشعر بأني اتعرض لأي خطر في سبيل الدفاع عن رئيسي الشريف بفضل ثقتي بنفسي البريئة من كل صلـة مع القنصليات الاجنبية ، وقد وفقني الله فيما توخيته من الخير لرئيسي بدليل الجواب الذي تلقيته من جمال باشا فيما يلي :

قال : « لا شك في اخلاص اوهانس باشا لدولته ، ولكن الشكوى منـه في الوقت الحاضر تتعلق بسياسته، وانت ايضاً مسؤول عنها . وعلى كل حال، فقد قدم لي استقالته، فهل انت على استعداد لتنفيذ السياسة العليا التي تتطلبها مصلحة الدولة العلية في لبنان ؟ وهي لا تخرج عن اعتباره كسائر الولايات والمتصرفيات المستقلة المرتبطة مباشرةً بوزارة الداخلية ، فنعتمدك ونمحضك كامل ثقتنا».

قلت : «كان المتصرف اوهانس باشا عرض على مقـام الصدارة العظمى ، قبيل دخول الدولة العلية الحرب ، استقالته من منصبه ليعين بدلاً منه حاكم اداري ، اذا رأت الظرف مناسباً لالغاء امتياز جبل لبنان ، فلم يتلق منها جواباً ، فظل مثابراً على عمله .

« والواقع، يا دولة الباشا ، ان الشعب اللبناني ناعم باستقلاله الاداري تحت ظل العلم العثماني، وجبل لبنان، كما تعلمون جيداً، يختلف عن سائر الولايات من ناحيتين : اولاهما ادارية تتعلق بالصلاحيات ، فهي في لبنان واسعة بالنسبة لمتصرفه ، ضيقة بالنسبة لمجلسه الاداري المؤلف من نوابه ، بينما تطالب الولايات بتوسيع صلاحيات مجالسها العامة المحلية. والثانية مالية ، فان طبيعة جبل لبنان الصخرية بمعظم مساحته، لا تحتمل اية زيادة في الضرائب ، فاذا طبقت فيه انظمة الولايات تحملت الدولة سد العجز في ميزانيته . هذا هو رأيي اعرضه بكل اخلاص والامر لدولتكم ».

قال : « لقد قيـل لي انك ضد فكرة الغاء امتياز جبل لبنان ، وكلامك يدل على ذلك » .

قلت : « نعم يا سيدي، هذه هي فكرتي الخاصة المبنية على ما عرضته من اسباب، ولكنها لم تكن موضوع بحث في وقت من الاوقات، بانتظار جواب الصدارة العظمى على برقية المتصرف السالفة العرض » .

قال : « ألم تقل يا يوسف بك لفريق من اعضاء مجلس الادارة اللبناني ما حرفيته : كفوا عن مقاومة المتصرف، والا استقال من منصبه وحل محله رضا باشا أو والي بيروت، فيفقد لبنان استقلاله ، ألم تقل هذا الكلام ؟ »

قلت : « نعم يا سيدي ، قلته بقناعة وراحة ضمير ، لأني ادافع به عن خطة عالية يسير عليها رئيسي الوزير العثماني المخلص كل الاخلاص لدولته العلية ، وتربيتي العثمانية لا تسمح لي بخيانة رئيسي . اما ذكري « فقد لبنان استقلاله » اذا استقال المتصرف اوهانس باشا ، فمقصود فيه ان يرعوي اعداؤه عن مقاومته، والا اصبحوا خونة في نظر جميع اللبنانيين الحريصين على ذلك الاستقلال الاداري ، فهل في كلامي يا دولة الباشا خطأ يستوجب المؤاخذة ؟ »

قال : « لا خطأ ولا مؤاخذة في الامر ، ولكن الوضع السياسي يستدعي خطة جديدة ، فاذا كنت مخالفاً لهذه الخطة فما عليك سوى تقديم استقالتك لتعيينك خارج لبنان ».

قلت : « أهذا هو العدل ؟ »

قال : « لا ، بل هو مقتضى السياسة ، اتريد ان تكون قائم مقام في قضاء البقاع وهو قريب ؟ »

قلت : « اقدم استقالتي ، ولكني لا اقبل وظيفة قائم مقام بعد ان سبق فأوحيتم بتعييني متصرفاً في احد الالوية » .

قال : « انا لا ازال راغباً في تعيينك متصرفاً ، ولكن طلعت باشا (وزير الداخلية ، الذي اصبح بعدئذٍ رئيس الوزارة) لم ير رأيي فاقنع الآن بما هو دون المتصرفية » .

قلت : « اكتفي يا مولاي بعطف دولتكم » .

قال : « اين تفضل الاقامة بعد الاستقالة من الوظيفة ؟ »

قلت : « اذهب الى اسطنبول حيث يوجد من يعرفني ».

قال : « حسناً تفعل ، وأنا ازودك بكتاب الى وزارة الداخلية فتعينك في منصب يليق بك . (قال ذلك وأمر فوراً باستدعاء امين سره الرئيس (يوزباشي) زكي بك ، وأمره ان يسطر الى وزارة الداخلية كتاباً بالموضوع نفسه مضافاً اليه الاشارة الى سابق المخابرات بهذا الشأن ، ثم التفت الي جمال باشا قائلاً) : « غداً تأخذ الكتاب بيدك » .

وقبل ان استأذن بالانصراف ، دخل والي سورية خلوصي بك ، فقدمني جمال باشا

اليه بوصفي من كبار مدراء حكومة جبل لبنان ، وحين خرجت من لدنهما دعاني الوالي الى زيارته .

قمت في اليوم نفسه بزيارة الوالي ولقيت منه كل عطف ، واستنتجت من حديثه انه غير راض من الخطة التي يسير عليها جمال وهي خطة التفريق بين العنصرين العثمانيين الكبيرين التركي والعربي وخطة التضييق على الاحرار من سوريين ولبنانيين ، ورأيت منه تشجيعاً لسفري الى الاستانة بعد ان عرف صلة الصداقة التي تربطني بصاحب الدولة والسماحة خيري افندي شيخ الاسلام السابق ، الذي يجله جميع عـــارفيه من الاتحاديين وغيرهم ، نظراً لصفاته العالية النادرة المثال بين اعاظم الرجال .

الاستئناس برأي الاصدقاء

ذهبت مساء ذلك اليوم مع رفيقَي السفر الى حدائق القصاع ، حيث التقينا بعدد من الاصدقاء السوريين واللبنانيين — اذكر منهم السادة وديع بك طربيه و بشاره كرم من طرابلس ، وحبيب بولس من اللاذقية ، والشيخ فيليب واخيه الشيخ فريد الخازن من جبل لبنان — الذين نفوا من بلدانهم الساحلية لعلاقتهم ببعض القنصليات الاجنبية وأقاموا في دمشق اقامة موقتة بأمر السلطة العسكرية — وهل من سلطة لغير جمال باشا — ولـــا حدثتهم بما دار بيني وبين القائد الاعلى ، حذروني من السفر الى العاصمة للصعوبات التي تعترض المسافرين اثناء الطريق ، فبين حلب وأضنا مسافة طويلة يضطر المسافر لقطعها راكباً على ظهر الخيل ، في طريق وعرة المسالك لم يبق فيها قيمة لدم الرجل .

لم يجد الخوف الذي كان يشعر به هؤلاء الاصدقاء سبيلاً الى قلبي ، بالرغم من ثقتي بصدقهم واخلاصهم ، اعتقاداً مني انهم بحكم وظائفهم الفخرية في القنصليات ، تأثروا بدعايتها التي تبعد عنهم الثقة بدولتهم ومواطنيهم ، بينما كنت ، بعـــد اتمام دراستي في معاهد الدولة ، قاضياً صريحاً في اقوالي منتصراً للحق حيث كان ، فلم اشعر في ماضي حياتي بفرق بيني وبين التركي فيما يختص بنظر الدولة ورعايتها ابناءها ، الا اذا اشتبهت باخلاصهم لها . واعدت الى اذهان الاصدقاء ذكر قضيتي مع متصرف طرابلس التركي الجنس ونتيجتها العادلة . ولكن الذي كنت اخشاه هو تعرضي اثناء الطريق ، بعد خروجي من سورية ، لرجال شعب التجنيد ، باعتباري من ابناء اللاذقية مكلفاً بخدمة العلم ، وقد كنت مستثنى منها بفضل وظيفتي . اما وقد استقلت منها ، فزال هذا الاستثناء ،

فاذا امنت من هذه الناحية سافرت الى العاصمة بملء الرضى والارتياح ، متكلاً على الله سبحانه وتعالى .

العودة الى المقر العام

في صباح اليوم التالي ذهبت الى المقر العام ، ولما صعدت درج الطابق الاول ، وقع نظري على جمال باشا وهو يمشي مرتدياً معطف غرفة النوم ، فحولت وجهي عنه تأدباً وهممت بالرجوع الى الوراء، فناداني قائلاً : « وقعت على الكتاب فخذه من زكي بك ». ولما دخلت مكتب هذا الامين ، أحسن استقبالي وأجلسني بقربه ، وقدم الي الكتاب مظروفاً مغلقاً ، فرجوت ان يطلعني على مآله لاتمكن من احاطة اصدقائي في العاصمة علماً بمضمونه . فاستاء زكي بك من طلبي قائلاً : « ان ما كتبه دولة الباشا بشأنك لم يسبق ان كتب مثله بحق أحد ، ولكنكم مع الاسف لا تسلمون من الشك بحسن نوايانا » ، ثم شق الظرف وأعطاني الكتاب ، فقرأته وكتمت امتعاضي من خاتمته وهذه ترجمته حرفياً :

« الى وزارة الداخلية الجليلة .

« اقدم لدولتكم يوسف بك الحكيم مدير رسائل حكومة جبل لبنان ، وقد استقال من وظيفته للاسباب التي عرضتها في كتابي السابق ، ولما كان قادراً على ادارة المناصب الهامة بكل جدارة و نزاهة ، ارجو ان تتفضلوا بتعيينه لوظيفة تليق به ، على ان تكون خارج جبل لبنان وسورية وحواليهما .

التوقيع
قائد الجيش الرابع وناظر البحرية
جمال ».

بعد قراءتي الكتاب ، اعدته الى زكي بك شاكراً لطفه ، ولكي اخفف عنه الاستياء البادي على وجهه قلت له : « كان يكفيني ان تخبروني عن مآل الكتاب او تطلعوني على مسودته دون ان تفضوه» . وبعد ان تسلمته ضمن الظرف الجديد غير مغلق، ودعت زكي بك وخرجت انتظر الوقت الذي يمكنني من مقابلة جمال باشا قبل سفره مع حاشيته الى حلب في ذلك اليوم .

المقابلة الثانية

عدت بعد ساعة من الوقت الى مقر القيادة،فوجدته غاصاً بجمهور المودعين وطالبي المقابلة ، من رجال الحكومة وغيرهم ، يتقدمهم الوالي ومدير رسائلـــه وعبد الرحمن باشا اليوسف عضو مجلس الاعيان . ولما طلبت من رئيس المرافقين محي الدين بك مساعدتي لاتمكن من مقابلة دولة القائد ، اضاف اسمي الي الاسماء الواردة في القائمة امامه ، وقد تجاوزت العشرين اسماً ، وأشار الي بالجلوس والانتظار . ولما خشيت ضيق الوقت وفوات فرصة المقابلة ، تقدمت منه قائلاً: « هل توافقوني على ان اقدم معروضاتي كتابة ، فاذا اكتفى بها صاحب الدولة انصرفت ، والا انتظرت ما يأمر به ؟ »

فاستحسن الرأي وأعطاني ورقة بيضاء كتبت عليها العبارة الآتية :

« لا يسعني يا دولة القائد الاعلى ، قبل سفركم الموفق بعنايتـــه تعالى ، الا ان اقدم الشكر لأحد عظماء ابطال الانقلاب العثماني ، ثم اعرض اني استقلت من وظيفتي بسبب الوضع السياسي دون سواه كما امرتم ، واني عازم على السفر الى العاصمة مزوداً بتوصيتكم الغالية . ولكني تذكرت اخيراً اني تابع للخدمة العسكرية اذا كنت خارج الوظيفة بعيداً عن المنطقة المشرفة بقيادتكم،فضلاً عن صعوبة السفر بين حلب وأدنه . فاذا انقذتموني من مشقة السفر ونفقاته الباهظة وأبقيتموني تحت انظاركم العالية ، ازددت امتناناً لعطفكم مولاي المعظم » .

اخذ رئيس المرافقين عريضتي الى دولة القائد ثم عاد وأدخلني اليه ففاجأني بقوله : « سررت لما ذكرتموه في كلمتكم فلا موجب لذهابكم الى العاصمة » .

فقلت : « أين تأمرون ان ابقى » . فقال : « تعود الى لبنان ، وهذه كلمة مني الى رضا باشا » . فشكرته مكتفياً من الغنيمة بالاياب ، مردداً قول الشاعر :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على ان قرب الدار خير من البعد .

يدعوني الانصاف قبل ختام هذا البحث الى الجهر بموقف القائد جمال باشا مني ، فقد اتاح لي ، على ضعفي وسمو مقامه ، فرصة الدفـــاع عن نفسي وعن رئيسي بملء الحرية ، وأصغى الى حديثي وناقشني في معظمه شأن الحاكم المدقق في امور الدولة . اما اقصائي عن وظيفتي ، فكان اتباعاً للظرف السياسي الذي اشار اليه وعلاقته بمصلحة الدولة العليا . ومع ذلك فلم يهمل مصيري ،وهو الحاكم المطلق الصلاحية في هذه البلاد،

بل عرض علي وظيفة قائم المقام في قضاء البقاع المجاور للبنان ، وكان فوق ذلك رفيع التهذيب رحب الصدر مع محدثيه مهما صغر شأنهم .

العود احمد

عدت ورفيقي سليم طربيه الى زحله بعد ان سبقنا اليها الصديق العزيز يوسف لوند ، فوصلناها مساءً وحللنا فندق قادري حيث وجدنا قائد الفرقة رضا باشا محاطاً بصحبه من عسكريين ومدنيين ، وبينهم اسعد لحود والدكتور زخور العازار . وبعد القاء التحية ، رحب بنا رضا باشا ترحيباً حاراً ودعانا الى الجلوس معهم امام مائدة مرطبات ومكيفات ، وكنت اقربهم اليه فقدمت له بطاقة القائد الاعلى فرفعها الى رأسه قائلاً : « اهلاً وسهلاً بكم » . ثم دعانا بلطف والحاح لمشاركتهم في جلستهم ، فلبينا الدعوة وأقبل علينا الاصدقاء الزحليون الكرام مسلّمين ومرحبين وامارات السرور طافحة على وجوههم النضرة ، بينما يمحضهم رضا باشا شكره على صدق مودتهم ووفائهم .

لقد خصني رضا باشا في تلك الجلسة بعطف بارز في حديثه ونظراته ، مما دلني على انه يكن لي في قلبه منزلة محبة واعتبار . ولماذا لا يكون كذلك ، واختلافنا ينحصر في الخطة والمصلحة العامتين ، دون ان يعترض تعارفنا اي عداء او غرض من الاغراض الشخصية التي لم يسلم منها صحبه من طلاب الوظائف .

في صباح اليوم التالي عدنا الى بعبدا حيث تجلى الفرح الاكبر على وجوه أمي واخوتي ، وشاركهم فيه اهلي وجيراني وخلاني.. وبعد استراحة يومين بينهم ، ذهبت الى بحمدون حيث اختار اوهانس باشا بعد اعتزاله الحكم ، الاصطياف مع عائلته في فندق الراهبة انسطاس . فاستقبلاني والدموع تنهمر على خدودهما وضمني الباشا الى صدره وقبلني مراراً ، ثم اخذت اقص عليهما كل ما جرى في سفرتي ، فكانا مسرورين داعيين لي بالتوفيق .

حديث اوهانس باشا بعد اعتزاله الحكم

قضيت في بحمدون خمسة ايام قريباً من اوهانس باشا قيومجيان ، بتناول الحديث عما يمكن ان تجره الحرب على الدولة العثمانية وعلى جبل لبنان ، فكان مما قاله : «انه لم يشعر براحة بال الا حين اعتزل الحكم ، اذ لم يكن مستطاعاً لديه توحيد العمل مع القادة العسكريين في زمن الحرب خاصة ، لما بين مسلكه الاداري السياسي ومسلكهم من شاسع البون .

كان اوهانس باشا ضعيف الأمل بانتصار الدولة العثمانية وحلفائها في نتيجة الحرب، لذلك كان يأسف لخوضها غمارها ويفضل بقاءها على الحياد، ومن رأيه انه اذا انتصرت الدولة فقد لبنان امتيازه وأصبح كسائر الالوية المستقلة الشبيهة بالولايات. اما اذا خسرت الحرب، زال ظلها عن لبنان وجميع البلدان العربية. وكان يعتقد ان جبل لبنان يصبح تحت نفوذ فرنسا، بينما تكون البلدان العربية من نصيب الاسد البريطاني. ولم يخف عني تألمه مما اصاب بني جنسه الارمن من نكبات، وقد شاهد بأم عينه الآلاف من النساء والشيوخ والاطفال يساقون الى سورية سوق السوائم بل سوق المضطهدين المعذبين وهم ابرياء من كل اثم.

بعد مدة شهر، سافر اوهانس باشا مع عائلته بالقطار الحديدي الى العاصمة اسطنبول، مذكوراً بمزاياه العالية وفي مقدمتها اخلاصه لدولته ولجبل لبنان واتباعه دوماً صوت ضميره الحي.

الراعي الصالح

الراعي الصالح، كما عرفه السيد المسيح له المجد، هو الذي يبذل نفسه عن الخراف، وهذا هو معنى التضحية الصحيحة التي ترفع الانسان عن طبيعته البشرية الى درجة الكمال، والكمال لله وحده.

واذا وجد في هذا العصر من ضحى براحته وبكل ما وصلت اليه يده من خير ومال في سبيل رعيته بل في سبيل المعوزين من جميع الناس متشبهاً بالكمال، فهو المثلث الرحمات البطريرك التقي المفضال العلامة الذائع الصيت غريغوريوس حداد اللبناني الارثوذكسي، بطريرك انطاكية وسائر المشرق، وقد لقب بعدل بالراعي الصالح.

بعد اسبوع من مغادرتي دمشق الى بعبدا (لبنان)، اوفد الي الراعي الصالح امين سره الخوري فكتور (الذي انتخب فيما بعد مطراناً على ابرشية نيويورك)، وبعد ان رحبت بقدومه تفضل علي بالحديث الآتي:

« ان صاحب الغبطة سيدنا الجزيل الاحترام يهديك بركته ويدعو لك وللاسرة الكريمة بدوام العافية ويوصيك بالصبر على صروف الدهر وبالمحافظة على كرامتك، لأن الملة بحاجة الى جهودك في مستقبل قريب ان شاء الله. اما حاجتك المادية بعد انقطاع

راتب الوظيفة عنك ، فيعوض صاحب الغبطة عنها شهرياً ، وقد حملني اليك الدفعة الاولى » .

قال الخوري فيكتور ذلك وقدم لي خمسين ليرة عثمانية ذهباً ، فأجبته قائلاً : «اشكر سيدنا البطريرك المعظم على عطفه الابوي ، عطف الراعي الصالح الذي يسهر على رعيته حيثما كانت وفي مختلف الظروف وأشدها ، مما يجعلني احتمل بصبر وقوة جنان ما تأتينا به ظروف الحرب وصروف الزمان . ولما كنت ،حمداً لله ، غير محتاج للمال بل استطيع مساعدة غيري من الاخوان المحتاجين، اعيد الهدية مؤكداً لغبطته استعدادي لقرع باب فضله اذا دعتني الحاجة الى ذلك » .

قبل انقضاء ثلاثة اشهر على زيارة رسول الاب الاقدس ، استجاب الله ادعيته الصالحة وفرج الكرب عني حين اصدر القائد الاعلى امره بتعييني رئيساً للجنة ترجمة القوانين في جبل لبنان براتب يقرب من راتبي السابق كما سيأتي بحثه .

ليست السعادة في الحصول على وظيفة في ذلك العهد بالنسبة لامثالي، ولكن اسنادها من قبل القائد الاعلى مباشرةً يوحي رضاءه عني واهتمامه بشأني فيتهيب الاعداء — ولا يخلو منهم انسان — الموقف وينقلبون من الوشايات السياسية الى الزلفى .

الفصل الحادي عشر

فترة الانتقال

ادارة متصرفية جبل لبنان بالوكالة

في السادس من حزيران سنة ١٩١٥ ، تسلم حليم بك، رئيس المالية التركي الجنس، مهام متصرفية جبل لبنان بالوكالة على اثر اعتزال اوهانس باشا قيومجيان الحكم، كما مر، وأخذ الوكيل الحليم بما عرف عنه من تأن وحياد ، يدير شؤون المتصرفية ، مستعيناً في بادئ الامر بمن بقي على رأس وظيفته من موظفي المصالح معاونة متصلة بقوة الاستمرار، ثم استسلم لارادة قائد الفرقة رضا باشا وحاشيته استسلاماً اعمى بصيرته . ولكن الله انقذ الحالة حين عين بأمر جمال باشا ، حسين الاحدب قائم مقام البقاع مديراً للرسائل، وهو من وجهاء بيروت ومن قدماء موظفي الولاية، معروف بواسع العلم والخبرة الادارية والمزايا الاخلاقية ، ولقد كنت منتظراً هذا التعيين منذ سألني جمال باشا عما اذا كنت اقبل وظيفة قائم المقام في البقاع .

بدأ خلفي عمله بداءة حسنة، ولكنه ما عتم ان مل كثرة تدخل اللواء رضا باشا واعوانه في كل شاردة وواردة من اعمال الحكومة الانتقالية ، ولا سيما في املاء الشاغر من الوظائف . ولم يطق هذا التدخل البشع الذي يحط من قدر الحكومة وثقة الناس بها، دون ان يستطيع التغلب عليه نظراً لضعف وكيل المتصرف بازاء كل سلطة عسكرية ، فآثر حسين بك الاقتصار في عمله على اوليات ما تفرضه وظيفته منتظراً الوقت المناسب للانسحاب من هذا المحيط .

دعوتي الى الخدمة العسكرية

لم يكن عندي شك في صدق رضا باشا ورجاله العسكريين في جميع اقوالهم ، لذلك تلقيت بشكر وارتياح ما اعلنوه عن سرورهم بعودتي من دمشق ، سرور جميع اللبنانيين عدا فئة معروفة بصغار النفوس لم تستطع اخفاء شرارة الاضطراب البادية على سيمائها ، وفي سقيم بيانها واحتفائها . فأخذت تكيد لي خوفاً من عودتي الى الوظيفة في لبنان ، كما كادت لغيري من كبار الموظفين ، ولكن بطريقة جديدة ظهر اثرها في الخبر الآتي .

لم يمر على عودتي من مقابلة جمال باشا شهر من الزمن حتى تلقى وكيل متصرف جبل لبنان كتاباً من رئيس شعبة اخذ العسكر في بيروت هذا نصه :

« لما كان يوسف بك الحكيم المتولد في اللاذقية تابعاً لخدمة الجيش ارجو تبليغه وجوب الالتحاق بفرقته الموجودة في الحفير (جنوبي فلسطين) واعلامي تاريخ سفره ».

استدعاني حليم بك وكيل المتصرف ، وأطلعني على هذا الكتاب وسألني عما يستطيع فعله في سبيلي . فأجبته بأني لا اكلف صديقي شططاً ، بل اكتفي بأن يعرض القضية على دولة القائد جمال باشا ، وامره فوق كل امر . فعمل حليم بك بطلبي ، وتلقى بعد اسبوع من القائد المشار اليه جواباً على كتابه الحاشية التالية :

« ان يوسف بك الحكيم مستثنى من الخدمة العسكرية كما لو كان باقياً على رأس وظيفته » .

تسلمت هذا الجواب بعينه شاكراً ، وجعلته في محفظتي وثيقة عسكرية طول ايام الحرب. ومن دواعي افتخاري باخلاصي لوظيفتي ،اني لم اضطر لابراز هذه الوثيقة لأحد من رجال القوة العامة ، لاني لم اتعرض قط لسوال عن وثيقة عسكرية سواء في بيروت او في جبل لبنان ، وذلك بفضل قوة الاستمرار في خدمة الدولة مما كان يوحي الى موظفيها ، كباراً وصغاراً ، بقائي في عدادهم .

خلا لك الجو

بعد ان ظفر رضا باشا باعتزال اوهانس باشا الحكم ،اصبح هو الحاكم المطلق التصرف في شؤون جبل لبنال ، فأسكرته نشوة الظفر ، كما اسكرته في معظم الليالي موائد المدينين لفضله بما احرزوه من مناصب ووظائف وارتزاق ، دون ان يكون له مطمع في مال .

ولكن زهد الحاكم عن المال لا يضمن وحده صلاح الادارة ، اذا كان اعوانـه الملتفون حوله لا يتورعون عن ارتكاب كل دنيئة في سبيل ابتزاز مال الناس بمختلف الصور. هكذا كانت حال رضا باشا حين اصبح صاحب الكلمة العليا في جبل لبنان ، دون ان يلقى اي اعتراض او تحذير من قبل وكيل المتصرف او غيره . لذلك لم يستطع قائد الفرقة معرفة حقيقة الحالة التي يشكو منها لبنان ، فلو عرفها لابعد عنـه اعوان السوء الذين يلازمونه صباح مساء ، وقد اوهموه اخيراً ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يرددون آيات الثناء على خصاله الحميدة واخـلاصه لجبل لبنان ، ويرغبون في اعداد سيف ذهبي مرصع بالحجارة الكريمة ليقدموه لسعادته رمز تقدير لافضاله على جبل لبنان . والفوا لهذه الغاية لجنة من اخصائهم وشركائهم في المنافع تقوم بجمع المـال من الاهلين ، فجمعت ثمن السيف اضعافاً مضاعفة ملأوا بها خزائنهم حتى ضج الناس وعمت الشكوى وطرقت اسماع كبار الاتراك في بيروت ، فلم يستطيعوا السكوت عن هذه المهازل المحطة بسمعة الدولة العثمانية في جبل لبنان، فنقلوا ما تحققوه الى دولة القائد جمال باشا . وكان في طليعة اولئك الكبار الغيّر على شرف الدولة وحسن سمعتها ، العالم الكبير كاظم بك ، وزير الداخلية السابق الذي استقال من الوزارة لانحراف سياستها عن مبدئه واختار الاقامة في بيروت لتدوين مؤلفاته . وقد كان من نتائج مساعيه اخـيراً لدى جمال باشا ان عدل عميله رضا باشا عن خطته وعدل في بطانته بعض التعديل ، وأخذ يتقرب من أفاضل القوم ممن كان يظنهم فيما سبق اعداء له ولدولته ويعاشرهم مستفيداً من نصائحهم ، مما جعله يعتقد ، كما صرح لكثيرين ، بضرورة بقاء جبل لبنان مستقلاً استقلالاً ادارياً بحتاً يتفق مع طبائع اهله ونشأتهم ، بخلاف ما هي عليه بيروت المدينة التجارية العظمى .

جمال باشا في صوفر

كان القائد الاعلى في سورية جمال باشا قـد اختار قصر المرحوم بطرس داغر في رويسات صوفر مصيفاً لعائلته ، ولما جاء صوفر في اواخر آب عام ١٩١٥ ، هرع لاستقباله ذوو المناصب العالية وغيرهم من الاصدقاء والوجهاء وأرباب المصالح الخاصة . وكان بين رجال حاشيته الزعيم (ميرالاي) المتقاعد طيار بك ، الذي عرفني منذ جاء للتحقيق في ثورة الجند اللبناني ، وقد سبق ذكرهـا . فلما شاهدني في قاعة الاستقبال بين سائر المستقبلين ، بعيداً عن القائمين بمقتضيات التأهيل والترحيب بقدوم الزائر الكريم ، تقرب مني وجلس بجانبي وسألني عن سبب انزوائي ، فأجبته بأني معتزل الوظيفة . ولما استغرب

ذلك ، وعدته بايضاح السبب في فرصة اخرى . غير انه اخبرني في نهاية الاستقبال انه نسيب جمال باشا ، واستصحبني في سيارته الى قصر رويسات صوفر حيث قصصت عليه ملخص الحالة . فأظهر مزيد الاهتمام بأمري، واعداً باحاطة القائد الاعلى علماً بها .

وفي نهاية الاسبوع ، خفت نخبة من الكبراء والوجهاء لوداع القائد المشار اليه المسافر الى القدس ،اذكر منهم الشيخ يوسف سرسق عضو مجلس الاعيان والفرد سرسق ومبعوث بيروت ميشيل ابراهيم سرسق والامير فؤاد ارسلان ، وكنا جميعاً في ساحة الطابق الارضي من فندق صوفر الكبير ، منتظرين نزول دولة جمال باشا من الطابق الاول . وحين نزل محاطاً بصحبه ، تقدم نحوي وصافحني قائلاً : « يوسف بك ! ان الدولة بحاجة الى خدماتك فلا يجوز ان تبقى بلا عمل . لذلك أمرت بتأليف لجنة لترجمة القوانين التركية الى العربية واخترتك رئيساً لها ، ويكون معك عضوان ، أحدهما عسكري أعينه مباشرة ، والثاني مدني أعينه بناءً على اقتراحك ، فتدوم مهمتك هذه ريثما تعينك الدولة في وظيفة تليق بك وتتناسب مع اقتدارك ». فشكرته على عطفه وأخذ الحاضرون يهنئوني على هذا الالتفات العالي قبل التهنئة بالوظيفة . وكان الامير فؤاد ارسلان أبلغ المهنئين حين قال لي في قصر ميشيل ابراهيم سرسق ، حيث اجتمعنا بعد مغادرة الركب صوفر : « لا تنس ان كلمة جمال باشا هي الارادة السنية ، فهنيئاً لك بها » .

لا شك بأن كلمة فؤاد كانت عين الحقيقة، لان جمالاً كان يتمتع في منطقة قيادته الواسعة بصلاحيات الوزراء منفردين ومجتمعين ، ولا سيما في أمر صغير كاحداث لجنة ترجمة القوانين وتعيين أركانها . ولكن الجدير بالذكر ان فكرة ترجمة القوانين من التركية الى العربية لتطبق في لبنان لدليل على قرب الغاء امتيازه .

لجنة ترجمة القوانين

باشرت مهمتي في هذه اللجنة بتاريخ ٢ ايلول سنة ١٩١٥ ، ودامت عشرة أشهر ترجمت خلالها ما يقرب من عشرين قانوناً ونظاماً وتعليمات ، مبتدئاً بما يتعلق منها بالدرك. وقد طبع معظمها في مطبعة الحكومة اللبنانية ، وأخذت بهذه الوسيلة علاقتي برضا باشا ورجاله تزداد توثقاً ، فخشي من ذلك الفئة المناوئة ، ومنها أكثر من واحد في مجلس الادارة ، فعملت عبثاً كل ما في وسعها للايقاع بي عند رضا باشا .

طلبت في نهاية الشهر راتبي ، فأحال امره وكيل المتصرف الى مجلس الادارة لتعيين

مقداره . فحار في أمره زمناً الى ان أقر اخيراً اعطائي اجرة يومية بدلاً من المرتب الشهري ، ذهاباً منه الى ابعادي عن ملاك موظفي الحكومة وتنفيري من الوظيفة. فلم أغضب لقرارهم ، وقد اعتدت بعد هجمات أمثالهم الفاشلة على الصبر ، فأبرقت الى القـائد الاعلى شاكياً تصرفهم المعيب ، وبعد يومين ورد الى مقام المتصرفية امره البرقي الاتي :

« ان مرتب يوسف بك الحكيم عن رئاسة لجنة ترجمة القوانين هو نفس مرتب وظيفته السابقة ، فلا دخل لاعضاء مجلس الادارة بشأنه ».

وفيما يلي بيان ما ترجمته من التركية الى العربية من قوانين وأنظمة وتعليمات :

١ ــ القوانين والتبليغات الواردة في مجموعة الدرك .
٢ ــ تعليمات تتعلق بملابس الدرك .
٣ ــ نظام جمع الاعاشات .
٤ ــ تعليمات وزارة الامور النافعة بشان الطرق والمعابر .
٥ ــ نظام صرفيات الطرق والمعابر .
٦ ــ تعليمات عامة عن تعميرات الطرق وحدالتها .
٧ ــ تعليمات بشأن التعهدات وشروطها .
٨ ــ ضريبة فتح الطرق وتعبيدها .
٩ ــ قانون الرسوم البلدية .
١٠ ــ تعليمات بشأن اتلاف الجراد ووظائف اللجان المقتضية لذلك .
١١ ــ تقارير وتعليمات بشأن اوصاف الحيوانات .
١٢ ــ تعليمات تتعلق بمعاملات افراد الدرك .
١٣ ــ تعليمات قيادة الجيش الرابع بشأن محافظة الخطوط الحديدية .
١٤ ــ نظام سجل النفوس وتشكيلاته الادارية .
١٥ ــ تعليمات بشأن تنظيم سجل احوال ضباط الدرك .
١٦ ــ تعليمات قيادة الدرك بشأن اطلاق النار .
١٧ ــ وظائف الضابطة الصحية .
١٨ ــ تعليمات تتعلق بموازنـة الدرك وكيفية صرف الرواتب وتنظيم الامور الحسابية .

قيادة الدرك اللبناني بيد ضباط الجيش التركي

كان ملحم بك حماده قائد الدرك اللبناني من خيرة القادة ، قرن حسن العمل بالخلق الحسن وأخلص لواجبات وظيفته بازاء مرجعه العسكري والمدني . ومع ذلك فقد صدر امر قائد الجيش الاعلى جمال باشا بنقله الى مركز قيادة الفرقة في عاليه ، وعين محله في قيادة الدرك المقدم وحيد بك الجركسي ، فكان مع الأسف أسوأ من عرفهم جبل لبنان من القادة ، قليل الخبرة في امور الدرك ، لا يعرف شيئاً عن جبل لبنان ، ضيق الصدر مولعاً بالنميمة والقاء بذور الفساد والفتنة بين رفاقه الضباط اللبنانيين ، ظاناً انه في بلاد عدو احتلها الجيش التركي . ولما شعر جمال باشا بالخطأ في تعيين أمثاله في ذلك الزمن الذي يعد زمن تمهيد للعهد الجديد، أمر بنقله الى خارج لبنان وتعيين المقدم (بيكباشي) وفيق بك، وهو رجل تركي حازم وحسن الادارة ، مع لطف وتهذيب بارزين في حديثه ومعاملة موظفيه وسائر ذوي المصالح ، لم ير فيه علة سوى تدخله في آخر عهده في شؤون القمح الوارد الى جبل لبنان ، مما أوجب نقله ايضاً وخلفه المقدم طاعة بك، فكان من خيرة الاتراك والامراء العسكريين علماً وخلقاً ، وقد ظل في قيادة الدرك حتى انسحاب الجيش التركي كما سيأتي بيانه .

قائم مقام الشوف الامير عادل ارسلان

لما استقال نسيب بك جنبلاط من منصب قائم مقام الشوف في عهد اوهانس باشا، خلفه الامير توفيق مجيد ارسلان ، وقد تميز بالحزم وحسن الادارة ، لا يقل عن سلفه نزاهة في الوظيفة ولطفاً في معاشرة اخوانه ومعاملة ذوي المصالح ، ولما عيب عليه سابق حسن صلاته بقنصل بريطانيا العام مستر كمبر باش ، اقصي عن الوظيفة بأمر القائد الاعلى جمال باشا ، فخلفه الأمير عادل ارسلان ، الشاب المتحلي بأفضل مزايا الرجال. فكان اول عمل قام به هو انه اتخذ بلدة عاليه مركزاً لقضاء الشوف بصورة مستديمة ، بدلاً من بعقلين صيفاً والشويفات شتاء ، وتمكن بهذه الطريقة وبحزمه المعروف وقوة ارادته من الاتصال يومياً بقائد الفرقة رضا باشا والحيلولة دون تدخله المباشر في شؤون القضاء ، فان كان له مطلب ما يتعلق بمصلحة الجيش راجعه هو بشأنه ، وهكذا رفع هذا الامير العادل القدير ، الحيف عن الشوف وأهله ، على قدر الاستطاعة في ذلك الظرف العسكري الرهيب .

الفصل الثاني عشر

تطوّر الحالة في بيروت

مصير الوالي بكر سامي بك

ان والي بيروت بكر سامي بك ، الذي كان يسعى منـــذ بدء الحرب الاوربية الى الغاء امتياز جبل لبنان وضمه الى ولاية بيروت ، لم يفز بأمنيته ، فقد نقل الى حلب ، ومنها الى الاناضول ، على اثر خلاف في الصلاحيات نشب بينه وبين جمال باشا صاحب الكلمة العليا في منطقة قيادته الواسعة الارجاء . فغـــادر بكر سامي بك بيروت في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٥ وألسنة وجهائها تلهج بالثناء عليه ، بينما شكر اللبنانيون العزة الالهية التي انقذت جبلهم من اساليبه الآيلة للقضاء على استقلاله الاداري.

لا شك في مقدرة بكر سامي بك على ادارة الولاية بحزم وحسن تدبير مع توفر العلم والوجاهة والتهذيب في شخصيته المحترمة ، فقد احتل أسمى مقام في اندية بيروت ومجتمعاتها بين الأسر العريقة في الوجاهة والثراء دون أن يشكو منه أحد من اهل الولاية ، عدا بعض كبار الاتحاديين الذين اقصاهم عن النيابة والوظائف لاحلال المعارضين طلاب الاصلاح محلهم . والحقيقة انه لولا تدخله في شؤون لبنان توصلاً لضمه الى الولاية ، لظل صديقاً لجميع اللبنانيين الذين لم يقصروا في الاحتفاء والترحيب به ، ولا سيما في فصل الصيف . غير ان تدخله هذا كان في اعتقاده لمصلحة دولته السياسية ، فان لم يسلم هذا التدخل من النقد المرير من جهة المثالية المفروض وجودها في نفوس العظماء فقد رآه البعض بارزاً في معظم الدول بما فيها التي احرزت اوفر نصيب من المدنية وتبوأت اقامة التوازن الدولي

عزمي بك والي بيروت

جاء عزمي بك بيروت في ٨ تموز سنة ١٩١٥ خلفاً للوالي بكر سامي بك ، وقد سبقت قدومه شهرته الواسعة منذ كان متصرفاً في طرابلس ، متصفاً بالحزم وقوة العزيمة وحسن الادارة والنزاهة وحب العمران الى أقصى حد . وكان أول عمل انساني قام به بعد قدومه الى بيروت ، اقناعه دولة القائــد الاعلى جمال باعادة المنفيين الطرابلسيين السادة بشاره كرم ، الترجمان الفخري لدى القنصلية الروسيــة في طرابلس ، ووديع طربيه ، ترجمان قنصليتها الفرنسية ، وجورج صعب ، وكيل البواخر الفرنسية ، من داخل سورية الى موطنهم الساحلي ، باعتبارهم عثمانيين مخلصين لدولتهم العثمانية دون ان تؤثر علاقتهم بالأجنبي على عواطفهم الوطنية .

ومن أجل حسنات عزمي بك انه لم يتدخل في شؤون جبل لبنان كما كان يفعل سلفه، بل حصر اهتمامه في امر الولاية وعمران مدينة بيروت ، كما هو مفصل في البحث الآتي.

العمران في بيروت

كان يقوم في جانب الشارع المؤدي الى ميناء الحصن ، بموازاة شاطئ البحر ضريح لأحد الأولياء الاقدمين مبني بحجارة رملية لا قيمة لها . ولما قضت الحاجة بتوسيع الشارع وأصبح الضريح في وسطه تماماً ، حاول الولاة السابقون نقله الى مكان آخر ، فلم ينجحوا أمام مقاومة العدد الكبير ممن يجلّون ساكن الضريح. وقد جرّب الوالي السابق بكر سامي بك بدوره هذه المحاولة وشاور سماحة المفتي بأمر نقله الى الأرض الخــالية على جانب الطريق ، فعارضه تحاشياً من نقمة الشعب .

ولما جاء الوالي عزمي بك واطلع على الصعوبات التي قامت في وجه اسلافه في ذلك السبيل استدعى اليه ذات ليلة رئيس البلدية مختار بيهم وطلب منه ان يأتيه سراً بعدد من البنائين والفعلة كافٍ لنقل ضريح الولي وازالة معالمه عن الطريق قبل بزوغ الفجر ، وحذره من اخبارهم بمهمتهم قبل مباشرتهم العمل . فنفذ الرئيس امر الوالي بكل دقــة وحسن تدبير ، ولم ير الاهلون في صباح تلك الليله اثراً للضريح بل وجدوا الأرض التي كان قائماً عليها معبدة كسائر اجزاء الطريق وشكروا الوالي على عمله دون ان يسمع من احد تذمر او شكوى .

ولعل وجود البلاد آنئذٍ تحت حكم عسكري مما ساعد الوالي على تنفيذ عزمه ، ولكنه ،

وهو العمراني النزيه ، قــد قام بأعظم من ذلك ، فاليه يعود الفضل في تنظيم أهم أقسام المدينة من ساحة البرج وباب ادريس الى ساحل البحر ، دون ان يهضم لأحد حق . فقد الف لجنة خاصة تابعة للبلدية ، خمنت قيمة البيوت والمخازن القديمة التي كانت تشوه جمال المدينة وتعيق السير والحركة ، وسلمت كلاً من اصحابها مضبطة بقيمة عقاره يستوفيها بعد هدمه وبيع ارضه بالمزاودة العلنية . ثم امر بالهدم ، فحقق ما اراده من اصلاح دون ان يعترض على تدابيره احد . ولكنه قبل ان يتم عمله العمراني ، حل محله علي منيف بك ثم اسماعيل حقي بك ، الذي انتهى في عهــده الحكم التركي بانتهاء الحرب في تشرين الاول ١٩١٨ ، واحتلت السلطة الفرنسية المنطقة الغربية ، فتم في عهدها الانتدابي بناء مدينة بيروت على الوجه الجديد المشاهد ، ونال كل من اصحاب العقارات المهدومة حقه ، وربحت البلدية من وراء هذه الاصلاحات الملايين من الليرات . ويقيني انه لولا ما بدأه عزمي بك من هــدم ، لما توفر لبيروت في تلك الاقسام تنظيمها العمراني بالسرعة التي تم بها .

لم يشوه عهد ولاية عزمي بك سوى حكم الارهاب العسكري واعدام الشهداء الاحرار في بيروت بعد تكاثر عدد اللاجئين اليها من القرى المجاورة ، وسنأتي على بيان ذلك في الفصول الآتية

من آثار التجنيد العام ، نفي مطران بيروت الارثوذكسي

كان للتجنيد العام الذي اعلنته الدولة العثمانية بسبب الحرب الكبرى ، تأثيره الرهيب في ولاية بيروت ، حيث لم يألف الاهلون الخدمات العسكريـــة كغيرهم من سكان الولايـــات الاخرى ، فضلاً عن تأثير النهضة العربية التي كانت توحي قرب انفصال بيروت وسورية عن السلطنة العثمانية . لذلك لجأ عــدد كبير ممن اصابتهم القرعة العسكرية الى جبل لبنان ، حيث اندسوا بين اهله في الجبال وبعض المدن والقرى الساحلية .

كان رئيس شعبة اخذ العسكر في بيروت حسني بك قاسياً في عملــه ، خشناً في حديثه مع ذوي المصالح ، ولدى انعقاد لجنة التجنيد برئاسته ذات يوم ، دافع مطران بيروت الحبر العلامة جراسيموس مسره ، وكان من اعضائها اسوةً برؤساء الطوائف ، عن احد المواطنين ، توصلاً لاعفائه من التجنيد لعلة المرض . فلم يرق دفاعه لحسني بك ،

وجرت بينهما مشادة كلامية اعتبرها حسني بك ماسة بكرامته ، فرفع شكواه الى القائد الأعلى جمال باشا فأصدر امره بنفي المطران الى داخل سورية ، ثم اكتفى ، بناءً على توسط غبطة البطريرك الارثوذكسي غريغوريوس حداد ، بأن يقيم في دير سيدة البلمند الواقع في قضاء الكوره بلبنان .

كلما مرت الايام واشتدت الحرب ، ازدادت حاجة السلطة العسكرية إلى المجندين وأخذت افراد المطاردة تلاحق المتغيبين في كل مكان وتفاجئهم في الليل والنهار ، فنتج عن ذلك فرار الكثيرين وتواريهم عن الانظار ، فصدر امر القيادة العليا بانزال عقوبة الاعدام على كل فار من خدمة العَلَم .

القسم الثالث

القضاء على استقلال جبل لبنان وحوادث الإرهاب

الفصل الأول

القضاء على استقلال جبل لبنان

علي منيف بك اول متصرف تركي في جبل لبنان

بعد دخول ايطاليا الحرب في ايار عام ١٩١٥ الى جانب دول الاتفاق ، وجدت الدولة العثمانية نفسها طليقة من القيود التي فرضها عليها نظام جبل لبنان دون ان تلقى مقاومة في هذا السبيل من حليفتيها المانيا والنمسا ، بل كان الالمان يؤيدونها في خطتها لأنهم لم يظفروا في وقت من الاوقات باجتذاب عواطف اللبنانيين . وهكذا وبعد استقالة اوهانس باشا وانقضاء ثلاثة اشهر على فترة الانتقال ، كما سبق ذكره ، استصدرت الحكومة العثمانية في شهر ايلول الارادة السلطانية بتعيين علي منيف بك مستشار وزارة الداخلية متصرفاً على لواء جبل لبنان مرتبطاً مباشرةً بوزارة الداخلية ، اسوة بسائر الألوية المستقلة عن الولاية . وبهذا التعيين الذي انفردت به الدولة ، انتهى امتياز جبل لبنان بعد ان دام اربعاً وخمسين سنة . ومن المصادفات التي يتندر بها الناس ان اول الحكام في مدة امتياز جبل لبنان وآخرهم كانا ارمنيين ، داود باشا واوهانس باشا .

ظل اوهانس باشا بعد اعتزاله الحكم في مصيف بحمدون مدة شهرين ، ثم سافر الى الآستانة مذكوراً على ألسنة الناس باخلاصه لدولته ولجبل لبنان ، ووفائه للعهد الذي قطعه على نفسه حين عين حاكماً بموافقة الدول العظمى ، وأخلاقه العالية التي قلما وجد مثلها في من سبقه من حكام جبل لبنان .

أما خلفه في الحكم (اذا جازت هذه التسمية مع الفارق في الصلاحيات وطريقة التعيين) علي منيف بك ، فهو من خيرة رجال الادارة الاتراك . فكان احسن ما قام به

فور تسلمه الحكم ان وضع حداً امام تدخل رضا باشا في شؤون الحكومة الادارية وسيطرته على الشعب اللبناني ، وضرب به عرض الحائط بوشايات الفئة الملازمة باب قائد الفرقة في عاليه ، فحصره ضمن دائرة صلاحياته العسكرية البحتة .

التبديلات الادارية

وصل علي منيف بك الى بعبدا مركز حكومة جبل لبنان في آخر شهر ايلول سنة ١٩١٥ ، وأقام فيها خلافاً لمن سبقه من الحكام ، ثم أخذ يقوم بمهمته الاصلاحية لتنسيق الادارة في جبل لبنان ، على مثال ما يجري في الولايات والألوية المستقلة المرتبطة مباشرةً بوزارة الداخلية ، فأتم في وقت قصير الاجراءات التالية :

١ – **مديرية القلم التركي – او مديرية الرسائل حسب اصطلاح الولايات** : لم يحصل التفاهم المطلوب بين المتصرف ومدير الرسائل حسين بك الاحدب ، فاستقال الأخير وعين بدلاً منه كمال بك اليافي ، من الموظفين الاداريين الذين عرفهم المتصرف من قبل .

٢ – **مديرية القلم الاجنبي والأمور الأجنبية** : لم ير المتصرف لزوماً لهاتين المديريتين ، فألغاهما مكتفياً باثنين من أمناء القلم الاجنبي ، كميل بك شدياق ويوسف بك معتوق ، للقيام بترجمة بعض الاوراق الى اللغة الاجنبية ومنها الى العربية او التركية . والواقع ان هذه المهمة لم تكن تستدعي اكثر من موظفين اثنين، بعد ان زالت قنصليات فرنسا و بريطانيا وروسيا من الوجود بسبب حالة الحرب ، ولم يبق من اجنبي يتدخل في شؤون جبل لبنان.

٣ – **مناقلات بين قوام المقام في الأقضية** : بعد ان نفي الأمير فائق شهاب قائم مقام المتن الى الاناضول ، خلفه في الوظيفة اخوه الأمير فايز منقولاً من كسروان . وعين في كسروان الأمير امين ابي اللمع ، الذي أقيل بعد عدة اشهر وعين بدلاً منه الشيخ كنعان الضاهر ، الوجيه اللبناني المعروف قائم المقام السابق . اما في زحله ، فان جمالاً قائد الجيش الأعلى كان مسروراً من اهلها لحسن استقبالهم فوج الجيش الذي مر بهم في بدء الحرب بطريقه الى ضهور الشوير ، واستقبالهم اخيراً دولة القائد نفسه ، فكافأهم بتعيين وجيههم الاكبر المحبب الى قلوبهم يوسف بك البريدي عضو المجلس الاداري المنحل ، قائم مقام على زحله بدلاً من الاستاذ نعيم صوايا . ولما جاء علي منيف بك ، ابقى على هذا التعيين ، فقام البريدي بادارة شؤون بلده على احسن ما يكون حتى انتهاء الحرب .

التبديل في رئاسات القضاء العدلي

ابقى المتصرف علي منيف بك الامير مالك شهاب رئيساً لمحكمة الاستئناف ، دائرتها الحقوقية ، وعين نجيب بك القباني رئيساً للدائرة الجزائية بدلا من محمد بك ابي عز الدين ، وجلال زهدي بك نائباً عاماً في الوظيفة الشاغرة عن الاستاذ سليم باز المنفي إلى الاناضول .

ان نجيب القباني ، البيروتي الاصل ، وجلال زهدي ، الحلبي ، من كبار القضاة المحترمين في سورية ، وقد نقل اولهما في عهد الانتداب الفرنسي بعد نهاية الحرب رئيساً للدائرة الاستئنافية في بيروت فمدعياً عاماً لدى محكمة التمييز اللبنانية ، وعاد الثاني الى سورية حيث عين رئيساً لمحكمة الاستئناف بدمشق فوزيراً للعدلية في العهد الفيصلي فوزيراً للمالية في عهد الانتداب .

لقد عرف هؤلاء الرؤساء الثلاثة بالنزاهة والعلم وحسن الادارة فكانوا موضع احترام جميع الناس .

وبدهي ان تعيين رؤساء الادارة والقضاء قد تم بعد اقتراح رفعه المتصرف الى وزارتي الداخلية والعدلية حسب اختصاص كل منهما ، وصدور الارادة السنية بذلك ، عملاً بالقوانين المرعية في سائر الولايات .

امتعاض اللبنانيين من الادارة

بالرغم من فضائل كثيرة توفرت في شخصية علي منيف بك وادارته شؤون جبل لبنان ، فانه لم يسلم من نقد اللبنانيين في سرهم بامتعاض كلي ، حين اخذ يعين في وظائف ثانوية غير لبنانيين أتى بهم من ولاية بيروت ، مع وجود اكفاء لبنانيين لهذه الوظائف ، في زمان كانت الوظيفة براتبها ومخصصاتها تؤمن معيشة صاحبها وذويه بعد ان ضاقت سبل الحياة بكثيرين .

ولا ينكر على اولئك الغرباء عن جبل لبنان ، من كبار الموظفين وصغارهم ، ما تحلوا به من صفات جعلتهم محترمين في نفوس عارفيهم وأصحاب العلاقة والمراجعات من مختلف انحاء لبنان .

اذكر على سبيل المثال السيد مأمون المأمون الذي عين معاوناً لمدير الاوراق ، فقد تمكن بفضل واسع خبرته وعالي تهذيبه من اكتساب محبة رفقائه وتقدير رؤسائه وثناء جميع عارفيه على حسن قيامه بوظيفته .

نواب لبنان في مجلس الامة بالعاصمة (مجلس مبعوثان)

من متممات الغاء امتياز جبل لبنان ان يبعث عنه نواباً، او مبعوثين حسب الاصطلاح العثماني ، الى مجلس الامة المنعقد في العاصمة ، المعروف باسم « مجلس مبعوثان » ، اسوةً بالولايات . ولما كانت حالة الحرب الراهنة تحول دون اجراء انتخاب شعبي نصت عليه القوانين المرعية ، فقد اكتفى علي منيف بك ، بعد موافقة قائد الجيش في سورية ومجلس الوزراء في العاصمة، بنواب ثلاثة عن جبل لبنان يعينهم تعييناً في المرحلة الانتخابية الاولى، فوقع اختياره على الأمير حارس شهاب والأمير عادل ارسلان ورشيد بك الرامي، والأميران ممن سبقت لهم الخبرة الادارية ، والثالث من خريجي معهد الحقوق العثماني في اسطنبول ، وكلهم جدير بتمثيل جبل لبنان احسن تمثيل ولا سيما في تلك الآونة العصيبة .

اشترك مبعوثو لبنان الثلاثة في مناقشات مجلس الأمة واتصلوا برجال الوزارة ودافعوا عن جبلهم وأهله ما أمكن الدفاع ، وكانوا خير صلة بين مواطنيهم والحكومة الرئيسية .

ولما شغرت وظيفة قائم مقام الشوف عن الامير عادل ارسلان ، عين لها الأمير فؤاد شهاب ، من كبار موظفي الادارة السوريين .

تعيين قائم مقام قضاء الكوره

كان قائد الفرقة رضا باشا يلقي هالةً من الحماية على اخصائه فلا يجرأ احد من الشعب ان يرفع شكواه منهم ، حتى جاء علي منيف بك واستلم ادارة جبل لبنان بحزم واقصى عنها كل تدخل عسكري محلي وقد ساعده على اتخاذ هذه الخطة ثقة جمال باشا به . ولما اتصل بمسامعه شكاوي الكوريين ومجاوريهم من قائم مقام الكوره الشيخ فؤاد العازار اخلص أخصاء رضا باشا ، أقاله من وظيفته ، ومع ذلك فقد ظل الشيخ فؤاد الصديق المخلص لرضا باشا .

وفي مطلع تموز سنة ١٩١٦ ، استدعاني المتصرف وأقنعني بقبول هذه الوظيفة ، لأن لجنة ترجمة القوانين ستلغى عما قريب ، وكان من جملة وسائل الترغيب التي استعملها علي منيف بك لاقناعي ، قرب الكوره من طرابلس الوفية التي احبتني وأحببتها . وبعد ايام قليلة غادرت بعبدا الى مركز وظيفتي الجديدة .

الفصل الثاني

عهد الارهاب

طلاب الاصلاح والاستقلال

بعد اعلان الدستور (١٩٠٨) ، نهضت العناصر العثمانية على اختلاف اجناسها ومذاهبها منطلقة نحو الحرية ، وأخذت تؤسس الاحزاب وتعقد الاجتماعات مطالبة بحقوقها . وقام من جهة ثانية الطلاب العرب في المعاهد العالية في العاصمة بتأسيس المنتدى الأدبي (١٩٠٩)، وكان يؤمه كل عربي قادم الى اسطنبول من رجال السياسة والاجتماع . وبعد ان اجتمع الشمل ، اخذوا يطالبون بحق العرب في الوظائف الكبرى والمتوسطة ، ثم بالاصلاح الاداري في الولايات ولا سيما في بيروت وسورية والعراق .

ومن بوادر هذا الاصلاح تأسيس معهد الحقوق في بيروت (١٩١٢) ، وقد نقل الى دمشق بعد اعلان الحرب .

قام فريق من مفكري العرب وبينهم السوري واللبناني ، فأسسوا في مصر جمعيات تسعى لقيام دولة عربية تضم سورية ولبنان وفلسطين والعراق وشبه الجزيرة العربية . وبدهي ان لا يجرأ هذا الفريق على بث دعوته علناً تحت سلطان الحكم التركي ، فوجد متسعاً لنشرها في القطر المصري المشمول آنئذ بالحماية البريطانية .

وذهب وفد من احرار لبنان وسورية الى باريس حيث التحق باخوانه العاملين على بث الدعوة للاستقلال ، مستمدين العون من فرنسا ، فقرروا في حزيران ١٩١٣ المطالبة باعطاء العرب في الدولة العثمانية حقوقهم السياسية .

ولا شك بأنهم لقوا من ساسة فرنسا وبريطانيا عطفاً وتشجيعاً على العمل فتقوت

الآمال بالظفر . غير ان الحكومة العثمانية لم تقف مكتوفة الايدي ، فأرسلت الى باريس وفداً يعمل على استمالتهم واقناعهم بحسن نياتها وعزمها على منح العرب كامل حقوقهم . فعاد من اقتنع منهم بتلك الوعود الخلابة الى بيروت ورأى بأم العين تنفيذ قسم منها .

ولما اعلنت الحرب الاوربية ، نشط المغتربون في دعايتهم ، قاطعين الامل من العودة الى الوطن ، اذا لم تتحقق الأماني الاستقلالية ، بينما كف طـالبو الاصلاح المقيمون داخل المملكة العثمانية عن كل ما من شأنه اثارة غضب السلطة التركية الحاكمة والتزموا الصمت ، آخذين بعين الاعتبار ظروف الحرب وما يقتضيه النفير العام من حذر .

غير ان جمال باشا ، الحاكم بأمره في سورية ولبنان ، لم يكتف بنفي العدد الكبير من عيون السوريين واللبنانيين الى الاناضول ، بل صمم عـلى الانتقام من طلاب الاصلاح ومناوئي حكومة الاتحـاديين سابقاً ، فزجهم في سجون الديوان العرفي في عاليه ودمشق ، واستصدر الاحكام باعدام نخبة ممتازة من اولئك الاحرار الأفذاذ بتهمة السعي لتفكيك الاجزاء العربية عن جسم الدولة العثمانية وتسليمها للـدول الاجنبية ، كما هو مفصل في الأبحاث الآتية .

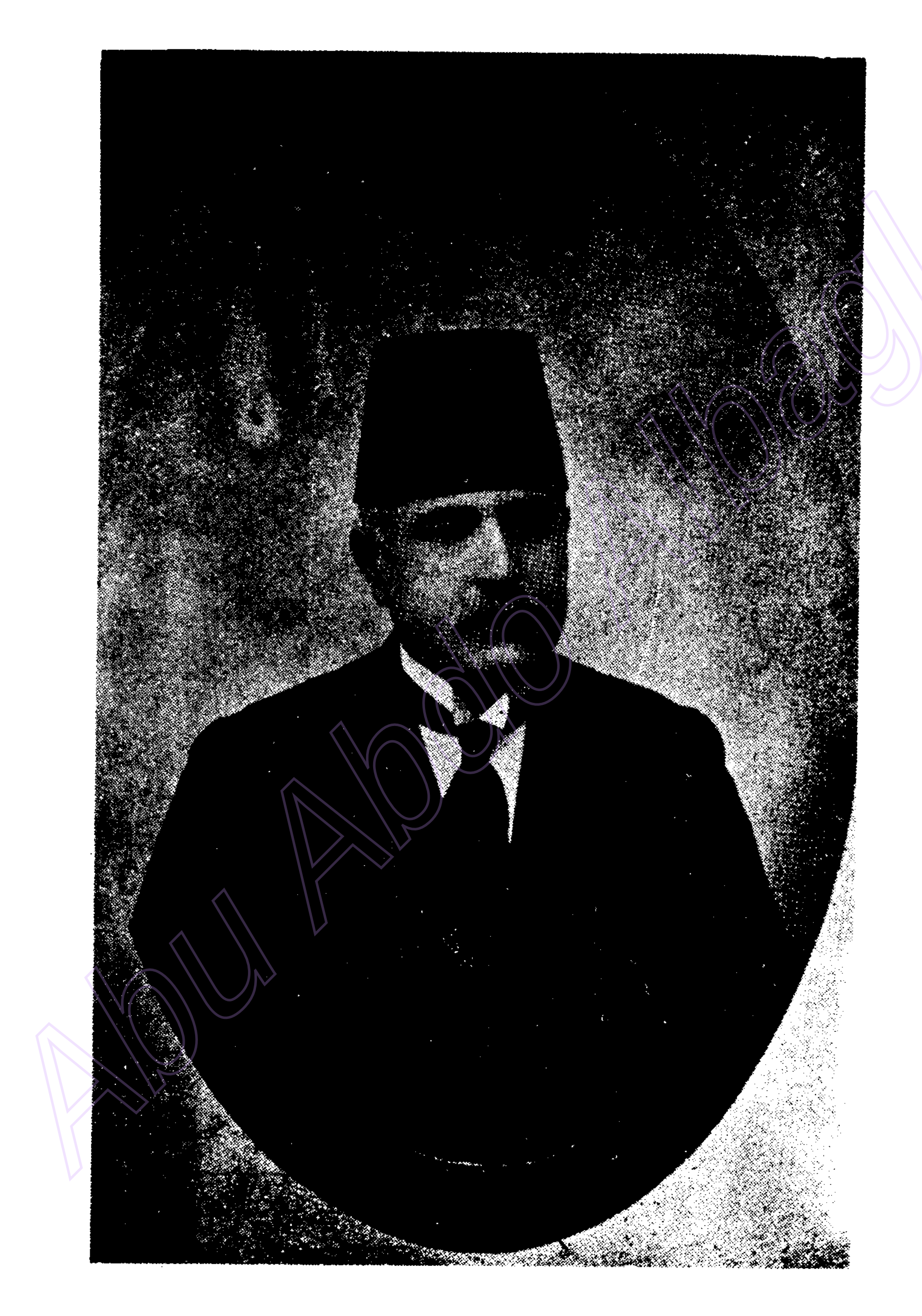
اما في لبنان ، فقد تأسس بهمة الشقيقين الشيخين فيليب وفريد الخازن جمعية تسعى لتحقيق ما يتمناه كل لبناني من توسيع حدود لبنان ، فيدخـل ضمنها بيروت وسهول البقاع وبعلبك ، بينما قام فريق المغتربين في فرنسا يطالب بأن يشمل توسيع الحدود جميع المدن والقرى والاراضي التي تألف منها ، بعد انتهاء الحرب ، لبنان الكبير .

السلطة المنتقمة

اذا جاز للفرد في الظروف الخاصة ان يثأر لشرفه ولدم ذويه وينتقم لحقوقه المهضومة ، فلا مبرر لقيام السلطة الحاكمة بالثأر والانتقام من ابنائها وهي لهم بمثابة الأم التي يجب ان تنعم رعيتها في كنف حمايتها .

ان السلطة التركية الحاكمة ، التي اغمضت العين عن طلاب الاصلاح الاداري فترة من الزمن ، على مضض ، ومنت على بعضهم بوظائف ومناصب في مختلف شعبات الادارة الحكومية ، ظلت ناقمة على اخوانهم المغتربين في مصر وفرنسا ، لاسترسالهم في دعايتهم حتى النهاية .

ولما غامرت الدولة بدخول الحرب الى جانب المانيا ، رأت ان تنتقم من رعاياها الآمنين



علي منيف بك



المطران جراسيموس مسرة

المقيمين في كنفها داخل البلاد . فقام القائد الاعلى في سورية جمال باشا بتنفيذ ما اتفق عليه مع اخوانه ، وجلهم على شاكلته ، آمراً بحشد عدد غير قليل من الاحرار في سجون الديوان العرفي في عاليه ودمشق ، بتهمة الخيانة لدولتهم وقطع اوصال المملكة العثمانية ، مع ان كل ما قاموا به منذ اعلان الدستور والحرية لا يتجاوز طلب الاصلاح والاستقلال الاداري ، دون ان يأتوا عملاً من الاعمال التي قام بها انور واخوانه لقلب العهد الحميدي ، بل دون ان يبدوا اي نشاط منذ ان عاد وفدهم من باريس سنة ١٩١٣ وقد قطعوا ، منذ ظهور موقف الحكومة العثمانية من الفريقين المتحاربين ، كل اتصال مع الوفد المذكور ومع اخوانهم الاحرار اللاجئين الى مصر .

فيليب زلزل ترجمان قنصلية فرنسا

كأن لم يكف لبنان ما اصابه من نكبات سببت نفي عـــدد من كبار رجاله ، وسوق غيرهم الى الديوان العرفي في عاليه ، بناءً على شبهات ولدتها الوشايات او عثرات اللسان والقلم ، كتصريح مسيو جورج بيكو قنصل فرنسا العام قبل مغادرته بيروت بقوله لمشيعيه : « الى اللقاء بعد خمسة عشر يوماً » ، ورسائل فريق من المغتربين ضبطها موظفو المراقبة ورفعوها الى السلطة العسكرية ، حتى ظهرت خيانة فيليب زلزل فكانت ثالثـــة الاثافي بالنسبة الى سورية ولبنان معاً .

ان هذا الرجل المعدود من وجهاء بكفيا هو في الحقيقة ربيب فرنسا وأكبر ترجمان موظف في قنصليتها العامة في بيروت ، وقد نفي الى دمشق بعد دخول الدولة العثمانيـــة الحرب اسوة بقناصل الدول المعادية وتراجمتهم . ولما رأى وعد سيده مسيو بيكو لم ينجز وخشي ان ينقل الى الاناضول كما نقل غيره ، تقدم بواسطة اصدقائه الى قائد الجيش جمال باشا مظهراً ندمه على سابق خدمتـــه في القنصلية الاجنبية واستعداده للتكفير عن ذلك بمأثرة يفيد منها رجال السياسة التركية ولا يستطيع غيره القيام بها . فاستحضره جمال باشا اليه وسأله عن تلك المأثرة ووعده بالعفو عنه واعادته الى بلده واهله اذا كان صادقاً في قوله ، فقال زلزل : انه وحده يعرف مخبأ الاوراق السياسية التي احتفظ بها القنصل العام مسيو بيكو قبل سفره ودل على هذا المخبأ ، فـــاذا هو مستودع اعد في جدار من جدران احدى غرف القنصلية وطلي بابه بصورة تحول دون معرفته . وقد تحقق لدى الكشف من قبل السلطة العسكرية ما افشاه الترجمان زلزل ، وزلزل به لبنـــان وسورية ، فظهرت

الوثائق التي تدين الكثيرين ومنها مضبطة موقعة من اربعين شخصاً من كرام السوريين واللبنانيين، امثال شفيق المؤيد العظم وميشيل تويني ويوسف الهاني والأخوين فيليب وفريد الخازن والشيخ احمد طباره ونخله مطران ، يطلبون فيها حماية فرنسا ومعونتها في سبيل حصول سورية على استقلالها باعتبارها جزءاً عربياً لا يربطه بالدولة العثمانية سوى تغلب العنصر التركي عليه ، مع المحافظة على استقلال لبنان وتوسيع حدوده .

بين ليلة وضحاها ،كان معظم الموقعين على تلك المضبطة في سجون عاليه ودمشق تحت التحقيق العسكري،وما ادراك ما هو هذا التحقيق وما يرافقه في سبيل الحصول على اقرار من المتهمين ! لم يسلم من موقعي المضبطة وغيرها من الوثائق الا الذين تمكنوا من مغادرة سورية ولبنان قبل دخول الدولة العثمانية الحرب .

افرجت السلطة العسكرية عن زلزل بعد هذه النتيجة ، فعاد الى بيروت ومنها الى بكفيا حيث لازم بيته . اما ضحايا افشاء السر فظلوا في السجن الى ان نفذ فيهم حكم الديوان العرفي كما سيأتي ذكره .

الخوري يوسف الحايك

في اواخر آذار سنة ١٩١٥ تلقى جبل لبنان بمزيد الأسف والحزن نبأ اعدام الخوري يوسف الحايك كاهن قرية سن الفيل ، الذي يكن له شعبه وعارفوه كل محبة واحترام . لقد سيق من لبنان الى دمشق حيث نفذ فيه حكم الاعدام في٢٢ آذار بأمر السفاح جمال بتهمة ارساله الى فرنسا معلومات خطية قد تساعدها على احتلال لبنان . اما مستند هذه التهمة فهو جواب ورد من فرنسا الى الخوري يوسف يتضمن وصول هذه المعلومات وشكر ذوي الشأن عليها ، وقد تبين اخيراً انه بعث في الحقيقة بكتاب الى ابنه الموظف لدى المقيم العام الفرنسي في مراكش يخبره عن احتلال الجيش التركي جبل لبنان وانتظار اللبنانيين قدوم الجيش الفرنسي لانقاذه ، فأرسل الابن باسم أبيه تقريراً بالواقع الى مسيو ديشنايل رئيس مجلس النواب الفرنسي ، فأجاب عليه بكتاب شكر وقع بأيدي موظفي مراقبة البريد ، وكان سبباً للتحقيق مع الخوري فالحكم عليه بالاعدام،فكان اول الضحايا التي قدمها لبنان بسبب الحرب .

اذا جهل الاب وابنه وجود المراقبة على الرسائل البريدية والمخابرات البرقية زمن الحرب، فكيف جهل ذلك رئيس مجلس النواب وامناء سره ؟

اما سؤالنا الى قضاة الديوان العرفي ومن فوقهم فهو : متى كان مجرد التمني الـــذي لم يقترن بعمل ما ، موجباً لاعدام النفس البشرية ؟ وهل كان احتلال الجيش التركي لجبل لبنان سراً وقد اعلنته الصحف التركية نفسها بفخر ومباهاة كأنه احتلال لأرض العدو؟

ان اعدام هذا الكاهن الورع قد القى الرعب في نفوس اللبنانيين وجعلهم في شك من نيات الاتراك من حكام مدنيين وقادة عسكريين ، ينتظرون في سرهم وبفارغ الصبر الفرج من السماء .

اعدام اول قافلة من الشهداء الابرار

في فجر العشرين من آب سنة ١٩١٥ ، روعت سورية ولبنان برؤية نخبة صالحة من طلاب الاصلاح الاداري وعشاق الحرية واستقلال العرب ومن ارقى الشبان علماً وخلقاً معلقين على اعواد المشانق في ساحة الشهداء في بيروت ، وهم عبد الكريم الخليل والاخوان محمد ومحمود المحمصاني وصالح حيدر وعبد القادر خرسا وعلي ارمنازي ونورالدين القاضي ومسلم عابدين وسليم عبد الهادي ونايف تلو ومحمود العجم ، عليهم رحمة الله ورضوانه .

ومما زاد في نقمة النفوس على الحكومة والجيش وعـــلى جميع الترك ، ان بعض اولئك الشهداء ، كعبد الكريم الخليل ، كانت لهم مع رجال الحكومة اوثق صلات المعاشرة والصداقة .

لئن القى هذا الانتقام الفظيع الذعر والخوف في نفوس الاهلـــين في سورية ولبنان دون ان يستطيعوا اعلان سخطهم على السلطة الغاشمة ، الا انه قد افقد جمال السفاح كل ثقة واضاع عليه ما كان يتمتع به في بادئ الامر من شهرة حب العدل وحسن الادارة ، فحل محلها وصفه بالغدر وسوء السريرة ولقب من ذلك التاريخ بالسفاح .

اما الشهداء الابرار فلم يرهبوا الموت ساعة تنفيذ الحكم الجائر عليهم ، بل استقبلوه بشجاعة نادرة المثال معلنين ان الموت في سبيل الوطن حياة وان على جماجم الابطال يبنى الاستقلال ، ورفعوا اصواتهم حين اعدامهم بالهتاف للعروبة والحرية والاستقلال فخلدوا في نفوس العرب اعمق اثر التقدير والاجلال .

قدوم انور باشا الى بيروت

في العشرين من شباط سنة ١٩١٦، أقيمت في بيروت اقواس النصر وزينت المكاتب والدوائر والشوارع بالأعلام والرياحين استعداداً لاستقبال زائر عظيم، وقد ظهر انه انور باشا وزير الحربية ونائب القائد العام للجيش (باعتبار القائد العام اسمياً هو السلطان نفسه) آتياً من زيارته دمشق والمدينة المنورة. وكان يرافقه حين وصوله الى الحازمية فبيروت جمال باشا وعدد من كبار القادة الالمان، فاستقبلوا استقبالاً رسمياً شائقاً كما اقيمت له السرادقات في الحازمية حيث اجتمع لاستقبالهم والهتاف بحياتهم حكومة جبل لبنان برجالها وانصارها وكل من يمت الى رضا باشا قائد الفرقة بصلة.

لقد القيت في بيروت والحازمية قبلها عدة خطب ترحيبية، ومن المؤسف انه لم يؤت فيها على ذكر المجاعة التي انتابت لبنان ولم يظهر في مكان ما احد من اولئك الجياع الذين كانوا يملأون الطرق عادةً، فقد حجزتهم الحكومة موقتاً لكي لا ينزعج من مرآهم انور باشا او مرافقوه الالمان.

ومن طريف ما يذكر في صدد هذه الزيارة، ان انور باشا استغرب عدم معرفة معظم الوجهاء (غير الرسميين) الذين اشتركوا في استقباله اللغة التركية، لغة الدولة الرسمية، مع انه حين دخل فندق غاسمن المعد لنزوله تفضل على ماسح الاحذية الجالس بقرب الباب بريال مجيدي اجرةً له فشكره بالكلمة الفرنسية المألوفة «ميرسي» (merci) فغضب انور باشا قائلاً هذه العبارة: «حتى مساحي الاحذية في هذا البلد يتكلمون الفرنسية ولا يعرفون التركية، والذنب ليس ذنبهم بل ذنب الحكومات السابقة التي اهملت تعليمهم لغة دولتهم».

اعدام يوسف الهاني

ظهر بين الوثائق التي كانت مخبأة في قنصلية فرنسا العامة في بيروت وظفرت بها السلطة التركية كما سبق بيانه، عريضة تتضمن التماس مساعدة فرنسا لفصل سورية ولبنان عن الدولة العثمانية وحصولها على الاستقلال التام والحرية التي تنعم بها الامم الراقية. وكان بين التواقيع التي تحويها العريضة اسم الوجيه البيروتي يوسف الهاني، ولما اتي به الى والي بيروت عزمي بك في مقامه الحكومي، سأله عن حقيقة الامر فاعترف بتوقيعه

قائلاً : « اني وقعت العريضة بحسن نية واخلاص دون معرفة مآلها وما اذا كان في توقيعها عقاب اذا افتضح امرها » .

اما باقي الاشخاص الذين اشتركوا في توقيعها ، فقد غـادروا بيروت في بدء اعلان الحرب فسلموا مما كان ينتظرهم من مصير .

مما يدل على سلامة طوية السيد الهاني ، اعترافه بتوقيعه امام الوالي اولاً ثم امام مستنطق الديوان العرفي في عاليه ، بالرغم من استطاعته الانكار وعـدم وجود دليل آخر على اشتراكه في التوقيع او في عمل من الاعمال السياسية في ماضي حياته .

مما نقله الي صديقي سامي بك العظم ، الوجيه الدمشقي الذي لا يشك في صدقه ونبل خلقه ، انه حين كان سجيناً في عاليه ، في احدى غرف المنزل المتخذ لحجز حرية المعتقلين من اجل الجرائم السياسية ، شاهد من النافذة في الغرفة المجاورة رجلاً متسماً بكل سمات الذوات الكبيرة ، جالساً عـلى الكرسي مطرقاً برأسه نحو الارض لا يبدي حراكاً ، اتباعاً للتعليمات التي تلقاها من الجندي المكلف بخفارته . فأشفق عليه سامي بك واخذ بيده كتاباً ورفع صوته متظاهراً بأنه يتلو القرآن الكريم على اصول التجويد ، وكان مما قاله: «كلامنا اليك ايهـا القادم الينا لا تخف الخفير بل قدم اليه علبة تبغ او غيرها من الهدايا فتتمتع ببعض حريتك » . فانتبه السيد الهاني الى ما سمعه من القارئ الكريم ورفع رأسه وتنفس الصعداء ثم قام بالواجب نحو الخفير فلقي منه كل قبول وكل حسن معاملة ، وتابع القارئ تجويده موصياً زميله السجين بالتزام الانكار لدى استجوابه من قبل اي من قضاة التحقيق .

ولما دعي السيد الهاني للاستجواب امام القاضي العسكري ، اعترف بتوقيعـه على العريضة السالفة الذكر موضوع التهمة المسندة اليه ، وأضاف انه لم يكن عارفاً مضمونها بل استند في توقيعها الى ما وصفه حاملوها من عدم ترتب اية مسؤولية على توقيعها. وقدم دليلاً على حسن نيته اقراره بالواقع رغم اشارة جاره السجين اثناء تظاهره بتجويد الآيات الكريمة ، بأن ينكر كل ما اسند اليه .

وعلى الأثر جاء احد ضباط التحقيق غرفة السيد العظم طالباً المصحف الشريف ، ولما لم يجده بين كتبه صفعه على وجهه عدة صفعات كانت افظع عقاب تلقاه في حياته عن نصح قام به .

وبالرغم من سلامة طوية السيد الهاني كما سبق ذكره ، ونقاء ماضي حياته من كل

شر ، لم تنجح في سبيل نجاته من الاعدام مداخلات آل سرسق الكرام مع صديقهم وجليسهم في سمرهم، جمال باشا، حتى ان السيدة حنينه دوماني زوجة السيد يوسف الهاني، جمعت حليها القيمة وطرحتها امام قدمي جمال باشا حين كان في قصر ميشيل ابراهيم سرسق ، لتصرف قيمتها على ايتام الجنود فداءً عن زوجها ، فأجابها السفاح : خذي حلاكِ واصرفي ثمنها على تعليم ابنائك حب وطنهم .

وفي اليوم التالي المصادف الخامس من نيسان سنة ١٩١٦، اعدم الهاني في بيروت ، فعمّ الحزن والأسف ذويه وعارفيه وهم كثر .

القافلة الكبرى من شهداء الوطن

لم يرتوِ السفاح من الدماء الزكية التي اراقها على مذبح الوطنية ، بل سولت له نفسه التمادي في الضلال . ففي صباح ٦ ايار سنة ١٩١٦ ، روع العرب عامة والسوريون واللبنانيون خاصة باعدام نخبة ممتازة من رجالاتهم الاحرار ومن اعظم مفكري الأمةالابرار، معلقين على اعواد المشانق باحكام جائرة اصدرها الديوان العرفي في عاليه ، اعدم منهم في بيروت الشيخ احمد طباره وعبد الغني العريسي وسعيد عقل وباترو باولي وتوفيق بساط والامير عارف الشهابي وجورج موسى حداد وعمر حمد وسيف الدين الخطيب ومحمد حسين الشنطي وسليم الجزائرلي وامين محمد حافظ وجلال البخاري وعلي الحاج عمر ؛ وفي دمشق شفيق المؤيد العظم وعبد الحميد الزهراوي عضو مجلس الاعيان وشكري العسلي ورشدي الشمعة وعبدالوهاب الانكليزي والامير عمر ورفيق سلوم ، على جميعهم رحمة الله ورضوانه .

عم الحزن والأسى على فقدهم البلاد العربية ، وتأججت في نفوس ابنائها نار الحقد تحت سطوة الارهاب منتظرين الفرصة للانتقام ، واذا لم ينالوا من السفاح مأرباً فقد ضل هو واخوانه سواء السبيل وقادهم طغيانهم الى التفريق بين العنصرين الكبيرين العربي والتركي تفرقةً كان من نتائجها استقلال العرب وانفصالهم عن الدولة التركية العثمانية بعد ان حكمتهم اجيالاً طوالاً .

كان السفاح عارفاً منزلة اولئك الشهداء الاحرار من امتهم وأوطانهم ، فاتخذ قبل تنفيذ فكرته الشريرة واعلانها من التدابير ما كفاه شر الانتقام ، فنفى ذويهم وكل من يمت

اليهم بصلة الى بلاد الاناضول ، وقد اعيد بعضهم الى وطنــه بعد زوال ظل السفاح كما عاد الآخرون بعد انتهاء الحرب .

الاخوان فيليب وفريد الخازن

عرف آل الخازن، وهم من اكرم الأسر اللبنانية ، بغيرتهم عــلى مصلحة لبنان والتفافهم حول المقام البطريركي الماروني ، وقد تميزوا بطيب المعشر وحلاوة الحديث ، وكان الأخوان الشيخ فيليب والشيخ فريد من اكثرهم علماً وأدباً وأجلهم شأناً وأحبهم الى قلوب اللبنانيين ، يعملان دوماً لخير لبنان مستهدفين ضم بيروت والبقاع وبعلبك اليه .

نفي احدهما الشيخ فيليب الى الاناضول بأمر السفاح ثم الحق به اخوه الشيخ فريد، وبعد وضع السلطة يدها على الرثائق التي كانت مخبأة في القنصلية الفرنسية سيقا معاً الى الديوان العرفي في عاليه بتهمة الانضمام الى جمعيــة سرية تعمل لفصل لبنان نهائياً عن الدولة العثمانية واستقلاله وتوسيع حدوده وطلب معونة فرنسا في هذا السبيل . وبعد ان قضيا في السجن زهاء خمسة اشهر ، نفذت فيهما عقوبة الاعدام في بيروت في الخامس من حزيران سنة ١٩١٦ فكان وقع المصاب أليماً جداً ، ولم يحزن لبنان على عزيز فقده، حزنه على قتل هذين الاخوين الشهيدين في سبيل الجبل الأشم .

نخله مطران

نخله باشا مطران من وجهاء بعلبك البارزين ، سجن في دمشق بتهمــة الالتجاء الى مساعدة فرنسا لفك قضاء بعلبك عن سورية وضمه الى جبل لبنان ، وحكم عليه الديوان العرفي في مطلع عام ١٩١٥ بعقوبة السجن المؤبد . ولكن السفاح لم يكتف بهذه العقوبة، فأمر بتشهيره في احياء دمشق وشوارعها بأبشع الصور وآلمها على النفوس الحية الابية ، ثم امر بعد ذلك بنفيه الى بلاد الاناضول . وبعد ان تجاوز القطار الذي ينقله حلب الى محطة تل ابيض ، أمره الجنود القائمون على حراسته بالنزول من القطار ليسير على قدميه، فامتثل امرهم وقتلوه اثناء الطريق بالرصاص ، محتجين بأنه حاول الفرار .ولم يشتبه احد في كذب حجتهم .

وقد قيل بعد ذلك في الاوساط الراقيــة السورية واللبنانية ، ان السفاح فعل ما فعله

بالمطران انتقاماً لاهانة نالته في ما سبق من شقيقة المطران السيدة فكتوريا نزيلة العاصمة، والتي كان يؤم منزلها كبار احرار الترك ومفكريهم .

اذا كان اعدام طلاب الاصلاح والحرية والاستقلال قد وصم جمالاً بلقب السفاح المنتقم ، فان تشهيره نخله باشا مطران بصورة يأباها كل وجدان وقتله اياه حين كان في حماه تحت حراسة جنوده ، قد قوبلا باستهجان الطبقة الراقية من الاصدقاء والاعداء على السواء وألحق بجمال السفاح نعوت الغدر والنذالة .

اعدام الأخوين زريق

كان الاديب انطون زريق وأخوه من خيرة شبان طرابلس خلقاً وأدباً ، قد وشى بهما اعداؤهما الى القائد الاعلى في سورية ، ولم تكن الوشاية الفعالة في ذلك الزمـــان, سوى الطعن في اخلاص الرعية للدولة العلية والعمل لمصلحة الاجنبي ، فسيقا الى الديوان العرفي في دمشق فحكم عليهما بالاعدام ونفذ هذا الحكم الرهيب بحضور الارشمندريت اغناطيوس خوري الانطاكي المولد.

ولما كان هذا الكاهن التقي الورع على ثقة ببراءة الاخوين الفقيدين الغاليين، استناداً الى صدق قولهما حين تناولا قبيل اعدامهما الاسرار المقدسة من يده الطاهرة ، لم يستطع الحياة بعدهما ، فأسلم روحه الى خالقه وعم الحزن عارفي فضل الثلاثة الضحايا الابرار . واقترن ذكر السفاح في الخلوات بمتواصل اللعنات .

اعدام راهب افرنسي

كان عند الشيخ الجليل مطران الروم الكاثوليك في طرابلس الجزيل الاحترام، راهب فرنسي يخدم في الكنيسة منصرفاً الى التعبد ، دون ان تجد السياسة وأمور الدنيا الى قلبه سبيلاً . ولما نفي رعايا الدول المعادية وموظفو قنصلياتها الى الداخل ، ظل أمر هـــذا الراهب مكتوماً تحت ظل المطران التقي الورع السيد يوسف دوماني الذي أبت مروءته تسليم ضيفه الى ايدي السلطة الغاشمة خشية ان يقضي جلادوها عليه .

وفي ايلول سنة ١٩١٥ افتضح الامر ، فأبعد المطران والراهب معاً الى دمشق حيث اقاما زمناً تحت مراقبة دوائر الامن العام . ولما تاقت نفس السفاح الى الشر وسفك الدم ، سيق الراهب الى المحكمة العسكرية بتهمة التجسس ، فحكمت عليـــه بالاعدام دون ان

يقوم لديها اي دليل على ادانته ، ونفذ الحكم فيه ونفي المطران الى الاناضول حزيناً كئيباً وظل كذلك حتى لقي وجه ربه .

الاستخفاف بالرأي العام

مما يتردد ذكره عن استخفاف السفاح بالرأي العام في دمشق وبيروت وسائر انحاء سورية ولبنان ، هو انه اخذ يكثر بعد تلك النكبات من زيارة منازل الوجهاء والأعيان ايهاماً بأنهم راضون عن عمله الفظيع . ولكن ما يستغربه شبان هذا العصر ، انما هو بقاء السفاح حياً حين مغادرته هذه البلاد دون ان يلحقه أذى من احد ابنائها جزاءً وفاقاً لقضائه على حياة خيرة الاحرار الابرار. فهل كان دليلاً على ضعف التربية القومية آنئذٍ والرضوخ لارادة كل عاتٍ مستبد ، أم على فقدان روح الانتقام في النفوس ، أم على اعتبار فريق من الناس (محافظين على اخلاصهم لدولة الخلافة) عمل السفاح شرعياً ، فأحاطوه بدعاياتهم المضللة ، أم على مقدرته وجعله البلاد في قبضة يده الحديدية كأمثاله من الحكام المستبدين الارهابيين الذين لا يخافون الله والناس ، أم على الحيطة وسداد التربية العسكرية اللذين اتصف بهما معاونوه ؟ ومع كل ذلك لم يسلم السفاح من الطعن اللاذع حتى من اصدقائه الاتراك مما اضطره الى اصدار الايضاحات الآتية .

ايضاحات السفاح

لما غادر السفاح جمال باشا هذه البلاد الى العاصمة ، وجد نفسه امام انتقاد مرير على اعدامه الشهداء الابرار ، فلجأ الى نشر ايضاحاته (١٩١٨) عن الجرائم السياسية التي استلزمت الحكم عليهم من قبل ديوان الحرب في عاليه ، فكان مما جاء فيها :

(ا) ـــ ذكر الجمعيات الوطنية الثمانية التي اشتركوا في تأليفها بعد اعلان الدستور العثماني ، مع اخوانهم المحكوم عليهم غيابياً لوجودهم خارج المملكة العثمانية ـــ وأهم هذه الجمعيات المنتدى الادبي الذي اسس في الأستانة ودام من سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩١٥ ، وقد تحولت الى حزب الاصلاح تحت ستار طلب توسيع صلاحيات الولايات المعبر عنها باللامركزية ، وغايتها نقل الخلافة الاسلامية الى مصر وفك سورية عن الدولة العثمانية وجعل قسمها الجنوبي من حيفا حتى مصر تحت الحماية الانكليزية ، والقسم الشمالي من حيفا الى اسكندرونة تحت الحماية الفرنسية .

(ب) – اعتراف المحكوم عليهم باقدامهم على ما اسند اليهم ، محتجين بمجرد السعي لجمع كلمة العرب واعادة مجدهم بجميع الطرق الممكنة ولو على مراحل في بدء الأمر .

(ج) – اعتراف احدهم عبد الغني العريسي ، صاحب جريدة « المفيد » بتفصيل ما قام به هو وكل من اخوانه المعتقلين والغائبين في مصر ، امثال حقي العظم ورفيق العظم والشيخ رشيد رضا والعقيد عزيز المصري .

(د) – الرسائل التي قدمها فريق منهم الى المراجع الفرنسية ، وقد صودرت من قنصلياتها في بيروت ودمشق ، كما صودر الطلب المتعلق بتوسيع حدود لبنان فتشمل بيروت وسواها (وهي الحدود التي تألف منها اخيرا لبنان الكبير) .

وبدهي ان ايضاحات السفاح هذه ، بما حوته من صور فوتوغرافية عن الاعترافات والوثائق المنوه عنها ، لم تكن كافية لتبرير موقفه بل دلت ، بعكس ما اراده ، على ظلم وفساد تدبيره ، وعلى ان الشهداء الذين اعدمهم قد اقتصر عملهم منفردين او مجتمعين على طلب الاصلاح الاداري اولاً والسعي اخيراً لاستقلال الولايات العربية ، دون ان يقوموا بعمل ما ضد الدولة ولا سيما بعد دخولها الحرب . حتى ان اخوانهم المحكوم عليهم غيابياً ، الذين لجأوا الى معتمدي بريطانيا وفرنسا في مصر وباريس طالبين معونتهما ، لم يستهدفوا من ذلك سوى الوصول الى حق العرب وتحقيق امانيهم ، كما لجأ فيما سبق احرار الترك انفسهم الى باريس حين ارادوا التخلص من العهد الحميدي الارهابي توصلاً للحرية والدستور .

اما ما قيل عن اتفاق جمال باشا مع اخوانه الوزراء ، وفي طليعتهم طلعت وأنور ، على تنفيذ تلك الاحكام الجائرة ، فلا غرابة فيه وكلهم في ارتكاب الاثم والظلم سواء ، بل يتفق هذا القول مع ما جاء في ايضاحات السفاح عن صدور الارادة السنية بذلك ولكن متى كان السلطان رشاد يملك ارادته فيما يعرضه عليه قادة ذلك العهد ؟

الفصل الثالث

نهضة العرب

العمل في سبيل الاستقلال

حين كان الشريف الحسين ، امير مكة المكرمة ، يفكر في اغتنام الفرص المؤاتية للقيام في وجه الترك واعلان استقلال العرب ، مد اليه الساسة البريطانيون الذين لا تفوتهم شاردة وواردة ، ايديهم للعمل معه في هذا السبيل ، فخابره السر مكماهون سفير بريطانيا المقيم في القاهرة ، وبعد تبادلها المذكرات تم عقد الاتفاق بينهما على اساس فصل البلاد العربية عن المملكة العثمانية واعطائها حقها في الحرية والاستقلال . ومن مقتضى هذا الاتفاق ان يعلن الحسين في اول فرصة يراها ، الجهاد المقدس على السلطة التركية المعتدية على العرب وغاصبة الخلافة من اهل البيت ، وقد قام السوريون المقيمون والحالون في مصر وفي طليعتهم الشيخ كامل القصاب الدمشقي المعروف ، بدور هام ، فكانوا واسطة الاتصال والتفاهم بين المتعاقدين الكبيرين .

وفي الوقت نفسه ، لم تهمل بريطانيا العظمى حليفتها فرنسا المقاتلة في ساحات الحرب الاوربية في وجه العدو المشترك امبراطور المانيا وجيشه الجبار ، فعقدت معها اتفاقاً تقسم بموجبه البلاد العربية بين نفوذيهما ، وقد عرف باتفاق سايكس — بيكو نسبةً الى المتفاوضين مستر سايكس البريطاني ومسيو جورج بيكو الفرنسي .

الخدعة في السياسة والحرب

حين قدم الامير فيصل ، نجل الشريف الحسين امير مكة المكرمة ، دمشق حل ضيفاً على آل البكري الكرام وأخذ يجتمع سراً الى ارباب النهضة الوطنية العربية ويباحثهم

في قضية الاستقلال . وكان من ناحية ثانية يتردد الى جمال باشا فيلقى منه الطف الحديث وأحسن المعاملة ، وهو يدرك بفضل ذكائه ، ان جمالاً يراقب خطواته بواسطة مخابرات الجيش التي كان يطلق عليها اسم « الخفية » .

ولما توسعت شقة الخلاف بين العرب والترك على اثر اعدام شهداء الحرية وتشريد الاحرار عن مساكنهم وأوطانهم ، دون ان يستطيع احد اعلان سخطه او القيام بعمل ما تحت وطأة تحكم الطاغية وجيشه ، حينئذٍ استدعى الشريف الحسين نجله فيصلاً ببرقية وجهت الى القائد الاعلى ، تتلخص في طلبه منه ان يرسل اليه الامير فيصلاً لقيادة خمسة آلاف مجاهد هيأهم للاشتراك مع اخوانهم المجاهدين الاتراك .

وثبة مضرية

بعد ان مثل الامير فيصل امام والده الحسين وقص عليه ما قاساه العرب في سورية ولبنان من طغيان السفاح جمال ، اعلن الحسين في ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ الجهاد المقدس على الاتراك ، اعداء العرب وغاصبي الخلافة من اهل البيت النبوي ، فكان هذا التاريخ بدء الثورة العربية . وما عتم جيش الحسين ان استولى على مكة المكرمة والطائف وجدة ثم حاصر الحامية التركية في المدينة المنورة ، وفي ٥ تشرين الاول سنة ١٩١٦ بويع الشريف الحسين ملكاً على الحجاز ، وقاد الامير فيصل تحت راية والده الملك ، ومعاونة القادة المجاهدين من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين واردنيين وعراقيين وحجازيين ، معارك الحرب في وجه الترك لانقاذ البلاد العربية من حكمهم ، كما ساهم في ذلك معظم الامراء ابناء الملك وأبناء عمومتهم خير مساهمة ، وسنرى في الابحاث الآتية نتيجة هذه النهضة المباركة .

الفصل الرابع

الاستعداد لاستئناف حملة الترعة

نشاط في التجنيد وتأمين اللوازم وقدوم جنود المان

قرر جمال باشا ، برأي مستشاريه العسكريين الالمان ، استئناف حملة الترعة وترتب عليه مهاجمة الجيش البريطاني ومجاهدي العرب معاً ، وأخذ اركانه وقادة مختلف شعبات الجيش يعملون لاستكمال معدات الهجوم ، من نشاط في التجنيد وتأمين الميرة والترتيبات الصحية .

وصل في هذه الاثناء من الاستانة سريتان من الجنود الالمان والنمسويين بكامل ضباطهم وخبرائهم وانضموا الى الجيش العثماني تحت لواء قادتهم الالمان .

وضع الجيش يده على وسائط النقل وفي مقدمتها السكك الحديدية ، فأصبح من العسير على افراد الشعب التنقل من بلد الى آخر الاّ اذا كان هنالك امر عسكري .

ازدادت الحاجة الى المواد الغذائية اللازمة للجيش ، فشعر الناس بارتفاع الاسعار ارتفاعاً فاحشاً وتعذر على افرادهم الحصول على زيت النفط (البترول) للاستنارة والطبخ الاّ بقيمة باهظة جداً .

دعي اطباء ولايات بيروت وسورية وحلب الى خدمة الجيش في شؤونه الصحية كما طلب من الاطباء اللبنانيين الذين كانوا في الجبل اظهار حميتهم واخلاصهم للدولة ، فأقبل معظمهم متطوعين وكان عددهم يزيد على مجموع الاطباء غير اللبنانيين ، وقاموا بالواجب الانساني المترتب عليهم واستحقوا احترام زملائهم وثناء القادة وشكر القائد الأعلى جمال .

المداعبة بالبرقيات

لم يطل عهد الاستاذ نعيم صوايا في قائمقامية زحلـه فقد اقصي عنها بأمر من جمال باشا ، وخلفه فيها وجيه زحله الكبير يوسف بك البريدي ، فكان موفقاً في ارضاء الجيش والترفيه عن الاهلين على قدر الاستطاعة في ذلك الوقت الدقيق .

اثناء اعداد الحملة الثانية على مصر ، طلب رئيس ميرة الجيش في دمشق من قائم مقام زحله يوسف البريدي ان يرسل اليه ما امكنه من محترفي السكافة لاصلاح ورتق احذية الجنود لقاء اجور سخية بالنسبة لغلاء المعيشة آنئذٍ ، فقام بهذا الواجب خير قيام.

وقد اطلعني الامير فائق شهاب قائم مقام المتن (وهو من خيرة الرجال ، توفر فيه حسن الادارة والعلم والأدب وايراد النكتة في محلها) على برقية تلقاها من زميله وصديقه قائم مقام زحله هذا نصها :

«طلبت الينا رئاسة ميرة الجيش ارسال ما امكن من العتقجية لاصلاح احذية الجنود باجور سخية ، ولما كانوا كثراً لديكم تفضلوا بارسالهم اليـنـا لنرفقهم بمن تجمع لدينا من امثالهم الى دمشق » .

لقد استعمل قائم مقام زحله بدلاً من كلمة « اسكافية » كلمة « عتقجية » لدلالتها بعرف ارباب النكتة على محبي كل عتيق ، بقصد المداعبة المألوفة بينه وبين زميله ، وكل منهما يتهم الآخر بحبه للعتيق ، فأجابه الزميل الاديب الامير فائق بالبرقية التالية :

« كان في قضاء المتن عدد كبير منهم ولكنهم رحلوا الى زحلـه منذ تسلمتم مهام ادارتها ولما يعودوا » .

وعلى هذا الوجه اثبت الزميلان حبهما للنكتة واغتنام كل فرصة لايرادها .

تعيين الشريف علي حيدر اميراً على مكة المكرمة

كان اعلان الشريف الحسين ، الجهاد المقدس على الاتراك شديد الوقع على جمال باشا ورجاله ، وعلى العاصمة والولايات التركية ، فقابلتـه الوزارة باستصدار ارادة سنية بتعيين ابن عمه الشريف علي حيدر باشا ، الذي كان يقيم في الاستانة ، اميراً على مكة المكرمة ، فأصدر على الفور منشوراً يعلن فيه الجهاد على البريطانيين وحلفائهم وكل من مالأهم من العرب ضد دولة الخلافة الاسلامية الممثلة بجلالة امير المؤمنين السلطان محمد

رشاد ، وجاء الشريف علي حيدر بيروت وأقام كل مدة الحرب في لبنان وسورية ، يبث منهما الدعوة الى اعتبار الشريف الحسين خائناً لدينه وخليفته . ولكن هيهات ان يفوز علي حيدر وسادته الاتراك بطائل من هذه الدعوة بعد نكبة العرب بأحرارهم حاملي مشعل حريتهم واستقلالهم والتفاف اخوانهم حول الشريف الحسين وأنجاله لمواصلة الجهاد وقد احرزوا القسط الأوفر من النجاح .

نفي وجهاء فلسطين — نجيب ابو صوان

حين بدأ جمال باشا حملته الثانية على الترعة ، نقل مقره العام من دمشق الى القدس ليكون قريباً من الجبهة ، على اتصال بالاعمال الحربية وأخبارها ، وما عتم ان نفى من فلسطين كل من شك في اخلاصه من وجهاء القدس ويافا ونابلس وحيفا المعروفين بنزعتهم القومية العربية ، وكان نصيب احدهم المحامي الكبير العلامة نجيب بك ابي صوان ان يقيم مع افراد عائلته في بيروت ، وقد عزا البعض ابعاده من وطنه الى كونه متزوجاً بسيدة فرنسية جمعت الى مزاياها العالية اخلاصها لزوجها ولآله وبني جنسه ، فكانت مكرمة من جميع عارفيها .

بعد اقامة ابي صوان في بيروت زمناً انفق فيه ما كان لديه من مال ، عرض عليه نسيبه فائق بك غرغرر مستشار القنصلية الالمانية وظيفة ترجمان فيها ، فاعتذر عن قبولها محافظةً على شعوره المتفق مع شعور قرينته الفاضلة وعلى اعتقاده ، كما اوضح لي مراراً ، بأن النصر في نهاية الحرب سيكون من نصيب دول الاتفاق فرنسا وبريطانيا وروسيا . وعلى أثر هذا الرفض ، نقل بأمر جمال باشا الى بحمدون حيث تحمل ضيق العيش في سبيل المبادئ التي يعتنقها ، وربما كان ذكر سفير فرنسا في الاستانة اسمه بين المرشحين لمنصب حاكم جبل لبنان عام ١٩١٢ قد اوجد في نفس القيادة العسكرية العليا اثناء الحرب الشبهة في صلاته مع فرنسا .

وبعد انتهاء الحرب واحتلال الجيش الفرنسي لبنان ، عين ابو صوان محافظاً لمدينة بيروت ورئيساً للمحكمة العليا فوزيراً للعدل واستاذاً لتدريس مجلة الاحكام العدلية في كلية الحقوق اليسوعية ، وعرف في جميع حياته العملية بواسع العلم والخبرة الحقوقية والادارية والسياسية والحزم والعدل والتهذيب العالي والخلق الحسن ، فأحرز ثقة جميع الناس واحترامهم .

المؤسسات الاجنبية

ان استئناف الحملة على مصر ومقتضيات التجنيد وعدم توفر ما تتطلبه من امكنة وعتاد، كل ذلك قد اوحى الى الحكومة في بيروت ولبنان فكرة وضع يدها على المؤسسات الاجنبية التابعة للدول الاوربية المعادية، من مدارس ومستشفيات، وأكثرها فرنسي، فحولتها الى معاهد عثمانية وأرسلت من كان باقياً فيها من الرهبان والاساتذة الاجانب الى دمشق واستعاضت عنهم باكفاء من الترك والسوريين، وجعلت من بعض الاديرة الكائنة في جبل لبنان ثكنات عسكرية لاقامة مفرزات الجنود. غير ان الاب الجعيتاوي المعدود من خيرة الكهنة الموارنة ومن مدرسي العلم والادب في عدة كليات اجنبية ووطنية، في بيروت وغيرها، قد استطاع، بفضل اتباعه خطة التفاهم مع الحكام الترك، والعسكريين منهم خاصةً، تأسيس مدرستين احداهما للفتيات والثانية للفتيان، قدمتا اجل الخدم للشبيبة اللبنانية طوال مدة الحرب.

اما الكلية الطبية اليسوعية، فحولت الحكومة اسمها الى كلية طبية عثمانية واستحضرت لها اساتذة من الاطباء الترك، واعفت تلامذتها من خدمة العَلَم مدة الدراسة، فكان اقبال الطلاب عليها عظيماً لرغبتهم في تحصيل الطب والخلاص من الجندية معاً.

وأما الكلية الاميركية، فلم يلحق بها اذى بفضل بقاء اميركا في بدء الحرب على الحياد بين الفريقين المتحاربين ومحافظتها على حيادها ازاء الدولة العثمانية حين اعلنت الحرب اخيراً على المانيا.

لقد شمل الاستيلاء على المعاهد الاجنبية، الكلية الخاصة في بيروت ونفي صاحبها ورئيسها الفاضل الشيخ احمد العباس الى داخل سورية بحجة واهية لا تخرج عن كون الكثيرين من طلاب الاصلاح الاداري هم من خريجي تلك المدرسة البارزة النجاح في مهمتها التعليمية.

الفصل الخامس

أهل الشر وأهل الخير

المجاعة في لبنان

لقد ذاق لبنان الامرين قبل ان تنتهي الحرب ويجلو الترك عنه ، وفي مقدمة ذلك المجاعة التي نزلت به قبل ان تنقضي السنة الاولى من اعلان الحرب العالمية . ففي مطلع نيسان عام ١٩١٥ ، بدت طلائع الجراد في سماء بيروت ولبنان وأخذت اسرابها تتوارد من الجنوب بكثرة هائلة حجبت وجـه السماء عن العيون ، مغيرةً على كل أخضر من غراس ونبات وعلى حدائق البيوت . فدب الذعر في قلوب الناس ونهض اهـل القرى ، بارشاد الحكومة المحلية ، لمكافحة هذا العدو الوبيل بدون نتيجة تذكر ولم يغادر لبنان وسورية طياراً وزحافاً حتى جاء الصيف وكأنه الخريف تعرت فيه الاشجار عن اوراقها ولم يبق اثر لفرع اخضر .

ان مجرد ظهور الجراد ابان الحرب كان نذيراً للبنانيين بخطر المجاعة ، فهب لمواجهتها التجار وشمر عن ساعد الجد كل محتكر لا تقف اطماعه في الربح عند حد . فكانت في بيروت وطرابلس وصيدا ومعلقة زحله اهم المستودعـات للحبوب الواردة من سهول عكار والبقاع وسورية الداخلية ، تباع في بيروت ولبنان بأثمان باهظة زاد في نارها اشتعالاً منع قيادة الجيش الرابع شحن الحبوب على اختلاف انواعها الى جبل لبنان ، مما ادى الى تزايد عدد الفقراء في الطرقات وفي اسواق بيروت يمدون ايديهم طلباً للرزق والعيش .

وبعد مذاكرات اشترك فيها جمال باشا وأركانه وتحسين بك والي سورية وعزمي بك والي بيروت وعلي منيف بك متصرف جبل لبنان ، اسست مكاتب القمح والاعاشة في معظم المدن السورية وفي القرى القريبة من الخط الحديدي الممتد بين دمشق — رياق —

حلب ، مستهدفة تموين الجيش اولاً والسماح لبعض التجار المستوردين بشراء القمح ونقله الى بيروت وبعض المحطات اللبنانية ، وأهمها محطة حدث الساحل بين بعبدا وبيروت ، حيث يباع حراً وبأسعار ارتفعت تدريجياً الى ان تعذر على الفقير تداركها .

وعلى اثر ذلك ، نشط بعض الوجهاء في بيروت للعمل بغايتين مختلفتين ، احداهما الاثراء الشخصي وثانيتهما تخفيف المجاعة عن لبنـــان ، فأسسوا فيما بينهم شركة تستورد الحبوب تحت اشراف ضباط عسكريين من داخل سورية وتستلمها في محطـــات سكة الحديد لتوزيعها على الاهلين ، واقترحوا تعيين احدهم الدكتور نجيب الاصفر مديراً للشركة وقد اثبت مقدرته على تنفيذ المهمة .

وكان من المقرر بيع القمح بسعر الكيلو ستة قروش نقداً ورقياً واضافة قرش واحد باسم عمولة تكتفي بها الشركة لقاء نفقات الادارة ، فحاز اقتراح الوجهاء مؤسسي الشركة ، قبول القائد الاعلى في سورية جمال باشا وأركانه المختصين بشؤون اعاشة الجيش وتموينه ، وعلى رأسهم الاميرالاي كاظم بك .

وفي ٨ حزيران سنة ١٩١٦ ، أسس في بعبدا مركز رئيسي للاعاشة والتموين العام عهد بادارته الى الدكتور نجيب الاصفر السالف الذكر تحت اشراف السلطة العسكرية العليا . فكان القمح يرد من سورية الى هذا المركز بمعدل كاف لضمان حاجة موظفي الحكومة اولاً وتخصيص الباقي للاهلين ، ومع ذلك فقد استحكم الغلاء في بيروت وجبل لبنان بسبب فساد الادارة وعلاقة القائمين عليها بمحتكري القمح وبيعه في الاسواق الحرة بأسعار فاحشة ، فشملت المصيبة الفقير وغير الفقير . وما بزغت شمس عام١٩١٧ حتى كانت المكاتب الفرعية لمركز بعبدا الرئيسي قد أسست في الاقضية اللبنانية، ليوزع منها القمح على الموظفين بمعـــدل مئتين وخمسين غراماً يومياً لكل فرد من افراد العائلة بسعر الكيلو سبعة قروش نقداً ورقياً ، بينما تجاوز السعر في السوق الحرة عشرة الاضعاف .

كانت هذه التدابير لا بأس بها بالنسبة الى موظفي الحكومة ، امـــا كيف يعيش الشعب ، وكيف يتدارك الفقير قوته اليومي ؟ فهذا لم يخطر ببال قادة الامور ، وربما فكروا به ولكنهم اعتقدوا ان الشعب يستطيع شراء ما يحتاجه من السوق الحرة التي يمونها تجار الحبوب ، وجلهم أو كلهم متفق مع ذوي الشأن كما سبقت الاشارة اليه .

لذلك كانت اساءة القائمين على العمل من مديرين ومتعهدين ومشرفين ، لواجباتهم من جهة ،وجشع المتاجرين بقوت الشعب من جهة اخرى في مقدمة الاسباب التي حالت

دون وصول الفقراء الى حقهم من الخبز الضروري للحياة . فانتشرت المجاعة في لبنان ولجأ عدد من الفقراء الى بيروت حيث افترشوا الارض في الطرقات والتحفوا السماء .

وقد ظهر ان ضعف الاجسام بتأثير الجوع قد ادى الى ضعف الهمة والتفكير بين الفقراء ، فلم يقدموا على النهب والسرقات بل رضخوا للقضاء والقدر . فكنت ترى الجياع الذين اموا بيروت من لبنان طلباً للقوت منطرحين ارضاً بانتظار الموت والمخازن حولهم زاخرة بالمواد الغذائية وبيوت السراة الاسرياء مزدانة بموائد الترف والبذخ دون ان يجسر اولئك الفقراء على مهاجمتها وأخذ بعض ما فيها لسد الرمق على الاقل .

اجل ، مات الفقير جوعاً في بيروت ولبنان وباع متوسطو الحال املاكهم بأبخس الأثمان لرفع خطر الموت عن اطفالهم وعيالهم حتى ان وجيهاً كبيراً من وجهاء الشمال معروفاً بالثروة والزعامة ارسل الي ، حين كنت قائم مقام على قضاء البترون ، مع احد خدمه سنداً بمبلغ الف ليرة عثمانية ذهباً يطلب لقاءها الف ليرة ورقاً نقدياً (اي ما يعادل خمس المبلغ المحرر في السند) فلم ادر مغزى هذا الطلب ، أهو لسد الحاجة أم للتظاهر بها ، تخلصاً من الاعانات التي كانت تطلب من الأثرياء امثاله لمعونة الفقراء وعائلات الجنود . ولما كنت غير حائز المبلغ المطلوب ، دفعت منه مئتي ليرة فقط معتذراً عن الباقي وأعدت السند الى مرسله ، فقابل عاطفتي بالشكر ولكنه رغم سعة حاله التي ظهرت بعد الحرب لم يقم بوفاء الحق الاّ بعد تأنيبه من قبل الوجيه جبران نحاس محافظ شمالي لبنان المعروف بالحزم وحسن الادارة .

ان تدخل القادة العسكريين في لبنان في امر نقل القمح من المدخرات الرئيسية في سورية الى المستودعات الفرعية في لبنان ، قد ادى الى غش القمح بالزوان والكرسنة والتراب ، وأوجد الخلل في الادارة والارتياب في نزاهة القائمين عليها حتى القائد الاعلى جمال باشا وأصدقائه الوجهاء ومعتمديه المدراء فجميعهم لم يسلموا من الانتقاد اللاذع دون الجهر بأسمائهم خوفاً من الادارة العرفية السائدة في ذلك الزمن .

تعرفت اثناء اقامتي بدمشق بعد انتهاء الحرب ، بالعقيد توفيق بك الدوخي مدير التجنيد العام في الجيش السوري المعروف بالصدق في القول والنزاهة في العمل بالاضافة الى التهذيب العالي ؛ وحين كنا نتحدث ذات يوم عن حوادث الحرب اخبرني انه كان آنئذٍ في بيروت طالباً في المدرسة اليسوعية التي تسلمتها الحكومة وادارتها بمعرفة اساتذة عثمانيين ، فدعي ذات ليلة الى تناول طعام العشاء مع مدير الشركة السالفة الذكر وبعض

اعضائها في فندق « دوتشرهوف» . وحين اختلوا معاً في احدى غرفه ، عرضوا عليه هدية مالية كبرى لقاء الحصول من والده ، امين بك الدوخي ، قائم المقام العسكري رئيس لجنة التكاليف الحربية ومنها الحبوبات المرسلة الى لبنان وبيروت ، على كلمة « شوهد » في جداول وارد الحبوب ونفقاتها التي تعرض بعدئذ على الاميرالاي كاظم بك فيصدق عليها فور اطلاعه على هذه الكلمة ، وأسلفوا محدثي توفيق بك مبلغ ثلاثين ليرة ذهباً نفقة سفره الى دمشق وعودته . فكانت حداثة سنه وسلامة طويته من الاسباب التي جعلته ينزل عند ارادتهم ،ولما عرض الامر على والده، وكان رجلاً صالحاً لم يدنس عرضه وشرفه برشوة ولا بغيرها ، فانتهره غاضباً وأنبه تأنيباً شديداً ، فعاد خائباً الى بيروت حيث قص على مرسليه واقع الحال ، ولكنهم تمكنوا اخيراً بطرق أخرى من الحصول على موافقة كاظم بك المشار اليه بعد بذل كبير .

واذا علمنا ان مقدار القمح الوارد اثناء الحرب الى بيروت وجبل لبنان عن يد الشركة المذكورة قد تجاوز الوف الاطنان ، ادركنا عظم ارباح الشركة فوق ما جنته من التصرف بقسم كبير من مختلف الاغذية وبيعه في السوق السوداء بأسعار فاحشة تزيد عشرة اضعاف وأحياناً عشرين ضعفاً عن قيمته الاصلية ، فهذه الارباح لا يمكن للشركة ان تحصل عليها الاّ بعد بذل كبير للقادة العسكريين المشرفين على ادارة الشركة ومستودعاتها.

وفي الربع الاخير من سنة ١٩١٧ ، تبدلت خطة جمال باشا كما هو وارد في بحث آخر من هذا الكتاب ، فأخذ يعطف على اللبنانيين ويسمح بارسال القمح الى جبل لبنان وخص المقام البطريركي الماروني بمحمول عدة شاحنات ليوزع على الفقراء والمحتاجين من رهبان واهلين .

اعمال البر والاحسان

لا يسع المنصف ، في صدد بحث المجاعة في لبنان ، الاّ الاشادة بفضل المحسنين الاميركيين والمغتربين من اللبنانيين والسوريين ، الذين كانوا يرسلون ما تجود به انفسهم بل ما تفرضه عليهم واجبات الاخاء ، من اعانات بواسطة السفارة الاميركية في العاصمة التركية ، وهذه ترسله بدورها الى الجامعة الاميركية في بيروت فيقوم معتمدوها الامناء بتحويل الدولاوات الواردة الى اوراق نقدية تركية متداولة وتوزيعها على المحتاجين ولا سيما العائلات المستوزرة منهم .

رئيس الجامعة الاميركية

نقل الي صديقي اللبناني الاستاذ الكبير بولس خولي ، من عمدة الجامعة الاميركية ، ان رئيسها مستر دودج أخذ منذ بدأت الحرب يقتصد في نفقاته مقدماً ما يوفره لمساعدة الفقراء ، حتّى انه كان ينزل من مصيفه في ضهور الشوير الى مقر عمله في بيروت مشياً على قدميه ليوفر اجرة ركوب العربة فيدفعها لفقير .

أنا لا اعتقد ان رئيس الجامعة الاميركية المفضال الذي تبرع بكامل راتبه لمصلحتها بحاجة لتوفير اجرة مركبة خيل يدفعها الى حوذي وطني حين ينتقل بين بيروت ومصيفه اذا اراد مجرد عمل الخير ، ولكنه آثر اختيار المشي على قدميه ليكون قدوةً لغيره من الاثرياء والوجهاء فأراد ان يلقي خارج الجامعة ، على النفوس المريضة ، درساً في الاخاء الانساني كما يلقي دروسه داخلها .

ليطمئن رئيس الجامعة النبيل بالاً ، فقد عرفت اناساً من متوسطي الحال والمحتاجين ، كانوا يقتصدون في نفقاتهم الضرورية وفي كسائهم وغذائهم ليوفروا شيئاً يتصدقون به على الفقراء دون ان تدري شمالهم ما تفعله يمينهم .

شوهد مرةً مطران بيروت الشيخ الجليل جراسيموس مسره في احدى غرف الدرجة الثانية من قطار سكة الحديد ، مسافراً الى عاليه ليتوجـــه منها الى مصيفه في دير سوق الغرب . ولما سئل عن هذا التطور في حياته بعد شيخوخته ، اجاب انه يقتصد الفرق في الاجرة يومياً ليقدمه الى الفقراء .

وكان الحاج مصطفى حولا المقيم في ميناء طرابلس ، يوزع بيده وعلى باب بيتـــه الخبز يومياً على الفقراء الذين يؤمونه بالمآت حتى نهاية الحرب ، فاستحق الثناء على نبيل اعماله واحراز السعادة في الدارين .

البطريرك غريغوريوس حداد

تميز هذا الاب الاقدس بعطفه على المعوزين في ابان الشدة التي حلت بلبنان ، فقد فتح ابواب البطريركية في دمشق امام الفقراء من جميع المذاهب والاديان القادمين من مختلف انحاء لبنان والقرى السورية . وبعد ان انفق كل ما كان لديه في سبيل اعانتهم بالخبز والدقيق ، رهن صليبه الذهبي مقابل مبلغ من المال انقذ به حياة بعض الفقراء من

الموت جوعاً . ولما بلغ مسامع جمال باشا ما يقوم به هــذا الحبر الجليل من اعمال البر والاحسان الى المعوزين دون تفريق في الجنس والدين والمذهب ، زاره شاكراً له عطفه على اولئك البؤساء ومده بكميات من القمح مكنته من المثابرة على عمله المبرور حتى نهاية الحرب .

ومما يحكى عن غبطته ان شماسه تقدم له ذات يوم يخبره نفاذ معظم القمح الذي كان في البطريركية ويستأذنه بحصر الكمية القليلة الباقية بأبناء طائفته . فانتهره البطريرك العظيم قائلاً : « الخلق ابناء الله وكل ما عندنا هو من الله فلا ترد احداً عن مال ابيه ولا تفرق بين الاخ وأخيه ».

المطران انطون عريضه

كان الحبر الجليل السيد انطون عريضة مطراناً على ابرشية طرابلس ، قبل ان يجلس سعيداً على سدة البطريركية المارونية . ولما اشتدت ازمة المعيشة اثناء الحرب، ولم يرق له ان ينعم وحده بما وهبه الله من سعة رزق في طرابلس ، فغادرها الى ديره في قرية كرمسده، من اعمال الزاوية في جبل لبنان، فآوى فيه مئتي ولد فقير جلهم من الايتام، وتعهد بنفسه امر اعاشتهم وتهذيبهم وبذل في سبيلهم كل ما استطاع من جهود ومال، حتى باع صليبه المرصع بالجوهرات المهدى اليه من ذويه في المهجر وانفق ثمنه على ابنائه الروحيين الصغار. وحين زرته فجأةً في ديره العامر بهم، وجدته بثياب رثة اخضر لونها الاسود، يقوم بخدمة ضيوفه الابرياء ، متشبهاً بمعلمه السيد له المجد . وبعد انتهائهم من الطعام ، جلس بدوره يتناوله بنفس هانئة مما كانوا يأكلونه . فهنأت سيادته متمنياً ان يحذو حذوه جميع الرؤساء والاثرياء وهيهات ما تمنيت .

النقد الورقي

في نيسان سنة ١٩١٦ ، اصدرت الدولة العثمانية النقد الورقي وأوجبت التعامل به بدلاً من الذهب ، وظلت قيمته في دوائر الحكومة مساويةً اعتبارياً للذهب تستوفي منه الضرائب وتدفع النفقات والرواتب . ولكن قيمته في السوق سقطت تدريجياً حتى تدنت الى الخمس ، فاغتنم المدينون هذه الفرصة لتسديد ديونهم وتجلى في معظمهم ، ولا سيما الاثرياء ، الطمع وقلة التدين وموت الضمير .

شمل التعامل بالنقد الورقي جبل لبنان حين لم يبق فيه مدين يستطيع وفــاء دينه ، فكان يقترض المحتاج الالف ليرة بالنقد الورقي مقابل سند يعترف فيه بقبض المبلغ ليرات ذهبية نقداً وعداً . على ان الحكومة في بيروت وجبل لبنـــان كما في سائر الولايات قد انقذت موظفيها من غائلة العوز بسبب تدني قيمة النقد الورقي ، فوزعت عليهم القمح بمعدل مئتين وخمسين غراماً للشخص الواحد من افراد العائلة بسعر الكيلو سبعة قروش ، كما وزعت قسماً من المواد الغذائية كالبطاطا والسمن والزيت والسكر بكميات ضئيلة وبصورة متفرقة متباعدة .

وقد ساعد الحكومة على القيام بهذا التدبير صدور امر قيادة الجيش بقبول البدل النقدي من المستعفين من خدمة العلَم بشرط ان يدفعوه من تلك المواد الغذائية .

ولما ألغت القيادة العليا قبول البدل النقدي بحجة احتياجها الى الجنود اكثر منه الى المال ، دب الذعر في نفوس الذين يخشون الخدمة العسكرية زمن الحرب ولا سيما الاثرياء ثم انتهت مراجعاتهم وتوسلاتهم الى الاستغناء عن خدمة كل من يقدم ما تزيد قيمته عشرين ضعف البدل النقدي، من المواد الغذائية او من الحطب اللازم لمحروقات الجيش والسكك الحديدية المعدة لخدمته ، بعد ان قل الاحتياطي من الفحم الحجري او كاد ينفد . لذلك اخذ المتعهدون يشترون اشجار الصنوبر من مالكيها في لبنان ، مرجحين الاماكن التي يسهل منها النقل بأقل كلفة ، ويقطعونها ويقدمونها الى اقرب محطة . وقد شملت الحاجة قطع اشجار الحور ولم تستثنَ الاشجار المثمرة في الزبداني وغيرها من اعمال سورية واشجار الصنوبر في بعض حراج جبل لبنان .

الفصل السادس

خدمتي في قضاء الكورة

تقسيمات القضاء الادارية

قضاء الكوره هو القضاء الشمالي من جبل لبنان ، قريب من مدينة طرابلس ومتصل بضواحيها ، يشمل مركز القضاء والقرى المرتبطة به مباشرة ً وثلاث مديريات او نواح ، حسب تعبير ذلك العهد ، هي مديرية الناحية الشمالية ومركزها قرية دده ، والوسطى ومركزها بشمزين والقويطع في الجنوب ومركزها كفرحاتا .

ان بلدة اميون ، الواقعة في منتصف القضاء تقريباً ، هي مركزه الاداري منذ بدء التشكيلات . ثم اضيف اليها ، اسوة بمعظم اقضية جبل لبنان ، مركز شتوي في البلدة الصغيرة انفه الواقعة على ساحل البحر ، وقد استمرت فيها حكومة القضاء مدة سنتين اعتباراً من بدء الحرب العالمية الاولى لضمان السهر على الساحل البحري ، الى ان عينت قيادة الجيش العثماني لجنة عسكرية لخفر السواحل التي كانت معرضة لنزول بعض الافراد من سفن الاعداء بغية التجسس .

فور تعييني قائم مقام على الكوره ، غادرت بعبدا الى انفه في السابع من تموز سنة ١٩١٦ وأقمت في الطابق المعد لكل قائم مقام الكائن فوق دار الحكومة وباشرت العمل مع رفاق هم من خيرة الموظفين .

وكان من حسن حظي وجود كرام الاسر الطرابلسية الذين فضلوا الاصطياف في هذه البلدة الصغيرة الجميلة الهادئة على ساحل البحر كما فضل بعضهم الاقامة طول مدة الحرب تأميناً لراحتهم وهنائهم ، ذكر منهم كبير قومه قيصر بك نوفل ، والوجهاء نقولا كرم

ونعمه خلاط ورامز خلاط ، وكان يقيم في جناح خاص من دير سيدة البلمند الوجيه انطانيوس باسيلي مع عائلته ، وقد اتيت على ذكرهم نظراً لعطفهم على الفقراء الذين لم يخل منهم بلد زمن الحرب .

استعادة المحكمة الملغاة

كانت محكمة البداية في قضاء الكوره قد الغيت بغية الاقتصاد في النفقات اثر الغاء نظام جبل لبنان عملياً ، وقام مقامها محكمة البداية في البترون ، مركز القضاء المجاور ، بالاضافة الى وظائفها الاصلية ، فكان ذوو المصالح القضائية والشهود يتذمرون من الغاء المحكمة ومما يتحملونه من جراء ذلك من زيادة في النفقة والمشقة . وكان قائم المقام، بصفته اكبر ضابط عدلي في القضاء ، يضطر لتقبل الشكايات في المواد الجزائيـة وضبوط التحقيق المقدمة من قيادة الدرك، فيرسل منها ما يستدعي الملاحقة القضائية الى البترون . لذلك عرضت الى مرجعي الاعـلى ، متصرف جبل لبنان ، ضرورة اعادة المحكمة الى قضاء الكوره حرصاً على حقوق الاهلين وراحتهم، اسوةً بأمثالهم من سكان سائر الاقضية. فوافق على طلبي وتألفت المحكمة الجديدة من الرئيس الشيخ يوسف زخريا والاعضاء السادة عبد الرزاق عابدين الدمشقي وأحمد البرجاوي وفؤاد نصار اللبنانيين ، وكلهم من القضاة الحائزين كامل الصفات المقتضية لاتمام مهامهم .

وبدهي ان يقابل اهل الكوره هذه البادرة بمزيد السرور والانشراح .

جمعيات عون الفقير

حين قدمت الكورة ، كان ضيق العيش قد استحكم في لبنان بسبب تقنين القمح المرسل اليه من سورية الداخلية بواسطة ادارة خـاصة معروفة باسم مكتب الحبوب ، تشرف عليه الحكومة المركزية تحت مراقبة قيادة الجيش العليا ، حسبما سبق ذكره .

لم يكن التقنين منتظماً التنظيم المطلوب لحمايـة الشعب من جشع المحتكرين الذين يظهرون في كل ازمة ليثروا على حساب غيرهم ، فماذا يعمل الفقير ليحصل على قوته اليومي وهو لا يملك بارة الفرد وقد مات من مات تاركاً ايتاماً ينفطر لحالتهم الجماد. لذلك كان اول عمل فكرت فيه هو اتخاذ التدابير المقتضية لمساعدة الفقراء ، فأسست في كل بلدة وكل قرية جمعية باسم جمعية عون الفقير مؤلفة من السيدات والأوانس، فكن يجمعن

ما يجود به المحسنون والمحسنات ويوزعنه على فقراء القرية ، وقد امتازت جمعيات اميون وكسبا وبشمزين بتمثيل روايات ادبية انفق ريعها في هذا السبيل الخيري النبيل .

لما وصل الخبر الى المتصرف في بعبدا تفضل علي بالشكر على ما قمت به ، وأرسل بلاغاً الى قوام المقام في الاقضية يستحثهم فيه على تأسيس جمعيات عون الفقير اسوةً بما فعل قائم مقام الكوره .

ميتم في انفه

فكرت في تأسيس ميتم في انفه يضم ايتام القضاء الفقراء ، وعددهم يقرب من مئة ، وليس لدي شيء من المال والاثاث ، وعلمت انه يوجد في انفه مدرسة تحمل اسم مدرسة المساواة لصاحبها ومديرها الاستاذ جبران مكاري ، من الوجهاء الغيُر على مصلحة الوطن ومساعدة البؤساء ، وقد اغلقت ابوابها منذ بدء الحرب لأسباب اقتصادية بحتة . فعينت الاستاذ الموما اليه رئيساً لبلدية انفه ، ثم حدثته بأمر الميتم على ان ينفق عليه مما يجود به المحسنون ، مؤملاً سد العجز اما من صندوق الحكومة او من مكتب الاعاشة اذا تمكنت من الحصول على موافقة المتصرف . فأظهر المكاري استعداده لتقديم المدرسة مجاناً ، باعتبارها مقفلة بطبيعة الحال . ولما سألته عمن يستطيع القيام بادارة الميتم لوجه الله ، قدم نفسه لهذا العمل ، فشكرته على اريحيته وأخذنا معاً نهيء حفلة في بهو المدرسة يقوم بالاشراف عليها اعضاء لجنة البلدية ودعونا اليها محبي الخير ، فلبى الدعوة عدد من كرام الكوريين والطرابلسيين ، وكان اكثرهم سخاءً السيد نقولا كرم وعزيز بك مالك وخصصنا ما جمعناه لفقراء الايتام وكسائهم. فكانوا يتقدمون وهم نصف عراة تعطف عليهم السيدات والآنسات المحسنات عطف الامهات على اطفالهن والأخوات على اخوتهن الصغار ، ويعنى بأمورهم الصحية الدكتور الياس عبود ، من وجهاء قرية وجه الحجر المقيم في انفه .

لم يمر شهر من الزمن حتى بلغ عدد الايتام في الميتم المئة ، ولما شعرت بالحاجة الى المزيد من النفقات بسطت واقع الحال امام متصرف لبنان علي منيف بك ، آسفاً لاضطراري الى التوقف عن هذا العمل الخيري ولما يؤثر اغلاقه على ثقة الشعب بعطف الحكومة ، مقترحاً ان يسمح لنا بأخذ ما يحتاجه الميتم من موجود مكتب الحبوب من قمح وزيت وصابون وغيره . فأجاز لنا ذلك بعد ان حصل على موافقة القيادة العسكرية العليا .

لقد سر جميع من زاروا الميتم مما شاهدوه في الاستاذ جبران مكاري وقرينته الفاضلة وأبنائه النجباء من صادق العواطف نحو اولئك الاحداث البؤساء والاهتمام بهم من نواحي التعليم والتربية ، في تلك الازمة التي تعد من اشد الازمات التي مرت بفقراء جبل لبنان .

قبل ختام هذا البحث لا بد لي من الاشارة الى ان الاستاذ مكاري حين اطلق لحيته في بدء الحرب ، نذر ان لا يحلقها الاّ في نهاية الحرب اذا ظل حياً . وقد حفظه الله وأوفى نذره في حفلة دعا اليها الأهل والأصدقاء فهنؤوه بسلامته وعافيته معجبين بمقدار نمو لحيته في اربع سنوات .

فلسا الارملة

حين دعوت رئيس لجنة بلدية انفه وأعضاءها الى اجتماع في دار الحكومة ، أخذت احثهم على البذل في سبيل التخفيف من عبء الفقير ليكونوا قدوةً لغيرهم ، فجاد كل منهم حسب غيرته وحميته واستطاعته . ولما اشتبهت في يسر احدهم كما ظهر لي من ملامح وجهه ومن ثيابه ، خشيت ان يجود جاره بما فوق طاقته ، فأضفت الى سابق حديثي اليهم العبارة الآتية :

« الاقربون اولى بالمعروف ، فعلى كل انسان ان يبدأ بنفسه وتأمين حاجة عياله اولاً ليجود على ابناء جنسه بنفس راضية ، وبذلك يكون قد ساعد الحكومة ايضاً بمهمتها بصورة غير مباشرة » . ثم اعدت النظر في قائمة تبرعاتهم فوجدت ذلك الرجل قد تبرع بليرتين ورقاً . ولما علمت من اكثر اخوانه انه بحالة اعسار ولا يستطيع ان يربح هذا المبلغ اذا اشتغل من الصباح حتى المساء في مهنته المتواضعة ، استدعيته على انفراد لاتحقق منه عما اذا كان تبرعه السالف الذكر يخل بنفقة عياله ، فأجابني قائلاً : «قدمت الليرتين بنفس راضية فأرجو ان تحسبهما كفلسي الارملة الوارد ذكرهما في الانجيل الشريف» .

تعميد الاخوة العشرة في وقت واحد

طعن كهنة انفه في عقيدة الاستاذ جبران مكاري شاكين انه لم يعمد ابناءه ، وقد بلغ كبيرهم العشرين من العمر . ولما سألته عن جلية الامر أجاب معترفاً بصحة الخبر ، دون ان يستطيع تقديم البرهان على ما يبرر اهماله هذا الواجب الديني عند جميع المسيحيين . وبعد اخذ ورد اثناء المباسطة ، اظهر استعداده لتعميد ابنائه مع اخيهم العاشر المنتظر

ان يرى النور قريباً ، طالباً مني ان اكون عرابهم ، فوافقته على ذلك . وبعد ولادة الابن العاشر ، وكان جميلاً ، دعانا الوالد والأم الولود الى حفلة شائقة باركها مطرانا بيروت وطرابلس وحضرها نخبة من كرام الناس . وكان في وسط القاعة برميل كبير حوى الماء الكافي لتغطيس المعتمدين على انفراد، فكنت فخوراً بأني عرابهم . وبعد الصلاة المعتادة القيت خطب التهاني والقصائد ، وعم السرور والانشراح قضاء الكوره . ولما بلغ الخبر مسامع غبطة البطريرك الانطاكي التقي الورع العلامة غريغوريوس حداد المقيم في دمشق، تفضل علي بكلمة شكر داعياً لي بالتوفيق في جميع الامور وشمل المعتمدين العشرة وذويهم ببركته الرسولية .

عطف مدير الناحية الشمالية على الشعب

لما اشتدت ازمة القمح في جبل لبنان وأخذ الجوع يفتك في الفقراء ، كانت مراقبة الطرق بين الكوره وطرابلس على اشد ما يمكن منعاً لتسرب المواد الغذائية الى الجبل، حتى ان حكومة طرابلس عينت مراقبات من النساء لتفتيش اخواتهن اللبنانيات حين عودتهن من طرابلس وقراها الى الكوره والزاوية .

وفي ذات يوم، تلقيت برقية من متصرف طرابلس رشيد بك طليع اللبناني، تتضمن الشكوى من مدير الناحية الشمالية السيد عبدالرحمن المجدوب لمنعه الدركيين المعينين لمطاردة المهربين واسترداد حمولة اربعة بغال دقيقاً هربها الاهلون من طرابلس الى قرية دده مركز الناحية ، ويطلب المتصرف المشار اليه في برقيته الايعاز الى المدير بتسليم الحمولة المهربة . فأجبته برقياً بتعذر تلبية طلبه المخالف للانسانية والعدالة الاجتماعية ، وصارحته بعزمي على اعلان شكري للمدير المو ما اليه على عاطفته النبيلة التي لم تتحمل رؤية ابناء ناحيته يتضورون جوعاً .

ولما رفع رشيد بك شكواه الى والي بيروت ومتصرف جبل لبنان ، لم يعبأ بها مقدرين موقفي وموقف مدير الناحية الشهم النبيل من الوجهتين الادارية والانسانية .

كان من حسن حظ لبنان الشمالي ان وظيفة رشيد بك في طرابلس لم تطل، فنقل الى محل آخر في سورية وحل محله متصرف تركي يدعى فتحي بك كان اخف وطأة من سلفه ، بل كان نبيل العاطفة اعجب بحسن ادارته الطرابلسيون وجيرانهم اللبنانيون .

رهبان دير حنوش

اطلعت القيادة العسكرية العليا على تسرب اخبار سورية ولبنان الى الاعداء المحاربين بفضل الجواسيس الذين كانوا يحضرون على بواخر الدول المعـادية ويقتربون ليلاً من الساحل اللبناني على زوارق صغيرة . فأسست فرقة من الجيش خاصة بخفر السواحل قام قائدها بتحريات واسعة في جونيه دون ان يظفر بطائل .

تلقيت ذات يوم امراً من متصرف جبل لبنان مبنياً على امر قيادة الجيش بوجوب نقل رهبان دير حنوش القريب من رأس الشقعة (المسيلحة) الى داخل سورية لأنهم لم يطفئوا الانوار المطلة من ديرهم على البحر ، خلافاً للأوامر الصادرة بهذا الشأن ، ممـا اوجب الشبهة في سلوكهم ومما يساعد العدو على الاتصال بالساحل . فأسرعت الى بعبدا حيث قابلت المتصرف مؤكداً اخلاص هؤلاء الرهبان لوطنهم ودولتهم وابتعادهم عن كل ما له علاقة بالسياسة . ولمـا اصر على تنفيذ الأمر العسكري الصادر بنقلهم ، اقترحت عليه نقلهم الى دير ماروني في قرية بصرما الكائنة في وسط قضاء الكوره وغير المطلة على البحر ، وبذلك تؤمن الغاية التي توختها قيـادة خفر السواحل دون ان يلحق بهم ادنى انزعاج . فوافق على هذا التدبير وأقنع القيادة العسكرية بصوابه ، فانتقل الرهبان الى دير بصرما وظلوا فيه حتى نهاية الحرب بأمان واطمئنان .

التجسس للفريقين المتحاربين

اتصل بي وأنا في الكوره ان الشيخ فؤاد العازار ، من اقرب المقربين الى رضا باشا قائد الفرقة في عاليه ، قد هرب من ساحل طرطوس الى جزيرة ارواد ثم سافر منها الى مصر ، وبعد مدة وجيزة عاد بنفس الطريق . ثم بلغني ان سفره كان باتفاق مع القادة العسكريين ، بناءً على اقتراح قدمه لهم صديقهم وصديقه الشيخ كنعان الضاهر ، وذلك لتجسس حال الفرنسيين الذين احتلوا الجزيرة على اثر دخول تركيا الحرب وحـال البريطانيين في مصر. فتظاهر الشيخ فؤاد امامهم انه فرّ تخلصاً من ظلم الاتراك ،وبعد ان أقام مدة من الزمن في رحلته ، اتفق مع ذوي الشأن هنالك على ان يعود الى لبنـان وسورية فيمدهم بما يمكنه الحصول عليه من الاخبار .

ولما عاد الى لبنـان اختلط بمن ارسله دون ان يستطيع أحد سواه معرفة ما نقله الى

الفريقين ، واذا كان رجال السلطة راضين عن مساعيـــه ، فان بعض الناس من عارفيه يعتقدون انه خدم الفريقين ونال المكافأة من كل منهما .

أما رضاء القادة الاتراك عنه ، فقد تأيد لدي بما سمعته من فم جمال باشا المرسيني الملقب بالصغير ، قائد الفيلق الثامن العامل تحت قيادة جمال باشا الكبير . فلما مر بقضاء الكوره اثناء جولة قام بها في الربع الأخير من عام ١٩١٦ ، استقبلته مع كبار موظفي القضاء ، فاستغرب وجودي قائم مقام نظراً لعلمه اني كنت أميناً عاماً لحاكم لبنان اوهانس باشا . فأطلعته على ما جرى بعد دخول الدولة العلية الحرب منتقداً خطة القادة التي ادت الى اقصاء الاكفاء عن مناصبهم ونفي معظمهم الى الاناضول ، خلافاً لما كان يسير عليه قناصل الدول الاجنبية حين يختارون اصدقاءهم من ذوي المكانـــة العلمية والادبية والاجتماعية . فأجابني بما حرفيته : « لا تستغرب هذه الخطة التي سرنا عليها ، فجميع الدول تتبعها زمن الحرب . فلو كلفناك مثلاً ان تذهب الى جزيرة ارواد متظاهراً بالفرار من وجه الحكومة ، لامتنعت عن ذلك طبعاً ، وعليه نمحضك اعتبارنا ومشاركتنا في الحكم ونعهد بمهمة التجسس الى أهلها فنكافئهم على عملهم بالمال أو بتوليتهم بعض الوظائف أحياناً » .

اسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان

بناءً على تنسيب مجلس الوكلاء وصدور الارادة السنية ، نقل عزمي بك والي بيروت الى مكان آخر وحل محله في بيروت علي منيف بك متصرف جبل لبنان . وقد اسف اهل الولاية لذهاب عزمي بك الاداري الحازم الكبير ، ورحبوا بخلفه علي منيف بك الواقف على شؤون الدولة مذ كان مستشاراً لوزارة الداخلية .

أما متصرفية جبل لبنان فكانت من نصيب اسماعيل حقي بك ، من الشخصيات البارزة في العاصمة ، وقد سبقت له الخدمة في الديوان الهمايوني كأمين سر في عهد السلطان عبد الحميد ، ومع ذلك ظل حائزاً رضى اركان جمعية الاتحاد والترقي بعد انقلاب عـــام ١٩٠٨ ، نظراً لعالي مزاياه وأهمها نظافة يده وترفعه عن كل ما يؤذي أحد أفراد الرعية ، من أنصار العهد أو أعدائه على السواء .

ولما اتصل بحكومة جبل لبنان خبر مغادرة المتصرف الجديد الاستانة قادماً بالقطار الى مقر عمله ، أرسلت كبير المرافقين سعيد بك حماده لاستقباله في حلب ، ثم استقبله

موظفو الحكومة وأركان الجيش في محطة بعبدا حيث عزفت موسيقى الدرك النشيد العثماني، واختار لاقامته الشخصية البيت الذي كان يسكنه سعيد بك البستاني في الحدث .

بعد عدة ايام من قدوم المتصرف اسماعيل حقي بك الى لبنـــان ، تلقيت كتاباً من المرافق سعيد بك حماده زاخراً بسؤال المتصرف وحديثه عني طول طريق السفر واستغرابه بعدئذ عدم مجيئي للسلام عليه ،خلافاً لباقي قوام المقام الذين قاموا بواجب الترحيب فور وصوله . فشعرت بتقصيري بالنسبة لزملائي ولم يكن تقصيراً غير مقصود ، ثم ابرقت الى دولة المتصرف مستأذناً فأذن لي برقياً في اليوم نفسه ، فتوجهت الى بعبدا حيث تشرفت بمقابلته ولقيت منه لطفاً وعطفاً بارزين .

وفي اليوم الثالث ، دعا قوام المقـــام في جميع الاقضية الى اجتماع تحت رئاسته في بعبدا ، شأن كل حاكم في بدء تسلمه مهام مقامه الجديد ، فألقى عليهم نصائحه الادارية القيـّمة ،وكانت مفاجأة منه حين قال : «ان كلامي غير موجه طبعاً ليوسف بك الحكيم» ، فلم يتحمل الصبر عليها احد الزملاء الامير فؤاد شهاب قائمقام الشوف ، وهو من خيرة رجال الادارة السابقين في سورية وأبرزهم علماً ونزاهة ، فقال : « يا دولة المتصرف ، كلنا يجل يوسف بك وهو اخونا وصديقنا العزيز ، ولكن استثناءكم اياه دوننا قد يحمل على الشك في كفاءتنا ، فأرجو ايضاح هذه الناحية لراحة افكارنا » .

فأجابه المتصرف : « ان الحكيم اخبر منا جميعاً بحالة جبل لبنان ، فهو الذي يستطيع ان يمدنا بمعلوماته وكلنا ، انتم وأنا ، حديث عهد في لبنان ، فكيف اجيز لنفسي توجيه النصائح لمن يفوقنا خبرة » .

ولما انتهى من القاء نصائحه باسلوب ناعم ألفه جميع رجال القصر السلطاني (سراي همايون) أو(ما بين همايون) وموظفو الباب العالي (الجامع لمقام الصدارة العظمى ووزارتي الخارجية والداخلية ورئاسة شورى الدولة) شكرناه منتظرين اشارة الانصراف . حينئذ وقفت مستأذناً ، فأشار الي بالجلوس ، وبعد ان ودع الزملاء بكلمات طيبة بدت عـــلى وجوههم آثار انشراحهم لها ، اخذ يحدثني في تلك الخلوة الحلوة عن جبل لبنان والحالة التي عاناها اوهانس باشا قيومجيان في اواخر حكمه ثم سألني : « اية وظيفة تريدها في لبنان ؟» فأجبته : « ان ابقى حائزاً على ثقته وعطفه». ثم اشار الي بأن ابقى بضعة ايام بقربه انعم فيها بمشاهدة الاهل والاصدقاء .

لقد حملت في نفسي هذا العطف الكبير الذي احاطني به المتصرف على توصية او

حسن شهادة قد تصدر عن خيري افندي شيخ الاسلام السابق ، واوهانس باشا قيومجيان المقيمين في الآستانة .

استقبال المتصرف في الكوره

بعد شهر من عودتي الى مقر وظيفتي ، ابرق الي المتصرف المشار اليه معلناً عزمه على زيارة القضاء . وفي الموعد المعين وصل مع حاشيته بسيارات خاصة الى دار الحكومة وقدمت لدولته موظفي القضاء فشملهم بابتسامته اللطيفة واعلان رضائه عن نشاطهم ، وحل ضيفاً كريماً في بيتي وهو الطابق الاول من دار الحكومة في انفه . وكان يصحبه قائم مقام جونيه الشيخ كنعان الضاهر وقائم مقام البترون قدرة بك المعين خلفاً لجورج بك زوين المستقيل وقائد الدرك العام وفيق بك والمرافق سعيد بك حماده .

وبعد مبادلة الترحيب والمجاملة المتبعة في مثل هذه المناسبة ، حل المتصرف وحده الشرفة الغربية المطلة على الشارع فساحل البحر ، بينما جلس صحبه في الشرفة الشرقية من المنزل . ولما اقترحت عليه ان ينضموا الينا قال : « دعهم وشأنهم وتعال نتحدث معاً » . فشعرت حينئذٍ بعطف خاص مترقباً سنوح الفرصة لمعرفة سببه .

واثناء تعاطينا المقبلات مع قليل من العرق اللبناني ، حسب اختياره ، سألته عن عافية كل من خيري افندي شيخ الاسلام الاسبق واوهانس باشا قيومجيان ، فأدرك بذكائه مقصدي وقال :

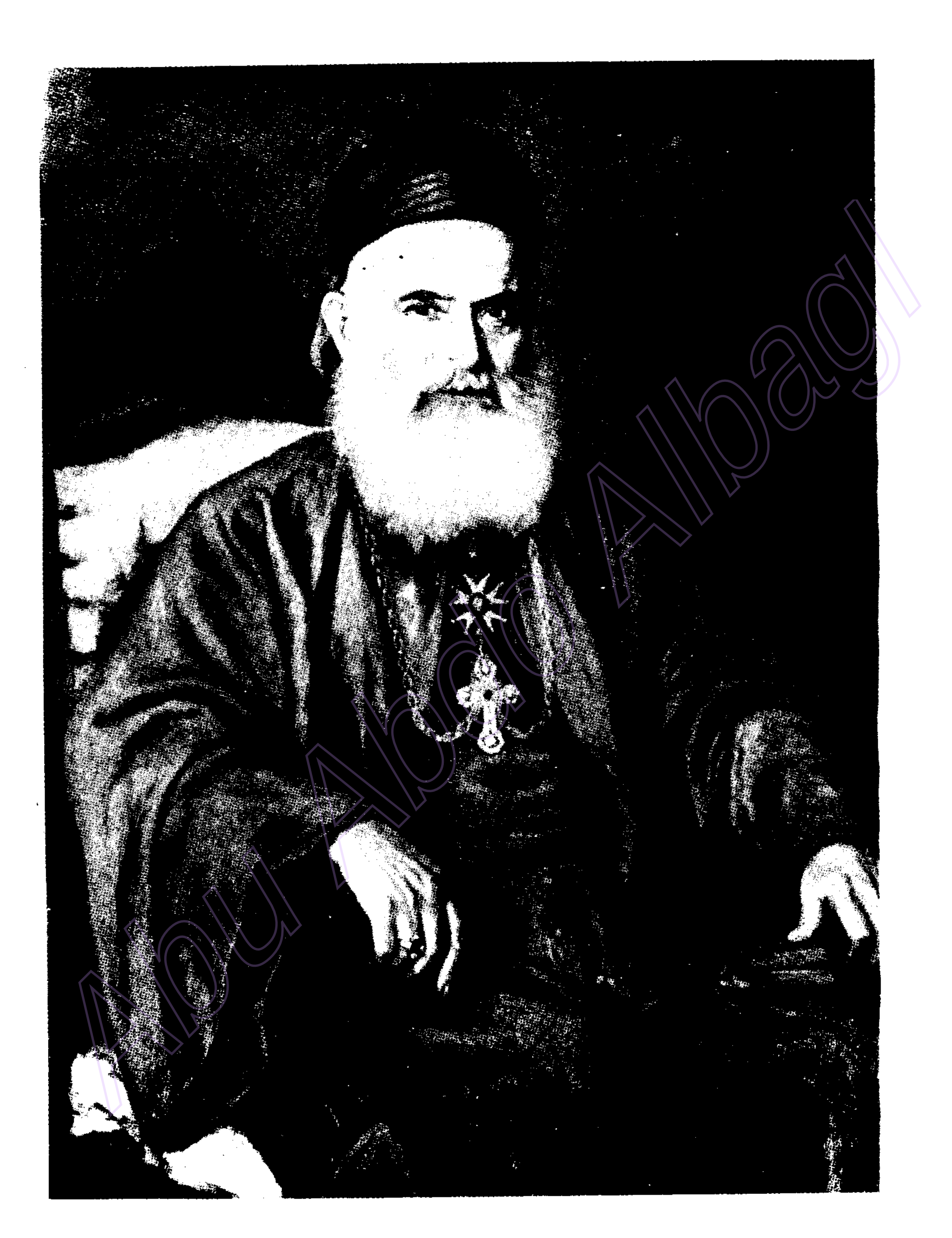
« كلاهما بخير وعافية يحبانك محبة الاب لابنه والصديق لصديقه الحميم ويذكرانك بالثناء على مزاياك . ولكن لك ايضاً اصدقاء غيرهما ، لاحدهم علي فضل تعريفي بك احسن تعريف أتذكره ؟ من هو ؟

ولما رآني أفكر : من يكون ذلك الصديق ، ثابر على حديثه اللطيف قائلاً : « هو صديقك القديم آصف بك مبعوث ولاية « وان » ، فهذا ما جعلني استصفيك من جميع الاخوان وامحضك كامل ثقتي واعتباري ».

سررت كل السرور لوفاء آصف بك ، ذاكراً بدء تعارفنا في القدس حيث كان رئيساً لمحكمة البداية وكنت مستشاراً في محكمة الاستئناف . واثناء هذه الرفاقة في المسلك ، قمنا بسياحة الى العاصمة بحراً وبراً بطريق يافا — بور سعيد — القاهرة — الاسكندرية ،



اسماعيل حقي بك



المطران انطون عريضة

وقفت على ما تحلى به هذا الصديق التركي من ثقافة عالية وتهذيب رفيع وخلق كريم ولطف معشر ومودة اقترنت بالوفاء في القرب والبعد .

زيارة طرابلس بمعية المتصرف

اخبرني المتصرف اسماعيل حقي بك عن رغبته في زيارة طرابلس وسألني عن فنادقها وكانت آنئذ متواضعة ، فعرضت عليه ان يحل ضيفاً في قصر احد اصدقائي وهم كثر ، ومنهم الوجيه الكبير قيصر بك نوفل حائز الرتبة الاولى من الرتب الشرفية التي كانت تمنحها الدولة العثمانية (والتي تأتي بعد رتبتي الوزارة والرتبة العليا في السلك الملكي) ، فوافق على اقتراحي ، وبناءً على برقية مني تفضل قيصر بك بارسال برقية الى دولة المتصرف يرجو منه ان يكون مع صحبه ضيوفه الكرام .

ولما وصلنا طرابلس قبيل الغروب ، وجدنا متصرفها فتحي بك وأركان حكومته على باب دار الحكومة وأمامهم مفرزة عسكرية لاستقبال متصرف لبنان . وبعد التحيات اللطيفة المألوفة ، ذهب المتصرفان وصحبهما الى القصر النوفلي حيث استقبلوا بأجمل الترحيب ، وقد اعجب صاحب الدولة بالمضيف الكبير وخبرته ووجاهته وبالمزايا العالية التي تحلت بها قرينته الفاضلة السيدة النبيلة سلمى كاتسفليس ونجابة ابنائهما وحلاوة صغراهم الطفلة ايفا المحببة الى كل القلوب .

وقد اعجب الضيوف بالقصر ومحتوياته وجمال موقعه وتنظيمه كما اعجبوا بالمائدة وأوانيها الذهبية بالاضافة الى نفاسة الطعام والشراب وحسن الترتيب .

ولما كنت كواحد من اهل البيت المضيف ، فارقت ضيوفي في نهاية السهرة نزولاً عند ارادة صديقي الحميم السيد نعمه خلاط المتوفرة فيه أنبل العواطف . فنمت بكل هدوء وراحة في بيته العامر بأنجب الابناء وأمهم التي عناها سليمان الحكيم حين قال : « المرأة الفاضلة من يجدها هي اثمن اللآلي ».

واثناء عودتنا من طرابلس هنأني متصرف لبنان بأصدقائي الكرام في كل مكان .

رئاسة بلدية اميون

ان اميون مركز القضاء الصيفي هي اكبر بلدة في الكوره ، معظم ثروتها من كروم الزيتون والعنب المحيطة بها ، وميزتها انه لا يوجد بين اهلها كبير تفاوت في مستوى الحياة

الاجتماعية، ولا زعيم اقطاعي يستطيع فرض ارادته على الشعب بالرغم من تفاخر وجهائه قديماً بأنهم ابناء عاصمة القضاء . فأميون والحالة هذه اجدر من سواها بلجنة بلدية منتخبة من الشعب . ولما كانت مدة لجنتها القائمة على العمل والمعينة تعييناً لسنتين قد اوشكت ان تنتهي ، اعلنت اجراء الانتخابات على ان يفوز برئاسة اللجنة من يحرز على اكثر اصوات الناخبين ، مؤيداً بهذا الاعلان حيادي بين المتزاحمين في سبيلها ، وهما خليل بك يزبك رئيسها السابق والسيد حبيب شماس. وفي نتيجة الانتخابات فاز الحبيب على الخليل برئاسة البلدية ، وقام على قدر ما تسمح به الواردات باصلاح الطرق وصرف مزيد اهتمامه على نظافة البلدة بدون ادنى تفريق بين حي وآخر ، فأحبه الشعب ولم يشك منه احد من انصار خصمه . ثم اخذت اطبق نفس التدبير في سائر قرى القضاء وأجمع بين القرى الصغيرة المتقاربة بلجنة بلدية واحدة ، فظهر لي من كل ما قمت به في هذا السبيل ان اهل الكوره محبون لوطنهم بعيدون عن المشاكل، اذا تركوا وشأنهم، دون تدخل خارجي كالذي كان يأتيهم من ترجمان قنصل روسيا العام في بيروت .

راهب دير البلمند

دير سيدة البلمند من اهم اديرة البطريركية الانطاكية الارثوذكسية ، قد تخرج من مدرسته الاكليريكية عدد من الرهبان احرز معظمهم القسط الاوفر من التدين والعلم الصحيح .

ولما كان الدير غني بأملاكه وكروم زيتونه ، عهد صاحب الغبطة في بدء الحرب بادارته الى السيد زخريا مطران حوران . وكان بعد قليل من ذلك التاريخ ان صدر امر القيادة العليا بنفي مطران بيروت العلامة جراسيموس مسرة الى داخل سورية بناءً على شكوى رئيس شعبة اخذ العسكر في مركز الولاية ، ثم اكتفى بأن يقيم اقامة جبرية في الدير المذكور بفضل توسط غبطة البطريرك غريغوريوس حداد في الأمر ، وقد اوصى هذا الحبر المفضال المطران زخريا بأن يقوم بواجب اكرام ضيفه الكبير وتأمين رفاهيته .

وفي احدى الليالي شاهد خفراء الساحل العسكريون اشباحاً تنتقل من ساحل انفه الى زورق صغير في بحرها، فتقدموا نحوه وتبادلوا مع من كان فيه اطلاق النار فقتل احدهم وجرح احد الخفراء دون ان يتمكن الزورق من الابتعاد كثيراً عن البر لخلل طرأ عليه .

وظهر مما وجد فيه من ثياب وأوراق ان صاحبها يدعى جرجي انطاكي ، شماس في دير سيدة البلمند .

كنت في اميون المركز الصيفي حين تلقيت برقية من قائد فرقة السواحل المقدم توفيق بك تنبئ بأنه في طريقه الى الدير مع مفرزة من الجند للتحقيق في أمر هام . فأسرعت ووصلت الدير قبلهم ، واثناء اهتمامي بالتحقيق توصلاً لمعرفة ما حدث ، وصل القائد المومأ اليه وشاركني في المهمة ، فتبين لنا ان الشماس الانطاكي كان يشكو من ادارة شؤون الدير دون ان يصغى الى شكواه . فاستولى عليه اليأس من اصلاح الحالة وقرر مغادرة الدير تخلصاً من القائمين على ادارته والفرار بحراً الى جزيرة ارواد التي احتلها الجند الفرنسي منذ بدء الحرب او الى جزيرة قبرص تبعاً للظروف الجوية المواتية . وأخذ يقضي يومياً قسماً من نهاره في حرج الدير حيث تمكن بمساعدة صديقه انطانيوس وأخيه من أهل ميناء طرابلس من تهيئة زورق قطعوا اخشابه من أشجار الحرج وأنزلوه ليلاً الى انفه ومنها الى البحر ، ولكنهم لم يستطيعوا الابتعاد عن الشاطئ الا قليلاً لخلل طرأ عليه . فحاولوا العودة الى البر اذ فوجئوا بثلاثة من الجنود الخفراء ، فبادلوهم اطلاق النار فجرح احد الجنود وقتل انطانيوس وهرب رفيقاه . وظهر من التحري في موجودات الزورق ان احدهما هو الشماس جرجي انطاكي كما سبق البيان .

التحقيق في الحادث

لما سألنا عن رئيس الدير المطران زخريا للاستيضاح منه عن الشماس وحقيقة اسباب مغادرته الدير ، قيل لنا انه توجه الى ميناء طرابلس في زيارة لصديقه ونسيبه السيد جرجس حداد ، وهو رجل فاضل تقي وشقيق لغبطة البطريرك .

ولدى التحري في الدير وتوابعه ، لم يظفر بما له علاقة بالحادث سوى اثر قطع الاشجار التي صنع الزورق من اخشابها . ثم غادرت الدير مع القائد توفيق بك وجنوده الى شكا حيث يوجد مكتب القيادة لاكمال التحقيق .

لقد تبين لي من مخابرة متصرف جبل لبنان ان القيادة العسكرية العليا تحرص قبل كل شيء على ان يكون الشماس ورفيقه الذي بقي حياً قد عادا الى البر دون ان يتمكنا من الفرار بحراً ، فاذا ثبت الشق الاول هان الامر وهذا ما اخذت اسعى اليه ، وقد

ساعدني على اتمام مهمتي ثقة القائد توفيق بك بي وبصدق جهودي التي ستوصلني الى الحقيقة فترك لي حرية العمل .

كانت قيادة ميناء طرابلس بناءً على سابق طلب القائد توفيق بك قد القت القبض على المطران زخريا والرفاق الذين كان بينهم وأرسلتهم الى شكا مخفورين . ولما بدأت استجوب سيادة المطران بحضور توفيق بك ظهرت عليه آثار الاضطراب والخوف وارتجفت اطرافه وتلعثم لسانه وارتبك في اداء الجواب ، فهدأت روعه وطمأنته عن المصير، فكان اول جواب منه انه كان في ميناء طرابلس منذ ثلاثة ايام تاركاً ادارة الدير الى مطران بيروت الذي يجب ان يعتبر وحده المسؤول عن الشماس جرجي وعما قام به من اعمال .

فقلت لسيادته (والمكالمة بالعربية ، وتوفيق بك لا يعرف منها الأ القليل) : « لا تخف يا سيادة المطران من قول الحق وثق بأني سأنقذك من كل مؤاخذة مهما كانت درجة تقصيرك في واجباتك وسأنقذ سمعة الدير من ذيول هذا الحادث ، فلا مجال لهذا الاضطراب البادي على وجهك ويديك ورجليك ولا تعرض بكلام غير صحيح اخاك الروحي مطران بيروت الى الخطر بدون موجب ، وأنا اعلم عداءك له ، لذلك اكتفي منك بالجواب على هذا السؤال : أين هو الشماس جرجي ؟ فاذا ظفرنا به نجا من العقاب الصارم وانتهت القضية بسلام وبعقوبة طفيفة تحل به وبرفيقه دون سواهما ، وأنا الضمين بكل ما قلته لسيادتك » .

كنت مستنداً في كلامي الى سابق مخابراتي البرقية مع دولة المتصرف والى موافقة المقدم توفيق بك وثقتي بنبل اخلاقها . لذلك كررت سؤالي على المطران زخريا : « اين هو الشماس جرجي ؟ » فوعدني بالتحري والتنقيب عنه واعطاء الجواب الشافي ان شاء الله خلال يومين او ثلاثة ايام . وعليه اطلقت سراح سيادة المطران ورفقائه في اليوم نفسه بعد استجوابهم .

بعد ثلاثة ايام ، عاد الي المطران زخريا مخبراً ان الشماس لا يزال في بر الكوره وبعد قليل يحضر الينا . وفي خلال الاسبوع توصلنا لمعرفة ملجأ الشماس وتسليمه نفسه للديوان العرفي في عاليه حيث حكم عليه بالسجن مدة سنة وعلى رفيقه شهراً واحداً وأفرج عن جميع الذين اوقفوا ممن جيء بهم من دار البطريركية في دمشق الى عاليه ، واسدل الستار على هذه القضية مما جعلني ورفاقي في العمل ظافرين براحة الضمير وبجزيل الشكر من

اولياء الامر وبصالح الدعاء من صاحب الغبطة البطريرك الجزيل الاحترام وبالثناء من جميع اهل الكوره لنجاحنا في اتمام المهمة بخير وسلام .

مطران بيروت – من ذيول حادث الدير

لم يمر على حادث دير البلمند ردح من الزمن حتى فوجئنا بنبأ صدور امر القيادة العسكرية العليا بنقل السيد جراسيموس مطران بيروت من دير البلمند الى دير القديس جاورجيوس في قضاء الحصن (تلكلخ) البعيدة عن الساحل فلا يمكن رؤية البحر منه . وكانت القيادة المشار اليها قد ابلغت ذلك من قبيل المجاملة الى غبطة البطريرك في دمشق ، فكتب بدوره الى سيادة المطران بأن ينتقل من تلقاء نفسه حفظاً لكرامته الى منفاه الجديد حيث يحل على الرحب والسعة ويلقى كل رعاية واكرام من رئيس الدير ورهبانه . فاضطرب المطران ايما اضطراب وأسرع الى انفه (حيث يقيم الوجيه الطرابلسي الكبير نقولا كرم وعائلته المحترمة ، وبينهم وبين سيادة المطران صداقة زادها رسوخاً خطبة صديقه الحميم السيد الياس سيوفي الوجيه البيروتي المعروف الآنسة فوتين كريمة نقولا كرم) ثم زارني مع الآنسة المومأ اليها وأخبرني الأمر الواقع وأضاف ان انتقاله الى دير مار جرجس الواقع في منطقة والي بيروت صاحب الاقتراح بنقله الى داخل سورية اثر اختلافه مع رئيس شعبة اخذ العسكر يجعله مهدداً بخطر النفي الى داخل سورية فالأناضول لأتفه الاسباب ، وما اكثر اختلاقها في هذه الظروف .

ولما رأيت الدموع تذرف من عيني المطران ، الشيخ العظيم بعلمه ورفيع منزلته العلمية والسياسية ، قلت له : « لن تبعد يا صاحب السيادة عن قضاء الكوره وأنا فيه » ونهضت فوراً متوجهاً الى بعبدا حيث قابلت المتصرف اسماعيل حقي بك ، الممتاز بلطفه ونبله ، فسألته عن سبب نقل مطران بيروت من دير البلمند . فأجابني بين المزاح والجد قائلاً : « ان مطراناً واحداً كاف لازعاج القضاء فما قولك بمطرانين يتنازعان في دير واحد ؟ » فألححت عليه بالسؤال هل هنالك وشاية بحقه ؟ فأجاب : « شهد عليه شاهد من أهله ، لذلك ، لم تستصوب القيادة العليا بقاءه في دير يطل على البحر وقريب من الشاطئ » .

قلت : « ولكنه مخلص لدولته يحمل منها أرفع الأوسمة وكان دوماً حائزاً تقدير الولاة والحكام في بيروت ولبنان ، اما الشهادة الواردة عليه فمنشؤها الحسد » .

قال: « وهل من ضرر اذا انتقل من دير البلمند وافترق عن زميله ؟ »

قلت: « لا يهمني يا صاحب الدولة امرهما كليهما اهتمامي بنفسي وسمعتي. فالمطران جراسيموس بريء من كل ما اسند اليه من التهم وهو فوق ذلك من أعلام الملة ومن اعظم رؤسائها علماً ومرتبة وشهرة. فابعاده عن قضاء أرئس حكومتــه مشين بسمعتي ومضر بمستقبلي وعليه أقترح أن يقيم في مركز القضاء شتاءً في انفه وصيفاً في اميون فيظل تحت نظري ومراقبتي وأعتبر نفسي مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه ولا ترضاه الحكومة. فــان وثقتم بكلامي ثابرت على وظيفتي بما تعهدونه فيَّ من غيرة واخلاص شاكراً فضلكم على الدوام والاّ اضطررت للاستقالة من الوظيفة ».

فوعدني المتصرف حفظه الله باجابة سؤالي وأبرق فوراً الى القائد الأعــلى جمال باشا فأجيب بالموافقة وزففت البشرى برقياً الى سيادة المطران وبقي في الكوره معززاً مكرماً يمد محدثيه بنصائحه القيمة وآرائه السديدة حتى انتهاء الحرب وجلاء الترك عن سوريــة ولبنان، وحينئذٍ عاد بموكب حافل بأبنائه الروحيين وأصدقائه المعجبين بفضله الى بيروت مركز ابرشيته، فاستقبلته بجميع طوائفها استقبالاً حاراً قل نظيره.

يجدر بي في هذا الصدد ان انوه بما قام به الوجيه الطرابلسي السيد نقولا كرم وأسرته الكريمة في سبيل سيادة المطران المشار اليه وتأمين راحته فقد احاطوه مدة وجوده في الدير اولاً وفي انفه وأميون ثانياً بعواطف محبتهم البنوية وسخائهم المعروف ومزيد عنايتهم.

ولما انتهت الحرب وعادت هذه العائلة الكريمة الى منزلها الكبير في ميناء طرابلس، زفت ابنتها الآنسة فوتين التي تميزت منذ نشأتها بالتهذيب العالي والتفكير الصحيح وأعمال البر والاحسان، الى خطيبها السيد الياس السيوفي الوجيه المعروف والصديق الحميم للمطران المشار اليه الذي ذهب بنفسه الى طرابلس حيث عقد اكليلهما في حفل حافل بعلية القوم.

يحتم عليَّ واجب الانصاف للحقيقة والتاريخ ان اشيد بالوفاء والاخلاص اللذين تمثلا في تلميذ المطران، الارشمندريت ايليا الصليبي (الجالس الآن سعيداً على سدة مطرانية بيروت) فكان التلميذ البار بحق معلمه والوكيل الحكيم الهمام الأمين على حقوق ومصالح رعيته لم يتأخر عن مواصلته، بشجاعة واقدام قل نظيرهما في مثل تلك الظروف، بكل ما يحتاج اليه في منفاه من مال ومعلومات ورسائل تبعث في النفس اطيب الآمال بدوام روابط المحبة بين الراعي الجليل ورعيته العزيزة الصادقة في القرب والبعد والسراء والضراء على السواء.

ولما انتقل المطران جراسيموس الى جوار ربه خلفه باجماع رأي المجمع المقدس تلميذه ووكيله السيد ايليا الصليبي المشار اليه ، فسار على خطى المرحوم معامه وفاقه في حسن الادارة والسياسة مع جميع طبقات الشعب ومختلف الحكومات المتعاقبة وجميع المقامات الدينية والسياسية .

البطريرك الحويك في طريقه الى الديمان

كنت معجباً بوطنية اللبنانيين وحرصهم على استقلالهم اعجابي بالتفافهم حول غبطة اللبناني الاول البطريرك الماروني العظيم الياس الحويك الذي وقف حياته وكل جهوده لخير لبنان واللبنانيين أجمعين ، وما كنت اعتقد ان الشدائد تخبي تلك العواطف الصادقة حتى اعلنت الحرب في اوربا وظهرت نقمة الدولة العثمانية على نظام جبل لبنان ثم على سيد لبنان لا لشيء سوى مجرد تمسكه باستقلال لبنان وعاطفته نحو مؤيديه . فأخذ المتزلفون الى قائد الفرقة رضا باشا يدسون على غبطته متجاهلين منزلته السامية وفضائله التي لا تحصى وابتعد ضعفاء الايمان عن زيارة بكركي حتى كاد العشب ينبت في طريقها .

وكانت العادة فيما سبق حين ينتقل البطريرك الى مقره الصيفي في الديمان ان يحيط به موكب كبير من السادة المطارنة والكهنة والوجهاء فضلاً عن مفرزة من الجند اللبناني ، ويستعد للتبرك بلثم انامله اهالي كل قصبة وقرية على الطريق محيين ومرحبين وهاتفين بطول عمره السعيد . فلم يظهر بعد اعلان الحرب اثر لهذا الشعور الفياض وذلك لاعتقاد الناس ان مثل هذه التظاهرات قد تجر على من يقوم بها نقمة السلطة الحاكمة ، وقد لا يسلم منها صاحب الغبطة نفسه اذا اعتقدت السلطة ان كلمة تخرج من فم غبطته تقيم الشعب وتقعده .

في بدء حزيران سنة ١٩١٧ بلغني خبر مرور صاحب الغبطة المشار اليه ببلدة شكا في طريقه الى الديمان مقره الصيفي ، فأسرعت بارسال من كان في مركز القضاء من فرسان الدرك الى شكا ثم تبعتهم يرافقني الضابط النشيط الأمين حنا بك فارس. فوجدنا الموكب قد وصل وهو لم يزد عن مركبتين تقلان صاحب الغبطة وحاشيته الكريمة ، فقمنا بواجب الترحيب واستمداد البركة والدعاء ، ولما سار الركب تقدمه الفرسان حتى دير الديمان ، وقد تفضل صاحب الغبطة علينا بالشكر على هذا الواجب البسيط في حد ذاته قائلاً : « ان الله لا يتركنا » وأضاف احد امنائه : « جزى الله الشدائد كل خير » .

الوشاية برئيس المحكمة

كثرت الشائعات عن اتصال جواسيس الاعداء بالساحل اللبناني بواسطة السفن التي تجوب البحر في مختلف الاوقات ، ونمي الخبر الى القيادة العليا ، فأصدرت اوامرها الى قيادة خفر السواحل بالتشدد في المراقبة وكان ساحل جونية وجبيل وما بينهما اكثر الاماكن عرضة لنزول الجواسيس. لذلك اشتدت المراقبة عليه وتكررت التحريات في البيوت بناءً على اخبار او ادنى شبهة تقع عليها .

وذات ليلة جاءني قائد خفر السواحل المقدم توفيق بك مشهراً غضبــه على رئيس المحكمة الشيخ يوسف زخريا عازماً على سوقه فوراً الى عاليه حيث يحاكم امام الديوان العرفي بتهمة تركه نافذة مسكنه المطلة على البحر مفتوحة يشع منها النور ، وفي ذلك اشارة الى الاعداء كما يظهر من صحفهم التي تنشر عن سورية ولبنان اخباراً لا يعرفها الاّ المقيمون فيها . وأعاد توفيق بك الى الذاكرة حادث الشماس جرجي انطاكي حين حاول الفرار من انفه بحراً وهو احد رهبان دير البلمند الذي يرئسه المطران زخريا شقيق رئيس المحكمة .

فرجوت منه ان لا يتسرع بالحكم على رجل القانون المعروف باخلاصه لدولته فهو لا يهتم بغير شؤون وظيفته القضائية ولا شأن له بالسياسة مطلقاً . ثم اتفقنا على ان يذهب بعض خفرائه مع ضابط درك القضاء الى منزل رئيس المحكمة للكشف عليه من الخارج وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ، فذهبوا وعادوا الينا مخبرين ان الرئيس وعائلته نيام في غرفة ذات نافذة مطلة على البحر وفيها سراج ضئيل النور يستعملــه جميع الناس في غرف نومهم . فأكدت للقائد سلامة طوية الرئيس وهو رجل عالم فاضل ، « درويش » في حياته ، فلا يمكن ان يخامره ادنى فكر سيء فلنستدعه ونسأله لماذا ترك السراج مضيئاً دون اغلاق النافذة او وضع الستار عليها . ولما حضر امامنا ، اجاب معتذراً بأن مرض زوجته افقده الانتباه الى ضرورة منع تسرب ذلك النور الضئيل الى خارج الغرفة ، فاقتنع القائد بحسن نيته مكتفياً بالتنبيه الى عدم تكرر هذا الاهمال ، وشكرنا الله على انتهاء هذه القضية بسلام .

دعوتي لاجتماع في البترون

كنت ذات مساء في منزلي بانفه اتحدث مع والدتي وزائرنا الشاب الاديب كرم نقولا كرم حين وردتني برقية من قائد شمالي لبنان المقدم زكي بك تتضمن دعوتي الى

البترون لمباحثات هامة مع بعض الرفاق . وسافرت صباح اليوم التالي الى البترون فاذا بي امام القائد زكي بك ونائب جبل لبنان رشيد بك الرامي في منزل قائد الموقع نجيب بك المعلوف ، فأخبرني سراً عن رغبة المتصرف في نقل قدرة بك قائم مقام البترون الى مكان آخر واحلالي محله ترفيعاً وسألاني عن رأيي في هذا التدبير وفي من يخلفني في الكوره ، فتوافقنا على كل ذلك وحملتهما شكري لدولة المتصرف اسماعيل حقي بك على عطفه ، وعدت الى انفه حيث ثابرت على عملي بانتظار ما يحمله الغد .

العطف الأبوي

قد تعادل الرابطة الروحية ، رابطة النسب او تفوقها ، وعلى هـذا الاعتبار سمى المسيحيون كهنتهم ورؤساء دينهم بالاباء الروحيين فمن قـام منهم بواجباته نحو رعيته ومواطنيها كان بحق أباً روحياً لها كما كان صاحب الغبطة الحبر العلامة السيد غريغوريوس حداد بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الارثوذكس ، في جميع ادوار حياته شماساً وكاهناً في بيروت ومطراناً في طرابلس وبطريركاً على الكرسي الانطـاكي وسائر المشرق فكان وهو مقيم في دمشق يتجه بأنظاره نحو ابنائه الروحيين في مختلف الاقطار يمدهم بنصائحه الغالية وارشاداته القيمة ،لم يحرم من عطفه الابوي أبناء وطنه من مختلف الطوائف، حتى لقب في دمشق ببطريرك المسلمين والمسيحيين . وكان فضلاً عن صلاحـه وتقواه سياسياً عظيماً ، قديراً على جمع كلمة ابناء محيطه حول الاخاء الوطني ، وقد تميز بزهده في الماديات ، فلا يحتفظ بشيء منها بل ينفقها في سبيل اعلاء شأن الدين وخدمة الوطن والانسانية .

اراد متصرف لبنان الرجل الاداري النبيل ان يكافئني عـلى جهودي وينقلني ترفيعاً بالرتب والمرتبة الى قضاء البترون الاكثر اتساعاً واهمية من الكورة ، فكتب الى وزارة الداخلية للحصول على موافقتها واستصدار الارادة السنية بذلك .

وأخذ يبحث في اسماء المرشحين لقضاء الكوره ، فكتبت صحف بيروت اسماء بعضهم دون الاشارة الى نقلي المرتقب . ولما اطلع صاحب الغبطة المشار اليه على هذه الصحف ، ظن ان يكون في الأمر ما اوجب استقالتي من الوظيفة نظراً لما اعتقده فيّ من صراحة قد لا تتفق مـع آراء ذوي الشأن العسكريين في تلك الظروف العصيبة ، فتفضل عليّ بالكتاب الآتي :

ولدنا الحبيب بالرب الخ .

بعد اهدائكم البركة والأدعية الأبوية والاستفسار عن غالي سلامتكم ، طالعنا في الصحف خبر ترشيح البعض لوظيفة قائم مقام في الكوره، فاستنتجنا من ذلك انكم بحاجة للاستراحة بعد خدمات جلى قدمتموها لدولتنا العلية والوطن بحكمة ونزاهة واخلاص . فجئنا بهذه الرسالة ندعوكم لزيارتنا ، فنضمن لكم راحتكم وانشراحكم في بيتكم الأبوي وتشاركونا في العمل لخير الملة بما لا يخرج عما ألفتموه وبهذه المناسبة تقابلون ولاة الأمر الذين لا نشك في عطفهم على امثالكم والاستفادة من خبرتكم وعلمكم. الخ.

فقدمت لغبطته الجواب التالي :

غبطة السيد السند الجليل الحبر العلامة بطريرك انطاكية وسائر المشرق الجزيل الشرف والكلي الاحترام .

بعد لثم اناملكم الطاهرة اتقدم بهذا الجواب شاكراً لغبطتكم عطفكم الابوي على ابنائكم الروحيين القريبين منكم والبعيدين على السواء .

لم تستغن حكومة جبل لبنان عن خدماتي بل قررت نقلي من الكورة الى البترون ترفيعاً لمرتبي ومرتبتي ، ولا ازال باقياً في وظيفتي بانتظار صدور الارادة السنية بنقلي الى البترون .

ولما كنت على يقين من ان تفضلكم بدعوتي هو لمجرد احاطتي بعطفكم الابوي كما هو شأنكم مع ابنائكم الروحيين واصدقائكم اذا اصابتهم ملمة ، جئت بهذه الكلمة لايضاح الواقع والاعراب عن مزيد امتناني لعواطفكم النبيلة .

اما اذا كان هنالك سبب آخر لوجودي قريباً من غبطتكم فاني مستعد لترك وظيفتي في سبيل خدمتكم التي اعتبرها من اقدس واجباتي ، ادام الله غبطتكم ذخراً للملة ومفخرة للوطن . ومتع بدوام رضاكم .

ولدكم الروحي
يوسف الحكيم

بعد ايام قليلة تلقيت من صاحب الغبطة الجواب فاذا به يؤيد صحة ما ذهبت اليه من تفكير ويزيد في ثقتي بعطف غبطته وعظيم مروءته .

الفصل السابع

المرحلة الأخيرة من عهد جمال باشا

موجز المعارك بين الجيشين العثماني والبريطاني

بعد ان اتم جمال باشا الكبير استعداداته لاستئناف الحملة على مصر ، كما اشير الى ذلك في بحث سابق ، سار الجيش العثماني من دمشق والقدس جنوباً نحو الترعة ، وقبل ان يصلها ، قابله الجيش البريطاني بمعداته القوية وهزمه واحتل العريش في اواخر كانون الاول سنة ١٩١٦ . فارتدت القوات العثمانية الى غزه واستحكمت حواليها وتمكنت في حزيران ١٩١٧ من صد هجوم الجيش البريطاني وانزلت به خسائر فادحة . فأخذ يستكمل معداته باشراف الجنرال اللنبي ، القائد العام للقوات الحليفة في تلك المنطقة ، ثم اعاد هجومه على القوات العثمانية في تشرين الثاني واضطرها الى التقهقر والجلاء عن غزه وبئر سبع ويافا ، الى ان دخل القدس ظافراً في العاشر من كانون الاول سنة ١٩١٧ .

وبينما كان البريطانيون يقومون باصلاح ما خربته الحرب في الاماكن المحتلة ويرفهون عن سكانها بمتنوع طرق الاعاشة والتنظيم ويؤمنون سهولة المواصلات مع المقر العام في مصر ، كانت جيوشهم من ناحية اخرى ، بالاشتراك مع المجاهدين العرب ، تطارد الجيش التركي في الساحل والداخل بعد معارك عديدة في فلسطين والاردن ، والفرق التركية تتراجع شمالاً .

اما الجيش العربي المؤلف من المتطوعين ومن التحق بهم من اسرى الجيش العثماني العرب ، فقد قام بأعمال حربية باهرة في عدة مدن وأماكن بدءاً من الحجاز ، بقيادة انجال الحسين ، وبعض الشرفاء والأنصار ، وأجلوا القوات التركية عن تلك الديار بعد

ان قضوا على قسم منها ، وتقدموا الى العقبة حيث انضم اليهم الزعيم العربي المجاهد الشيخ عوده ابو تايه على رأس رجاله المحاربين الاشداء . وظلت الحرب سجالاً بين الفريقين المتحاربين في سورية الجنوبية ولا سيما في منطقة الاردن ، حيث عانى الاهلون كل شدة وانتقام من القوات التركية ، الى ان اضطرت هذه القوات امام هجمات الجيش العربي وحليفه البريطاني ، الى التراجع شمالاً تراجعاً اقترن بالجلاء التام عن سورية كما يأتي ايضاحه في محله .

موجز الحرب في الجبهات الشرقية والغربية

الجبهة الشرقية — كان الجيش الروسي حتى مطلع سنة ١٩١٧ يتقدم في غاليسيا والكاربات من اراضي امبراطورية اوستريا والمجر ، كما كان جيش روسي آخر ، تحت قيادة الجنرال نيقولاويج عم القيصر ، يتقدم جنوباً شرقي الاناضول في الأراضي العثمانية حتى وصل الى حدود ولاية دياربكر المتاخمة لولاية حلب .

ظهرت اثر ذلك على وجوه السوريين واللبنانيين علامات البشر والأمل بقرب انفصالهم عن تركيا، بفضل ما ينتظر من استمرار تقدم الروس باتجاه خليج اسكندرونه . ولكن سرعان ما خابت آمالهم حين انسحب الجيش الروسي عائداً الى بلاده بسبب نشوب الثورة الروسية في شهر اذار ضد حكم القيصر نيقولا الثاني ، آخر قياصرة آل رومانوف. وكانت نتيجة هذه الثورة استيلاء الشيوعيين الروس (البولشفيك) على الحكم في ١٧ تشرين الاول وأعلنوا في ٢٤ تشرين الثاني نبذهم المعاهدة التي كانت الحكومة القيصرية عقدتها مع حلفائها الفرنسيين والبريطانيين حول تقسيم اراضي المملكة العثمانية بين مختلف عناصرها . ونشرت صحف اسطنبول هذا النبأ وتنفس رجال الحكومة وجميع العنصر التركي الصعداء لنجاتهم من الضغط الروسي وقد ذاقت منه حكومتهم الامرين فيما مضى ، في عدة ظروف حربية وسياسية .

الجبهة الغربية — بعد ان اكتسحت الجيوش الالمانية بلجيكا وتجاوزت الاراضي الفرنسية، اشتدت الحرب بينها وبين الجيوش الحليفة الفرنسية والبريطانية في عدة جبهات. ولما انسحبت روسيا من الحرب ، بعد تسلم البولشفيك الحكم على الوجه السالف الذكر ، ازداد زحف الجيوش الالمانية على فرنسا حيث احرزت عدة انتصارات وأصبحت على بعد مرمى المدفع من العاصمة باريس .

ولما تعرضت البواخر الاميريكية التي كانت تنقل المعـدات الحربية الى بريطانيا العظمى واغرقت الباخرة الانكليزية لوزيتانيا وعليها الف ومئتا مسافر ، بينهم مئة وثمانية وعشرون اميركياً ، اعلن مستر ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، الحرب على المانيا في الخامس من شهر نيسان سنة ١٩١٧ ، وبدأت الجيوش الاميركية تصل بمعداتها الحربية ومؤونتها الوفيرة الى الساحل الغربي من فرنسا بدون انقطاع حتى نهاية الحرب .

وفي ١٥ تموز سنة ١٩١٨ ، حين قام الالمان بهجومهم الاخير ، صدتهم الجيوش الفرنسية والحليفة وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً في معركة المـارن الشهيرة واضطرتهم الى الجلاء عن جميع الاراضي التي احتلوها والتراجع الى الحدود الالمانية .

الجبهة الجنوبية — ظلت الحرب سجالاً بين الفريقين المتحاربين في البلقان (روم ايلي) ، رغم احتلال الحلفاء جزر الدوديكانيز وقسماً من ساحل مكدونيا ، الى ان دخلت اليونان الحرب في ايلول سنة ١٩١٧ الى جانب انكلترا وحلفائها ، وبدأ تقهقر البلغار متراجعين الى بلادهم .

صلات رؤساء الدين المسيحي بالدولة العثمانية

كان رؤساء الدين المسيحي من بطاركة ومطارنة بعد انتخاب كل منهم بموجب طقوس كنيسته يرفع اسمه الى الصدارة العظمى فتستصدر البراءة السلطانية بالموافقة على انتخابه وتجهيزه بامتيازات مدنية في الشؤون ذات العلاقة بأمور الدين وادارة الكنيسة والأديرة ، وكانت هذه القاعدة متبعة منذ اقدم عهود سلاطين آل عثمان كما تصدر الفرمانات حين تعيين الصدور العظام وامراء المقاطعات والولاة وحكام الألوية المستقلة ادارياً .

لقد شملت تلك القاعدة جميع رؤساء الدين المسيحي على تعدد مذاهبه من ارثوذكسية وكاثوليكية ما عدا الطائفة المارونية التي تؤلف اكثرية اهالي جبل لبنان ، فكان انتخاب بطاركتها ومطارنتها يقترن بتثبيت من المقام البابوي في روما واذا كان هذا التثبيت قداغنى عن البراءة السلطانية في جبل لبنان بفضل استقلالـه الخاص فلم يكن كذلك في سائر الولايات العثمانية حيث لا تعامل دوائر الحكومة المطران الماروني بالامتيازات التي تعامل بها زملاءه من باقي الطوائف المجهزين بالبراءات السلطانية كتنفيذ الاحكام الصادرة عن المحاكم الروحية بشأن عقد الزواج وفسخه والنفقة وغيرها .

لم يرغب المقام البطريركي الماروني يوماً في الحصول على براءة سلطانية ولعل السبب في ذلك هو الحرص على الاستقلال الديني تبعاً للاستقلال اللبناني .

ولما قامت الحرب العامة بين دول اوربا الست الموقعة على نظام جبل لبنان ودخلت الدولة العثمانية خصمها الى جانب المانيا والنمسا ضد الفريق الآخر ، وأهم اركانه بالنسبة الى لبنان ، فرنسا المعروفة بحرصها على استقلاله ، تقدم الاصدقاء المخلصون ، وعلى رأسهم حاكم جبل لبنان اوهانس باشا والوزير اللبناني سليمان البستاني شخصياً وكتابةً ، بنصيحتين الى غبطة البطريرك ومطارنته الاجلاء اولاهما بالاتجاه الى مصادقة النمسا الدولة الكاثوليكية وحليفة دولتنا العليه العثمانية ، تخفيفاً عن تأثير الصبغة الفرنسية التي اصطبغ بها الموارنة بثقافتهم وميولهم ، والثانية بأن يطلب البطريرك من الباب العالي استصدار براءة سلطانية اسوة بأمثاله البطاركة المسيحيين . وكان في مقدمة الموعزين سراً بتحقيق النصيحة الثانية هذه قائد الجيش الاعلى في سورية جمال باشا .

وكانت النتيجة ان تقدم صاحب الغبطة البطريرك الماروني الجزيل الاحترام بطلب الى الباب العالي بهذا الشأن ، فأجيب الى طلبه وصدرت البراءة السلطانيـــة في مطلع سنة ١٩١٦ ، ولكنها لم تعلن ولم تبلغ الى غبطة البطريرك الا في منتصف سنة ١٩١٧.

ترجمة نص البراءة السلطانية

الممنوحة لغبطة بطريرك الموارنة الياس الحويك الجزيل الاحترام :

بناءً على طلب بطريرك الموارنة استصدار براءتي السلطانيـــة مصدقةً حقوق ومهام وظيفته اسوة بسائر الرؤساء الروحيين للطوائف الكاثوليكية وعلى الانهاء المرفوع بهـــذا الشأن من نظارة العدلية والمذاهب ، رأى مجلس وكلائي الفخام بعد التدقيق في الامر انه من المستحسن ان يتبع الرؤساء الروحيون للطائفة المارونية نفس الاصول المرعية في انتخاب وتعيين امثالهم سائر الرؤساء الروحيين للطوائف والقيام بالوظائف المكلفين بها لدى دولتي العلية وبناءً على تنسيب المجلس المؤما اليه واستئذانه اصدرت براءتي العالية السلطانية هذه جامعةً الشروط الآتية ، وهي نفس الشروط الواردة في البراءات العالية المعطاة لسائر بطاركة الطوائف العثمانية :

عند شغور المقام البطريركي ينتخب اليه المناسب من المطارنة من تبعة دولتي العلية

على ان لا يعترف بوظيفته الأ بعــد التصديق عليها من قبلي كما هي الاصول والشروط المرعية بوجه عام .

ان الاموال المتعلقة بالمقـــام البطريركي والكنائس والأديرة وسائر المبرات تخضع في تملكها وبيعها وادارتها للقوانين والانظمة المعمول بها كل وقت في دولتي العلية .

لا يجري اي تدخل من طرف آخر في تأسيس وادارة المؤسسات الطائفية القائمة او التي تحدث من مستشفيات واديرة ومدارس ودور للغرباء وغيرهـــا ولا في المصالح التي يجب تسويتها بين البطريركية والباب العالي (مقام الصدارة العظمى) .

لذلك يقوم الياس افندي الموما اليه بادارة بطريركيته على الوجه المذكور ما دام في قيد الحياة ، فلا يعزل من منصبه اذا لم يظهر منه ما يخالف قواعد مذهبه الكاثوليكي او ينافي قوانين دولتي العلية وانظمتها والشروط السابق ذكرها او يتقدم بالاستعفاء . وعـــلى الطائفة المارونية التابعة لبطريركيته منذ القدم كبيرها وصغيرها ومطارنتها وكهنتها ورهبانها ان يعرفوا الموما اليه بطريركاً عليهم ويراجعوه في امورهم المتعلقة ببطريركيته ويقدموا الطاعة والانقياد دون اي تقصير او تجاوز كلامه السوي كما يترتب على الولاة وسائر المأمورين دقيق الاهتمام بتأمين اجراء الشعائر الدينية له ولطائفته بلا مانع ولا مزاحم . فلا يتعرض احد او يتدخل في الكنائس والاديرة المختصة بهم وتراعى في امر الزواج قواعدهم المذهبية دون جواز مخالفتها واذا وقع بين افراد الطائفة المذكورة نزاع ما في امور عقـــد الزواج وفسخه فينظر في تسويته البطريرك او وكلاؤه طبقاً لأحكامهم المذهبية كما في السابق . ولا يجوز التدخل والتعرض ، خلافاً للمعتاد القديم ، للاوراق المعطاة من قبل البطريرك بمنع الاشخاص المتهمين من اقامة الشعائر الدينية .

واذا تمنع الكهنة عملاً بشعائرهم الدينية من دفن الذين يموتون اثناء ارتكابهم مخالفـــة لتلك الشعائر فلا يسمح لأحد باجبارهم على الدفن ولا بالتعرض لأمتعة الكنائس والأديرة ولا بأخذها رهينة .

واذا مات احد ابناء الطائفة المذكورة وكان قد اوصى في حياته الى البطريرك والمطارنة والرهبان والكهنة بشيء لأجل فقراء الكنيسة فيوقف ذلك الشيء عن الورثة بمعرفة الشرع .

واذا توفي بلا وارث احد الرهبان والكهنة والقسس او احدى الراهبات فكل ما تركوه من مختلف الاشياء ، يضع البطريرك يده عليه لأجل الحق الاميري فلا يتدخل في ذلك

بيت المال والقسام والمتولون وغيرهم كما لا يسمح بوضع اليد على النقود وسائر الاموال والاشياء التي تركها المتوفون الذين لهم ورثة . والمتوفى من المطارنة والقسس والرهبان والراهبات وغيرهم ينفذ كل ما اوصى بـه بمقتضى شعائره الدينية لفقراء كنيسته وبطاركتها ويستمع شرعياً في هذا الشأن الشهود من ابناء طائفته . ولا يسمح لأحد من ذوي النفوذ والاقتدار ، بالاعتداء والاكراه كأن يقول : ليرسل هذا الكاهن الى المحل الفلاني ولتعط هذه الكنيسة الى هذا الكاهن . ولا تجوز المطالبة برسم كمرك وباج وغير ذلك من الرسوم عن الاشياء العائدة للكنائس ولا عن حاصلات الكروم المخصصة لاعاشة البطريرك المومأ اليه ولا عن سائر الاشياء التي يتصدق بها الموارنة من السمن والعسل والتركات وسائر الاشياء . امـا تصرفه في الكروم والبساتين والمزارع والحقول والاراضي والطواحين وخليات النحل والبيوت والدكاكين وسائر الاشجار المثمرة وغير المثمرة والحيوانات العائدة للكنائس والاديرة فيعتبر دستور العمل لا يسمح لأحد بالتدخل فيه .

ولا يجوز لابناء الطائفة التردد في اداء ما يترتب عليهم من الرسوم الاميرية والصدقات وسائر الرسوم البطريركية ولا يسمح بوجه ما بالتدخل في شؤون البطريرك المومأ اليه لدى قيامه بالشعائر في الكنائس والاديرة والمزارات التابعة لبطريركيته كأن يقال له : هكـذا تدفنون موتاكم وهكذا تقرأون .

ولا يجوز فرض اي اشغال او ضيافة من قبل العساكر وأهل العرف وغيرهم على المقام الذي يسكنه البطريرك المومأ اليه ولا التدخل في كسائه وثيابه وحمـاـه عصاه بيده ولتكن الشروط الواردة في براءتي العالية هذه دستور العمل فلا يتدخل احد في ممارستهـا ولا يعترض لامور المقام البطريركي بوجه من الوجوه او سبب من الاسباب .

٢٧ صفر سنة ١٣٣٣

(الموافق ١ كانون الثاني سنة ١٣٣٠ [١٩١٦])

البطريرك عند جمال باشا

في الربع الاخير من شهر تموز سنة ١٩١٧ ، دعي اللبناني الاول البطريرك الماروني صاحب الغبطة الياس الحويك الجزيل الاحترام لتناول طعام الغـداء على مائدة القائد الاعلى في سورية جمال باشا في مصيفه صوفر ، في مطلع شهر آب .

وشاع في الوقت عينه ان جمالاً المشار اليه قد ابرق الى قائم مقام زحله باعداد جناح

في فندق قادري يليق بضيف كبير يزوره قريباً ، فكثر تكهن الناس حول معرفة هذا الضيف الكبير وذهب بعضهم الى انه صاحب الغبطة نفسه . فقلقت افكار جميع اللبنانيين من جراء هذه الشائعة ، بالرغم من ابتنائها على الشك والاحتمال ، وانقسموا حولها بين مصدق ومكذب ، وكلهم يرجو من الله السلامة والاطمئنان لرجل التقى والصلاح وبطل السياسة وجامع الشمل في لبنان .

وفي ٢٥ تموز ، توجه البطريرك مع حاشيته الى بحمدون في طريقه الى صوفر ، فرحب به ابناؤه من جميع الطوائف وتألفت للاعتناء براحة صاحب الغبطة لجنة شرف من سيدات المجتمع ، كالسيدة الاديبة الفاضلة قرينة الدكتور مرشد خاطر . وبعد استراحة دامت عدة ايام شمَل الاب الصالح خلالها الجماهير ببركته الرسولية ، توجه مع حاشيته الى صوفر وحل في قصر الوجيه البيروتي جورج بك تابت ضيفاً عزيزاً مكرماً .

وفي الميعاد ، ذهب صاحب الغبطة وحاشيته الى الفندق الكبير . ولما وصله اسرع جمال باشا الى الباب الخارجي لاستقباله وسلم عليه سلاماً حاراً ووضع يده تحت ذراع غبطته ليساعده في سيره وصعوده على الدرج حتى بهو الفندق ، وكان اجتماعهما على احسن ما يكون من المجاملة ومبادلة عواطف الاحترام . وبعد الانتهاء من المأدبة الانيقة، عاد صاحب الغبطة بمجالي الابهة الى قصر تابت ، وبعد مدة اسبوعين قضاها في اديرة قضاء المتن ، توجه الى مقره البطريركي ، فهرع الناس لتحيته ولثم انامله والظفر برضاه العالي ، وكان اسبقهم اولئك الذين دسوا عليه من قبل . ولكن صاحب الغبطة ارفع من ان يحقد على احد ، فشمل الجميع ببركته وأوصاهم بطاعة الله اولاً ثم بطاعة اولي الامر .

لقد قيل آنئذٍ ان البطريرك بوقاره وهيبته وحديثه وشيخوخته قد اثر على نفس جمال باشا اكبر تأثير ، فعدل عما كان مصمماً عليه من فكرة اقامة غبطته في زحله . غير ان جريدة « السفير » اللبنانية التي يديرها ويحررها الاديب المفكر الياس الحويك قد ازاحت الستار عن هذا السر ، اذ نشرت بعددها الصادر اخيراً : « ان قداسة البابا بنادكتوس الخامس عشر ، حين عرف ان رجال الدولة العثمانية يبيتون الشر لغبطة البطريرك لانه موالٍ لفرنسا ، ارسل مندوباً خاصاً الى ڤينا لاستنهاض همة جلالة عاهل النمسا فيتوسط لدى حليفه السلطان العثماني لدفع الخطر المهدد حياة البطريرك . فلم يتوان الامبراطور عن التوسط وأجابه السلطان الى طلبه مصدراً ارادته السنية بالكف عن ازعاج

صاحب الغبطة ، وقد ارسل القاصد الرسولي في الآستانة آنئذٍ قساً الى بكركي لتطمين غبطة البطريرك عن مصيره » .

ومن قائل انه بعد ان مني جمال باشا بهزيمتين نكراءين في حملاته على ترعة السويس ، ادرك صعوبة الدفاع عن سورية بازاء هجوم الجيوش البريطانية العنيف ، يوآزرها مجاهدو العرب تحت راية جلالة الحسين وقيادة ابنه الامير فيصل . فعزم على مفاوضة بريطانيا العظمى وفرنسا سراً مقترحاً عليهما انـــه يسلمهما سورية سلمياً على ان تعطى استقلالها وينصب عليها اميراً ، مع الاحتفاظ بامتياز جبل لبنان وترك ادارة شؤونه لأهله . وقد ارسل سراً ، بعد احرازه نصراً محدوداً في معركة غزة ، صديقه الحميم مسيو نوفيل السويسري الجنس ، مدير المصرف العثماني في بيروت ، الى القاهرة مفوضاً بمخابرة الجنرال اللنبي والسفير الفرنسي بهذا الشأن . ولما عاد الرسول فاشلاً في مهمته ، ظهر من جمـــال باشا عطفاً على رعايا فرنسا واصدقائها ومؤسساتها لم يلحق مثله رعايا بريطانيا الذين لم يتمكنوا من مغادرة سورية في بدء الحرب . وعرف آنئذٍ ان الجـــنرال اللنبي وجد عرض جمال متأخر الورود بينما انشرح له صدر السفير الفرنسي ، وهذا مـــا اثار جمال باشا على البريطانيين .

لم يستغرب العقلاء التنـــاقض في الرأي بين الجنرال البريطاني والسفير الفرنسي ، فبريطانيا تريد ، في سبيل تأمين طريقها الى الهند ، مجموعة عربية مستقلة عن كل ما هو تركي ، مؤلفةً من الجزيرة العربية والهلال الخصيب مشمولة بحمايتها ، بينما تستهدف فرنسا بسط نفوذها على سورية ولبنان مستقلين عن تركيا وسائر الاقطار العربية .

نهاية عهد جمال باشا

لم يخف على متتبعي السياسة في سورية ولبنان ما طرأ على خطة جمال باشا من اعتدال في السنة الرابعة من سني الحرب . فقد سمح عام ١٩١٧ باستيراد لبنان القمح من سورية ، وخص المقام البطريركي الماروني بشاحنات منه لتوزيعها على الفقراء ، وسمح بعودة بعض العائلات من منفاها الى سورية ولبنان ، وظهرت الابتسامة والبشاشة على وجهه للعبوس . فهل ندم على ما سبق منه من قتل وتعذيب ونفي وتشريد وشعر بتبكيت الضمير ، وعهدنا به قد فقد الشعور الانساني حـــين امر باعدام شهداء الحرية من خيرة السوريين واللبنانيين ؟

لقد اثار اعتدال جمال باشا في خطته الاخيرة تساؤل الاوساط الخاصة والاندية الاجتماعية . فمن قائل انه حين رأى الولايات المتحدة الاميركية تمد فرنسا وحلفاءها بالجيوش والمال والعتاد ، شعر بقرب افول نجم حلفائه الالمان ، فأخذ يمهد السبيل لاستمالة عواطف الشعب السوري واللبناني .

وما انقضى عام ١٩١٧ حتى ساد السكوت عن ذكر جمال باشا الكبير وأوامره ، فقيل في تفسير ذلك ان حكومة الاستانة استدعته واحتفظت به لديها وزيراً للبحرية لانها اعتبرته المسؤول الاول عن الفشل المريع الذي مني به الجيش في سينا والحجاز وقسم من فلسطين ، وعن اخفاقه في الادارة والسياسة اخفاقاً كان من شأنه ان يقوم السوريون واللبنانيون عليه وعلى حكومته وانضم عشرون الفاً من شبانهم ورجالهم الى الثورة العربية العاملة تحت راية الحسين الى جانب الجيوش البريطانية .

بمغادرة جمال باشا الكبير سورية خفت وطأة الارهاب لان خلفه جمالاً الصغير المعروف بالمرسيني نسبةً الى بلده مرسين والمشهور في بعض الاوساط السورية واللبنانية بمزاياه الخلقية العالية ، واخوانه مصطفى كمال وكاظم وامثالهم من كبار القادة الاتراك ، والمارشال فون سندراس ليمان والجنرال فالكنهاين والكولونيل فون كريس ، ومن هم دونهم من الضباط والخبراء الالمان ، قد انصرفوا الى مهمة الدفاع امام مهاجمة البريطانيين ، تاركين ادارة شؤون الحكومات الى الولاة وحاكم جبل لبنان كل في حدود ولايته .

الفصل الثامن

في قضاء البترون

اهمية القضاء

يعتبر قضاء البترون القضاء اللبناني الشمالي المنتهي بحدود متصرفية طرابلس ، ويشمل المديريات الآتية : مركز القضاء والزاوية واهدن وبشراي وحصرون وقنات ودوما وتنورين. وقد جمع هذا القضاء مناطق ساحلية وجبلية عالية ووسطى ، واشتهر بمصايفه الجميلة المتعددة ، وفي مقدمتها اهدن وبشراي وأرز لبنان الشهير وبزعون وحصرون ودوما . ويقصد هواة التزلج على الثلوج جبل اللقلوق ، بالقرب من تنورين . وأهم حاصلات القضاء الزيتون في ناحية الزاوية ، والبطاطا والعنب ومتنوع الفواكه في معظم اراضي القرى العالية ، والحبوب على انواعها في السهول .

كان رئيس الادارة في البترون (قائم المقام) على مذهب اكثرية سكانه الموارنة عملاً بالنظام الخاص بجبل لبنان . ولما الغي هذا النظام عملياً حين تعيين المتصرف علي منيف بك خلفاً لاوهانس باشا قيوميجيان ، لم يبق محل لتعيين قائم المقام او أي موظف كبيراً كان او صغيراً على اساس المذهب الذي ينتمي اليه اهل القضاء .

وحين استقال جورج بك زوين قائم المقام الاسبق ، لخلاف جرى بينه وبين متصرف طرابلس رشيد بك طليع ، بسبب حوادث نقل الحبوب من طرابلس الى الزاوية والى زغرتا ، المركز الشتوي لمديرية اهدن ، خلفه بالوكالة على البترون اسعد بك لحود ، الوجيه العمشيتي المعروف ، ثم خلفه اصيلاً قدرة بك ، من اذكياء شبان الترك . وحين نقل هذا الى مكان آخر ، حلت محله بعد صدور الارادة السنية بناءً على انهاء متصرف جبل

لبنان الى نظارة الداخلية ، عـــلى مقتضى اصول ادارة الولايات ، وخلفني في قضاء الكوره ، الارثوذكسي بأكثرية سكانه ، معين بك الماضي من حيفا ، فكمال بك الشلبي من حلب ، وكلاهما مسلم من خيرة الرجال الاداريين خلقاً وثقافة .

ولا بد من الاشارة الى حسن تلقي الاهلين تعيين قائم المقـــام او مدير الناحية من الغرباء عن بلدهم ومذهبهم ، لثقتهم بحيادهما ازاء مختلف الاحزاب والزعامات ، وهذا برهان على نضوج الفكرة التقدمية في نفوس اللبنانيين ، فجعلوا الكفاءة العلمية والاخوة الوطنية فوق الطائفية . اما فريق العامة المحروم من الثقافـــة ، فكان منقاداً الى الزعماء البارزين وجلهم من الاسر العريقة في الوجاهة .

جئت البترون في الثامن من نيسان سنة ١٩١٨ ، فرحب بي الشعب والموظفون ترحيب الاخوة الاصدقاء ، ذاكرين عهد وجودي مدير القلم التركي – كبير امناء سر حـــاكم لبنان اوهانس باشا قيومجيان .

الدرك اللبناني

كان لقائد الدرك في القضاء الاهمية الاولى بالنسبة لباقي الموظفين ، لانـــه تابع لمرجعين : احدهما اداري وهو قائم المقام ، والثاني عسكري وهو ينتهي الى قائد الفرقة في عاليه . وكانت وظيفة قائد الدرك في البترون شاملة قضاء الكوره ايضاً .

كان قائداً لدرك البترون في بدء الحرب نجيب بك المعلوف المقدم اللبناني المعروف بحزمه ورزانته . وفي مطلع عام ١٩١٦ ، عين فوقه القائد التركي زكي بك ، وكان على جانب عظيم من التهذيب والرقي وحدة الذكاء . وفي بدء سنة ١٩١٨ ، خلفـــه المقدم التركي عثمان نوري بك ، وهو رجل قوي الارادة حسن الطوية صادق اللهجة متدين لا يترك فرضاً من فروض الصلاة الاّ اداه في وقته ، سواء في بيته او في مقر عمله .

لقد اتصل بي ان السبب الرئيسي في ابدال قادة الدرك قد نشأ عن التجاء عدد كبير من التابعين للخدمة العسكرية من اهل الولاية الى البترون وغيرها من انحاء الجبل البعيدة عن بيروت وطرابلس ، فراراً من الجندية التي تبدأ بالتعليم العسكري ثم يعقبه السوق الى الجبهة الحربية . والواقع انهم ظلوا في امان واطمئنان حتى نهاية الحرب ، مكتفين بالتواري عن انظار المكلفين بملاحقتهم .

موقف قائد الدرك من قائم المقام

اراد قائد الدرك عثمان نوري بك المثابرة على سابق خطته ، متخذاً لنفسه صفة الحاكم العسكري ، مما اوجب تذمر الاهلين . فأفهمته خطأه من هذه الناحية وأوقفته عند حده كقائد درك فحسب .

ارسل الي ذات يوم كتاباً يطلب فيه ان ابعث اليه بمفتاح البرقيات الرقمية (شيفره) لحل برقية من مرجعه في بعبدا ، مشار فيها الى حلها بواسطة مفتاح قائم المقام . فأجبته بأن يحضر بنفسه او يرسل من يعتمده فأسلمه المفتاح ويحل البرقية في مكتبي . فحضر الي بنفسه معاتباً ومستغرباً جوابي الذي لم يسبق ان رأى مثله . فأوضحت له صحة جوابي والاّ تعرضت ارقام المفتاح الى الفشو وفقدت المخابرات الرقمية التي تردني صبغتها السرية . فرضخ للمنطق وعرف نفسه انه تابع لأمر قائم المقام في جميع فروع الادارة ، وأصبحنا فيما بعد صديقين يربطنا اخلاصنا لدولتنا ومقتضيات الوظيفة والرغبة في العمل لخير القضاء.

زيارة حصرون

اقتضت واجبات الوظيفة ان اقوم بزيارة مراكز النواحي التابعة للقضاء ، فتوجهت مستصحباً كاتب الرسائل الشاب الاديب السيد وجيه الخوري الى حصرون اولاً ونزلنا ضيفين على مديرها وكبير وجهائها الشيخ يوسف عواد ، شقيق المطران بولس عواد وصهر حبيب باشا السعد. ولم يكن العرف المحلي آنئذٍ ليسمح بنزول قائم المقام في غير منزل مدير الناحية ، لكي لا يفسح المجال امام خصومه لمهاجمته بسائق التحاسد والتناظر على نفوذ الوظيفة .

دخل غرفتي صباح تلك الليلة مضيفنا الشيخ يوسف ، مقدماً الي خمس مئة ليرة تركية من النقد الورقي ، قائلاً انها هدية اقتضاها العرف المتبع باستمرار ازاء كل قائم مقام في زيارته الاولى للناحية . فرفضت هديته فالحف في العرض وألحفت في الرد، ثم أوضحت له باسلوب صريح مناسب اني مخالف لهذا العرف الذي لا يختلف عن معنى الرشوة بالنسبة للمهدي ومعنى سلب الناس اموالهم بالنسبة للمهدى اليه قائم المقام .

ولما ظهر على وجه المدير اثر الاضطراب والقلق من رفض هديته ، طمأنته عن اعتباري له ولعائلته ومحافظتي على الصداقة التي تربطني بابن حميه حبيب باشا الباقي في

منفاه ، فانشرح صدره وصدر عائلته لهذا الكلام وغـــادرت منزلها مشيعاً بعبارات الود والاحترام .

زيارة بشراي

امتطيت المركبة بصحبة الكاتب الوجيه الى بشراي وحللنا في منزل مديرها ابراهيم بك حنا الضاهر ، فرحب بنا ترحيباً حاراً الفه وجهاء لبنـــان امثاله . وبعد ان تفقدنا شؤون المديرية من الناحية الادارية ، وكانت مرضية ، جلسنا الى مائدة الطعام السخية مع المدير وعائلته وابني اخته الشيخ يوسف والشيخ سايد اسطفان ، الوجيهين المعروفين . وقبل مغادرتنا البلدة قدم الي المدير مئة ليرة عثمانية ذهباً كهدية متعارف عليها ، فرددتها بلطف لسبق علمي بالعرف المحلي الجاري بهذا الشأن . وقدم في الوقت عينه كل من الشيخين المشار اليهما هديته البالغة نصف القيمة السابقة ، فرددتها ايضاً مـــع الاعتذار والشكر . وعبثاً حاول الثلاثة الاسخياء اقناعي بصواب عملهم رغم استعانتهم بشهادة الكاتب السيد وجيه على استمرار العرف الذي يستندون اليه في تقديم هديتهم ، حتى ان الكاتب نفسه ابى ان يتناول شيئاً ممـــا قدم اليه تشبهاً برئيسه ، ثم فارقناهم شاكرين ترحيبهم مثنين على حسن ادارة مدير الناحية .

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

عدت الى البترون راضياً عن قيام مديري حصرون وبشراي بواجب وظيفتهما ، دون ان اسمع خلال زيارتي ما يشين سمعتهما . ولكن سرعـــان ما انقلب سروري من هذه الناحية الى كدر حين تلقيت بعد عودتي برقية من المتصرف اسماعيل حقي بك هـــذا نصها : « كان كل من مديري حصرون وبشراي قد تسلم في السنة الفائتة مالاً من خزانة الجيش ثمن بطاطا تعهدا بشرائها من محصول القرى في الناحيتين ولم يقوما بتعهدهما حتى الآن . لذلك امرت القيادة العليا للجيش باقصائهما عن الوظيفة والتحقيق معهما ، فاجروا المقتضى ووافونا بالنتيجة » .

لم يكن كدري ناشئاً عما اصاب المديرين من نكبة بل قد تجاوزها لما قد يخطر ببالهما من شك حول موقفي منهما ذلك الموقف الذي مـــا تعوداه من قبل ، فتنقلب في نظرهما مزية ترفعي من قبول هديتهما الى فكرة اضمار الشر لهما . وعليـــه استدعيت الي كاتب

الرسائل وأطلعته على البرقية ونظرت الى وجهه ، فقرأها والكآبة بادية عليه وقال : « ان ترفعك عن قبول هديتهما سيحملهما على الاعتقاد بأنك كنت عارفاً ما سيحل بهما او على الشك في محافظتك عليهما ، على الاقل » .

فقلت له : « اني عازم على ازالة هذا الشك من انفسهما باحساني اليهما » .

قال : « وكيف تستطيع ذلك بعد صدور امر القائد الاعلى ؟ »

قلت : « استدع مدير ناحية تنورين بطرس بك طربيه، وهو صهر مدير حصرون، زوج ابنته ، وبعد حضوره اطلعك على ما فكرت به » .

لما مثل امامي بطرس بك مساء ذلك اليوم ، احطته علماً بما جرى وما عولت عليه، ونصحته ان يذهب بدون تأخر الى المطران بولس عواد شقيق حميه الشيخ يوسف ، وقد تفرد بين مطارنة الموارنة بموالاة ولاة الامر الاتراك من مدنيين وعسكريين ، ودعوتهم الى ديره العامر في قرنة شهوان (قضاء المتن) في مناسبات عديدة ، فيتوجه فوراً لمقابلة المتصرف ويعرض عليه عذر المديرين الموما اليهما واستعدادهما للقيام بما تعهدا به في بدء الموسم المقبل . وفي اليوم التالي تلقيت رسالة من المتصرف المشار اليه يسألني رأيي في المديرين ، فأجبته مؤيداً عذرهما في التأخر وتوقيعهما على تعهد جديد بتقديم البطاطا المطلوبة منهما في بدء الموسم. فقبل المتصرف تعهدهما ووافق على بقائهما على رأس الوظيفة. وقد استمرا فيها حتى انتهاء الحرب وانسحاب الاتراك قبل حلول الموسم .

يستنتج مما سبق ذكره صحة اعتقادي في مزايا الاتراك من المروءة والوفاء لاصدقائهم، والغدر بمن يشكون من اخلاصه لهم وللدولة . فلو تقرب اليهم سائر السادة الاحبار كتقرب المطران عواد ، لوفروا عنهم وعن ابنائهم الروحيين كثيراً من العناء الذي نزل بهم زمن الحرب .

زيارة اهدن

اتماماً لتفقد احوال المديريات المرتبطة بالقضاء عملاً بواجبات الوظيفة، جئت اهدن في ٢٨ ايلول سنة ١٩١٨ مستصحباً كاتب الرسائل السيد وجيه الخوري . اجتمعنا اولاً مع مدير الناحية عثمان بك سلطان الاستاذ الحقوقي المعروف ، من كرام آل سلطان الطرابلسيين المشهورين بالعلم والفضل ، وسررنا من حسن ادارته وحياده بازاء الاحزاب المتناظرة . وبعد انهاء مهمتنا الادارية ، حللنا ضيوفاً في مصيف الوجيه الكبير وديع بك

طربيه اتباعاً لدعوته الحارة ، على ان نتابع سيرنا صباح اليوم التالي الى بشراي ، مارين بقرية كفر صغاب حيث نتناول طعام الغداء على مائدة الشيخ يوسف والشيخ سايد اسطفان ، بناءً على سابق دعوتهما .

نعمنا بطلاوة حديث مضيفنا وديع بك وعائلته الكريمة المحترمة اثناء وجودنا على مائدة الطعام ، وقضينا معاً سهرة الاصدقاء الخلصاء ، ثم نمنا نوماً هادئاً بعد عناء السفر . وبينما كنا نتناول معاً وجبة الصباح (الترويقة) على شرفة المنزل المطلة على اجمل الجبال والاودية العامرة بالمياه والاشجار والمزروعات ، وعلى قرية كفرصغاب وغيرها من القرى والمزارع ، اخذ وديع بك يقص علينا ما حلم به في نومه تلك الليلة قال :

« حلمت اني كنت مع اصدقائي في وليمة حافلة معدة لتكريم الصديق يوسف بك الحكيم . واثناء تبادل شرب الانخاب على صحة بعضنا البعض ، حدثت زلزلة عظيمة اهتز لهولها المكان ودب الذعر وهرع اهل البلدة يفرون من بيوتهم الى الساحات . وعلى اثر الاضطراب الذي اعتراني آنئذٍ استيقظت من نومي ونهضت من فراشي متأثراً من وقع هذا الحلم على اعصابي » .

قص علينا وديع بك حلمه هذا في الساعة التاسعة صباحاً ، وفي العاشرة ودعناه شاكرين لطفه معددين بعض مآثر تلك الاسرة الكريمة .

في كفرصغاب

سار بنا الركب المؤلف منا وممن رافقنا من الاصدقاء المصطافين في اهدن باتجاه كفرصغاب ، حيث قام قصر المشايخ آل اسطفان الكرام المبني على الطراز الحديث مستوفياً جميع اسباب الرفاهية والانشراح ، وكان حافلاً بالمدعوين من اقرباء واصدقاء . وعند الظهيرة ، جلسنا حول المائدة السخية بانواع الطعام والمشروبات الفاخرة . ولما انتهينا الى شرب القهوة ، شعرنا بزلزال ترافقه اصوات كانها مزيج من قصف الرعود وانفجار القنابل . فأسرع القوم الى الخروج من القصر ،ولكن سيدته الفاضلة قرينة الشيخ سايد لم تساعدها اعصابها على النهوض ، بل ظلت عاطفةً على طفلتها النائمة في سريرها . فجاء احد الخدم وحمل الطفلة ، ولما رأتها الوالدة الحنون بين ذراعيه هدأ روعها وأخذت بيدها وخرجنا معاً الى ساحة القصر على الطريق العام ، واتجهت انظارنا اولاً الى اهدن ، فظهر من شرفة منزل وديع بك طربيه اهله الكرام يلوحون بالرايات البيضاء اشارةً الى

السلامة ، فقابلناهم بالمثل ، متذكرين الحلم المريع الذي قصه علينا وديع بك صباح نفس اليوم .

بعد استراحة يسيرة ، ودعنا القوم مهنئين بعضنا البعض بالسلامة ، مقدمين الشكر على كل ما لقيناه من عطف وترحيب وحفاوة وسرنا متوجهين الى بشراي ، دون ان يخطر على بال احد منا ان هذه الزلزلة كانت مقدمة البشرى بانتهاء الحرب الكبرى .

سرعة العودة الى البترون

قضينا ليلة واحدة في بشراي واطمأنت نفوسنا عن سلامتها وسلامة القرى المجاورة من كل اذى ، وغادرناها صباحاً الى البترون مارين ببزعون وحصرون ، مستفسرين عن تأثير الزلزال عليهما ، وكان سليماً ، الى ان وصلنا الديمان ، فتناولنا في الدير البطريركي العامر الغداء الجسدي والروحي على مائدة صاحب الغبطة شيخ لبنان ، فشملنا بعطفه الابوي مكرراً الدعاء للعزة الالهية بانتهاء الحرب العالمية وكوارثها الجهنمية ، ثم سرنا غرباً ونزولاً . ولما توسطنا الكوره ، قرب بشمزين ، رأينا الناس قادمين من الجنوب مسرعين الى ذويهم ، فأخبرونا بانسحاب بقايا الجيش الالماني باتجاه الشمال ، ولما صرنا في البترون صدق الخبر .

لم تسلم البترون من تأثير الزلزلة ، فقد اصاب بيوتها الضعيفة الاسس ، وهي قليلة ، تصدع خفيف دون اي اذى في النفوس ، وحدثت بعض الاضرار التافهة في البيوت الكبيرة ، كالبيت الذي كنت اسكنه مع والدتي وشقيقتي ، فشكرنا الله على سلامة النفوس وانتهاء الحرب . ولم يكن سرور الناس بانتهائها سالماً من ذكراها الاليمة التي جددها رؤية الجنود الالمانية والتركية مارين بالبترون ووجهتهم طرابلس ، كما يرد في الفصل التالي .

الفصل التاسع

جلاء الأتراك عن لبنان

وما تبعه من أحداث

جلاء الجيش التركي

بعد ان دخلت الولايات المتحدة الاميركية الحرب ضد المانيا في ٥ نيسان سنة ١٩١٧ كما يرد مفصلاً في نهاية هذا الجزء ، انتعشت آمال اللبنانيين والسوريين بقرب انتهاء الحرب وخلاصهم من نير الحكم التركي وأخذوا يترقبون بجميل الصبر اخبار الجبهة الغربية التي كانت ترد في الصحف والاذاعات الاوربية ويطلع عليها اولياء الامر ومن دونهم من المساعدين وموظفي البرق والبريد ويتناقلها الاصدقاء سراً .

على اثر الهزيمة التي مني بها الجيش التركي في حملته الثانية على الحدود المصرية كما جاء في بحث سابق اخذت الجيوش البريطانية تنتقل من نصر الى نصر وتتقدم في فلسطين وشرقي الاردن والجيش التركي يتقهقر امامها منهزماً على خطين ساحلي وداخلي وقد شاهدنا فلول الفريق الساحلي مارة بالبترون في آخر يوم من ايلول سنة ١٩١٨ بحالة مزرية من الزعر والتفرق متجهاً نحو طرابلس ليركب منها القطار الحديدي الى حمص فحلب حين كانت وحدات الجيش الالماني في السيارات تمر بانتظام اوجب تقدير الاهلين واعجابهم .

تلقيت في التاريخ نفسه برقية من دمشق بتوقيع محمد سعيد الجزائري رئيس الحكومة العربية مؤرخة في ٢٨ ايلول تتضمن قيام حكومة عربية في العاصمة السورية وحث الشعب

على الهدوء وصيانة الامن ومما جاء فيها : « اسفكوا الدم ولكن بعدل » ، فعلمنا من هذه البرقية ان الجيش التركي انسحب من دمشق وجوارها .

وفي اول تشرين الاول مر بنا طلعت بك قائد الدرك اللبناني تصحبه قرينته ونسيبتها كريمة مدير مالية (دفتر دار) حلب وهم في حالة ذعر شديد ، فأكدوا لنا خبر تقهقر الجيش التركي امام هجوم قوات دول الاتفاق المتواصل ومغادرة متصرف جبل لبنان ممتاز بك مقره في بعبدا بالسيارة بطريق المعلقة . وبعد ان باتوا عندنا ليلة واحدة ، طلبوا مني تأمين وصولهم الى طرابلس لركوب القطار الحديدي الى حمص فحلب ، فكان لهم ما طلبوه بهمة وحماية الشهم الهمام يوسف سلهب ، رئيس بلدية البترون ، وقد تلقيت من طلعت بك كلمة خطية تنبئ بوصولهم لمحطة طرابلس براحة وسلام .

اتخذت جميع التدابير اللازمة لتأمين سلامة مرور شراذم افراد الجيش والموظفين الاتراك اثناء جلائهم باتجاه طرابلس مارين بالبترون ، ولصيانة الامن والحؤول دون الفوضى في مركز القضاء وملحقاته . وقد ساعدني في هذا السبيل رئيس البلدية الهمام والوجهاء الغيُر ، ولم يقع سوى شغب موقت قام به بعض الشبان حول قائد الدرك التركي عثمان نوري بك . ولما كان هذا القائد متصفاً بالنزاهة وحسن الاخلاق لم يسبق منه اساءة الى احد ، لم نجد كبير صعوبة في ابعاد المشاغبين عنه حتى سافر مع افراد اسرته الى طرابلس بكامل الاطمئنان .

مغادرة متصرف جبل لبنان ووالي بيروت هذه البلاد

انتهت ولاية عزمي بك على بيروت في ايار عام ١٩١٧ ، فسافر الى الاستانة مذكوراً بالحزم والنزاهة وحل محله علي منيف بك متصرف جبل لبنان ، وخلفه في الجبل اسماعيل حقي بك . ولما دعي علي منيف بك في منتصف عام ١٩١٨ لاشغال منصب في العاصمة ، عين اسماعيل حقي بك والياً على بيروت وخلفه في متصرفية جبل لبنان ممتاز بك الذي قدم في ٢٦ آب سنة ١٩١٨ ، وظل كل منهما في منصبه الجديد حتى انسحاب الجيش التركي .

اتصل بي ممن اثق بصدقهم واخلاصهم ان متصرف لبنان ممتاز بك كان أسرع الاتراك فراراً من بعبدا ، فقد غادرها ناقلاً معه ما وجد في خزينة حكومة جبل لبنان من اوراق نقدية تركية . ولما بلغ زحلة ، لجأ الى منزل الوجيه خليل بك مسلم ، فاستصحبه بجلاه

جورج ومراد مسلم في مركبتهما الخاصة واوصلاه الى محطة رياق حيث انضم الى فلول الجيش التركي المتراجع شمالاً .

ان المعاملة الطيبة التي لقيها الاتراك في ايام محنتهم وجلائهم عن لبنان قد دلت على مروءة اللبنانيين ومكارم اخـــلاقهم ، كما شهد لهم بذلك كل من عاشرهم وارتبط معهم بصلة .

اما اسماعيل حقي بك ، فقد تميز في مدة حكمه في لبنان بتهذيبه العالي وعطفه على الشعب وبعده عن كل ما يمس شعورهم بأذى . ولما نقل الى بيروت والياً ، سحر ألباب اهلها بلطفه وأدبه وسعيه لخيرهم كأنه واحد منهم . ولما رأى ما حل بالجيش التركي من هزيمة ، استدعى اليه رئيس البلدية عمر بك الداعوق وأبلغه تنحيه عن الحكم وسلمه ما لديه من اوراق وغادر بيروت في آخر ايلول مشيعاً بالاعزاز والاكرام .

دمشق تعين السعد حاكماً على الجبل

لقد ظهر ان قيادة الجيش التركي في دمشق قررت مغادرتها شمالاً قبل ان تفاجئها الجيوش البريطانية والعربية بهجوم صاعق . وفي ٢٦ ايلول سنة ١٩١٨ ، غادر الوالي دمشق وتبعه اركان حكومة الاتراك متتبعين اثر الجيش . فاجتمع على الفور فريق من الوجهاء والمفكرين الدمشقيين في بهو المجلس البلدي ، وقرروا اقامة حكومة موقتة تحول دون الفوضى المحتملة الوقوع حين تبدل الدول . وأجمعت كلمتهم على اختيار الامير سعيد، حفيد الامير عبد القادر الجزائري ، رئيساً لها ، نظراً لما اظهره من الاهتمام بالمحافظة على امن المدينة وراحة الاهلين في فترة الجلاء . فاستلم الادارة في ٢٧ ايلول بصدق عزيمته وأبرق الى جميع المدن في سورية ولبنان بمثل البرقية المنوه عنهـــا في مطلع بحث جلاء الجيش التركي .

لم تدم حكومة الامير سعيد اكثر من يومين ، فما بزغت شمس ٢٩ ايلول حتى ظهرت طلائع الجنود العربية والبريطانية وعقبها دخول الجيش دمشق حيث تلقى على الاثر الفريق رضا باشا الركابي امراً بتعيينه حاكماً عسكرياً على سورية من قبل المارشال اللنبي ، القائد العام لقوى الحلفاء في الشرق الاوسط ، المتخذ القاهرة مقراً له .

ارسل الركابي بعد تسلمه الحكم الفريق شكري باشا الايوبي الى بيروت ممثلاً عنه في المنطقة الغربية ، فأعلن غب وصوله عودة جبل لبنان الى سابق استقلاله وتعيين حبيب

باشا السعد حاكماً عليه. فباشر السعد مهمته في بعبدا بعد ان اقسم يمين الولاء والاخلاص للملك الحسين، دون ان يؤثر ذلك على عواطف السعد الفرنسية منذ التزمت سفارة فرنسا في العاصمة العثمانية أمر تعيينه نائباً لرئاسة مجلس الادراة في الجبل عام ١٩١٣ .

لقد دلت هذه البادرة من حكومة دمشق على اتجاه فكرة رئيسها ، وربما فكرة المرجع الذي اختاره ، نحو الوحدة السورية الكاملة داخلاً وساحلاً ، مع بقاء جبل لبنان متمتعاً بامتيازه القديم ، كما كان عليه قبل الحرب .

حكومة السعد

اخذ حبيب باشا يسند الوظائف الحكومية الى انصاره وذويه، جرياً على سابق العادة التي ألفها الزعماء ، ولم يتنازل عن مظاهر الابهة التي كانت تحيط بحكام جبل لبنان قبل الحرب . فكانت فرسان الدرك ترافق مركبته من فرن الشباك الى بعبدا ، ذهاباً واياباً ، والموسيقى العسكرية تستقبله وتشيعه كل صباح ومساء في ساحة السراي ، الى غير ذلك من المظاهر التي ترفع عنها الحكام الاتراك في لبنان وبيروت .

لم تدم تلك المظاهر السعدية اكثر من اسبوعين ، اذ وجدها كبار رجال الاحتلال من فرنسيين وبريطانيين لا تتفق وروح التطور بعد الحرب ، فأمروا بالغائها .

كان الالغاء مبادهةً قام بها ضابط بريطاني حين رأى اثنين من خيالة الدرك اللبناني في فرن الشباك ينتظران قدوم حبيب باشا بعربته من بيروت ، فأمرهما بالانصراف الى عملهما في مصلحة الدرك ، فقضى على ابهة فاشلة من ابهات الحكم .

انقسم اللبنانيون بازاء الحاكم السعد فريقين : فريق قليل العدد يؤيده في قبوله الحكم على الوجه السالف الذكر ، وفريق كبير انتقده مر الانتقاد ، وهو فريق الوطنيين الذين يرغبون في استقلال لبنان استقلالاً تاماً ، على ان يحتفظ بصداقته مع فرنسا واعتبارها في مقدمة حلفائه ، ومن هؤلاء جميع الذين كانوا يعارضون السعد في ماضي سياسته .

بيروت بعد الجلاء

استلم رئيس المجلس البلدي عمر بك الداعوق ، الحكم في بيروت في مطلع تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، من واليها العثماني اسماعيل حقي بك ؛ واعلن قيام الحكومة العربية وادار شؤون بيروت بمعاونة اخوانه اعضاء المجلس البلدي ومديري المصالح الحكومية بكل -

حزم وحسن تدبير ، مما اكسبهم ثقة مواطنيهم وشمل السرور جميع الشعب ، وعلامات البشر والانشراح بادية على الوجوه بانتظار قدوم الجيوش الحليفة .

اسند الداعوق مديرية الامن العام الى الوطني الهمام مختار بك بيهم ، وعين السيدين سليم طياره وجان فريج معاونين له .

توجه في اليوم التالي مختار بك المشار اليه والفرد بك سرسق من كبار اعيان بيروت الى مرجعيون لاستقبال الجيش البريطاني القادم من الجنوب وعادا مع اركان طليعته الاولى.

وفي ٥ تشرين الاول ، رفعت الآنسة محمصاني ، شقيقة الشهيدين محمد ومحمود ، العلم العربي على دار الحكومة بحضور الفريق شكري باشا الايوبي، ممثل الحاكم العسكري في سورية ، ورئيس اركان حزبه جميل بك الالشي .

وما هي الا ثلاثة ايام مرت على قدوم الفريق الايوبي من سورية حتى وصلت الجيوش الحليفة بحراً واحتلت الساحل السوري اللبناني ، واستلم ادارة الحكومة الكولونيل الفرنسي دوبياباب ، معيناً من قبل قائد الجيوش الحليفة العام الجنرال اللنبي حاكماً عسكرياً على كامل المنطقة الغربية من سورية . فأمر الكولونيل بانزال العلم العربي عن دار الحكومة في كل من بيروت وبعبدا ورفع مكانه العلم الفرنسي في التاسع من تشرين الاول ، وعاد الفريق الايوبي الى دمشق .

الف دوبياباب حكومة من مدراء وطنيين لمصالح الحكومة مع مستشارين فرنسيين ، وترك للقضاء العدلي حريته وحرمته ، وعلى رأسه كبار الحقوقيين نجيب بك ابو صوان ونجيب بك قباني وسعيد بك زين الدين .

قبل ان ينقضي شهر من الزمن على حكومة الكولونيل دوبيا باب ، ظهرت نقمته على خطة حبيب باشا السعد وكيفية تعيينه . فأقصاه عن الحكم لحزبيته البارزة باسناده الوظائف الى ذويه وانصاره ، وخلفه على التوالي مقدمون في الجيش فرنسيون . فكان أولهم بوشر ، وعقبه سوشيه ، ولم يطل عهدهما فعين لابرو حاكماً على جبل لبنان، فكان حيادياً نزيهاً لطيف المعشر يعامل جميع اللبنانيين على قاعدة المساواة في الحقوق والواجبات وسيرد ذكره في الجزء التالي من الذكريات .

واصل الجيش الفرنسي ، دون حليفه ، سيره شمالاً على طول الساحل واحتل اللاذقية في ١١ تشرين الاول واسكندرونة في ٢٤ منه، مما جعل المنطقة الغربية من سورية تحت

الاحتلال الفرنسي ، بينما كان حليفه البريطاني يقطع سيره الساحلي في طرابلس ، فيتوجه منها شرقاً الى حمص فحماه فحلب .

مغادرة البطريرك الديمان الى بكركي

بعد احتلال الجيش الفرنسي بيروت ، غادر صاحب الغبطة البطريرك مار الياس الحويك مقره الصيفي في الديمان قاصداً المقر الشتوي في بكركي بطريق البترون ، وحل على الرحب والسعة مع السادة المطارنة الاجلاء وامناء السر الاوفياء في منزلي الواقع على ساحل البحر في طرف البلدة الجنوبي ، بعد استقبال رائع شاركني فيه جميع موظفي الحكومة والبلدة والوجهاء ، وكلهم يكن لغبطته أصدق عواطف البنوة الروحية والاجلال .

وبعد ان تناولنا الغداء ، شملني صاحب الغبطة برعاية تعودتها من قبل وزاد عليها بقوله : « ألم اقل لك يا يوسف بك ان الله لا ينسانا ؟ والآن لقد جاء دورنا فتمنّى علينا ما تريد لنفيك حقك جزاءً وفاقاً لأعمالك الطيبة في سبيلنا وسبيل لبنان عامة » .

فأجبته شاكراً عطفه الابوي وقائلاً : « لم اشعر يا مولاي صاحب الغبطة بأني قمت بأكثر مما وجب علي » .

وبعد استراحة تناولنا خلالها شتى الاحاديث ونعمنا ببركة غبطته ، تابع الركب سيره الي بكركي على بركات الله .

وفاء وعطف ابوي في القرب والبعد

غادرت بيروت ولبنان في بدء الاحتلال متوجهاً الى دمشق عاصمة سورية حيث عينت مستشاراً في محكمة التميز (النقض) ثم ارتقيت رئاستها الاولى واشتركت عدة مرات في الوزارات في العهدين الفيصلي الاستقلالي والانتدابي . في تلك المدة الطويلة لم احرم من ادعية البطريرك الصالحة وعطفه الابوي ولطف المطارنة السادة الاجلاء وأمناء السر الأوفياء . فظلت صلة المحبة والاخلاص المتأصلة في النفوس تظهر آثارها في عدة مناسبات ، وقد لقيت منهم تفاهماً على مستقبل لبنان العزيز حين انتدبتني حكومة سورية للتفاوض معهم على ما هو موضح في الجزء المتعلق بعهد الانتداب من ذكريات الحكيم .

السياسة في المجاملة وحسن المعاملة

في مطلع تشرين الاول سنة ١٩١٨ احتل الجيش البريطاني دمشق يتقدمه الجيش العربي ، وقد سبق البريطانيون حلفاءهم الفرنسيين في احتلال بيروت قادمين من الساحل الجنوبي ، وكان بينهم مفرزة فرنسية يرمز وجودها الى الاحتلال المشترك . على انه في السادس من الشهر المذكور رست في مياه بيروت البوارج والمدرعات الفرنسية والبريطانية ، بينما كانت الجيوش البريطانية الاسترالية تسلك طريقها الساحليــة شمالاً الى طرابلس مستهدفة الاستقرار في سورية الداخلية .

ولما اتصل بي ان فرقة منها حلت بسياراتها الضخمة المتنوعة في ضواحي البترون ونصبت خيامها ، اوفدت الى قائدها رئيس البلدية السيد يوسف سلهب ليرحب به وبجيشه ويظهر له استعداد الحكومة والبلدية معاً لتقديم ما يمكن ان يحتاجه الجيش اثناء الطريق من بلدة صغيرة كالبترون . فأجابه القائد الجنرال « فاين » شاكراً هذا الشعور ومظهراً رغبته في زيارة قائم المقام بعد ظهر اليوم نفسه . وفي الوقت المعين استقبلته بما يجب من الترحيب ، ودعوته مع من يشاء من رجاله لتناول طعام العشاء يوم الغد في منزلي ، فأجاب مازحاً : « كم شخصاً تريد أن يرافقني ؟ » قلت : « كما يريد الجنرال » . قال : « يرافقني ثلاثة » . قلت : « هذا قليل » . قال : « ستة » . قلت : « وهذا ايضاً قليل » . قال : « سنكون اثني عشر ». قلت : « اهلاً وسهلاً ». ودعوت ايضاً رئيس البلدية وكاتب الرسائل وقائد الدرك اللبناني .

ساد اجتماعنا تلك الليلة جو من السرور والانشراح تخللــه التدخين بالنرجيله وسرد النكات اللطيفة التي يلقيها البريطانيون في اجتماعاتهم الخاصة كما يمارسها اللبنانيون في كل مناسبة . وحين ودعنا الضيوف ، اقترب مني الجنرال وهمس في اذني قائلاً : « الى اللقاء القريب على احسن حال » .

قد يكون لكلمات الجنرال « فاين » مغزى سياسي عرف به الساسة للبريطانيون ، كما قد يكون قدوم الجيوش البريطانيــة قبل غيرها مقصوداً فيه غزو عواطف اللبنانيين والسوريين قبل وصول حلفائهم الفرنسيين . ما اطيب قلوب هؤلاء !

بقيت الفرقة الاسترالية في طرابلس وشمالي لبنان مدة ستة اشهر اظهرت خلالها من سجايا الكرم يداً وخلقاً ما تحدث به الاهلون كثيراً ، ومن هذا القبيل ان ضابطاً استرالياً

من المفرزة المخيمة في ضواحي زغرتا مر بحانة فقدم له صاحبها كأس عرق ، فشربه ولما سأله عن الثمن اجابه : « هذه تقدمة صغيرة لا قيمة لها ». وفي اليوم التالي ارسل الضابط اليه حصاناً مقابل تقدمته .

أكان الحصان ملك الضابط أم ملك الجيش ؟ أكان هذا العطاء متفقاً عليه من قبل كاتفاق نزول المفرزة بالقرب من زغرتا المعروفة بحبها لفرنسا حباً لم يتجاوزه الفرنسيون أنفسهم ؟

وكلما جاء ضابط بريطاني دائرة البريد في طرابلس، ترجل عن ظهر حصانه فتسلمه احد الغلمان ، فيعطيه الضابط حين خروجه اجرةً لا تقل عن جنيه مصري .

بمثل هذه الدعايات البسيطة بحد ذاتها يسبق البريطانيون حلفاءهم ، فهل كانت نتيجة درس تلقوه قبل الاحتلال أم هي سجية من سجاياهم امتزجت بدمهم منذ القدم مما جعلهم في مقدمة المستعمرين ؟ أما دعاياتهم الهامة فقد لعبت دورها في دمشق وفي سورية كما سيأتي في الاجزاء التالية من الذكريات .

مغادرة البترون

لما كان جلاء الترك عن لبنان قد اعقبه نزول الجيوش الحليفة في بيروت وقضى بطبيعة الحال باستعادة جبل لبنان نظامه القديم ، ومن مقتضى هذا النظام ان يكون قائم المقام في كل قضاء منتمياً الى مذهب الاكثرية بين طوائفه ، فترتب عليَّ والحالة هذه ان استقيل من قضاء البترون ذي الاكثرية المارونية .

مما لا ريب فيه ان اعتبار المذهب الديني او الطائفية ، الاساس الاول في اسناد الوظائف الى اربابها بدلاً من الكفاءة بين ابناء الوطن الواحد قد اصبح بمثابة الآثار العتيقة في البلدان المتحضرة ، بدليل قضاء التطور الاجتماعي عليه قضاءً مبرماً . واذا كانت بعض البلدان التي تتظاهر بالتقدمية لا تزال تحافظ على مبدأ الطائفية ، فسببه ان التقدمية الحقيقية لم تسر في عروقها بل لا تزال ستاراً لدعايتها الخارجية والامل بزوالها معقود على همة شبان العصر المثقفين ثقافة صحيحة .

في الثامن من تشرين الاول سنة ١٩١٨ غادرت البترون العزيزة وسط ما لم انساه من عواطف اهلها الكرام وجئت بيروت عاصمة الحضارة اللبنانية السورية ، وحللت ضيفاً

على مطرانها الارثوذكسي الحبر العلامة جراسيموس مسرة بناءً على سابق دعوته . فشملني بعطفه ولطفه ، مكرراً امام جمهور ابنائه في بيروت ولبنان ما لقيه في الكوره من اصدقائه الاوفياء وابنائه الروحيين البررة .

كانت بيروت التي احرزت في بدء الاحتلال الفرنسي صفة عاصمة المنطقة الغربية من سورية ، تزدحم بالجماهير من مدنيين وعسكريين والابتسامة تعلو وجوههم . امـــا اللبنانيون فكانوا في فرحة عيدهم الاكبر ، عيد الامل بلبنـــان الكبير واستقلاله بمعاونة الحلفاء ولا سيما فرنسا صديقتهم القديمة ، فعدت بالذكرى الى آخر حكام عهد استقلالهم الاداري اوهانس باشا قيومجيان ، وقد تحقق ما سبق فأوضحه لي سنة ١٩١٥ قبيل استقالته عن رأيه بمصير الدولة العثمانية بالنسبة لهذه البلاد .

ان الاحداث الحربية الاخيرة التي سبقت هذا الاحتلال وادت الى ظفر الحلفـــاء النهائي سيجد القارىء موجزها في ابحاث الفصل التالي .

الفصل العاشر

انتهاء الحرب وتوقيع الهدنة والجلاء عن سوريا

الجبهات الاوربية

الجبهة الغربية — في ١٨ تموز سنة ١٩١٨ بدأت الجيوش الحليفة الفرنسية والانكليزية والاميركية هجومها على القوات الالمانية المعسكرة في الجبهة الفرنسية . وفي معركة دعيت معركة فوش نسبة الى كبير قادة جيوش فرنسا والحلفاء ، تراجع الالمان مكتفين بخطة الدفاع حتى وصلوا بتراجعهم الى حوض نهر الراين حيث تقوم مراكز الصناعة والتعدين الالمانية الكثيرة . حينئذ اخذت طلائع النصر ترافق الجيوش الحليفة بينما يرتد الالمان الى حدود بلادهم مما اضطرهم اخيراً في الرابع من تشرين الاول الى طلب الهدنة والتوقف عن القتال وقد تأخر الحلفاء في الجواب على طلبهم بانتظار كلمة الولايات المتحدة الاميركية وقد وافقت اخيراً على الهدنة بعد ان اضافت قيداً احترازياً يتعلق بحرية الملاحة ووقع الفريقان على الشروط في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ وأصبح هذا التاريخ عيداً قومياً عند الظافرين .

الجبهة الشرقية — لم يستطع جيش اوستريا والمجر الصمود في وجه هجمات القوات الروسية المتواصلة فجلا عن غاليسيا و بولونيا ولم يحل دون استمرار جلائه سوى اقدام حلفائه الالمان لنجدته وقيام الثورة في روسيا على القيصرية وقد ادت الى تنازل القيصر نيقولا الثاني عن العرش في ١ ، ١٤ اذار سنة ١٩١٧ ثم اعلنت الجمهورية السوفياتية في ٧ تشرين الثاني

من السنة عينها برئاسة الزعيم الشيوعي لينين فتوصل في الحادي والعشرين من الشهر نفسه الى عقد هدنة مع امبراطوريات اوربا الوسطى تلاها عقد معاهدة برست – ليتوفسك في ٣ اذار سنة ١٩١٨ .

الجبهة الجنوبية الشرقية – اعقب التراجع النمساوي المجري السابق ذكره تراجع نمساوي من الجهة المقابلة امام هجوم الجيش الايطالي واشتد ضغط القوات الفرنسية والبريطانية الموجودة في ساحل مكدونيا واستعادت القوات الصربية نشاطها ودخلت اليونان الحرب الى جانبها . بعد كل ذلك تجلت طلائع النصر امام الحلفاء فغلب الجيش البلغاري على امره في آخر معركة حربية خاضها وتراجع الى عاصمة بلاده في ١٥ ايلول سنة ١٩١٨ ووقعت حكومته الهدنة في التاسع والعشرين من الشهر المذكور .

وفي الوقت نفسه جلت جيوش اوستريا والمجر عن بوسنه وهرسك وعن دالماسيا ثم عن كل ارض البلقان وانتهى بها الامر الى تشتت شمل امبراطورية اوستريا والمجر المتحدتين والى فك اتحادهما فأصبحتا دولتين ، دولة النمسا (اوستريا) ، ودولة المجر وألقت كل منهما سلاحها مكتفية بما اصابها من هزائم الحرب ، ونالت صربيا في نتيجة ذلك حصة الاسد ضامة الى اراضيها الجبل الاسود وما تخلت عنه اوستريا والمجر من مقاطعات وأصبحت اكبر دولة في تلك القطعة الجنوبية الشرقية من اوربا وازداد عدد سكانها اربعة اضعاف ما كان عليه .

توسعت حدود اليونان في هذا القسم الاوربي شمالاً وشرقاً واستولت فوق ذلك على بعض جزر الارخبيل في بحر ايجه .

لم يبق للدولة العثمانية في ذلك القسم الاوربي من بلاد الروم (روم ايلي) سوى العاصمة اسطنبول وملحقات ولايتها المركزية وادرنه مركز الولاية المعروفة باسمها وملحقاتها الجنوبية الشرقية حتى المضيقين وبحر مرمره . اما مصير حدودها الواسعة في القارات الثلاث فيجده القارئ في البحث التالي المتعلق بالهدنة مع الدولة العثمانية .

الهدنه مع الدولة العثمانية

غلب الجيش التركي على امره في فلسطين والاردن وسورية امام زحف الجيوش الحليفة البريطانية والعربية ، وجلا آخر جندي تركي عن دمشق في ٢٦ ايلول ١٩١٨

متراجعاً نحو الشمال وتم انسحاب الجيش التركي عن سورية نهائياً في ١٢ تشرين الثاني من العام نفسه تتعقبه الجيوش البريطانية والفرنسية حتى داخل كيليكيه ، واحتلت بعض مدنها ، كما تقدمت من ناحية ثانية الجيوش البريطانية في العراق باتجاه الشمال حتى الموصل ، وهكذا انقطعت كل صلة لدولة آل عثمان بالبلاد العربية .

اما صلاتها بالروملي فكانت ، كما اشير اليه في البحث السابق ، هدفاً لحرب دامية حول مضيق الدردنيل وفي شبه جزيرة كليبولي والبلقان ، بين جيشها وجيوش اعدائها المتحالفين ولاسيما فرنسا وبريطانيا اللتين استولتا على سلانيك وغيرها من المدن وعلى معظم جزر بحر ايجه (دوديكانيز) . وبعد ان طلبت المانيا الهدنة وتبعتها النمسا والمجر وسبقتهما بلغاريا الى الصلح بعد ان انسحب جيشها الى عاصمته ، بعد كل ذلك لم تر الدولة العثمانية بداً من طلب متاركة الحرب . فارسلت في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٨ الجنرال الانكليزي تاوسنت الموجود اسيراً لديها في العاصمة اسطنبول ، الى قيادة الاسطول البريطاني في البحر المتوسط للاتفاق على الهدنة. فقبلت القيادة المشار اليها العرض دون ادنى تردد ، ودعا الاميرال فالتروبه ممثلي تركيا الى مرفأ مندروس . فجاؤوا الى ازمير ومنها ابحروا الى جزيرة ليمنى ، وجرت المفاوضة في مندروس حيث وقع الفريقان على صك الهدنة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩١٨ وقد تضمن المواد الآتية :

١ ـــ فتح مضيقي جناق قلعه والبوسفور وتسليم الاستحكامات الى الحلفاء .

٢ ـــ يبقى الاسطول التركي راسياً في الميناء بتسلم الحلفاء .

٣ ـــ اعلام الحلفاء عن مواقع الالغام الموجودة في المضايق والبحار .

٤ ـــ يفيد الحلفاء من جميع الموانئ والخطوط الحديدية الكائنة تحت الادارة العثمانية .

٥ ـــ توضع البرقيات اللاسلكية وأدواتها تحت مراقبة الحلفاء .

٦ ـــ يسرح الجيش التركي فوراً وتوضع اسلحته تحت مراقبة الحلفاء مع الاحتفاظ بعدد منه يقرره الحلفاء .

٧ ـــ يحق للحلفاء اتخاذ كل خطة يرونها ، فيما يتعلق بسوق الجيش ، لتأمين سلامتهم .

٨ ـــ يشغل الحلفاء انفاق طوروس .

٩ ـــ جلاء الترك عن الحدود الايرانية والقوقازية .

١٠ ـــ تسلم جميع المستودعات في الحجاز وعسير واليمن وسورية وبلاد ما بين النهرين الى الحلفاء وتسحب القطع العسكرية من كيليكية باستثناء ما يراه الحلفاء لازماً لتقرير الامن .

١١ ــ اطاعة الاوامر التي يصدرها الحلفاء بشأن السلاح والتجهيزات والوسائط الفنية العائدة الى الجيش المقتضى تسريحه .

١٢ ــ حال وقوع اضطراب واختلال في الولايات الارمنية الست يحق للحلفاء اشغال اية نقطة منها .

تلك هي اهم مواد صك الهدنة الموقعة من الفريقين وقد وصفها احرار الترك بأنها استسلام من الحكومة التركية استسلاماً تاماً ولا سيما فيما يتعلق باسطنبول والمضايق والسلاح والحدود مع القوقاز وسورية والعراق . ونسبوا قبول الهدنة على هذا الوجه الى ضعف رجال الحكومة العثمانية من كبيرهم الى صغيرهم .

الفصل الحادي عشر

تصفية الحساب مع العهد العثماني

الحساب الخاص

اما وقد انتهى العهد العثماني وغادرنا بجيشه وحكامه ورجالـه الاتراك شمالاً باتجاه كيليكيا والاناضول ، وأصبحنا مستقلين في كل من سورية ولبنان بفضل حقنا الطبيعي وجهادنا وانتصارنا مع الحلفاء في نتيجة الحرب العالمية وما قام به مجاهدونا تحت راية الحسين امير مكة المكرمة الذي نودي به ملكاً على الحجاز الشريف وغدت الدولة العثمانيـة (تركيا) ككل دولة اجنبية غريبة عنا فوددت ان أؤدي الحساب عن سابق صلتي بها :

لم اشعر اثناء دراستي في معاهد الدولة ولا اثناء ممارستي الوظائف في محاكمها ودوائرها بأي فرق في الحقوق والواجبات بيني وبين غيري من الموظفين . وقد تجلت هذه المساواة في الحوادث التي مرت بي في اللاذقية ويافا والقدس وطرابلس وجبل لبنان ، ورأيت في كل منها عدل الحكومة ومساواتها بين جميع رعاياها بدون تفريق بين عناصرهم ومعتقداتهم. وهل من دليل على ذلك ابلغ من انصاف رجالها في الوزارة والادارة ، النائب العام العربي المسيحي في طرابلس ضد خصمه المتصرف التركي المسلم فاحتفظت بالاول ونبذت الثاني وساقته الى القضاء ، فهل نرى اعظم من هذه العدالة بين الاوربيين الذين يتسابقون الى كسب ودنا ومحالفتنا ؟

اما ما تحملته اثناء الحرب من بعض رجال السلطة العسكرية من عناء وتضحية في سبيل الواجب ازاء جبل لبنان وحاكمه اوهانس باشا قيومجيان ، فلا يتجاوز حد النضال الفكري وخسارة الوظيفة وراتبها زمناً يسيراً ، وهـذا لعمر الحق لا يستحق الذكر بازاء

تصادم مصالح الدولة في نظر القائمين عليها ومصلحة جبل لبنان التي تشترك بالاشراف عليها الدول الاوربية العظمى.

وحين كان كبار الرجال من موظفين ووجهاء ينفون الى بلاد الاناضول لمجرد الاشتباه في اخلاصهم للدولة ، ظللت في جبل لبنان وساحله اتنقل بين بيروت وطرابلس دون ان اسأل عن الوثيقة التي تعفيني من الخدمة العسكرية .

كنت ادافع عن رأيي وعقيدتي المخالفين احياناً لآراء اولي الامر الترك دون ان اتعرض يوماً لغضبهم ونقمتهم ، كما دافعت عن لبنان وحاكمه اثناء مقابلتي القائد الاعلى جمال باشا بملء الحرية والصراحة ، يعود الفضل في جميع ذلك الى ثقة اولي الامر باخلاصي للدولة ، وقد ساعدني على كسبها انتفاء كل صلة بيني وبين ممثلي السياسة الاجنبية غير صلة التعارف ومقتضيات الحياة الاجتماعية .

ولما كان الخير والشر يتنازعان الغلبة في كل زمان ومكان ، كان حظي بحمد الله موفقاً الى الخير منذ اختياري الوظيفة في دوائر الحكومة مسلكاً ، شأن كل من ينصرف الى اتمام واجباته في سبيل امته ووطنه ، دون اكتراث بالمادة الا بقدر ما هو ضروري منها للحياة . وهذا قد ضمنه راتب الوظيفة التي لازمتها في معظم ادوار حياتي .

ولما كنت والحالة هذه مديناً لاساتذتي ورؤسائي المسلكيين ومن عاشرت وخبرت من رجال الدولة العثمانية ، بنجاحي في دراستي وثقافتي وخبرتي في القضاء والادارة وارتياحي لما لقيت منهم في حياتي الخاصة من لطف وحسن معاشرة وفي حياة الوظيفة من عطف وثقة واعتبار مما جعلني ممتعاً على الدوام بحرية الفكر وابداء الرأي، فقد كنت بمقابل هذا الدين الذي ترتب علي من جراء ما ذكرته مخلصاً للدولة ، قائماً بواجب وظيفتي في متنوع درجاتها وانواعها بكل جد وغيرة ونزاهة . وفي نتيجة تصفية هذا الحساب الخاص اكون قد وفيت ديني محتفظاً بذكر الجميل ومشيراً في كل مناسبة الى الصواب والخطأ خدمة لراحة الضمير والحقيقة والتاريخ..

الحساب العام

ان اطرائي الدولة العثمانية على الوجه المذكور في الحساب الخاص ، لا يحول دون بيان رأيي في سياستها وادارتها العامة بايجاز ، مع اعترافي بضيق نطاق اختباري في هذا الشأن .

ولست ارى موجباً لبحث العهود المظلمة التي مرت بها الدولة العثمانية في دورها الثاني قبل التنظيمات الخيرية ، وما كان يجري في الولايات تبعاً لموقف العاصمة ، ولا سيما الولايات النائية عنها ، من اهمال ومظالم ، فقد مر مثلها على معظم الدول والامم زمن انحطاطها خلقياً واجتماعياً ، اما في الدور الثالث ، دور التنظيم ، بعد سنة ١٨٦٠ ، فقد اقتنع ولاة الامور بما انتجت العهود الماضية من اضرار وتدمير في كيان الدولة والامة ، فعمدوا الى الاصلاح وتنفيذ التنظيمات الخيرية التي اعلنت في عهد السلطان عبد المجيد ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر . لذلك كله اقصر هذا البحث على نقد الادوار الاخيرة من حكم الدولة العثمانية :

١ — بعد اعلان التنظيمات الخيرية وتطبيقها والافادة من التطور الاوربي وانظمته ولا سيما الفرنسية منها ، بعد كل هذا برزت المساواة بين مختلف العناصر العثمانية في الحقوق والواجبات والوصول الى اعلى مناصب الدولة ، باستثناء منصب الصدارة العظمى ونظارة الداخلية وغيرها من المناصب الحساسة التي اختص بها التركي الاصيل او الذي استترك من ابناء دينه ومذهبه ، باعتباره هو العنصر الحاكم منذ تأسيس الدولة العثمانية ، وقد احرز سلاطينها المطلقو التصرف شرف الخلافة الاسلامية بعد ان تخلى عنها الخليفة العباسي .

٢ — كانت الدولة العثمانية معدودة ، بالنسبة الى معظم الدول الاوربية ، شبه متأخرة ، بالرغم من غابر فتوحاتها ونهوض فئة من ابنائها ، قبل اعلان الدستور (١٩٠٨) وبعده ، احرزت قسطاً وافراً من العلوم العالية في العاصمة وجامعات اوربا وكليات بيروت وبعض الولايات ، وازدانت بحياة اجتماعية راقية . الا ان هذه الفئة ، مع من ردفها من خريجي المدارس الثانوية والابتدائية بالاضافة الى القسم العريق في حضارته الاصلية ، لا تتجاوز عشر السكان ، فبقي تسعة اعشارهم في جهل دامس .

٣ — كانت الحالة الصحية العامة غير مستوفية الشروط في الارياف وبعض المدن . فبينما كان في كل قرية من قرى جبل لبنان المتمتع باستقلاله الاداري ، طبيب او اكثر من بنيها ، كانت الارياف في معظم الولايات محرومة الا من طبيب واحد وصيدلية واحدة صغيرة في مركز القضاء وبعض مراكز النواحي (المديريات) .

٤ — كانت الدولة فقيرة بصناعتها فتراها بحاجة مستمرة الى سد حاجاتها حكومةً وشعباً من اوربا ، مما اوقعها في عجز مالي لم تستطع التخلص منه ، حتى ان رواتب موظفيها

خارج العاصمة ، في العهد الحميدي وما قبله ، لم تصرف اليهم بانتظام ، مما ساعد على انتشار الرشوة واضطراب حبل الامن في كثير من انحاء الولايات ، رغم ما تميز به بعض الحكام والقضاة من عدل ونزاهة وخلق عالٍ ، كما اشير الى ذلك في محله

٥ ــ كان المفروض بعد كل ذلك ان تعنى الدولة بأمور الزراعة وتنشيط الزراع مالياً وفنياً ، ولكنها اكتفت في هذا الشأن بقليل من المدارس الزراعية ، واسست المصارف لاقراض الزراع ، كبيرهم وصغيرهم ، بقسم ضئيل وفائدة لا تتجاوز ستة بالمئة .

اما طرق المواصلات المعبدة بين القرى والمدن ، فظلت بحكم المفقودة ، مما اضاع قسماً كبيراً من جهود الزراع . فلا عجب بعد هـــذا الاهمال على سطح الارض ان نرى الدولة عاجزة عن تحرير الكنوز والمعادن على انواعها الدفينة في ارضها البكر ، ومن اهمها النفط وقد اخرجه الاجنبي الى الوجود في العراق والكويت والحجاز بعد ان تحررت البلاد العربية من حكم الدولة العثمانية .

٦ ــ ظلت الدولة حتى بعد اعلان الدستور متمسكة بالمركزية الضيقة ، وقاومت فكرة توسيع صلاحيات الولايات التي اعتنقها طلاب الاصلاح الاداري واعلنوها بلسان نوابهم وأعيانهم ونخبة ممتازة من رجالاتهم ، فكان نصيب معظمهم القتل والحبس والتشريد .

٧ ــ كان من حسنات العهد الدستوري ان برز الاخاء بين مختلف العناصر العثمانية من دينية وعرقية ، وظهرت الكفاءات واسندت الوظائف العامة الى اهلها ، ولم يبق اثر للرشوة في معظم دوائر الدولة في العاصمة والولايات . وظلت البلاد على هذه الحال حتى دخول الدولة غمار الحرب العالمية ، فكانت الادارة محكاً للرجال يعرف به الصالح من الطالح. ومن هذا القبيل ما شاع وملأ الاسماع عن متاجرة كبار ذوي الشأن في سورية وبيروت ولبنان بقوت الشعب وسائر لوازم الجيش ، ومع ذلك فقد سلم غيرهم من هذه الشائعات والشبهات ، اذكر منهم على سبيل المثال اسماعيل حقي بك ، آخر والٍ على بيروت ، وسلفه عزمي بك ، فقد غـــادرا مركز وظيفتهما نظيفي اليد سليمين من كل شك في حسن سيرتهما .

اما الجديرون بالمقام الأول في سلسلة مراتب المزايا العالية ، من علم وفضل ، وعمل بصدق واخلاص وعزم لا يعتريه ملل ، وترفع عن المادة وانكار الذات لمجد الله وخير الوطن ، فقليل عددهم في كل زمان ومكان ، حتى بين الأمم التي قطعت شوطاً بعيداً في عالم الحضارة . ومع ذلك فان الدولة العثمانية لم تحرم من امثال هؤلاء الافذاذ ، وقد

وردت فيما سبق من الابحاث اسماء بعض من خبرته منهم وعرفته حق المعرفة . على اني لا ارى مجالاً للتوسع في هذا الشأن في بيان كل مـا حدث في الدولة العثمانية من خير وشر ونهوض وجمود في مختلف العهود ، لاني لا اكتب تاريخاً عاماً عن الدولة العثمانية او عن سورية ولبنان ، بل اقتصرت ، بعد نبذة من التاريخ ، عـلى تدوين ما خبرته بنفسي وتحققته في فترة من الزمن هي فترة حياتي في الوظيفة ، متوخياً خدمة الحقيقة والجيل الجديد.

٨ ــ بعد ان اتيت على ذكر بعض حسنات الدستور واثنيت على الذين قاموا باعلانه وتطبيقه ، وفي مقدمتهم اركان حزب الاتحـاد والترقي ، لا ارى بدأ من نقد حكومتهم واعلان فادح خطإها في امرين يغنيان عن ذكر باقي الاخطاء :

اولهما ــ كان السلطان عبد الحميد الثاني ، قبل اعلان الدستور ، يتجنب الحرب لعلمه بما جرته على بلاده من اخطار وويلات ، وقد امتاز باتباعه سياسة خارجية مثلى وقف بها على قدر الامكان في وجه اطماع الدول الاوربيـة العظمى في كثير من اجزاء مملكته . ولما وقعت الحرب العظمى بين تلك الدول ، لم يكن للدولة العثمانية ادنى نفع او موجب لخوض غمارها الى جانب فريق ضد الآخر ، وهي تعرف ان حدودها البرية والبحرية معرضة لهجمات العدو . وقد فطن الى هذا الامر العلماء الاعـلام ، المشهود لهم بالخبرة وحسن التفكير والسياسة والنزاهة المجردة عن كل شائبة ، وهم من اعاظم اركان الحكومة ، وفي طليعتهم شيخ الاسلام خيري افندي ، ووزير الزراعة سليمان افندي البستاني ، ووزير البرق والبريد اوسقان افندي ، الذين آثروا الاستقالة من مناصبهم . اما اصرار مجلس الوكلاء على دخول الحرب ، نزولاً عند رأي انور باشا وزير الحربية ونائب القائد الاعلى للجيش ، فكان من جراء ذلك النتيجة المعلومة ، التي تعتبر كارثـة على الدولة العثمانية وعلى الامة التركية قبل سواها .

والأمر الثاني ــ اذا حاولنا ان ننظر من زاوية الحكام العثمانيين انفسهم ، الى ما قام به بعض العرب ، ولا سيما طلاب الاصلاح ، داخل البلاد من مجاهرة بطلب الاستقلال الاداري ، دون الاتيان بأي عمل عنيف ، مع اذعانهم بعـد ذلك الى السكوت وقبول بعضهم الوظائف الحكومية ، فما هو الداعي السياسي لاعدامهم ، ناهيك عن الحجج القانونية ؟ وهل أتى ذلك التدبير الظالم بنتيجـة على الدولة العثمانية سوى التفريق بين عنصرين قويين قامت على اتحادهما عظمة السلطنة والخلافة ، وهما العرب والترك ؟ وقد

اشرت فيما سبق من ابحاث الى انتقاد بعض عظماء الترك خطة جمال باشا الرعناء ومن وافقه عليها من رجال الدولة ، في العاصمة وخارجها .

ومثل هذا الانتقاد يتردد على ألسنة الكثيرين فيما يتعلق باضطهاد الارمن في الاناضول ، لمجرد قيام فريق منهم بطلب الاستقلال واختصامهم مع جيرانهم الاكراد . فلم تكتف الحكومة بتأديب المعتدين بل عمدت الى الانتقام مما أدى الى قتـل الرجال من الارمن وتشريد نسائهم وأطفالهم وشيوخهم في صحارى العذاب ، الى ان وصلوا الى سورية حيث لقوا كل ما يوجبه الاخاء الانساني من عطف وعناية قضى بهما الخلق العربي[1] .

ختام بحث الحساب العام

وفي ختام هذا البحث ، أشهد امام الله والناس بأن الدولة العثمانية في عهديها الحميدي والدستوري لم تحرم من عظماء في السياسة والادارة والقضاء قاموا بواجباتهم بكل صدق وغيرة واخلاص ، على احسن ما ينتظر من ارقى الدول الاوربية . ولكن الكرام قليل واكثرية القائمين على امور الدولة العثمانية ألحقوا بها وصمة العار وساقوها في نهاية

---

١) وفيما يلي نص العهد الذي اصدره الحسين بن علي سنة ١٩١٧ ، نقلاً عن صورته المحفوظة في مركز الاسقفية الأرمنية بدمشق :

من الحسين بن علي ملك البلاد العربية الى الامراء الاجلاء الامير فيصل والامير عبدالعزيز. الجرباء ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فقد صدرت الاحرف من ام القرى بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٣٣٦ ، نحمد الله الذي لا اله الآ هو ، وان المرغوب بتحريره ، المحافظة على كل من تخلف في اطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم من الطائفة اليعقوبية الارمنية لكي تساعدوهم على كل امورهم وتحافظوا عليهم كما تحافظون على نفوسكم وأموالكم وأبنائكم وتسهلوا كل ما يحتاجون اليه في ظعنهم واقامتهم فانهم اهل ذمة المسلمين والذين قال فيهم ، صلوات الله عليه وسلامه : « من اخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يوم القيامة » . هذا من اهم ما اكلفكم به وانتظره من همتكم وشيمكم والله يتولانا واياكم بتوفيقه والسلام عليكم .

عن ام القرى في ١٨ رجب سنة ١٣٣٦
الختم : الحسين بن علي
ملك العرب .

الأمر الى الزوال من الوجود وتقلص العنصر التركي الحاكم حتى اقتصر على الاناضول واستقلت العناصر الاخرى ، كل في بلده ، شاكراً الله سبحانه وتعالى ، معتبراً ما حل به من كوارث وضحى به من ارواح ، جهاداً في سبيل الحرية والأمان والاستقلال .

تصفية الحساب مع لبنان

استناداً الى ما سمعته من حديث اللبنانيين عن سيرة حكام جبل لبنان الثمانية بالاضافة الى ما تحققته بنفسي في شخصية آخرهم اوهانس باشا قيومجيان ، استطيع الاشادة بصفة النزاهة والاخلاص التي شملت عهد كل منهم عدا واحد ، انتشرت الرشوة في عهده بسبب تدخل صهره في شؤون الحكومة واتفاقه مع كبار المديرين على سلب عشاق الوظائف وذوي المصالح ما تيسر من اموالهم ، كما اشير الى ذلك في محله .

اما الموظفون اللبنانيون ، من كبيرهم الى صغيرهم ، فقد اتصف معظمهم بالترفع عن قبول الرشوة ولم يتهافتوا على طلب الوظائف طمعاً براتبها او استغلال نفوذها بل احرازاً لشرف الانتظام في سلك رجال الحكم والادارة والوجاهة . لذلك لم يخطر ببال احد في كل ما مضى من الزمن ، الا قليلاً جداً ، سؤال الموظف مهما علا شأنه : « من اين لك هذا ؟ »

وهكذا ظل الجبل الاشم ، طول مدة استقلاله على مقتضى نظامه الخاص ، سعيداً ومحظوظاً بحكامه ، معززاً وفخوراً بأبنائه ونشاطهم وجهودهم ورقيهم في مختلف نواحي الحياة الكريمة . فلا عجب بعد ذلك اذا تردد على مر الزمان القول المأثور : « سعيد من له مرقد عنزة في جبل لبنان » ، واذا تساءل المرء بعد انقضاء ذلك العهد «اين الوفاء ؟». اجيب :

كان اوهانس باشا قيومجيان ، آخر حكام جبل لبنان على مقتضى نظامه الخاص ، قد فاق جميع من سبقه اخلاصاً للبنان وتضحية في سبيل استقلاله ، وأبت نفسه الكبيرة ان يكون آلة صماء بيد من يريدون القضاء على امتيازه واستقلاله ، فآثر التخلي عن مركزه في هذا السبيل الشريف . وبالرغم من كونه ارمني الجنس ، وقد رأى بأم عينه ما حل ببني قومه من اضطهاد وتقتيل وتشتيت شمل وتبعيد عن الاوطان ، بسبب طلب رؤسائهم استقلال الولايات الارمنية وجهاد بعض شبانهم في هذا السبيل ، فلم يجبن ولم يرضخ للاشارة الواردة اليه من مرجعه العالي ، الصدر الاعظم ، بطلب ارسال قوة من الجيش العثماني الى جبل لبنان ، ورأى في هذا الامر بداية القضاء على استقلاله ، فآثر

الاستقالة من الحاكمية على الحنث بالعهد الذي قطعه على نفسه بالمحافظة على نظام جبل لبنان الخاص باستقلاله الاداري ، ولم يرهب هذا الحاكم الارمني ما يجلبه هذا الموقف من نقمة الجيش عليه . اجل لقد فضل الاستقالة من منصبه العالي بعد ما افرغ كل ما عنده من حجج ومنطق في سبيل الدفاع عن اللبنانيين ، في احرج اوقاتهم وأشد محنتهم ، وقد اجمعت على الاشادة بفضائله كلمة النخبة الممتازة من اللبنانيين ، امثال الامراء توفيق مجيد ارسلان ومالك وفائق شهاب ، والسادة نسيب ومحمود جنبلاط وخليل الخوري والد الشيخ بشاره الخوري ونمر ابي شمعون والد كميل شمعون وجورج صفا ومصطفى العماد وسليم باز وجورج زوين وملحم حمدان وغيرهم ممن ساهموا في الادارة والقضاء آنئذ ، مكررين في كل مناسبة وجوب اقامة تمثالين في لبنان ، احدهما للحاكم اوهانس باشا ، تخليداً لذكرى مآثره المجيدة .

ولكن بعد ان غادر الحاكم المشار اليه لبنان عائداً الى اسطنبول ، واستقل لبنان كبيراً في نهاية الحرب ، لم يرد اسمه بين عشرات الاسماء الجديدة العربية والاجنبية القديمة والحديثة التي اطلقت على شوارع العاصمة اللبنانية ، دع عنك اقامة التمثال .

اما الشعب اللبناني في المدن والقرى ، في الساحل كما في اعالي الجبل ، الشعب الذي لا تستهويه مظاهر المناصب العالية ، فظل على ما فطر وشب عليه من مروءة واخلاق عالية ، وفي مقدمتها حفظ المودة والوفاء وذكر الجميل والحقيقة مهما طال عليها العهد . ولا يزال النشء الجديد من ابنائه يردد بالثناء والتقدير ما سمعه من اوليائه عن جهود الذين خدموا لبنان من حكام ومعاونين امناء ، بكل صدق وقوة عزيمة ونزاهة واخلاص .

لم يزعج الشعب اللبناني ويسلبه الراحة احياناً ، رغم رضائه عن نظامه الاداري الخاص ، سوى انقسامه احزاباً غير منظمة ، يرئس كلاً منها زعيم من زعمائه يستهدف خدمة انصاره اولاً بعد الوصول الى الوظائف الكبرى ، وأهمها في نظرهم وظيفة قائم المقام في القضاء والمدير في الناحية . وقد يقترن هذا الانقسام بعداء حزبي وعائلي يتوارثه الابناء والاحفاد ، دون ان يسلم اولئك الزعماء من الالتجاء الى قناصل الدول الاجنبية وكان اكثرها تدخلاً في شؤون الجبل بحجة الاشراف على تطبيق نظامه فرنسا الحامية التقليدية لحقوق الموارنة والكاثوليك والمتاولة ، ويليها بريطانيا العظمى حامية حقوق الدروز ، وروسيا المدافعة عن حقوق الاورثذكس . بينما كان معظم الحكام العثمانيين الغرباء يحافظون على خطة دولتهم في جبل لبنان ، وهي خطة المحافظة على حقوق جميع اللبنانيين دون ادنى انحياز لطائفة من طوائفه او لزعيم من زعمائه .

الخاتمة

الاحتلال العسكري يرافقه التسابق على كسب الانتداب

لم يكن احتلال الجيش الفرنسي لبنان وكامل المنطقة الغربية من سورية ، واحتلال الجيش البريطاني مع المجاهدين العرب المنطقة الشرقية تحت اشراف القيادة العليا للحلفاء في الشرق الاوسط ، قيادة القائد العام الجنرال اللنبي المقيم في القـــاهرة ، سوى المرحلة الاولى لما تنتظره هذه البلاد وما يحاك لها بين الحلفاء المنتصرين . فقد سبق ان اتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى في ايار سنة ١٩١٦ ، بموجب المعاهدة المعروفـــة باسم ممثليهما سايكس ــ بيكو ، على ان تحتل فرنسا سورية الغربية من الموصل واسكندرونة شمالاً حتى رأس الناقورة جنوباً ، بمقابلة احتلال بريطانيا فلسطين والعراق ، ويقوم العرب بادارة المنطقة الشرقية المؤلفة من حلب وحماه وحمص ودمشق حتى معان ، ريثما يبت في امرها نهائياً .

ولكن مستر ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، اعلن في كانون الاول ١٩١٧ مبادئه الأربعة عشر ومما تضمنته اعطاء الامم المغلوبة على امرها حق تعيين مصيرها واختيارها الحكم الذاتي الذي تريده وتحقيق الاستقلال السياسي لكل من الدول الكبيرة والصغيرة على السواء ، كما اعلن في خطاب القاه في ٢٤ تموز ١٩١٨ ان كل قضية تتعلق بمصير شعب ما ، سياسية كانت او اقتصادية ، يجب ان تحل على اساس قبول ذلك الشعب . واقترح الرئيس الاميركي حلاً وسطاً بين الاستقلال والاستعمار ، هو الانتداب على الشعب الناهض المطالب بالاستقلال ، على ان يختار بنفسه الدولة الاوربية لتكون منتدبةً عليه زمناً ينتهي به الى الاستقلال التام .

وقد قبلت فرنسا وبريطانيا هذا الاقتراح بموجب تصريح مشترك اعلنتاه في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، مما خلد للرئيس المشار اليه في نفوس الشعوب المتهيئة للاستقلال ، المزيد

من المحبة والاجلال ، واعتبرته نصير العدالة وملاذ الاخاء الانساني. لذلك اقتصرت جهود كل من الحليفتين فرنسا وبريطانيا ، في هذا المضمار ، على كسب الانتداب .

كانت فرنسا قوية الامل بالنجاح ، بفضل صلاتها التاريخية مع سورية ولبنان، وقد تأيدت بمعاهد الثقافة الفرنسية وغيرها من المؤسسات الطبية والاقتصادية ، كمد الخطوط الحديدية بين ساحل سورية وداخلها ، بينما كانت بريطانيا تعتمد على اعلان رغبتها في وحدة البلاد العربية القائمة على طريق الهند ، اهم مستعمراتها .

كان اول مفوض سام جاء بيروت في اثر الاحتـــلال الفرنسي هو مسيو جورج بيكو ، آخر قنصل عام لفرنسا قبل الحرب ؛ كما كان على رأس الحكومة الوطنية في كل من لبنان ومنطقة اللاذقية واسكندرونة ضابط فرنسي ،وفي الاقضية مستشارون عسكريون فرنسيون الى جانب قوام مقام وطنيين ، بالاضافة الى مديرين تحت اشراف مستشارين فرنسيين . ولا عجب في ذلك ، فهو تدبير موقت اقتضته ظروف الاحتلال ، ريثما يبت في امر الانتداب وتتعين الادارة والسياسة نهائياً .

كان ابتهاج اللبنانيين بمقدمة المصير المرتقب عظيماً جداً وبارزاً في اقوالهم وخطبهم وصحفهم وجميع تصرفاتهم ، لم يكدر صفاء هذا الجو سوى ما ظهر من علامات التسابق بين الحليفتين المشار اليهما بواسطة انصارهما ، وهم كثر ، حول كسب الانتداب على سورية ولبنان . فبدا الانقسام في صفوف الشعب وزعمائه ، ولا سيما في مدينتي بيروت وطرابلس ، استعداداً للاستفتاء المنتظر ، بالرغم من كون الاكثريـــة الساحقة في لبنان وجميع المنطقة الغربية ترجح انتداب فرنسا على سواها . وقد اتضح ذلك في السنة الثانية حيث اعلن انتداب فرنسا على لبنان واستمر مدة ربع قرن انتهت بالاستقلال التام الناجز لكل من لبنان وسورية على اساس حكم جمهوري، كما هو مذكور بالتفصيل في الاجزاء المتعاقبة من ذكريات الحكيم .

الفهرس الهجائي

أ

ح

ك

م

ن

هـ

فهرس سلسلة الأبحاث

الفصل العاشر
بيروت والانتخابات النيابية

القسم الثاني
لبنان والحرب العالمية الاولى

الفصل الاول
صلات الدول الكبرى بلبنان قبل الحرب

الفصل الثاني
موقف الدول العثمانية قبل الحرب العالمية الاولى

الفصل الثالث
اعلان الحرب العالمية الاولى وأثره في جو بيروت ولبنان

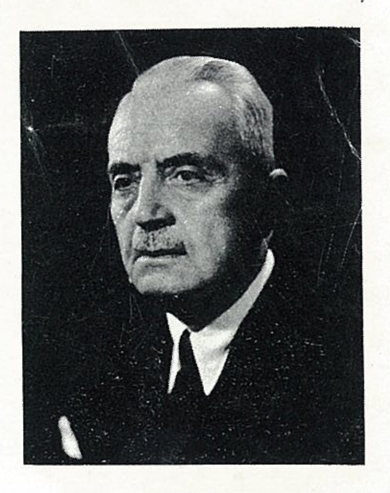
الفصل الرابع
يقظة حاكم جبل لبنان

الفصل الخامس
التحرش بجبل لبنان وحذر العقلاء

القسم الثالث

القضاء على استقلال جبل لبنان وحوادث الارهاب

بيروت ولبنان في عهد آل عثمان



يوسف الحكيم

- ولد في اللاذقية عام ١٨٧٩ .
- عين قاضياً عام ١٩٠٤. ثم تولى رئاسة محكمة التمييز العليا حتى عام ١٩٤٨ .
- دخل الوزارة السورية في بدء عهد الملك فيصل. فكان ثلاث مرات وزيراً للزراعة والتجارة والأشغال العامة ، وثلاث مرات وزيراً للعدل في عهد الانتداب الفرنسي مع الاحتفاظ برئاسة التمييز .

إن مؤلفي التاريخ والحوادث يفترقون عن بعضهم في ما يتوخونه من مؤلفاتهم ، حسب غاية كل منهم . ففريق يتوخى تخليد حقائق قد ينتفع بها الناس ، متعظين بما حوته من خير وشر ، فترجح كفة أهل الخير ويبقى جميل ذكرهم قدوة صالحة لمن يأتي بعدهم . وفريق يتفكه بسرد الحوادث الماضية ، وثالث تسيطر عليه نزعات سياسية أو حزبية أو اجتماعية أو شخصية تجتذبه الى مراميها ، وقد تحيده عن ذكر الحقيقة ناصعة عارية ورابع روائي ينقل الحوادث كما تحلو له فيلبسها الشكل الذي يلائم ذوقه وروايته . وخامس يستهدف مجرد الشهرة أو المنفعة .

والمؤلف ، عند نشر هذه الذكريات التاريخية عن مختلف العهود التي خبرها (العثماني والفيصلي والانتدابي والاستقلالي) قد اختار أن يكون من الفريق الأول ، محتفظاً بذلك ، في أواخر أيامه بما شاب عليه من اخلاص ومبدأ .

ويتضمن هذا الجزء تفصيلاً وافياً عن « بيروت ولبنان في عهد آل عثمان » تبعاً لما جادت به مقتضيات الوظيفة (رئاسة القلم التركي لحكومة جبل لبنان المستقل (ادارياً) من تجارب ومعلومات شملت أحداث الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨ بجلاء الترك ودولتهم العثمانية نهائياً عن سورية ولبنان .